
"مؤثرة، سحرية
ومليئة بالمفاجآت"
س. ج. واطسون
1
صانعة الدمى
جيسي بيرتون
مكتبة ياسمين
ملهمون

جيسي بورتن

صانعة الدُّمى

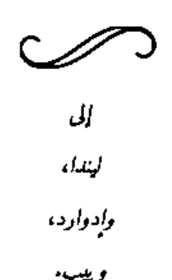
ترجمة: منى فهمي



تليجرام

غواص في بحر الكتب





إلى

ليندا،

وإدوارد،

وبيب.

بيت الدُّمى الخاص بيترونيلا أورتمان،

متحف ريكز، أمستردام





يشير مصطلح الفوك إلى شركة الهند الشرقية الهولندية، المعروفة في اللغة الهولندية باسم فيرعينخدي أوست-إنديسي كومباني (الفوك). تأسست الفوك عام ١٦٠٢م وسيرت مئات السفن التجارية عبر إفريقيا وأوروبا وآسيا والأرخبيل الإندونيسي.

بحلول عام ١٦٦٩م، صارت الفوك تملك ٥٠ ألف موظف و٦٠ شريكاً و١٧ عضواً في مجلس الإدارة. وفي عام ١٦٧١م، وصلت أسهم الفوك في بورصة أمستردام إلى ٥٧٠٪ من قيمتها الاسمية.

ونظراً للحالة الزراعية الجيدة والقوة المالية لمقاطعات هولندا المتحدة، فقد قيل إن موائد فقرائهم كانت أفضل كثيراً من نظرائها في إنجلترا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا. أما موائد الأثرياء فكانت الأفضل على الإطلاق.

اِنْهَبُوا فِضَّةً، اِنْهَبُوا ذَهَبًا،

فَلاَ نِهَايَةَ لِلتُّحَفِ لِلْكَثْرَةِ مِنْ كُلِّ مَتَاعٍ شَهِيٍّ.

سفر ناحوم 2: 9

وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: يَا مُعَلِّمُ، انْظُرْ! مَا هذِهِ الْحِجَارَةُ! وَهذِهِ الأَبْنِيَةُ!

فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَنْظُرُ هذِهِ الأَبْنِيَةَ الْعَظِيمَةَ؟

لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ.

إنجيل مرقس 13: 1-2

(جميع الاقتباسات تأتي من مقاطع محدّدة بالقلم في الكتاب المقدّس في منزل عائلة براندت)

الكنيسة القديمة، أمستردام

الثلاثاء، ١٤ كانون الثاني، ١٦٨٧م



يُفترض أن تكون الجنازة هادئة إذ كان المُتوفّ بلا أصدقاء، لكن الكلمات كالماء في أمستردام، تُغرق الآذان وتبدأ النَّخر، ويصبح ركن الكنيسة الشرقي مزدحماً. شاهدت المنظر بِمَلَلٍ من مكمنها في مقاعد الجوقة، والعمّال وزوجاتهم يقتربون من اللحد المفتوح كالنمل نحو العسل. ولا يلبث أن ينضم إليهم موظفو الفوك وقباطنة السفن، وأعضاء مجلس الإدارة، والخبّازون. وهو مازال يحتمر القبعة المريضة. حاولت أن تشعر بالشفقة نحوه، خلافاً للكراهية، التي يمكن تحجيمها وإزاحتها.

يرتفع السقف المطلي للكنيسة، الشيء الوحيد الذي لم يقم المُجددون بهدمه، فوقهم مثل هيكل مقلوب لسفينة مذهلة. إنه مرآة لروح المدينة؛ فعلى عوارضه القديمة، رُسم يسوع في يوم الحساب يحمل سيفاً وزنبقة، وسفينة ذهبية تشق الأمواج، والعذراء تجلس فوق هلال. وفيما تطوي المتكأ القديم المجاور، تمرّ أصابعها على المقولة المحفورة في الخشب الظاهر. إنه نقش بارز لرجل يتأبط صُرّة نقود، قد تغضّن وجهه بتعابير الألم. فكِّر، ما الذي تغير؟

وبعد،

حتى الموتى حاضرون اليوم، ألواح القبور تواري جثامين فوق جثامين، وعظام فوق تراب، مكوَّمة تحت أقدام المُعزِّين. أسفل تلك البلاطات عظام فك لامرأة، وتجويف حوض لتاجر، وهيكل صدر لنبيل سمين. في الأسفل جثامين صغيرة،

بعضها لا يزيد طولها على رغيف خبز. لاحظت كيف يشيح الناس بأعينهم عن مثل هذا الحزن المكثف، ويبتعدون عن أي قبر صغير يرونه، فلا يسعها أن تلومهم.

في وسط الجموع، لمحت المرأة ما جاءت من أجله. تبدو الفتاة منهكة، مطبوعة بالحزن، واقفة إلى جانب حفرة في الأرض، لا تكاد تلتفتُ إلى المواطنين الذين جاءوا للمشاهدة. يسير حاملو النعش في ممشى الكنيسة، والتابوت على أكتافهم ثابت كحقيبة لآلة عود. قد يُخيَّل للمرء من النظرات التي تعلو وجوههم، أن بضعة منهم يضمر تحفظات حول هذه الجنازة. خمنت، لا بد أنه بيليكورني من فعلها. السم القديم نفسه في الآذان.

يحكم مواكب كهذه في العادة نظام متشدد، فيكون المحافظون في المقدمة والعامة بعدهم، لكن لا أحد في هذا اليوم اهتم بذلك. تراءى للمرأة أن حشداً مثله لم يحدث من قبل في أي من بيوت الرب في محيط هذه المدينة. أحبت طبيعته النادرة والجريئة. إن أمستردام، المغامرة، تتوق الآن إلى اليقين، ممر مرتَّب في الحياة، يحمي أموالها بالطاعة المملة. فكَّرت، كان يجدر بي أن أرحل قبل اليوم. بات الموت قريباً جداً.

تفرقت الدائرة وأنزل حاملو النعش التابوت في الحفرة من دون مراسم، تحركت الفتاة نحو الحافة. ورمت باقة زهور في الظلام، وفي اللحظة التي رفرف طائر زرزور بجناحيه، متسلقاً جدار الكنيسة المكلَّس. استدارت الرؤوس، منصرفة بانتباهها إليها، لكن الفتاة و المرأة اللتين كانتا تجلسان في مقاعد الجوقة، لم تجفلا، وظلتا تشاهدان قوس البتلات وبيليكورني ينشد صلاته الأخيرة.

وبينما يدفع حاملو النعش البلاطة الجديدة إلى مكانها، جثت الخادم على حافة الظلام المتلاشي. وبدأت في النحيب، وعندما لم تحاول الفتاة المنهكة أن تكبح هذه الدموع المتزايدة، علت التعليقات التي عدّت تصرفها هذا نقصاً في الكرامة والانضباط. وقفت امرأتان، ترتديان الحرير، قرب مقاعد الجوقة وهما تتبادلان الهمسات. تمتمت إحداهما:

- سلوكيات كهذه هي سبب وجودنا هنا في المقام الأول.

أجابت صديقتها:

- إذا كانوا يفعلون هكذا في الأماكن العامة، فلا بد أنهم يتصرفون كحيوانات الغابة في المنزل.

- صدقتِ. لكنني كنتُ سأضحي بأي شيء لأكون ذبابة على جدار منزلهم.

كتمتا ضحكة، وفي مقاعد الجوقة لاحظت المرأة كيف ابيضَّ مفصل إصبعها فوق المتّكأ المنقوش بالعبر.

مع إغلاق أرض الكنيسة من جديد، انحلّت الحلقة، وأدركت الفتاة، التي بدت مثل قديس من زجاج ملوّن هبط من نافذة حقيقة المُنافقين غير المدعوِّين، الذين بدؤوا في الثرثرة وهم يغادرون إلى شوارع المدينة المتعرِّجة، ومن بعدهم أخيراً الفتاة وخادمتها، اللتان تتحركان في صمت، وإحداهما تتأبط ذراع الأخرى على ممشى الكنيسة إلى خارجها. سيعود معظم الرجال إلى مكاتبهم ومتاجرهم، لأن دوران عجلة أمستردام يتطلب عملاً مستمراً. وكما يقول المثل، بالكدح نحصل على المجد، وبالكسل نغرق في البحر. وهذه الأيام، يبدو وكأن منسوب المياه يزداد ارتفاعاً.

حالما خلت الكنيسة، خرجت المرأة من مقاعد الجوقة، مسرعة، غير راغبة في أن يراها أحد. "لا شيء يبقى على حاله" همست. عندما وجدت غطاء القبر الذي وُضع حديثاً، قد أنجز على عجلة، والجرانيت أكثر دفئاً من بقية القبور، والكلمات المنقوشة يعلوها التراب. إن جريان هذه الأحداث أمر لا يُصدَّق.

جثت على ركبتيها، وأدخلت يدها في جيبها لتتم ما بدأته. هذه هي صلاتها الخاصة، منزل مصغَّر بحجم يكفي لتضمه في راحة يدها، نُقشت في داخله تسع غرف وخمس تماثيل بشرية، بحرفية شديدة التعقيد، ونسيان تام للزمن. وضعت المرأة بعناية هذا القربان في المكان الذي اعتزمت دائماً أن تضعه فيه، ورسمت الصليب على الجرانيت البارد بأصابعها المتينة.

دفعت باب الكنيسة، تبحث غريزياً عن القبعة العريضة، عن عباءة بيليكوردي، عن النساء في أثواب الحرير. جميعهم ذهبوا، وكانت ستصبح وحيدة في العالم لولا الجلبة التي أحدثها طائر الزرزور المحبوس. إنه وقت الرحيل، ولكن لبرهة أمسكت المرأة باب الطائر. لكنه حينما شعر بفعلتها، رفرف بعيداً خلف المنبر.

أغلقت الباب على جوف الكنيسة البارد، واستدارت لتواجه الشمس، ثم مضت خلال القنوات التي تجري في حلقات إلى البحر. فكرت": أيها الزرزور، إن كنت تظن أن ذلك البناء مكان آمن بالنسبة إليك، فلستُ أنا إذن من يطلق سراحك.

الجزء الأول

منتصف تشرين الأول، ١٦٨٦م

قناة الميرهراخت، أمستردام

لا تَشْتَهِ أطايِبَهُ

لأنَّها خُبْزُ أكاذيبَ.

سفر الأمثال ٢٣: ٣

ظاهر الأشياء

على عتبة منزل عريسها، رفعت نيلا أورتمان مطرقة الباب التي على شكل دولفين ثم تركتها تسقط، مُحرجة من الصوت المكتوم الذي أحدثته. لا أحد يجيب على الرغم من أنّ حضورها مُتوقّع. فقد رُتِّب الموعد مسبقاً وتبودلت الرسائل، بين ورق والدتها الرقيق جداً مقارنة بورق براندت الثمين. فكرت" كلا، ليس استقبالاً جيداً"، نظراً إلى حفل الزواج السريع في الشهر السابق، فلا أكاليل، ولا كأس عروسين، ولا سرير زفاف. وضعت نيلا صندوق متاعها الصغير وقفص عصفورها على العتبة. إنها تعلم أنه سيتعين عليها تجميل هذا في خطابها إلى أمها، عندما تجد طريقها إلى الطابق العلوي، إلى غرفة، إلى طاولة كتابة.

استدارت نيلا إلى القناة بينما تتصاعد ضحكات المراكبية من البناء المقابل. كان صبي نحيل قد ارتطم بامرأة وسلة السمك التي تحملها، وانزلقت سمكة رنكة نصف ميتة على الواجهة العريضة لتنورة البائعة. جفلت نيلا من الصرخة القاسية لصوتها الريفي وهي تصيح: "أحمق! أحمق!" كان الصبي أعمى، وراح يبحث في التراب عن الرنكة الهاربة وكأنها حلية فضية، أصابعه سريعة، لا يحجم عن تحسس ما حوله. ظفر بها، مُقهقهاً، فركض في الشارع بغنيمته، وذراعه الحرة ممدودة ومُستعدة.

كتمت نيلا سرّاً، ومكثت تتنعم بهذا الدفء النادر لتشرين الأول في الوقت المتاح. تُعرف هذه الناحية من الهيرغراخت باسم الجودين بوخت أو المُنعطف الذهبي، إلا أن الامتداد

الواسع صار اليوم بنياً وروتينياً. وفوق القناة التي بلون الوحل، تظهر المنازل مُذهلة للعيان. تثير الإعجاب بتناسقها فوق الماء، فخمة وجميلة، كجواهر ترصّع أبرز مناطق المدينة. وفوق سطوحها، تبذل الطبيعة قصارى جهدها لمواكبة ذلك، فتعكس الغيوم بدرجاتها من ألوان الزعفران والمشمش مغانم الدولة المجيدة.

عادت نيلا إلى الباب، فوجدته الآن مواربا قليلاً. هل كان هكذا من قبل؟ لا يسعها أن تجزم. دفعته، ونظرت في الفراغ بينما يأتيها الهواء البارد من الرخام، ونادت: "يوهانس براندت؟"، وشيء من الذعر. سألت نفسها، هل هذه لعبة؟ سأظل في هذا المكان حتى كانون الثاني. يُرعِش بيبو، ببغاؤها، أطراف ريشه على قضبان القفص، وزقزقته الخافتة لا تبلغ الرخام. حتى القناة التي خلفها الهدوء الآن خلفهما بدت وكأنها تحبس أنفاسها.

تثق نيلا في شيء واحد وهي تمعن النظر أكثر في العتمة. ثمة من يراقبها. هيا، يا نيلا إليزابيث، هكذا تقول لنفسها، وهي تخطو فوق العتبة. هل سيعانقها عريسها، هل سيقبّلها أم يصافحها وكأنما الأمر مجرد صفقة؟ لم يفعل أيّا من هذه الأمور في الحفل، محاطين بعائلتها الصغيرة ولا أحد من عائلته.

ولتُثبت أن بنات الريف أيضاً يعرفن آداب السلوك، تنحني وتخلع حذاءها - أنيق، من الجلد، أفضل ما تملك بالطبع- مع أنها تحار الآن في فهم مقصدهم. الوقار، هكذا قالت والدتها، لكن الوقار مزعج جداً. تضرب الحذاء بالأرض، لعل الصوت يوقظ أحداً، أو ربما يجفله. تمتمت والدتها بالمفرطة في الخيال، نيلا الحالمة. يهبط الحذاء المكتوم في نهاية محبطة وتشعر نيلا

بأنها ليست أكثر من حمقاء.

في الخارج امرأتان تنادي إحداهما على الأخرى. استدارت نيلا، لكنها لم ترَ من خلال الباب المفتوح سوى ظهر امرأة واحدة، من دون قلنسوة، لها شعر ذهبي وقامة طويلة، تبتعد بخطوات واسعة صوب الشمس الغاربة. كان شعر نيلا نفسها قد تشعث في أثناء رحلتها من أسِدلفت، فتسبب النسيم الخفيف في إفلات خصلات منه. وإذا أعادتها إلى مكانها، فإن ذلك سيظهرها بتوتر لن تطيق احتماله، لذا ستتركها تدغدغ وجهها.

- هل سنحظى بحديقة حيوانات؟

أتى الصوت ثابتاً وسريعاً من عتمة البهو. انقبض جلد نيلا، لأن إثبات صحة شكوكها عجزت عن إيقاف القشعريرة. شاهدت شخصاً ينسلُّ من الظل، ويداً ممدودة احتجاجاً أو تحية، لا يمكنها أن تجزم. إنها امرأة، مستقيمة ونحيفة، تتشح بالسواد العميق، وقلنسوتها مُنشّاة ومكويَّة في لون أبيض مثالي، لا تفلت منها خصلة شعر واحدة، وتجلب معها رائحة خفيفة وغريبة من جوزة الطيب. عيناها رماديتان، وفمها مزموم. منذ متى وهي هناك، تراقب؟ يزقزق بيبو مع الحضور الجديد.

تقول نيلا:

- هذا بيبو. ببغائي.

- هكذا أرى. قالت المرأة، وهي ترمقها من أعلى إلى أسفل، أو أسمع. أفهم أنكِ لم تجلبي حيوانات أخرى؟

- أملك كلباً صغيراً، لكنه في المنزل...

- جيد. كان سيحدث فساداً في غرفنا، ويقشِّر الخشب. تلك المخلوقات الصغيرة هي من تملق الفرنسيين والإسبان، عابثة

كأصحابها.

- ويشبهون الفئران أيضاً، هكذا يهتف صوت ثان من مكان ما في البهو.

تجهم وجه المرأة، وأغمضت عينيها لوهلة. أخذت تتأملها نهلا، وهي تتساءل مَنْ أيضاً يراقب هذا اللقاء. فكّرت، لا بد أنني أصغرها بعشرة أعوام، مع أن بشرتها ملساء للغاية. وإذ تحرك المرأة متجاوزة نهلا نحو الباب، كان في حركاتها بهاء، ووعي وتصلُّف. ألقت نظرة راضية موجزة على الحذاء الأنيق عند الباب، ثم حدقت في داخل القفص، شفتاها مزمومتان. كان ريش بيبو قد انتفش من الخوف.

قررت نهلا أن تصرف انتباهها بإمساك يدها في تحية، لكن المرأة أجفلتها اللمسة.

قالت المرأة:

- عظام قوية مقارنة بفتاة في السابعة عشر.

فأجفلت وهي تسحب يدها:

- أدعى نهلا. وأنا في الثامنة عشر.

- أعرف من تكونين.

- اسمي الحقيقي بترونهلا، لكن عائلتي ينادونني...

- قلتِه من قبل.

سألتها نهلا:

- هل أنتِ مديرة المنزل؟ وانبعثت من عتمة الدهليز ضحكة مكتومة. تجاهلت المرأة، وهي ترسل بصرها إلى الغسق اللؤلؤي:

هل يوهانس هنا؟ أنا عروسه. صمتت المرأة، وواصلت نيلا:

لقد وثقنا زواجنا منذ شهر في أسِدلفت." يبدو أنها لا تملك هنا سوى مواصلة الكلام.

- إن شقيقي ليس في المنزل.

"شقيقك؟"

جاءت ضحكة أخرى من داخل الظلام. نظرت المرأة مباشرة في عيني نيلا:

- أنا مارين براندت، قالتها، وكأنما في ذلك كل التفسير لنيلا. قد تكون نظرة مارين قاسية، لكن نيلا تشعر بتراجع الانضباط في صوتها. وتابعت مارين: إنه ليس هنا. ظننا أنه سيكون هنا. لكنه ليس كذلك.

- أين هو إذن؟

عادت مارين تنظر إلى السماء، وتنشر أصابع يدها اليسرى ليتخللها الهواء، ومن العتمة المجاورة للدرج يظهر شخصان، فقالت:

- أوتو.

دنا منهما رجل، فابتلعت نيلا ريقها، وهي تعصر قدميها الباردتين فوق الأرضية.

لأوتو بشرة داكنة، بنية داكنة في كل مكان، رقبته التي تبرز من طوقه، ومعصماه ويداه اللتان تبرزان من كُمّيه ،جميعهم يكتسون بجلد بني داكن لا ينتهي، وجنتاه المرتفعتان، ذقنه، جبينه الواسع، كل شبر. لم تر نيلا في حياتها رجلاً مثله.

بدا على مارين أنها تراقبها لترى ماذا ستفعل. لا تُظهر عينا

أوتو الواسعتان إدراكاً لانبهار نيلا المفضوح. انحنى لها فردت له التحية، وهي تعض على شفتيها إلى أن ذكرها مذاق الدم بأن تهدأ. ترى نيلا كيف تلمع بشرته كجوزة مصقولة، وينبثق شعره الأسود من رأسه. إنه كتلة من الصوف الناعم، وليس مستوياً ومدهناً كبقية الرجال. تقول:

- أنا...

شرع بيبو في الزقزقة، ومد أوتو يديه، وعلى كفيه العريضتين يستقر زوج من القباقيب. قال:

- لقدميكِ.

لهجته أمستردامية - لكنه يلحن الكلمات، فيجعلها دافئة ومائعة. تتناول منه نيلا القبقاب، لمست أصابعها بشرته لمساً طفيفاً، وبخَرَق، وضعت قدميها في الحذاء العالي. إنه كبير جداً، لكنها لا تجرؤ على قول ذلك، وهو على الأقل يرفع باطن قدميها عن الرخام البارد. سوف تحكم ربط الحذاء لاحقاً، في الطابق العلوي - لو قدِّر لها أن تصل إلى هناك، لو سمحوا لها بتجاوز هذا البهو.

- إن أوتو هو وصيف أخي،" قالت مارين، وعيناها ما زالتا ثابتتين على نيلا، وهذه كورنيليا، خادمتنا. سوف تُعنى بك."

تقدمت كورنيليا. هي أكبر قليلاً من نيلا، ربما في العشرين، أو الواحد والعشرين، وأطول قليلاً. رمقتها كورنيليا بابتسامة جافة، وعيناها الزرقاوان تجولان فوق العروس الجديدة، وتريان الرجفة في يدي نيلا. ابتسمت نيلا، مُكتوية بفضول الخادم، وجاهدت لقول أي كلمات شكر جوفاء. هي ممتنة ومُحرجة في الوقت نفسه، لكنّ مارين قاطعتها:

- دعيني آخذكِ إلى الطابق العلوي، سترغبين في رؤية غرفتك.

انبعثت نظرة لهو في عيني كورنيليا، وترددت زقزقة مرحة من القفص أعلى الجدران، وأشارت مارين إلى كورنيليا بحركة من معصمها أن الطائر يجب أن يذهب إلى المطبخ.

احتجت نيلا:

- لكن أبخرة الطهي. فالتفتت إليها مارين، وقال أوتو:

- إن بيبو يحب الضوء.

أخذت كورنيليا القفص، وبدأت في أرجحته مثل دلو، فقالت نيلا:

- احترسي من فضلك.

تبادلت مارين وكورنيليا النظرات، ومضت الخادم إلى المطبخ، يصحبها النغم الحاد لزقزقات بيبو القلقة.

***

في الطابق العلوي، تشعر نيلا أنها قزمة وسط فخامة غرفتها الجديدة. لا يبدو على مارين سوى الاستياء:

- لقد طرَّزت كورنيليا أكثر من اللازم. لكننا نأمل ألا يتزوج يوهانس إلا مرة واحدة."

توجد وسائد مُطرَّزة بالأحرف الأولى من اسميهما، ومفرش سرير جديد، وزوجان من ستائر جُدِّدت حديثاً. علقت مارين:

- إن سماكة المخمل ضرورية لمنع شُبورة القناة. كانت هذه غرفتي، هكذا وتوجهت إلى النافذة لتنظر إلى النجوم القليلة

التي بدأت تظهر في السماء، ووضعت يدها على زجاج النافذة: إنها تطل على مشهد أجمل، لذا منحناكِ إياها.

قالت نيلا:

- رباه. يجب أن تحتفظي بها إذن.

وقفتا متواجهتين، يطوقهما الحشد الكبير من أعمال الإبرة، وفرة من المفارش المطرَّزة بحرف الباء عن براندت، في دائرة من أوراق العنب، ونحوها أعشاش الطيور، التي تبرز من أحواض الزهور. لقد التهمت حروف الباء اسمها قبل الزواج، مررت نيلا إصبعها فوق هذه الكتلة السخية من خيوط التطريز، الذي يثقل الآن كاملها.

سألت مارين:

- هل منزل أسلافكِ الكبير في أسِدلفت، دافئ وجاف؟

- ربما يكون رطباً. أقرت نيلا وهي تنحني وتحاول إصلاح القبقاب الكبير المربوط على نحو أخرق إلى قدميها: إن السدود لا تعمل دائماً. لكنه ليس كبيراً...

قاطعتها مارين:

- ربما لا تملك عائلتنا نسبكِ القديم، ولكن ما الذي يُضاهي منزلاً دافئاً وجافاً ومتيناً؟

- صدقتِ.

"- أفكومست سايت نيت. النسب لا وزن له، استطردت، وهي تلكز الوسادة لتؤكد على كلمة لا وزن له: قالها القس بيليكورني في الأحد الماضي ودونتها في الصفحة الفارغة في أول الكتاب المقدس. سيعلو المد إن جانبنا الحذر. ثم بدا عليها أنها

تصرف فكرة من ذهنها. وتضيف: راسلنا والدتك. أصرَّت في خطابها أنها ستتكفل بمصاريف رحلتكِ إلى هنا. لم نكن لنقبل بذلك. وأرسلنا ثاني أفضل عبَّارة لدينا. لمَ تستائي؟

- لا، لا.

- جيد. إن ثاني أفضل شيء في هذا المنزل مازال يعني طلاء جديداً ومقصورة مبطنة بالحرير البنغالي. يوهانس يستخدم الأخرى.

تساءلت نيلا أين زوجها، مع أفضل عبَّاراته، حتى يتأخر عن موعد استقبالها. فكرت في بيبو، وحيداً في المطبخ، قرب النار، قرب المقالي. وتسأل:

- لديكم خادمان فقط؟

- يكفي وجودهما، نحن تجار، ولسنا عاطلين. يخبرنا الكتاب المقدس أن المرء لا ينبغي له أن يتباهى بثروته.

- لا. طبعاً.

- هذا لو تبقى لديه ما يتباهى به. حدّقت مارين فيها، فأشاحت نيلا بناظريها. يبدأ الضوء في الغرفة في التلاشي، وأشعلت مارين الشموع الرخيصة والمصنوعة من الشحم.

كانت نيلا تطمح في شمع نحل أكثر عطراً. دهشت من اختيار هذا النوع الذي هو كثير الدخان وقبيح الرائحة. قالت مارين:

- يبدو أن كورنليا قد طرَّزت اسمكِ الجديد على كل شيء.

فعلاً، همست نيلا لنفسها، وهي تتذكر نظرات كورنليا العدوانية. لا بد أن أصابعها قد حُفرت بخطوط حمراء، ومن

تُراها ستُعاقَب على ذلك؟

سألت مارين:

- متى يأتي يوهانس، ولماذا هو ليس هنا؟

- قالت والدتكِ إنكِ مُتلهفة لبدء حياتكِ بوصفك زوجاً في أمستردام. هل أنتِ كذلك؟

- نعم. لكن الزوجة تحتاج إلى زوج لتقوم بذلك."

في الصمت المغلف بالصقيع الذي أعقب ذلك، تساءلت نيلا أين زوج مارين. ربما أخفته في القبو. أخمدت رغبتها المستميتة في الضحك، ونظرت إلى إحدى الوسائد، قائلة:

- كل هذا جميل جداً. لم يكن عليكِ تكلف هذا العناء."

- كورنيليا هي من فعلت كل شيء. لستُ ماهرة في استعمال يدي.

- غير صحيح بالتأكيد.

- لقد أزلتُ لوحاتي. رأيتُ أن هذه قد تكون أقرب إلى ذوقك، وأشارت مارين بيدها إلى الحائط حيث لوحة تصور زوجاً من الطيور البرية بألوان زيت، في لوحة تتدلى من خطاف، مغرقة بالريش والمخالب. وبعدها على الحائط نفسه لوحة لأرنب بري معلق، جائزة صياد. وإلى جانبها رُسمت كومة محار فوق صحن صيني منقوش، يظللها كأس نبيذ مسكوب ووعاء من فاكهة قاربت على التحلل. ثمة ما يثير القلق في المحار، انفتاحه المكشوف. في بيتها الأول، كانت والدة نيلا تكسو الجدران بمناظر من الطبيعة والكتاب المقدس. "هذه تخص شقيقي،" هكذا تعلق مارين، وهي تشير بإصبعها

إلى زهرية مترعة بالزهور، بالغة الجفاف، وكثيرة الألوان، وفي قاع اللوحة تنتظر نصف حبة رمان.

- شكراً لكِ. تتساءل نيلا كم ستستغرق حتى تقلب اللوحات على وجهها قبل أن تنام.

قالت مارين:

- لا بد أنكِ ترغبين في تناول الطعام هنا الليلة. لقد أمضيتِ ساعات في السفر.

- هذا صحيح. سأكون ممتنة. ارتعدت نيلا سراً أمام مناقير الطيور الدامية، وأعينها الجامدة، واللحم المنتظر قضمه. وأمام منظرهم، تستحوذ عليها رغبة في الحلوى: هل لديكم مرزبانية؟

- لا. إن السكر – ليس مما نستهلكه كثيراً. إنه يُسقم الأرواح.

- اعتادت والدتي أن تلفها في أشكال مختلفة. كانت حجرة الكرار لا تخلو من المرزبانية، الميل الوحيد للإسراف الذي قلّدت فيه السيدة أورتمان زوجها. حوريات بحر، وسفن، وقلائد من حلي مغلّفة بالسكر، عجينة اللوز تلك وهي تذوب في أفواههم. لم أعد أنتمي إلى والدتي، قالت نيلا لنفسها. يوماً ما، سألف أشكال السكر كرى لأيدٍ أخرى صغيرة رطبة، وأصوات تطالب بالحلوى.

تقول مارين، مُنتزعة نيلا من أفكارها:

- سأطلب من كورنيليا أن تحضر لكِ شيئاً من الهيريبرود، وكأساً من الرينيش.

- شكراً لكِ. هل لديكِ فكرة متى يصل يوهانس؟

رفعت مارين أنفها في الهواء:

- ما هذه الرائحة؟

لمست يدا نهلا عظم ترقوتها:

- هل هي مني؟

- هل هي منكِ؟

- اشترت لي أمي عطراً، زيت الزنبق، هل هي الرائحة التي تجدينها؟

أومأت مارين، وقالت:

- إنها كذلك، إنها الزنبق." ثم تسعل برفق، هل تعرفين ما يقولون عن الزنابق،

- لا؟

- تنضج سريعاً، وتتعفن سريعاً.

وأغلقت مارين الباب،

في الرابعة من صباح اليوم التالي، كانت نيلا ماتزال عاجزة عن النوم. غرابة محيطها الجديد، البرّاق والمطرز، والمغلّف برائحة الشحم المدخن، تمنعها من الاسترخاء. تبقى اللوحات في براويزها مكشوفة، لأنها لم تملك الشجاعة لقلبها على ظهرها. رقدت في فراشها، وتركت الأحداث التي قادت إلى هذه اللحظة تلف رأسها المنهك.

عندما مات السنيور أورتمان منذ عامين، قالوا في أسِدلفت إنه كان رجلاً تبنّى مصانع الجعة. ومع أن نيلا امتعضت من التلميح بأن والدها لم يكن أكثر من ذكر مخمور، فقد ثبتت صحة الأمر بصورة كئيبة. كبّلهم والدها بأغلال الديون، صار الحساء أخف، واللحم أعجف، وتناقص الخدم. لم يصنع سفينة قط، كما يفترض بجميع رجال هولندا أن يفعلوا، لمقاومة المد. "عليكِ أن تتزوجي من رجل قادر على حفظ النقود في جيبه،" قالتها أمها وهي ترفع قلمها.

وأجابت نيلا:

- لكني لا أملك ما أقدمه في المقابل."

تأففت أمها:

- انظري إلى نفسك. ما الذي تملكه معشر النساء غير هذا؟!

أذهل التصريح نيلا. شعرت مع تقليل أمها من شأنها بنوع جديد من البؤس، واستبدل الحزن على والدها بشيء من الحزن على نفسها. ظل شقيقاها الصغيران، كاريل وأرابيلا، يخرجان

إلى الشارع ويلعبان معاً لعبة أكلة لحوم البشر أو القراصنة.

تمرَّنت نيلا لعامين، على التصرف كسيدة. صارت تمشي بأناقة وبهاء - مع أنه لا مكان تذهب إليه، كما تذمرت، وهي تشعر لأول مرة برغبة في الهروب من قريتها، وقد عميت عن السماء الفسيحة، ولم تر سوى سجناً ريفياً تراكمت عليه طبقات رقيقة من الغبار. وفي مشدِّها الجديد، حسَّنت من عزفها على العود، محرِّكة أصابعها الأنيقة على أوتاره، يشغلها غضب والدتها بما يكفي ألا تتمرد. وفي تموز من هذا العام، نجحت استعلامات والدتها من خلال آخر معارف زوجها في المدينة، في أن تقع أخيراً على أرض خصبة.

وصل خطاب، بخط يد أنيق ومسترسل، خَطّ واثق. لم تسمح لها والدتها بقراءته، لكن نيلا اكتشفت بعد أسبوع، أنها ستعزف أمام رجل، تاجر يُدعى يوهانس براندت، يأتي إلى الريف من أمستردام. وفيما غربت الشمس فوق سهول أسِدلفت البنيَّة، جلس هذا الغريب في منزلهم الرقيق في تداعيه واستمع إلى عزفها.

تراءى لنيلا أن مشاعره تحركت، وعندما انتهت قال إنه استمتع بالعزف. قال لها:

- أحب العود. آلة موسيقية جميلة. لديَّ عودان معلَّقان إلى حائطي، ولكن لم يُعزف عليهما منذ سنوات.

وعندما طلب يوهانس براندت، ذو التسعة والثلاثين عاماً، متُوشالَحاً كما صاح كاريل، عندما طلب يدها، قررت نيلا أن تقبل. كان الرفض يبدو جحوداً و غباءً. لا تملك خيارات سوى أن تكون زوجاً، حسب تعبير مارين؟

بعد الاحتفال في أسِدلفت بشهر أيلول، تمّت اسماها في سجل الكنيسة، وتناولوا عشاء بسيطاً في منزل أورتمان ثم رحل يوهانس. قال إن شحنة في حاجة إلى توصيلها إلى فينيسيا، وإن عليه أن يفعل ذلك بنفسه. حيّته نيلا ووالدتها. كان يوهانس ساحراً جداً، بابتسامته اللعوب، وإيمائه بالسلطة. وفي ليلة زفافها، نامت العروس الجديدة نيلا كما فعلت لسنوات، جنباً إلى جنب مع أختها المُتقلّبة في نومها. لكن الأمور ستصير للأفضل، كما فكّرت، وهي تتخيل نفسها تنهض من نيران أسِدلفت كامرأة جديدة، زوج، وكل ما يأتي...

قطع أفكارها صوت كلاب في البهو. وسمعت صوت رجل، إنه يوهانس، بلا ريب. إن زوجها هنا، في أمستردام، متأخر قليلاً، إنما هنا. جلست نيلا في سرير زفافها، تتمرن على الكلام بعينين مغبّشتين. أنا مسرورة جداً. هل كانت رحلتك آمنة؟ نعم؟ أنا سعيدة جداً، آه، سعيدة جداً.

لكنها لم تجرؤ على النزول. لا تكفي اللهفة لرؤيته في التغلب على توترها. في أثناء انتظارها، وانتشار الخوف في معدتها، تساءلت كيف تبدأ. وأخيراً انتعلت قبقابها، وشدت وشاحاً فوق مَنامتها، وقطعت الممر بخطى بطيئة.

خفّ أقدام الكلاب فوق البلاط. إنهم يجلبون هواء البحر في فروهم، وذيولهم تضرب الأثاث. سبقتها مارين إلى يوهانس، وتناهى إلى نيلا حديثهما.

قال يوهانس بصوت عميق وجاف:

- لم أقل ذلك قط، يا مارين

- انس الأمر الآن، أخي، إنني سعيدة برؤيتك. دعوتُ الرب

أن تعود سالماً. خرجت مارين من الظل لتمعن النظر إليه، في ضوء الشمعة الذي كان يتراقص. وقفت نهلا إلى سور السلم، تراقب الخيال الغريب لعباءة سفر يوهانس، مدهوشة بأصابعه التي تشبه أصابع الجزار. استطردت مارين:

- تبدو مرهقاً.

- أعرف، أعرف. والخريف في لندن...

- شنيع. إذن كنت هناك. اسمح لي.

ساعدته مارين في خلع عباءته، وقالت:

- آه، يا يوهانس. إنك نحيل. لقد غبت طويلاً.

- لستُ نحيلاً، وتحرك مُبتعداً، وهو ينادي: "ريزيكي، دانه" فتلحق به الكلبتان كالتابعة. تحاول نهلا هضم الوقع الغريب لاسميهما. ريزيكي، دانه. في أسِدلفت، أطلق كاريل على كلابهم أسماء مثل فنطيسة والأعور، أسماء تفتقر إلى الخيال، ولكنها انعكاسات مثالية للشخصية والمظهر.

قالت مارين:

- أخي. إنها هنا.

توقف يوهانس، لكنه لم يستدر، تهدل كتفاه، وأمال رأسه قليلاً إلى صدره، قائلاً:

- آه. فهمت.

- كان يحسن بك أن تكون هنا عندما وصلت.

- أنا واثق أنكِ عالجتِ الأمر بنجاح.

سكتت مارين، وطال الصمت بين وجهها الشاحب والكلمة

السماء لظهر شقيقها. ثم قالت:

- لا تنس.

يمرر يوهانس أصابعه خلال شعره، ويجيب:

- وكيف لي أن أنسى؟ كيف لي؟

كانت مارين على وشك أن تقول شيئاً، لكنها عوضاً عن ذلك لفت ذراعيها حول جسدها. وقالت:

- الجو بارد جداً.

- اذهبي الى الفراش إذن. عليّ أن أعمل.

أغلق بابه، وطوحت مارين بعباءة أخيها حول كتفيها. مالت نيلا للأمام أكثر، فشاهدت مارين تدفن وجهها في طيّات القماش الطويلة. أصدر سور السلم صريراً، فنزعت مارين العباءة بسرعة، وهي ترفع أنظارها وتحدق في الظلام. وحينما فتحت مارين خزانة في الدهليز، عادت نيلا زحفاً إلى غرفتها لتنتظر.

بعد دقائق، وإثر سماعها صوت باب غرفة مارين يُغلق في نهاية الممر، نزلت نيلا متسللة على الدَّرج الرئيس، وتوقفت عند خزانة البهو، توقعت أن تجد العباءة معلَّقة، لكنها وجدتها مكومة على أرضية الخزانة. جثت، وتناولتها، فوجدت فيها رائحة رطبة لرجل متعب والمدن التي رآها. بعد تعليقها على المشجب، اقتربت نيلا من الباب الذي اختفى وراءه زوجها، فطرقته، قال:

- بحق السماء، سنتحدث في الصباح.

- إنها أنا، بترونيلا. نيلا.

بعد لحظة، فُتح الباب، وظهر يوهانس، وجهه في الظل. إنه عريض المنكبين، لم تتذكره نيلا بهذه الهيبة في الكنيسة نصف الخالية بـ أسِدلفت. يقول:

- "إسبوزا ميا."

لم تفهم نيلا ما قاله. تراجع إلى ضوء الشمعة، فرأت وجهه الذي اصطبغ بالسمرة وسفعته الشمس. عيناه الرماديتان شفافتان كعيني مارين، ليس زوجها شاباً، شعره مُدهَن عند منابته، لونه فضي باهت. قالت: إنني هنا.

- أنتِ كذلك. ثم أشار إلى مَنامتها، وقال: يجدر بكِ أن تكوني نائمة.

- جئتُ لتحيتك.

يتقدَّم ويقبِّل يدها، إنه أنعم مما تخيلت.

- سنتحدث في الصباح، يا نيلا. إنني مسرور لوصولكِ سالمة. جدُّ مسرور.

لا تركِّز عيناه على شيء لفترة طويلة. تمعنت نيلا في لغز إرهاقه، وانتبهت إلى رائحة مسك نفاذة في الهواء، كثيفة ومزعجة. ثم تراجع يوهانس إلى الوهج الأصفر في داخل ما يبدو أنها حجرة مكتبه، وأغلق الباب.

انتظرت نيلا لحظة، ثم رفعت عينيها إلى السلم الرئيس حيث الظلام الدامس. فكرت، لا بد أن مارين نائمة من دون شك، سألقي نظرة واحدة فقط، لأطمئن على طائري الصغير.

نزلت الدَّرج على رؤوس أصابعها إلى المطبخ، فوجدت قفص ببغائها معلقاً قرب الموقد المفتوح، حيث الجمرات

المحتضرة تضيء القضبان المعدنية برقة. قالت والدتها في أحد الأيام: "جميع الخادمات خبيثات. لكن خادمات المدينة أسوأ." لم تشرح لها السبب تماماً، لكن المهم أن بيبو على قيد الحياة، على مجثمه، ريشه منفوش، يقفز ويطقطق وقد تعرّف نيلا. رغبت أكثر من أي شيء آخر في أن تأخذه إلى غرفتها، لكنها تفكر فيما قد تفعله مارين إن عصت أمرها، وكورنيليا وهي تضع عشاء مكوناً من وركين صغيرين مع إكليل من الريش الأخضر. فهمست:

- طابت ليلتك، يا بيبو.

خلف نافذة غرفتها، ارتفع الضباب فوق قناة الهيرِغراخت، و بدا القمر في الأعلى مثل قطعة نقدية باهتة. أسدلت نيلا الستائر، والتفعت بشالها جيداً، متخذة مقعداً في الزاوية، بعيداً عن سريرها الضخم. إن عريسها رجل ثري في أمستردام، صانع قرار سياسي في المدينة، سيد للبحر وكل ما يهبُه. كانت والدتها قد علّقت:

- تصبح الحياة صعبة إن لم تكوني زوجاً.

سألتها نيلا: "لماذا؟" بعد أن شهدت تحول امتعاض والدتها المستمر من والدها إلى ذعر بعد أنباء ديونه التي تلت وفاته، سألتها عن سبب حرصها البالغ على تكبيل ابنتها بخطر ربما يكون مشابهاً. فنظرت إليها والدتها كما لو كانت مجنونة، لكنها هذه المرة فسّرت كلامها:

- لأن سنيور براندت راعي قطيع، ووالدك مجرد خروف.

نظرت نيلا إلى الإبريق الفضي جانباً، وطاولة الكتابة المصنوعة من خشب الماهوجني الأملس، والبساط التركي، واللوحات

الشهوانية. وهناك ساعة بدول جميلة تعلن عن الوقت بدقة، وقد نُقشت، على وجهها شموس وأقمار، وعقاربها مزركشة. إنها أجمل ساعة رأتها نيلا في حياتها. كل شيء يبدو جديداً، وينطق بالثراء. لم يسبق لنيلا أن تعلمت هذه اللغة بعينها، لكنها ترى بأنها ستكون ضرورية. تناولت الوسائد التي سقطت على الأرض، ووضعتها على غطاء السرير المصنوع من الحرير الأحمر الغامق.

كانت السيدة أورتمان لا تكف عن الشكوى من عدم وجود خطّاب مناسبين لأميال "جرابيم،" هكذا وصفت فتيان القرية. لكن المدينة، ويوهانس براندت، ضمنا مستقبل ابنتها.

- لكن - الحب، يا أمي. هل سأحبه؟

فصاحت السيدة أورتمان بطريقة مسرحية مُخاطبة جدران أسِدلفت المتقشرة:

- الفتاة تريد الحب. تريد الخوخ والقشدة.

قيل لنيلا إن الصواب في مغادرة أسِدلفت، ويعلم الرب أن الهروب في النهاية كان كل ما أرادت. لم تعد لديها رغبة في لعبة السفن المتحطمة مع كاريل وأرابيلا، لكن هذا لا يمنع الإحباط الذي يتدفق الآن، وهي تجلس جوار سرير زفافها الخالي في أمستردام كممرضة تَعْنَى بشخص عليل. ما الغاية من وجودها هنا و زوجها لم يستقبلها بصورة لائقة؟ اعتلت الفراش الخالي، استكانت بين الوسائد، مُحبطة من نظرة الازدراء في عيني كورنليا، والحدّة في صوت مارين، ولامبالاة يوهانس، همست لنفسها:" أنا الفتاة التي لم تأكل خوخة واحدة، ناهيكم عن القشدة"

يبدو المنزل مستيقظاً رغم الساعة التي تمضي بلا رحمة. سمعت صوت باب المنزل الرئيس يُفتح ويُغلق، ثم باباً آخر في الطابق الذي يعلوها. هناك همسات وخطى أقدام تقطع الممر، قبل أن يخلف هدوء كثيف الغرف.

أصغت بائسة، وشق رفيع من نور القمر يتلألأ فوق الأرنب والرمان المتعفن في اللوحات. إنه هدوء خادع، وكأن المنزل نفسه يتنفس. لكنها لا تجرؤ على ترك فراشها مرة أخرى، ليس في ليلتها الأولى. كانت ذكريات عزف العود في الصيف الماضي قد امّحت، وكل ما استطاعت نيلا أن تسمعه يتردد في رأسها هو كلمات بائعة الرنكة" أحمق، أحمق" تحدث صريراً في صوتها القروي.

أبجدية جديدة

بعد أن فتحت كورنليا الستار لتدخل شمس الصباح، وقالت عند نهاية سرير نيلا المُشمِث. وقالت للقدم الصغيرة التي تبرز من أغطية الفراش:

- لقد وصل السنيور من لندن. ستتناولان الفطور معاً.

انتفضت نيلا من فوق الوسادة، وجهها منتفخ مثل أطفال الملائكة. تناهى إلى أذنها صوت كل خادم بامتداد الهيرغراخت، مماسحهن تقعقع في الأسطال كأجراس مكتومة وهن يغسلن الأوساخ من أمام عتباتهن. سألت:

- كم بقيتُ نائمة؟

فأجابت الخادم:

- وقتاً كافياً.

- وكأني بقيتُ في هذا الفراش لثلاثة أشهر، تحت تأثير تعويذة.

ضحكت كورنليا، قائلة:

- يا لها من تعويذة.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء، يا مدام. ثم مدّت يديها: هيا. عليّ أن ألبسكِ.

- استيقظتِ حتى وقت متأخر.

- فعلت، أفعلت؟ تحدثت كورنليا بصفاقة، وهذه الثقة

دفعت نيلا إلى التلعثم. لم تخاطبها أي من خادمات والدتها بمثل هذه اللهجة.

تقول:

- لقد سمعتُ باب المنزل ليلاً، وباباً آخر في الطابق فوق، أنا واثقة من ذلك.

أجابت الخادم:

- محال. لقد أوصده توت قبل أن تصعدي.

- توت؟

- هكذا أنادي أوتو. إنه يعدّ أسماء التدليل سخيفة، لكني أحبها. وتناولت كورنيليا قيصاً داخلياً ووضعته فوق رأس نيلا ثم ألبستها ثوباً أزرق موشى بالفضة:

- "لقد دفع السنيور ثمنه.

قالت كورنيلا بصوت يملؤه الإعجاب. لا تلبث حماسة نيلا للهدية أن تتلاشى - فالكُمّان طويلان جداً، ومهما تشد كورنيليا أربطتها، يظل صدرها مُتقلصاً داخل مشدها الضخم.

تأففت كورنيليا، وهي تشد الأربطة إلى أخر مدى، من الزيادات الكبيرة، وقالت:

- لقد أرسلت مدام مارين قياساتكِ إلى الخياطة. كانت والدتكِ قد أرفقتها في خطاب. ماذا سأفعل بكل هذا القماش الزائد؟

قالت نيلا، وهي تنظر إلى ذراعيها الغائمتين:

- لابد أن الخياطة قد أخطأت. أنا متأكدة من أن والدتي

تعرف مقاساتي.

***

عندما دخلت نيلا حجرة المائدة، وجدت يوهانس يتحدث مع أوتو في تمتمة أمام وثائق مُسهبة. وعند رؤية زوجه أحنى رأسه تحية، وعلى وجهه تعبير لاهٍ. ترنّخ اللون في عينيه، من مائع إلى صلد. كانت ماري تحتسي ماء بالليمون، وعيناها ثابتتان على خريطة عملاقة تكسو الحائط خلف رأس شقيقها، متفرقات من اليابس متناثرة وسط محيطات فسيحة من الورق.

قالت نيلا:

- أشكرك على الثَّوب. تحرك أوتو إلى الزاوية ينتظر، ويداه مملوءتان بمعاملات يوهانس.

ردّ يوهانس:

- لا بد أن هذا واحد من الأثواب. لقد أمرتُ بصنع عدة، لكنه لا يبدو كما تخيلت. أليس واسعاً قليلاً؟ يا مارين اتخذت مارين مقعداً، ورتبت فوطة مائدتها.

قالت نيلا:

- أخشى أنه ربما كذلك، يا سنيور. الرجفة في صوتها محرجة. متى كان، على مدار المراسلات بين أسِدلفت وأمستردام، أن تقلص جسدها الذي تزوجت به إلى مسخ؟ تنظر إلى الخريطة على الحائط، عازمة ألا تبالي بالطول المضحك لكمَّيها. ها هي هولندا الجديدة (أستراليا)، أشجار نخيل على ساحلها، وبحار فيروزية، ووجوه أبنوسية تنادي المتطفلين.

قال يوهانس:

- لا بأس، ستصلح كورنليا من شأنها. تضم يده كأساً صغيرة من الجعة. تعالي واجلسي، كلي شيئاً.

استقر رغيف جاف وسمكة عجفاء في صحن في منتصف مفرش المائدة الدَّمَقس. فسرت مارين، متأملة كأس شقيقها:

- سنأكل فطوراً مقتصداً هذا الصباح. إظهاراً للتواضع.

تمتم يوهانس، وهو يتناول ملء شوكة من الرنكة:

- أو حرماناً من باب التجديد. تصمت الغرفة سوى من صوت مضغه اللطيف، ويرقد الرغيف حاجزاً بينهم، جافاً، ولا يُلمس. تحاول نيلا ابتلاع خوفها، وهي تحدق في صحنها الفارغ، وتلاحظ كيف أن هالة من الحزن لا تلبث أن تحيط بزوجها. تتذكر كلمات شقيقها كاريل:

- فكري في الأطعمة التي ستأكلينها، يا نيلا. سمعت أنهم في أمستردام يلتهمون فراولة مغطّسة في الذهب. كم كان انبهاره سيخبو الآن.

وأخيراً قال يوهانس:

- مارين، اشربي بعضاً من هذه الجعّة الممتازة.

فتجيب:

- إنها تسبب لي عسر الهضم.

حية الأمستردامين بتجنب المال والندم. لا يمكنكِ أن تتركي العنان لنفسك. هيا، تحلَّي بالتحدي. إن الشجاعة في هذه المدينة نادرة جداً هذه الأيام.

- لا أشعر بخير فحسب.

يضحك يوهانس أمام قولها، لكن وجه

- مارين يتقلص في ألم لا هزل فيه. وتقول: "كاثوليكي.

وخلال الفطور الهادئ، لم يعتذر يوهانس عن إخفاقه في الحضور لاستقبال عروسه في اليوم السابق. إن شقيقته هي من توجه إليها الحديث، فيما تضطر نهلا إلى برم كُمّيها حتى لا تلطخهما بحصتها من السمك المزيت. صرف أوتو الذي انحنى بتحيّة، وأصابعه تعانق بعناية حزمة الورق. قال يوهانس:

- اعتنِ بالأمر، يا أوتو. مع شكري. تساءلت نهلا إن كان التجار الذين يتعامل معهم يوهانس يمتلكون أيضاً مُساعدين مثل أوتو، أم أنه الوحيد. دققت في وجه أوتو بحثاً عن أي تعبير ينم عن الضيق، لكنه بدا مطمئناً وحاذقاً.

مع أسعار السبائك، المقايضة باللوحات، وإهمال بعض مُعلّبي البضائع الذين ينقلون مخزونه من باتافيا، التهمت مارين فطوراً ألذ من الأخبار التي يلقي بها يوهانس. وإن حدث وأبدى عزوفاً، تنتزعها مارين منه. تتناول النتف التي يقولها عن مبيعات التبغ، ومبيعات الحرير والقهوة، ومبيعات القرفة والملح. يتحدث عن قيود الشوغان الجديدة لنقل الذهب والفضة من ديجما، عن الضرر الذي قد يسببه هذا على المدى الطويل، وكيف أن الفوك مع ذلك، عازمة على تقديم الربح على الكرامة.

شعرت نهلا بالثمالة مع كل هذه المعلومات الجديدة، لكن رأس مارين ظل ثابتاً. ما أهمية اتفاقية الفلفل مع سلطان بانتام، وما الذي يعنيه ذلك للفوك؟ يخبرها يوهانس عن تمردات مزارعي القرنفل في أمبون، إذ اكتظت أراضيهم بالأشجار بطلب من الفوك. عندما سألت مارين عن الطبيعة الحقيقية لاضطراباتهم، تجهم وجهه، وقال:

- لا بد أن الوضع قد تغير الآن، يا مارين، ولن نعرف شيئاً.

- وتلك، يا يوهانس، هي المشكلة في كثير من الأحيان. سألته عن نوع من الحرير مردّه خياط في لومباردي: من أخذ حق الاستيراد؟

- نسيت.

- من، يا يوهانس؟ من؟

- هنري فيلد، تاجر من شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

ضربت مارين الطاولة بقبضتها:

- "الإنجليزية." نظر يوهانس إليها من دون أن يقول شيئاً، وتابعت: فكر فيما يعنيه هذا، يا أخي. فكر. طوال العامين الماضيين، تركناها تهيم في جيب رجل آخر. ولم..

- لكن الإنجليزية تشتري كل كان هارلم الذي نصنعه.

- بأياد شحيحة.

- يقولون الشيء نفسه عنا.

كانت مفردات مارين مفاجأة حقيقية، من السبائك إلى السلاطين عبوراً بالشركة الإنجليزية. لا ريب أن يوهانس يتعدى حداً محظوراً، فأي امرأة تلك التي تعرف كل هذه التفاصيل عن الفوك؟

شعرت نيلا بأنها غير مرئية، إنه يومها الأول هنا ولم يوجه أيهما لها سؤالاً واحداً، وإن كان الجدل حول المستأجرين يمنح نيلا على الأقل فرصة لتفحص عريسها من طرف خفي. تلك البشرة المسمرة - هي ومارين شبحان مقارنة به. تقفله نيلا

بقبعة قرصان، وسفينته تضرب الأمواج الزرقاء الداكنة لبحر بعيد، ثم انتقل خيالها إلى أماكن أخرى.

وخشية أن يرى الشخصان الآخران هذه الصور تعبر وجهها، حدقت نيلا في صحنها. "كفانا من كل هذا،" قالت مارين، فانخفضت نيلا وكأنها قرأت أفكارها، وظل يوهانس يتحدث عن الشركة الإنجليزية، متجرعاً الجعة الكهرمانية في قاع كأسه.

قاطعته مارين:

- هل تحدثت إلى فرانس ميرمانز عن السكّر الخاص بزوجه؟

صمته جعلها تتهمه: إنه يقبع فقط في المستودع، يا يوهانس. لقد وصل من سوريبام منذ أكثر من أسبوع وما زلت لم تخبرهم بما ستفعله به. إنهم ينتظرون.

وضع يوهانس كأسه على المائدة، وقال:

- يفاجئني اهتمامكِ بالثروة الجديدة لآغنس ميرمانز، لستُ قلقة على ثروتها. أعرف كيف تريد آغنس هدم هذه الجدران.

- يا لشكوككِ التي لا تنتهي! إنها تريد مني توزيع السكر الخاص بها لأنها تعرف أنني الأفضل.

- حسناً، فلتبعه إذن وانتهِ منهما. تذكر الخطر الذي نواجهه.

- ولكن من بين كل الأشياء التي قد أبيعها، تطالبين بهذا! ماذا عن الليكيريهيد، يا مارين،اشتهاء الأطعمة الحلوة- ماذا سيقول راعي كنيستك؟ التفت يوهانس إلى زوجه: تعتقد شقيقتي أن السكر ليس خيراً للروح، يا نيلا، لكنها تريد مني بيعه على أية حال. ما رأيكِ في ذلك؟

شعرت نيلا، وهي تتذكر طلبها المرفوض للمرزبانية، بالامتنان

لاهتمامه المفاجئ. فكرت، الروح والمال، هذان الاثنان مهووسان بالروح والمال، قاطعتهما مارين قائلة بصوت حازم:

- كل ما أفعله هو الحفاظ على قُوتنا، إنني أتقي الرب، يا يوهانس. هل تفعل أنت؟ أمسكت مارين بشوكتها مثل رمح للاثي صغير: أرجوك بع السكر فحسب، يا أخي. إن عدم وجود نقابة لباعة السكر سيعود علينا بالنفع. نحن من نحدد السعر، ونحن من نحدد المُشتري. تخلص منه وافعل ذلك سريعاً. سيكون هذا هو الأفضل.

حدّق يوهانس في الرغيف المنبوذ راقداً بعدُ في منتصف المفرش الدَّمَقس. قرقرت معدة نيلا، فوضعت يدها عليها غريزياً وكأن يدها ستسكتها. قال يوهانس رداً على مارين:

- لن يوافق أوتو على توجهنا الجديد في التجارة الحرة.

دفعت مارين أسنان شوكتها في القماش الدَّمَقس:

- إنه رجل هولندي. رجل عملي. لم يرَ في حياته حتى مزرعة قصب.

- كاد أن يفعل.

- إنه يفهم تجارتنا مثلما نفعل تماماً، ونظرت إليه بعينيها الرماديتين نظرة ثاقبة، وأردفت:

- ألا توافقني؟

- لا تحدثني باسمه. إنه يعمل لحسابي وليس لحسابك. وهذا المفرش ثمنه ثلاثون جلدر، لذا كفي رجاء عن صنع ثقوب في كل ما أملك.

صاحت مارين غضباً:

- كنتُ في المرفأ. أغرق رؤساء البلدية ثلاثة رجال صباح أمس، واحداً تلو الآخر. علقوا أثقالاً في أعناقهم، وضعوهم في أكياس وألقوا بهم في الماء.

في مكان ما في الدهليز، سُمِعت قهقهة، أعقبتها صيحة كورنليا:

- ريزيكي، كلبة شقية!

لكن نيلا لاحظت أن كِلا كلبي يوهانس في ركن هذه الغرفة، غافيان. أسبل يوهانس جفنيه، وتساءلت نيلا ما علاقة الرجال الغرقى بمخزون السكر، أو رأي أوتو، أو رغبة آغنس ميرمانز في زعزعة جدران منزلهم.

تمتم يوهانس:

- أعرف كيف يغرق المرء. يبدو أنكِ نسيتِ أني قضيتُ معظم حياتي في البحر.

بدا في صوت يوهانس تحذير، لكن مارين لا تستسلم:

- سألتُ الرجل الذي يخلي رصيف المرفأ لماذا أغرقهم رؤساء المدينة. فقال لأنهم لا يملكون نقوداً كافية لإرضاء ربهم."

ثم توقفت لاهثة. بدا يوهانس أقرب إلى رجل مُنسحق، وقال:

- ظننتُ الرب يغفر للجميع، يا مارين؟

وصمت لا ينتظر إجابة.

كان الهواء حاراً والجو ساحقاً، جاءت كورنليا بوجه أحمر لترفع الأطباق، نهض يوهانس عن كرسيه، ونظرت النساء الثلاث إليه بترقب، لكنه خرج من الغرفة، ضارباً الهواء بيده.

بدا على مارين وكورنيليا أنهما تعرفان ما يعنيه هذا، فتناولت مارين الكتاب الذي أحضرته معها. ولمحت نيلا العنوان، مسرحية هوفت، "الأحمق الحقيقي".

سألتها نيلا:

- كم مرة يسافر؟

وضعت مارين الكتاب، متأففة من انثناء الصفحة، على الطاولة، وقالت:

- يرحل أخي. ثم يعود. ثم يرحل من جديد، تنهدت، وأردفت: سترين. ليس الأمر صعباً. أي شخص في وسعه أن يفعلها.

- لم أسأل إن كان الأمر صعباً. ومن يكون فرانس ميرمانز؟

سألت مارين:

- كورنيليا، كيف حال ببغاء بترونيلا هذا الصباح؟

- إنه بخير، يا مدام، بخير. تحاشت كورنيليا عيني نيلا. لا ضحكات في هذا اليوم، أو تعليقات لئيمة. بدت متعبة، وكأن شيئاً يشغل بالها.

قالت نيلا:

- إنه يحتاج إلى هواء نقي. لا بد أن المطبخ تملؤه أبخرة الطهي. أريد أن أطيّره في غرفتي.

قالت مارين:

- سينقر غرضاً ثميناً.

- لن يفعل.

- سيطير من النافذة.

- لن أفتحها.

أغلقت مارين كتابها بقوة خرجت، فاعتدلت الخادم في وقفتها، مُضيِّقة عينيها الزرقاوين في أثر سيدتها. وبعد لحظة من التردد، غادرت بدورها الغرفة. تراجع نيلا في كرسيها، محدِّقة بشرود في خريطة يوهانس. ظلَّ الباب مفتوحاً، وتناهت إلى أذنيها همسات مارين ويوهانس خارج حجرة المكتب.

- كرمى يسوع، يا مارين. ألا تملكين شيئاً أفضل تفعلينه؟

- لديك زوج الآن. إلى أين تذهب؟

"ولدي عمل أيضاً."

"وما العمل الذي لديك في يوم أحد؟"

"مارين، هل تظنين هذا المنزل يُدار بالسحر؟ سأذهب لتفقد السكر."

"لا أصدقك،" تقولها مارين بفحيح. "لن أسمح بهذا." تشعر نيلا بالتوتر يزداد بين الشقيقين، لغة صامتة أخرى تفيض في المكان.

- من غيري يسمح لشقيقته أن تخاطبه بهذه الطريقة؟ إنَّ كلامك ليس القانون.

- ربما. لكنه أقرب إليه مما تظن.

خرج يوهانس بخطى واسعة من باب المنزل، وشعرت نيلا بدخول الهواء بنعومة، ثم أغلق الباب في وجه العالم الخارجي من جديد. اختلست النظر من خلف الباب تراقب مارين التي غطت وجهها، وتحدَّب كتفاها، صورة للبؤس.

ترومبلوي

صعدت مارين إلى الطابق العلوي، وابتعد صدى خطاها، فتسللت تيلا إلى الطابق الأسفل، حيث يطقطق بيبو لسيدته. فوجدت قفص بيبو معلقاً الآن في مطبخ التقديم. لا طبخ يجري هنا، إذ يدَّخر الجهد لمطبخ الخدمة، في الجهة الأخرى من الممر. مطبخ التقديم هو غرفة تستخدم حصراً لعرض الأواني الصينية لعائلة براندت، بلا قدور ومقالٍ ترسل رذاذاً، وجدرانه نظيفة. تساءلت تيلا منذ متى يتنفس بيبو هواء نقياً، وما يثير تساؤلها أكثر، من قام بهذا الفعل الخيِّر.

جلس أوتو إلى طاولة جانبية صغيرة، يلمّع على مهل أدوات المائدة الفضية التي سيتناولون بها العشاء. لم يكن طويلاً لكن كتفيه عريضان، ويبدو حجمه كبيراً على كرسيه. وحينما رآها على العتبة، أشار نحو قفص بيبو، وقال:

- إنه مخلوق صغير صاخب.

- أعتذر. كنتُ سأضعه في غرفتي...

- أحب صخبه.

- آه، جيد. شكراً لأنك وضعته هناك.

-لم أكن أنا، يا مدام.

مدام... لها وقع جميل عندما يقولها. كان قميصه نظيفاً جداً، ومكوياً بعناية، بلا خيوط متقطعة أو بقع. تحركت ذراعاه من تحت قماش الكاليكو بيهاء غير متعمَّد. كم عمره؟ ثلاثون، ربما أصغر قليلاً. حذاؤه يلمع كحذاء ضابط في الجيش. كل شيء،

فيه جديد جداً، غريب جداً. أصبحت مخاطبتها بمدام في منزلها، بقولها خادم في ثياب متقنة كهذه، هي لجأة جوهر وجودها. أفعم قلبها بالامتنان، لكن أوتو لم يلاحظ ذلك.

تضرج وجهها، وسارت إلى القفص تمسد ريش ببغائها من خلال القضبان. أصدر بيبو صوتاً رقيقاً، ومرر منقاره خلال ريشه كأنه يبحث عن شيء.

سألها أوتو:

- من أين هو؟

- لا أعرف. عمي اشتراه."

- لم يولد من بيضة في أسِدلفت إذن؟

هزت نيلا رأسها نفياً. لا شيء يمثل هذه البهجة والعجائبية سيولد في أسِدلفت. شعرت بحرج ولكن أيضاً ببهجة شديدة، إن أوتو يعرف اسم قريتها. ماذا تراه سيكون رأي أمها، وكبار البلدة، والتلاميذ الصغار، في هذا الرجل؟

تناول أوتو شوكة، ومرر خرقة ناعمة حول كل واحدة من أسنانها. ضغطت نيلا على قضبان القفص إلى أن ابيضّت أناملها، وهي تمد عنقها متتبعة بلاط الحائط المصقول إلى نهاية السقف. أحدهم رسم عليها ترومبلوي - قبة زجاجية ترتفع إلى ما بعد الملاط نحو سماء وهمية.

- السنيور براندت هو من طلب صنعها قال أوتو، متتبعاً الجهة التي تنظر إليها.

- إنها ذكية.

- إنها خدعة. لن تلبث أن تتقشر مع الرطوبة."

- لكن مارين أخبرتني أن هذا المنزل جاف، وأنه لا أهمية للنسب.

ابتسم أوتو:

- لا بد أني أخالفها الرأي إذن.

تساءلت نيلا إلى أي عبارة من عِبارَتَيْ مارين يشير أوتو. جالت عيناها على الرفوف العملاقة المبنية داخل الجدار، حيث تحوي ثلاثة ألواح زجاجية ضخمة تشكيلة من الأطباق وقطع البورسلين. لم يسبق لها من قبل أن رأت مثل هذه المجموعة الكبيرة. كان أهلها يملكون مجموعة صغيرة من الخزف الدِلفِي والقليل غيرها، إذ كان عليهم بيع معظمها.

قال أوتو:

- عالم السنيور في طقم من الأطباق. أصغت نيلا، مُحاولة البحث في صوته عن تفاخر أو حسد، لكنها لا تجد أيًا منهما. كانت نبرة أوتو محايدة بصورة مدروسة. استطرد:

- - دلفت، دريما، الصين، عبور البحار في أواني الفخار.

- أليس زوجي غنيًا بما يكفي لتعيين شخص يسافر نيابة عنه؟

عقد أوتو حاجبيه أمام نصل السكين الذي يلمّعه. "على المرء أن يحافظ على جريان ثروته، ولا أحد سيفعل ذلك نيابة عنه. سوف تنساب من بين أصابعه إن جانب الحرص. توقف، وطوى، الخرقة الناعمة في مربع أنيق.

- هو يعمل بجد إذن؟

حرّك أوتو إصبعه حركة حلزونية، وأشار إلى إلى القبة الزجاجية الزائفة فوق رأسيهما، وقال:

- لقد ارتفعت أسهمه إلى أعلى وأعلى.

- وماذا يحدث عندما تصل إلى القمة؟

- ما يحدث منذ الأزل، يا مدام. يحدث الفيضان.

- ثمَّ؟

- حسناً، أفترض أننا إما نغرق وإما نعوم. تناول ملعقة مرق كبيرة، ونظر إلى ملامحه، وقد انكمشت في الفضة المحدبة.

- هل تذهب معه إلى البحر؟

- لا.

- لماذا؟ أنت خادمه.

- لقد أقلعتُ عن الإبحار.

تساءل نِلا كم عاش على هذه الأرض الاصطناعية، المدعومة من المستنقعات بالأراضي المُستصلحة العميقة. سمّته مارين هولندياً. قال أوتو:

- إن روح السنيور تنتمي إلى البحر. أما روحي فلا، يا مدام.

سحبت نِلا يدها من قفص بيبو، واتخذت مقعداً إلى جوار المدفأة:

- كيف تعرف كل هذا عن روح زوجي

- أليس لي أذنان وعينان؟

جفلت نِلا. لم تتوقع مثل جرأته، لكن كورنيليا التي شعرت بحرية القول نفسها، قالت:

- طبعاً لك، أنا...

يقول أوتو:

- إن البحر شيء لا تستطيع اليابسة أن تكون مثله، يا مدام. لا رقعة تبقى على حالها.

- أوتو.

برزت مارين من الباب. فنهض أوتو، وأدوات المائدة التي بليّها مُسجَّاة كترسانة من الأسلحة البراقة. فالتفتت إلى نيلا قائلة:

- إنه يعمل، ولديه قائمة طويلة من المهام.

- كنت أسأله فقط عن شيء يخص...

- اترك هذا، يا أوتو. عليك إرسال تلك الخطابات.

استدارت مارين، واختفت. فهمس أوتو لنيلا خلف وقع الخطى المتراجع:

- مدام، لو أنكِ أمام خلية نحل فهل كنتِ تركلينها؟ لن تجني حينها سوى لسعة.

لم تستطع نيلا أن تجزم هل هي نصيحة أم أمر. ثم يضيف وهو يومئ نحو بيبو:

- لو كنتُ مكانكِ لأبقيتُ هذا القفص مغلقاً، يا مدام. وراح يصعد سلم المطبخ بخطى محسوبة تماماً وناعمة.

طوال الليلتين التاليتين في المنزل، انتظرت نيلا أن يضع بوهانس يديه عليها ويفتتح حياتها من جديد. تترك باب غرفتها موارباً، والمفتاح يتدلى من اللوح الخشبي السميك، ولكنها عندما تستيقظ في الصباح، تجد نفسها كما هي، لم تُمس. يبدو أنه يعمل إلى وقت متأخر، في الليل، تسمع صرير باب المنزل يُفتح، وغالباً في باكورة الصباح عندما تشق الشمس أفق السماء. يتسرب الضوء الكليل إلى عينيها ،تنهض، وتدرك أنها ماتزال بعد وحيدة.

ما إن تبدل نيلا ملابسها، حتى تتجول بلا هدف بين الغرف في الطابقين الأرضي والأول. في مؤخرة المنزل، حيث لا وجود للضيوف، تصبح الغرف أبسط، لأن كل الأُبهة قد اُدخرت للغرف التي تطل نوافذها على الشارع. هذه الغرف تبدو في أجمل صورها عندما تخلو من أي أحد.

تدير رأسها حول الأعمدة الرخامية المستديرة وتدخله في المداق الفارغة، وتُجيل عينين مبتدئتين على اللوحات - الكثير جداً منها سفن بصَوارٍ صليبية الشكل تشق السماء، مناظر طبيعية تبدو حارة، مزيد من الزهور المحتضرة، جماجم مقلوبة تشبه خضروات جذرية بنّية، آلة كمان مقطوعة الأوتار، حانات متناثرة وراقصات، صحون ذهبية، أقداح صدفية مطلية بالمينا. إن النظر بسرعة فيهم جميعاً ليُشعر بالغثيان. ومازال ورق الحائط الجلدي الرقيق يفوح قليلاً برائحة الخنازير، ويذكرها بمزارع أسِدلفت. وإذ تبتعد عنه، عزوفاً عن مكان ظنّت أنها حريصة

جداً على نبذه، تجد نهلا نفسها أمام بساط جداري ضخم يتدلى من الإزار، عليه مشاهد من الكتاب المقدس، لمريم ومرثا مع يسوع، عُرس قانا الذي حول فيه يسوع الماء إلى خمر، نوح العبقري وفلكه المتين.

في مطبخ الخدمة، لاحظت نهلا عودي يوهانس اللذين تواظب كورنليا على تلميعهما وتعليقهما على القرميد. وحينما امتدت يدها لتنزع أحدهما من خطافه، انتفضت بجفلة، لأن يداً رادعة أمسكت بكتفها.

قالت مارين بغضب:

- إنها ليست للعزف. إنها قطعة فنّية سيتلفها نقركِ على أوتارها.

- هل تلاحقينني؟ وعندما لم ترد مارين، ربتت نهلا على العود: إن أوتاره مرتخية، من فقر الرعاية.

انقلبت على عقبيها تصعد الدرج باختيال. كانت غرفة مارين في نهاية الممر في الطابق الأول قد ظلت مجهولة بالنسبة إليها، فنظرت إلى خشب بابها البعيد، مُتسائلة أي زنزانة جرداء لا بد أنها تكون في الداخل. يكاد حنقها يدفعها إلى أن تدخل. من تحسب مارين نفسها حتى تقول لها لا؟ إنها سيدة هذا المنزل في النهاية.

لكن نهلا عادت عوضاً عن ذلك إلى غرفتها، تحدّق في ضيق إلى الريش الملطخ بالدماء للطيور المرسومة، مناقيرها المقوسة الشبيهة بأفواه السحالي. يا إلهي، إن مارين تكره حتى الموسيقى! ألا تعرف أن العود لم يُصنع لتعليقه على الجدران؟

لا تحادثها مارين عادة إلا بأمر، أو عظة دينية مقتطفة من

إنجيل العائلة، والمصممة عادة للإخضاع. عندما تجمع أهل المنزل في الدهليز ليسمعوا مقاطع من الكتاب المقدس، تُفاجأ نيلا عندما ترى أن هذه هي وظيفة مارين. كان والدها من تولى تلك المهمة عندما أفاق من سكره، ثم خلفه كاريل، بأعوامه الثلاثة عشر وطول ممارسته، في القراءة لشقيقتيه وأمه.

في أوقات أخرى، تجلس مارين على كرسي أخضر من القطيفة في الصالون، عاكفة على دفتر حساباتها. يبدو أنها دقيقة جداً مع حسابات المنزل، أعمدته مدرج موسيقي، وأرقامه نوتات تتعثر عليها أموالهم في لحن صامت. رغبت نيلا في معرفة المزيد عن تجارة زوجها، عن سكّر فرانس وآغنس ميرمانز، لكن الحديث مع مارين لم يكن هيناً قط.

إلا أنها في اليوم الثالث، تسللت إلى الصالون حيث تجلس مارين، مُطأطئة الرأس كي تصلي. وكعادته يكون دفتر حسابات المنزل مفتوحاً فوق حجرها.

- مارين؟

لم تكن نيلا قد نادت مارين باسمها مجرداً من قبل، شعرت بجرأة صريحة غير مألوفة من أثر ذلك، لم تصل طعنتها في جسد الخيمية إلى نهايتها.

- نعم؟ رفعت مارين رأسها بحركة سريعة. أراحت قلمها بحركة استعراضية على الصفحات المفتوحة، ووضعت يديها على نقوش أوراق الشجر المُعقّدة للكرسي. ومن خلال النظرة الصارمة في عيني مارين الرماديين، خمنت نيلا أن المناقشة حول العود لم تُنسَ، أحست أن مارين تتفحصها بدقة، فازداد هلعها. كانت بقعة حبر قد تسرّبت من رأس قلم مارين.

اندفعت نهلا قائلة:

- هل هكذا سيكون الوضع دائماً؟

السؤال الصريح شحن الجو، وتصلب من ذلك ظهر مارين:

- أي وضع؟

- إنني... لا أراه أبداً.

- إن كنتِ تقصدين يوهانس، فأؤكد لكِ أنه موجود."

- أين المكان الذي يعمل فيه؟ تحرك نهلا المحادثة إلى حيث تضطر مارين إلى منحها إجابة أكثر تحديداً، ويترك سؤالها تأثيراً أغرب من الأول، فيصبح وجه مارين جامداً.

وأجابت بصوت مكتوم ومقتضب:

- في أماكن عدّة، البورصة، الميناء، مكاتب القوك في الموجسترات القديمة.

- و ... ماذا يفعل في هذه الأماكن؟

- لو كنتُ أعرف ذلك، يا بترونيلا...

- لكنكِ تعرفين. أعرف أنكِ تعرفين...

فثارت مارين قائلة:

- إنه يحول الطين إلى ذهب. يحول الماء إلى جلدرات. يبيع أسهم الآخرين بأسعار أفضل. يملأ سفنه ويرسلها إلى البحر. إنه يظن الجميع يفضّلونه. هذا كل ما أعرفه. ناوليني الكانون، قدماي مثل جبلي جليد.

اعتقدت نهلا أن هذه ربما أطول سلسلة جمل على الإطلاق تحدثت بها مارين إليها. قالت:

- في وسعكِ دائماً إشعال المدفأة. ثم حملت كانوناً صغيراً ساخناً إلى حيث مارين، التي وضعت فوقه قدمين لصيقتين، فتابعت نيلا: أرغب في رؤية المكان الذي يعمل به. سوف أذهب لزيارته قريباً.

أغلقت مارين دفتر الحسابات، وظل القلم عالقاً في داخله، حدّقت في غلافه الجلدي المهترئ، وقالت:

- لا أنصحكِ بذلك.

عرفت نيلا أنه يجدر بها الكف عن طرح الأسئلة، لأنها لا تلقى رداً سوى لا. لكنها لا تمالك نفسها:

- لماذا؟

- إنه مشغول.

- مارين...

تهتف مارين:

- أخبرتكِ والدتكِ من دون شك أنه سيكون الوضع هكذا ؟ إنكِ لم تتزوجي بكاتب العدل المحلي.

- لكن يوهانس...

- بترونيلا إن عليه أن يعمل، وكان عليكِ أن تتزوجي أحداً.

- أنتِ لم تعملي. لم تتزوجي أحداً.

انقبض فك مارين و شعرت نيلا بشرارة نصر صغيرة.

أجابت مارين:

- كلا. لكنني حظيتُ دائماً بكل ما أردته.

***

في الصباح التالي، اختارت مارين أمثولة، قصة عقابية من سفر أيوب، تُنهيها بالتطهير من إنجيل لوقا.

"وَلكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ.
وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الشَّبَاعَى، لأَنَّكُمْ سَتَجُوعُونَ.
وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّاحِكُونَ الآنَ، لأَنَّكُمْ سَتَحْزَنُونَ وَتَبْكُونَ."

كانت تتلو بسرعة، وبلا نغم، وكأنما يحرجها أن تسمع صوتها يتردد على القرميد الأبيض والأسود، وتمسك يداها بالمقرأ وكأنه طوق نجاة. رفعت نيلا عينيها فيما مارين تترنّم بالآيات، وتساءلت لماذا ما تزال هنا، عزباء، من دون دبلة زواج حول إصبعها. ربما لم يجدوا ذلك الرجل الشجاع بما يكفي لتحمل التعنيف؟ استمتعت نيلا بلذة الفكرة اللئيمة.

سألت نفسها، هل هذه هي عائلتي الجديدة؟ لا يبدو ممكناً أن هؤلاء الناس قد ضحكوا قط، خلا قهقهات تخفيها أيديهم. مهام كورنليا المنزلية تبدو أبدية. إذا لم تكن في الأسفل تغلي سمك حفش، فهي تلمّع الأثاث المصنوع من خشب البلوط والورد، أو تكنس المساحات الشاسعة من أرضيات الطابق العلوي، وتنفض الشراشف، وتلمّع لوح نافذة تلو الأخرى. يعلم الجميع أنه بالكدح يتحلى المرء بالفضيلة. إنه يصون جميع الهولنديين الصالحين من قبضة الترف الخطرة والخسيسة، إلا أن شيئاً في كورنليا لا يوحي ببراءة كاملة.

اعتلى وجه أوتو تعبير عميق في أثناء إصغائه إلى الكلمات، وعندما تلتقي عيناه بعيني نيلا، يشيح بوجهه في عجلة. ويبدو التواصل بالنظرات في لحظة تأمل روحي كهذه أقرب إلى الخطيئة. اختار يوهانس أن يشبك يديه في وضع الصلاة،

وعيناه على الباب.

عادت نيلا إلى غرفتها، وشرعت في كتابة خطاب إلى والدتها، تشرح فيه مأزقها. لكن الكلمات التي تختارها لا تكشف عن أفضل خصائصها، ترفض مضاهاة ما تشعر به في داخلها. تعجز نيلا عن وصف حيرتها، مناقشاتها مع مارين، زوجها الذي يتحدث جميع اللغات عدا الحب، أو الخدم بعوالمهم المخفيَّة، وضحكاتهم التي هي بدورها لغة أخرى. بدلاً من ذلك، تخربش أسماء - يوهانس، أوتو، توت، وترسم صورة لمارين برأس عملاق، ثم تكوِّر الورقة وتلقيها، لتقع منحرفة عن النار.

بعد مُضي ساعة، تصاعدت من السلم الرئيس أصوات رجال ونباح كلاب وضحكة يوهانس. نظرت نيلا من النافذة إلى مجرى القناة، فرأت ثلاثة حرفيين أقوياء مدلي الحبال على أكتافهم. وهم يخرجون من المنزل، بأكمام مرفوعة.

في الوقت الذي غادرت فيه نيلا غرفتها، كانت مارين في البهو فعلاً. تهمس بصوت عالٍ:

- يوهانس، ماذا بربِّك فعلت؟

بخطى خفيفة تقطع نيلا فسحة السلم، وتشهق عندما ترى ما تركه الرجال الثلاثة في الدهليز.

في وسط الأرضية وضعت خزانة، بناء ضخم شاخص، يصل ارتفاعه إلى منتصف طول يوهانس تقريباً، صوان ضخم يقف على ثمانية أقدام مقوسة ومتينة، على واجهته تنسدل ستارتان من القطيفة الملونة بلون الخردل. وإذ نُقل مِقرأ الكتاب المقدس إلى الركن لإفساح مكان، وقف يوهانس إلى جوار الخزانة.

مُريحاً يداً فوقها، وهو يحدِّق في الخشب اللامع، وابتسامته لا تخبو. بدا حيوياً، وسيماً أكثر من أي مرة رأته فيها نيلا.

اقتربت مارين من الخزانة بحذر، وكأنما ستقفز فوقها، أو ستبدأ في التحرك من تلقاء نفسها. فتراجع ريزيكي بدمدمة عميقة. وسألت مارين:

- هل هذه مزحة؟ كم تكلَّفت؟

فيقول يوهانس: "أختاه، دعينا ولو مرة من الحديث عن المال. طلبتِ مني أن أبحث عن تسلية...

- ليس بهذه البشاعة. هل تلك صبغة زعفران في الستائر؟

- تسلية؟ تردد صوت نيلا وهي تقف على الدرج. فاستدارت مارين لتواجهها، بتعبير مصدوم على وجهها.

نادى يوهانس:

- شيء لأجلك. هدية زفاف. وربّت على جانب الخزانة، فتراءت اختلاجة في ستائرها.

- ما هي، يا سنيور؟

- مصنوعة من خشب البلوط والدردار. الدردار قوي، قال يوهانس، وكأنه التفسير الذي كانت عروسه تنتظره. ينظر إلى مارين: إنه يُستخدم للتوابيت.

زمت مارين فمها، وقالت:

- من أين حصلت عليها، يا يوهانس؟

نفض يوهانس كتفيه:

- سمعتُ من رجل في المرفأ أن لديه خزائن خلَّفها نجار ميت.

طلبتُ تحسينها بكسوة مزخرفة، وتطعيمها بالفضة."

فقالت مارين:

- لماذا فعلت هذا؟ إن بترونيلا لا تحتاج إلى مثل هذا الشيء.

يجيب يوهانس:

- إنه من أجل تعليمها.

- ماذا؟

مدّ يوهانس يده إلى ريزيكي لكن الكلبة تُعرض عن سيدها. "صه، يا فتاة. صه."

- إنها لا تحبه، قالتها كورنيليا، التي تبعت نيلا أسفل الدَّرج، وفكرت، هل تشير كورنيليا إليها أم إلى الكلبة. كلتاهما، كما يبدو، لاحظت انتصاب الشعر على عنق ريزيكي. فحملت كورنيليا مكنستها كهراوة أمامها، وكأنها تتوقع هجوماً.

قالت مارين بسخرية:

- تعليم؟ ما حاجة بترونيلا إلى التعليم؟

فقال يوهانس:

- لا بد لي من القول إنها في حاجة ماسة جداً.

"لا، لستُ كذلك" هكذا تُفكِّر. إنني في الثامنة عشر لا الثامنة. سألت، مُحاولة إخفاء استيائها:

- ولكن ما هي، يا سنيور؟

وأخيراً، مد يوهانس يده إلى الستائر، وبحركة مسرحية متكلفة، فتحها على مصراعيها. وشهقت النساء. جوف الخزانة مكشوف، ومقسم إلى تسع أجنحة، بعضها مبطن بورق حائط

ذي نقوش ذهبية وبعضها بألواح خشبية.

تقول نيلا:

- هل هو ... هذا المنزل؟

- بل هو منزلك. صوّبها يوهانس، مُبتهجاً.

- كان تنظيفه ليصبح أسهل بكثير. قالتها كورنيليا، وهي تمد عنقها لترى داخل الغرف العلوية.

إن دقة الخزانة مخيفة، وكأنها المنزل الحقيقي وقد انكمش، وقُسم بدنه إلى نصفين وكُشفت أعضاؤه. الغرف التسع، بداية من مطبخ الخدمة، إلى الصالون، صعوداً إلى العلية حيث يُخزَّن السماد والحطب بعيداً عن الرطوبة، هي نسخ طبق الأصل. "إنه يحوي قبواً خفيًا أيضاً" قالها يوهانس، وهو يرفع الأرضية التي تفصل بين مطبخي الخدمة والتقديم، ليكشف عن مساحة فارغة مُخبَّأة. حتى سقف مطبخ التقديم قد طُلي بالخدعة البصرية نفسها. تذكرت نيلا حديثها مع أوتو. يحدث الفيضان، هكذا قال، مشيراً بإصبعه إلى تلك القبة الوهمية.

زمجرت ريزيكي، وحامت حول الخزانة.

- كم كان ثمنها، يا يوهانس؟

قال بهدوء:

- كان الهيكل بألفين. ورفعتها الستائر إلى ثلاثة.

- ثلاثة آلاف جلدر؟ ثلاثة آلاف؟ تستطيع عائلة أن تعيش بهذا المبلغ، إن استثمرته جيداً لأعوام."

- مارين، إنك لم تعيشي بألفي جلدر لعام واحد، بكل وجبات الرنكة على الغداء. ومع صفقة ميرمانز، فما الداعي إلى

القلق؟

- حسناً، لو أنك كنتَ تفعل شيئاً بذلك الخصوص، لما قلقتُ...

- لمرة واحدة في حياتك، اسكتي.

وقفت مارين على مضض بعيداً عن الهيكل الخشبي. وظهر أوتو من المطبخ يرمق الوافد الجديد باهتمام. بدا يوهانس مُحبطاً قليلاً، وكأنه أحس بأن بادرته تعطي نتائج عكسية.

الكسوة المزخرفة ذكّرت نيلا بالخريف في أسِدلفت، هيجان اللونين البرتقالي والبني، كاريل يمسك بيديها ويدور بها تحت أشجار الحديقة. كان القصدير قد عُشّق بأوردة معدنية، في دقة وانسيابية على كامل سطح الخزانة، حتى السيقان. ثمة إثارة غريبة في الخشب والقشرة. حتى ملمس الستائر القطيفة يوحي بقوة ما.

في أسِدلفت، عرفت نيلا أطفالاً أثرياء أهداهم أهلوهم منازل دمى، لكن أحدها لم يكن بهذه الضخامة. قبل أن يبذّر والدها نقودهم في الخمر، كان مُحتملاً أن تحصل بدورها على واحد - أصغر من هذا، أداة للتمرين على كيفية إدارة برّادها ومفارشها وخدمها وأثاثها. لقد تزوجت الآن، وتحب أن تقتنع ألّا حاجة إلى ذلك.

ضبطت نيلا يوهانس وهو يراقبها. قالت:

- أرضية الدهليز هي نفسها! وأشارت إلى أسفل أقدامهم إلى حيث امتدت البلاطات السوداء والبيضاء، ووضعت إصبعها بلباقة على المربعات الصغيرة المُناظرة.

قال يوهانس:

- رخام إيطالي.

قالت مارين بغضب:

- إنها لا تعجبني. ولا ريزيكي كذلك.

رد يوهانس بانفعال:

- حسناً، تشترك الكلاب في ذوق واحد.

اشتعل وجه مارين باللون الأحمر، واندفعت نحو باب المنزل تصفقه خلفها.

سألت كورنيليا، بنبرة مذعورة:

- إلى أين تذهب؟" وأخذت تراقب هي وأوتو مسار سيدتهم من نافذة الواجهة.

قال يوهانس:

- حسبتها ستكون مفاجأة سارّة.

فقالت نيلا:

- ولكن يا سينور، ماذا عليّ أن أفعل بها؟

نظر إليها يوهانس نظرة جوفاء قليلاً، وفرك الستائر القطيفة بين سبابته وإبهامه قبل أن يسدلها:

- ستفكرين في شيء ما.

اختفى يوهانس في حجرة مكتبه بتكّة رتاج، وأسرع أوتو وكورنيليا إلى الطابق تحت الأرضي، نحو مطبخ الخدمة. وحيدة، باستثناء ريزيكي التي تجول في أرجاء الدهليز، تأملت نيلا هديتها، وهوى قلبها. همست لنفسها" لم أعد صغيرة على هذا" من سيرى هذا العمل الفني، من سيجلس على تلك

الكراسي، أو يأكل الطعام الشمعي؟ إنها لا تملك أصدقاء، ولا عائلة في هذه المدينة لتأتي وتهتف متعجبة - إنه تعصيب لعجزها، وأنوثتها المحبوسة. قال زوجها، هو منزلك - ولكن من يمكنه أن يعيش في غرف مُصغَّرة، في هذه المربعات التسع المصمتة؟ أيُّ نوع من الرجال يشتري هدية كهذه، مهما كان غلافها فخماً، مهما بلغ جمال صنعتها؟

- لستُ في حاجة إلى التعلم. قالت جهراً. وأنت رزيكي، فقالت لها نيلا: "لا شيء يُخيف. إنها مجرد لعبة." ربما يمكن تفصيل قبعة من الستائر، هكذا فكرت، وهي تفتحها.

وقفت نيلا أمام جوف الخزانة المكشوف، ينتابها شعور بالتوتر. خيِّل إليها أن هيكلها الأجوف المصنوع من الدردار المزخرف يبادلها النظرات وكأنَّ جدرانه أعين. وتناهت إلى أذنيها من مطبخ الخدمة أصوات مرتفعة، كورنليا تترأس الكلام، وأوتو يجيب في هدوء. وضعت يدها مترددة على الخشب مرة أخرى. له تأثير منعش مقارنة بالقطيفة، صلب كحجر مصقول.

قالت نيلا لنفسها" في غياب مارين وهذين الاثنين في مطبخ الخدمة في الأسفل، أستطيع أن أحضر بيبو وأطيِّره قليلاً. لن يلاحظ يوهانس، وسوف أُسرُّ برؤية بيغاني يحلق في الهواء. لكنها عندما تتحول عن الخزانة إلى السلم الرئيس تقفز أفكارها مرة أخرى إلى الثقب البعيد في باب مارين، في الأعلى في نهاية الممر. انسي هذا التحقير ببيت الدمى، هكذا أقنعت نيلا نفسها وهي تغلق ستائر الخزانة ذات اللون الخردلي. في وسعكِ أن تذهبي أينما أردتِ.

تركت نيلا، بقلب خافق، هدية يوهانس مهجورة فوق البلاط، وشقت طريقها على السلالم نحو غرفة مارين، وقد

نسيت كل شيء عن بيبو. إلا أنها شعرت أن شجاعتها المزعومة تأخذ في التراجع. ماذا لو ضبطني أحدهم؟ هكذا تساءل، وخيالها ينطلق مرة أخرى وهي تقطع الممر مُهرولة بأقصى سرعة تسمح بها تنورتها. ماذا سيحدث لي عندها؟

لكن نهلا فتحت الباب الثقيل وعلى عتبة حرم مارين، بُهتت وصرفها المشهد الاستثنائي في الداخل عن حذرها.

انتهاك

تجمدت على العتبة، لا تصدق ما تراه. كانت الغرفة التي بحجم خلوة راهبة، تحتوي على أغراض تكفي لتملأ ديراً. تساءلت: كيف تخلت مارين طوعاً عن المساحة الكبيرة لمخدعها القديم مقابل هذه الخلوة الطافحة بالتخيلات.

تدلى من السقف جلد مسلوخ لثعبان ضخم، مُنسدلاً مثل راية، أرق من أن يُلمس. ريشات من كل شكل ونوع، كانت في يوم ما على جسد طيور غاية في العجب، لمست برقة أصابعها الممدودة. وغريزياً بحثت نيلا عن ريشة خضراء، وتنفست الصعداء عندما لم تجد واحدة تشبه بيبو. و على الحائط ثبتت فراشة أعرض من كف يدها، قد تمَّق الأزرق السماوي لأجنحتها بدوامات من الأسود. الغرفة مفعمة بالروائح. أقواها جوزة الطيب، لكن الجدران نفسها تشيع أيضاً بخشب الصندل والقرنفل والفلفل، روائح دفء وتحذير.

تعمقت نيلا أكثر. فرأت على طول الرفوف الخشبية البسيطة جماجم حيوانية مصفرّة، تعود إلى مخلوقات تعجز حتى عن تخيلها - فكوك طويلة، خُف فطساء، أسنان قوية وحادة. درع خنفساء، لامع كحبوب القهوة، وقزحيّ في الضوء، ساطع بالأسود مع لمسة من الأحمر. درع سلحفاة مقلوب يتأرجح برقة عندما تلمسه. نباتات وثمار لبية مجففة، قرون بذور، والبذور نفسها، مصدر هذه الروائح المُسكرة، في كل مكان. هذه الغرفة لا تنتمي إلى أمستردام، وإن كانت تُظهر حبَّ الأمستردامين للاقتناء. إنها امتداد الجمهورية، في أربعة جدران صغيرة.

هناك خريطة للقارة الأفريقية، ضخمة، ومضمورة جداً. وفي منتصف خط الساحل الغربي مكان مطوق يُدعى بورتو نوفو، فوقها كُتبت أسئلة، بخط مارين الأنيق. طقس؟ طعام؟ دين؟ هناك خريطة لجزر الهند، بدوائر وأسهم عديدة، تحدد من أين جاءت النباتات والحيوانات الموجودة في هذه الغرفة. جزر الملوك ١٦٧٦م، باتافيا ١٦٧٩م، جاوه ١٦٨٢م - رحلات بحرية لم تقم بها مارين بنفسها قطعاً.

على الطاولة قرب النافذة دفتر مفتوح، ويظهر أنه يحوي تصنيفاً دقيقاً لكل هذه الأشياء. تجري الكلمات على يد مارين أفضل من لسانها، وتميّزه نيلا من الظرف الذي أرسل إلى والدتها سابقاً من هذا العام. تشعر من جديد بتوتر الشخص المُنتهِك - تتنازعها الرغبة المستميتة في البقاء واكتشاف المزيد، والخوف من المصيدة التي ولجتها طوعاً. تُفكِّر، لستُ سيدة لهذا المنزل أكثر من أرابيلا الصغيرة في أسِدلفت.

في آخر الرف، مصباح غريب المظهر، له جناحا طائر ورأس امرأة وثدياها. مدت نيلا يدها لتلمس معدنه السميك البارد. وإلى جوار المصباح، تلٌ من الكتب، ينبعث من صفحاتها مزيج عضوي من روائح الرطوبة وجلد الخنزير. تناولت نيلا أول كتاب، وقد غلبها الفضول لمعرفة قراءات مارين، فلم تنتبه إلى أي شخص يصعد الدرج.

الكتاب الأول دورية أسفار بعنوان الرحلة المنحوسة لسفينة باتافيا. يعرف أكثر الناس في المقاطعات المتحدة بقصة تمرد ابن كورنليس، وقيام لوكريتيا يانس بأسر ركاب السفينة وتورطها في قتل الناجين. ليست نيلا استثناءً، لكن والدتها كرهت الجوانب الماجنة هكذا في القصة. وعلّق والدها في حياته:

"بسبب تلك المرأة يانس، لم تعد النساء يعبرن كثيراً، وهذا شيء جيد أيضاً. النساء في السفينة يجلبن الحظ السيئ."

فأجابت السيدة أورغمان بحدة:

- إنهن يجلبن الحظ الذي يمنحه لهن الرجال.

أغلقت نيلا الكتاب، و أعادته إلى مكانه و هي تمرر أصابعها بنعومة فوق البروزات المتعرجة لكعوب الكتب. هناك الكثير منها، وبمقدار ما تودُّ قراءة جميع العناوين، فهي تعرف أنها لا يمكنها التلكؤ. لا بد أن مارين تنفق مبلغاً كبيراً على هذه العادة، هكذا افترضت نيلا، وهي تفرك الورق الفاخر.

تحت الرحلة المنحوسة كتاب لمنسيوس، والذي يعرف الجميع أنه نُفي من البلاد بسبب القتل. إن حيازة هذا الكتاب أقرب إلى الجريمة، وامتلاك مارين لنسخة منه أذهل نيلا. توجد أيضاً طبعة من القِطْع الكبير لرزنامة سانحان، وأمراض الأطفال لستيفانوس بلانكارت، والسرد المشهود لرحلة نيوهورن لبونتكو. قلبته نيلا سريعاً. إن كتاب بونتكو هو حكايات عن الرحلة والخطر، مليئة بنقوش خشبية بديعة، وروافد سفن محطمة، ولحظات شروق رائعة، وبحار مُبتلعة. أحد النقوش يصور شاطئاً. وفي الخلفية أمواج تحوي سفينة كبيرة. وفي الواجهة، رجلان يقفان متواجهين. الرجل الأول تمتلئ ذراعاه وساقاه بخطوط سوداء رفيعة، وفي أنفه حلق وفي يده رمح. أما الآخر فيرتدي زيًّا هولندياً قديم الطراز. لكنهما يحملان التعبير نفسه على وجهيهما. جامدان، ومحاصران داخل فلك تجربتهما المغلق، تفصل بينهما الهوة هي أوسع من البحر في الخلفية.

الكعب مرن، كان الكتاب قد استُخدم. وحينما تحركت نيلا لإعادته إلى مكانه، سقطت من بين صفحاته ورقة تغطيها

كآبة. رفعتها عن الأرض. جعلت تلك الكلمات الدم يتجمد في عروقها.

أحبك. أحبك. شِبرًا شِبرًا منكِ، أحبك.

شعرت نيلا بوخز في سقف حلقها. وضعت الكتاب مذهولة، وعاجزة عن ترك الرسالة غير العادية. هناك المزيد من الكلمات على قصاصة الورق - كلمات متعجلة مهزوزة ليست بخط مارين.

أنتِ نور الشمس في النافذة التي أقف أمامها، مستدفئًا.

لمسة واحدة تدوم ألف ساعة. حبيبتي—

اخترق ألم ذراع نيلا - شخص ما يقبض عليه ولا يفلت. ظهرت مارين، بوجه شاحب، وأدارت نيلا كدمية قماش، فطارت الرسالة إلى الأرض، وغطتها نيلا بقدمها، بينما مارين تجرها إلى الخارج. وتسألها بتهديد: "هل

- نظرتِ في كتبي؟ هل فعلتِ؟

- لا ... أنا...

- بل فعلتِ. هل فتحتهم؟

- لا، طبعاً...

أحكمت مارين قبضتها، كانت يدها ترتجف من الضغط. قالت نيلا بأنفاس مقطوعة: -

- مارين. أنا أتألم. أنتِ تؤلمينني.

لم تفلتها مارين لبضع ثوانٍ أخرى، ثم سحبت نيلا نفسها بقوة، وصرخت:

- سوف أخبر زوجي، سأريه ما فعلتِ!

تقول مارين بتهديد:

- لحن لا لحب الحونة. اذهبي، هيأ.

- ابتعدت نهلا مُتعثرة، فارتطمت بجلد الثعبان في أثناء فرارها. هتفت مارين من ورائها:

- هذه الأشياء ليست لكِ!" ثم صفقت بابها، وتبخرت رائحة التوابل.

تمتمت نهلا، وهي تنزوي في فراشها، فمها جاف وعقلها لا يصدق. لمسة واحدة تدوم ألف ساعة! ذلك الحبر كان رحيقا سريًا، فارين ليست متزوجة.

كانت الكلمات مكتوبة على عجل لكن نهلا متأكدة أنه ليس خط مارين. تُفكِر، ما كان عليَّ أن أدخل إلى هناك أبداً. ربما كانت مارين تنتظر في الظلام أيضاً لتضبطني مُتلبسة؟ تخيل مارين تشنقها بوساطة عارضة في السقف، وقبقاباها يسقطان من قدميها المتأرجحتين وسط الريشات، وجسدها البارد يستدفئ بنور شمس شاعري يتخلل النافذة.

بدأت صورة مارين في التبدل داخل عقل نهلا. فمن بين ملابسها السوداء الباهتة، نهضت مارين كطائر أسطوري، تخلفها رائحة جوزة الطيب، لا يلائمها الزنبق، أو رقة الزهور. إن مارين برموز المدينة التي تغطيها، هي ابنة نفوذها، تمسح الخرائط في سريةٍ، وتكتب الحواشي على العيِّنات، وهي تكتب حواشي لشيء آخر أيضاً، إلا أن تصنيفه ليس سهلاً. تخيل نهلا رائحة التوابل على جلد مارين، وهي تسمعها عبر المائدة المفروشة بقماش الدِّمَقس، تملي على شقيقها كيف يتاجر، من

هذه المرأة؟ شِبْرًا شِبْرًا منكِ، أحبك.

في اليوم التالي، قبيل الفجر مباشرة، تنزل على أطراف أصابعها إلى مطبخ التقديم. المنزل يغلفه الصمت، حتى أوتو وكورنليا ما يزالان نائمين. وبتصميم غير متردد، رفعت نِهلا قفص بيبو. وأخذته إلى غرفتها، وهي تفكر في تلك الريشات المعلقة، مُقتنعة أن عليها من الآن فصاعداً أن تبقي ببغاءها إلى جوارها.

دليل سميث

فوق رأس نهلا، رفرف بيبو وزقزق مُبتهجاً في أنحاء غرفتها، وعيناه السوداوان تلمعان. "قد تقطع مارين رأسك،" هكذا تخبر طائرها الصغير، وهي تشد حولها شالها أمام برد الصباح، لاجئة إلى التهديد لتحجيمه. يبدو الأمر سخيفاً وقد طلع النهار الآن، لكن قواعد هذا المنزل مراوغة كالماء. عليَّ إما أن أغرق، وإما أن أعوم، هكذا تقول نهلا لنفسها. كدمتها التي تشبه لطخة نبيذ صغيرة بعد أن مرَّ عليها يوم، تؤلم حقاً عندما تضغط عليها. إنه لأمر مُربك. هل يوهانس لا يرى شقيقته؟ إنه لم يفعل شيئاً لتطويع مارين، على الرغم من كرهها الواضح لعروسه الجديدة.

طرقة حادة على الباب تقلب معدة نهلا. تقول: "ادخل،" ويُضايقها الخوف في صوتها.

ظهرت مارين على العتبة، بادية الشحوب. وتقف نهلا فيسقط عنها شالها كاشفاً عن العلامة الداكنة. وفي المقابل حدقت مارين متيبِّسة في الببغاء، الذي كان يجثم الآن على لوح السرير الخلفي. إنها تمسك إلى صدرها كتاباً، فتنقبض أصابعها النحيلة حوله.

تقول نهلا:

- سأبقيه في غرفتي.

- هاكِ. قالت مارين بصوت متحشرج ويدها ممدودة، تقدِّم الكتاب.

- ما هذا؟!

- دليل سميت، إنه كشف بجميع الحرفيين والمتاجر في هذه المدينة.

- ولماذا قد أحتاج إلى دليل سميت؟ سألت نيلا، وهي تسحبه من قبضة مارين.

- لتزيين منزلك.

- أيهما، يا مارين؟

- إذا تركتِ تلك الخزانة فارغة، فإنكِ بهذا تحولين هدية يوهانس إلى جريمة سفه. يجب أن تفعلي شيئاً بها.

- لستُ مضطرة إلى فعل أي شيء...

واصلت مارين مُندفعة:

- هاكِ، هذه أذونات صرف عليها ختم أخي وتوقيعه. سحبت حزمة أوراق من الكتاب، وخلطتها بأصابع مضطربة: في وسع أي بائع تشترين منه أن يأخذ إذن صرفه إلى الستدهاوس ويبادله. ما عليكِ سوى كتابة المبلغ والتصديق على التوقيع. تمد مارين يدها بأذونات الصرف نحو نيلا وكأنها تجعل بينها وبين الشيطان مسافة: لا أكثر من ألف جِلدر لكل إذن صرف.

تقول نيلا:

- لماذا تفعلين هذا يا مارين؟ ظننتُ الكتاب المقدس يقول إن التباهي بالثروة لا مردّ له. لكنها تشعر بإثارة المال. إنها تتمنى لو يمكنها أن تنسى ذلك اليوم الفظيع الذي مات فيه والدها، عندما لم تجد أرابيلا شيئاً في صندوق النقود سوى زر وعنكبوت مقلوب. تُفكِّر، لن تفهم مارين رفاهية كهذه.

- خذيهم وحسب، يا بترونيلا.

سرت بينهما عدائية، لطخة اعتادت شكلها. عندما رفعت نيلا أذونات الصرف من يد مارين كما تقضي الأصول، فإنها لاحظت كم تبدو بائسة. فكرت، لو أن هذه مباراة، فقد خسرت كلتانا. ولكنها عندما تمرر أصابعها على أذونات الصرف، تشعر بقوتها الخفية.

- وماذا سيقول زوجي عن هذا؟

ظهر الإرهاق على وجه مارين:

- لا تقلقي. إن أخي يعرف خطورة البطالة."

بعد انصراف مارين، شرعت نيلا في إزاحة أي تفكير حولها والرسالة العاطفية. حملت دليل سميت إلى طاولة الكتابة وفتحته. كان الكتاب معروضاً بترتيب أبجدي أنيق حسب المهنة. الصيدليُّون، والفلكيُّون، والشمّاعون، وصانعو الشوكولاتة، ومؤلفو الأوبرا، وصانعو الأقفال، ليسوا إلا بعضاً من أصحاب المهن المتنوعين الذين يدفعون أجراً لماركوس سميت حتى يُعرفوا. وهم من يكتبون الإعلان بأنفسهم، من دون أية قيود على شكل كتابتها.

خارج نافذتها، تعجُّ القناة بالحياة. يتبادل المراكبية هتافات عن فرصة الشتاء في الجو، وفي ركن أبعد، ينادي بائع خبز على بضاعته، ويتصايح طفلان بطوق وعصا. وفي المقابل، يعم في داخل المنزل صمت وسكون، لا يخترقه في غرفتها سوى التكة الخفيفة لبندول الساعة الذهبي. وإذ تواصل نيلا تصفح الكتاب، يلفت انتباهها إعلان تحت حرف الصاد:

صانع دُمى

مُقيم عند يافطة الشمس، في الكالفرسترات

الأصل من برجن
تدربتُ على يد ساعاتي بروس العظيم، لوكاس فندِبريك
كل شيء، ولا شيء

إنه الإعلان الوحيد المُدرج تحت صانع دُمى، ويروق نيلا اقتضابه، ووقعه الغريب. هي لا تعرف أين تقع برجن، ولا ما يفعله صنّاع الدُمى، ولا أن الساعاتيّة يمكن أن يوصفوا بالعظمة. إن صانع الدُمى هذا ليس من أمستردام بلا شك، هذا واضح. وبالتالي لا يمكن أن يكون عضواً في نقاباتها - ولا يشرع التعاقد على عمل يجني من ورائه المواطنون المسجلون مالاً. والدها علمها ذلك. كان من ليدن، وزعم أن قوانين النقابة المتشددة هي المُلامة على تدهور حاله أكثر من أباريق الجعة. ولا يعقل أيضاً أنه توجد نقابة لصناع الدُمى، بالتأكيد؟ إن نيلا مدهوشة لوجود الإعلان في دليل سميث من الأساس.

ولأنها قد تحررت من الضغط الذي يسببه حضور مارين، شعرت نيلا بالتحدي في داخلها يتوطد. إن مارين لم تعتذر حتى عن قرصها وكأنها طفلة شقية. مارين، بخرائطها وتسلطها، يوهانس وبابه المُغلق دائماً، كورنيليا وأوتو، قدسهما المشترك، ولغتهما الصامتة التي تتمثل في التقطيع والتلميع وماء المسحة ولمعة السكين.

انتفضت نيلا واقفة، راغبة بشدة في التخلص من أفكارها، وما تسميه مارين خطورة البطالة. لا تجد نفسها قادرة على حب الخزانة، إنها إهانة لأنوثتها. لكنها إذ تنشر أذونات الصرف أمامها كالمروحة، تكون هذه أول مرة في حياتها ترى كل هذا المقدار من الأموال المُتاحة.

بينما يحلِّق بيبو حول لوحات يوهانس الثمينة، تناولت نيلا قلمها على المكتب وضجر غضبها في دفقة من الخربشات:

السيد العزيز،

رأيتُ إعلانك في دليل سميت، وأتمنى منك مساعدتي.

إنني أملك منزلاً من تسع غرف، بمقياس مصغَّر، معروضًا في خزانة. أغامر بطلب هذه الأصناف الثلاثة وأنتظر ردك. لا يسعني سوى تخمين أنك ماهر في فن المُصغَّرات. ليست القائمة شاملة أبداً، وأستطيع الدفع بسخاء.

صنف: آلة عود بأوتارها

صنف: كأس عروسين، مليء بقصاصات احتفال

صنف: علبة مرزبانية

مع امتناني مقدماً،

بترونيلا براندت، القاطنة عند يافطة الدلفين، الهيرِغراخت

لقبها الجديد يبدو مقتضباً جداً، وفظًّا جداً مقارنة باللقب الذي تسمَّت به لثمانية عشر عاماً. ما تزال تشعر بعدم ارتياح عند كتابته، كارتداء ثوب معين يخصها لكنه لا يناسب مقاسها. فتشطبه وتكتب مكانه شكراً لك، نيلا أورتمان. قالت نيلا لنفسها، سوف يلاحظ ذلك. وسوف يضحك على الأرجح. دست الرسالة في جيبها مع إذن صرف بثلاثمائة جلدر، ونزلت إلى مطبخ الخدمة لترى إن كانت تستطيع خطف فطور متأخر من على طاولة كورنليا المليئة بالنُّدب. قطعة خبز، شريحة لحم، أي شيء عدا الرنكة.

حشت كورنليا ما يبدو أنها أوزة بالجزر، من دون أن

تتصد في وحشية الفعل. وخلفها، يشحذ أوتو دبابيس ويصنع بها ثقوباً في ثمار الجوز. تساءلت نيلا لماذا يفعل ذلك، لكنها لم تسأل، إذ كانت قد اعتادت تملصه المهذب عن الإجابة. وفوق الموقد، يغلي مرق. بدت كورنليا وأوتو، من جميع الأوجه، مثل زوجين في كوخهما، يعدّان وجبتهما اليومية. شعرت نيلا من جديد بتقاربهما المريع، وجعلها هذا تشعر بالتعاسة. تتشبث بالخطاب في جيبها، محاولة أن تستمد القوة من تخريب سعي يوهانس ومارين إلى ترويض الوافدة الجديدة. تقول نيلا لنفسها، آه، سوف أزين منزلي، يا مارين - بكل الأشياء التي تكرهينها.

- هل يؤلمكِ، يا مدام؟ سألتها كورنليا، وقد علقت قشور الجزر في يديها الآن مثل شرائط احتفالات برتقالية باهتة.

شدت نيلا شالها حولها، وقالت:

- ماذا تعنين؟

- ذراعك.

- هل كنتِ تتجسسين؟

ألقى أوتو نظرة عاجلة إلى كورنليا، لكن الخادم تضحك:

- إنها مثل سلطعون يخرج من قوقعته ليقرص قرصة، يا مدام! نحن تجاهلها وكذلك يجدر بكِ.

أزالت كورنليا قشور الجزر، وقالت:

- أخذتِ طائرك، قالتها بشبه إعجاب. سوف أخبركِ بشيء. إن مدام مارين لا ترتدي سوى الأسود، لكن أسفله قصة مختلفة.

- ماذا تعنين؟

- كورنليا... صرخ أوتو محذراً، لكن كورنليا التي تبدو عازمة على منح نيلا معلومة صغيرة تابع:

- البطانة فرو سمور ومخمل، تحت كل فستان. إن سيدتي، التي تقتبس لنا من سفر حزقيال، «وَأُبِيدُ كِبْرِيَاءَ الأَشِدَّاءِ» - تمشي في الأرجاء مُرتدية فرواً سرياً.

- حقاً؟ ضحكت نيلا، مُتأثرة بهدية كورنليا، التي شجعتها، فنزعت شالها لتريها جرحها.

أطلقت كورنليا صفيراً، وقالت، وهي تختلس نظرة إلى أوتو:

- سيترك ذلك أثراً، لكنه سيبهت، مثل كل شيء آخر.

نيلا، التي كانت تأمل في استجابة أكثر أمومة، شعرت الآن بالحماقة. سألتها، وهي تخفي كدمتها:

- هل بقيتِ مُستيقظة حتى وقت متأخر مرة أخرى البارحة؟

- لماذا، يا مدام؟ رمت كورنليا بقشر الجزر في النار و هي تتناول ممسحتها.

شعرت نيلا بالأجواء الودّية تتلاشى مع كل سؤال تطرحه:

- أنا متأكدة أنني سمعتُ أصواتاً.

حدّقت كورنليا في دلو الماء المتسخ.

قال أوتو:

- إن الإرهاق يمنعنا من سماع أية أصوات.

ظهرت دانه من العتمة، وألحمت أنفها في يد نيلا، وراحت تدحرج على ظهرها وتعرض بطنها، على فرائها علامة سوداء صغيرة. تأملت كورنليا هذا الإظهار للمودة. وقالت، وفي

صوتها لمحة من الإعجاب:

- إنها لا تفعل هذا مع أي شخص. استدارت نيلا، وأخذت تصعد الدرج. نادتها كورنيليا، وكفها ممدودة. بلفيفة ساخنة بالزبدة:

- تفضلي، يامدام.

إن عروض السلام في هذا المنزل تأتي في أشكال غريبة.

سألها أوتو:

- إلى أين تذهبين، يا مدام؟

- إلى الخارج. إنه مسموح، أليس كذلك؟ سأذهب إلى الكالفرسترات.

دفعت كورنيليا ممسحتها في الدلو، فاندفعت المياه على جانبيه، وأصبح سطحه كمرآة مكسورة.

سألها أوتو بلطف:

- هل تعرفين أين ذلك، يا مدام؟

شعرت نيلا بقطرات من الزبدة تسيل على معصمها. قالت:

- سأعثر عليها. أملك حساً جيداً في معرفة الاتجاهات.

تبادل أوتو وكورنيليا نظرة أخرى أطول، ولمحت نيلا حركة خفيّة جداً من رأس أوتو.

ثم قالت كورنيليا:

- سأرافقكِ، يا مدام. أحتاج إلى بعض الهواء.

- ولكن...

قال أوتو:

- ستحتاجين إلى معطف، الجو بارد جداً.

لكن كورنيليا تناولت شالها، ورافقت نهلا إلى الخارج.

في الكالفرسترات

تمتمت كورنيليا:

- يا يسوع الحبيب. كان أوتو محقًّا. هذا الشتاء سيكون فظيعاً. لماذا تريدين الذهاب إلى الكالفرسترات؟

أجابت نيلا، وقد أزعجتها البساطة التي تطرح بها كورنيليا أسئلتها:

- سأترك رسالة لشخص ما.

- من يكون هذا الشخص؟

- لا أحد. حرفي.

- فهمت. ارتجفت كورنيليا، وتابعت:

- سوف نحتاج إلى شراء مخزوننا من اللحم قريباً، فلنتأخر حتى آذار على الأقل. عجيب أنه لم يرسل لنا حصة.

- من الذي لم يرسل لنا حصةً؟

- لا عليكِ. قالت كورنيليا، وهي تنظر نحو القناة وتأبط ذراع نيلا: شخص ما. تقارب جسدا الشابتين، وهما تسيران بسرعة في الهيرغراخت نحو مركز المدينة. لم يكن البرد ثقيلاً بعد، لكن نيلا شعرت باقتراب بطشه. أحست بذراع كورنيليا في ذراعها، فكرت في غرابة التلامس. لم يكن الخدم رجالاً ونساء في أسدلفت من ذوي الحميمية في تصرفاتهم. أغلبهم كان نافراً بوضوح.

- لماذا لم يأتِ أوتو؟ وعندما لم تقل كورنيليا شيئاً، واصلت

في إلحاح: رأيته، لقد رفض.

أجابت كورنليا:

- إنه يبقى في المكان الأسهل.

- الأسهل؟

ضحكت نيلا، وتجهم وجه الخادم، وتأمل نيلا ألا تمنحها أخرى. ولكن لا، عندما يتعلق الأمر بأوتو، فإن كورنليا تستفيض.

- إن توت يطلق على حظه سيفاً ذا حدين. إنه هنا، وليس هنا بعد.

- لا أفهم قصدكِ.

- لقد وُضع في سفينة عبيد برتغالية، يا مدام، مُكَبَّلاً من بورتو نوفو في داهومي إلى سوريتام. مات والداه. وكان السنيور يزور شركة الهند الشرقية في ذلك الوقت، حيث يبيعهم النحاس لمعامل تكرير القصب خاصتهم.

- ماذا حدث؟

- رأى السنيور حالة توت وأعاده إلى أمستردام.

- يوهانس اشتراه!

عضّت كورنليا على شفتها:

- إن النقود أحياناً تعمل أسرع من الدعاء.

- لا تدعي مارين تسمع قولكِ.

تجاهل كورنليا هذا التعليق، يبدو أن نافذة الثرثرة حول مارين وكلّاباتها قد أغلقت. تقول:

- كان أوتو في السادسة عشرة عندما وصل، وكنتُ في الثانية عشرة، حديثة عهد بالمنزل مثله.

حاولت نيلا تخيلهما وهما يصلان إلى عتبة الباب كما فعلت هي. هل كانت مارين تتربص في ظلام الدهليز حينها أيضاً؟ أي عالم تركه أوتو وراءه؟ إنها تتوق إلى سؤاله، لكنها لا تعرف إن كان سيرغب في الإجابة. كانت نيلا قد سمعت عن شجر النخيل، لكنها تعجز عن تخيل حرارة بورتو نوفو، أو عالم سوريام. كل ذلك قد استُبدل بحوائط من طوب وقنوات مياه، ولغة لم يكن يتكلمها.

تقول كورنيليا:

- إنه لا يختلف عن أي هولندي محترم، لكن الناس لا يفكرون بشكل واحد. اكتشفت نيلا عمقاً جديداً في صوتها: "عندما وصل لم يتكلم لشهر كامل. كان يستمع فحسب، دائماً يستمع، ثم أضافت بمكر طفيف: تلك البشرة البنية كحبوب القهوة. أراكِ عندما تحملقين.

قالت نيلا باحتجاج:

- لا أفعل.

- الجميع يفعل. معظم الناس لم يسبق لهم أن رأوا رجلاً مثله. عندما كانوا زماناً يأتون للزيارة، كانت السيدات يضعن عصافيرهن في شعره وكأنه عش. لقد كره ذلك، سكتت كورنيليا قليلاً: لا عجب أن مدام مارين لا تطيق ببغاءك.

سارتا وسط صمت غريب يخلف رصيفي القناة، والماء البني الراكد بينهما يشكل قشرة رقيقة من الجليد عند الحواف. حاولت نيلا التشبث بهذه الصورة للشاب الأسود، ورأسه

المملوء بالعصافير، وأصابع النساء تقتحم شعره. شعرت بالخجل لأن ذهولها به شديد الوضوح. إن يوهانس يعامله تماماً كأي رجل آخر، وأوتو كذلك فعلاً -لكن صوته، ووجهه- لا أحد في أمستردام سيصدق الأمر. سألت:

- لماذا لم تعد السيدات يأتين للزيارة؟

لكنها لم تتلق إجابة على هذا، لأن كورنليا تتوقف خارج متجر حلويّات، فوق بابه يافطة عليها مخروطا سكر واسم أرنود ماكفريد. تحثها كورنليا: "مدام، لنتوقف قليلاً هنا." و على الرغم من رغبتها في ممارسة ولو قليل من السلطة، شمت نيلا رائحة الخبز وانهارت مقاومتها.

في الداخل دفء لذيذ. وعبر فاصل متقوس في مؤخرة المتجر، يقع نظر نيلا على رجل ممتلئ في أواسط عمره، أحمر الوجه ويتصبب عرقاً بسبب الموقد. وعند رؤيتهما، أدار عينيه في محجريهما، وصاح في الهواء: "هانا، صديقتكِ هنا."

ظهرت امرأة، أكبر قليلاً من كورنليا، قلنسوتها مكويّة بعناية، وثوبها معفّر بالدقيق والسكر. أضاء وجهها و هي تهتف:

- كورنفلاورا!

قالت نيلا:

- "كورنفلاور؟"

تضرج وجه كورنليا،وقالت:

- مرحباً، هانا.

- أين كنتِ كل هذه المدة؟ وأشارت هانا إليهما بالجلوس في أبرد ركن في أرضية المتجر، وضعت لافتة تقول مغلق، وفي

أثرها رائحة قرفة.

هتف الرجل:

- ماذا تفعلين بحق الملائكة، يا امرأة؟

قالت هانا:

- آه، يا أرنود. خمس دقائق. تبادل الزوجان التحديق، وعاد هو إلى الموقد يصفع صوانيه بإيقاع غاضب. تمتمت هانا:

- - توفي إسفنجي هذا الصباح، ومرزبانية بعد الظهر. يحسن تجنبه.

قالت كورنيليا، وقد حُفِر القلق على وجهها:

- لكن تجنُّبه الآن يعني أن ترى الكثير منه لاحقًا.

رمت هانا إليها بنظرة، وقالت:

- حسناً، أنتِ هنا الآن وأنا أريد رؤيتك.

نظرت نيلا حولها إلى الأرضيات الخشبية اللامعة، ومنضدة البيع المُصنفرة، والمعجنات التي تزين واجهة المتجر، مُتراصّة كهدايا مغرية، وتساءلت لماذا جلبتها كورنيليا إلى هنا عوضاً عن اصطحابها مباشرة إلى شارع الكالفرسترات، لكن رائحة الكعك الحلو شهية جداً. من تكون كورنفلاور، الفتاة الأزرق والألطف التي استحضرتها زوج الحلواني؟ إن التعميد الشفهي مباغت وغريب يهز جوهر كورنيليا. تذكرت شيئاً قاله كورنيليا في أول صباح بالمنزل، حول مخاطبة أوتو بتوت. إنه يرى أسماء التدليل سخيفة، لكنني أحبها.

الورق المستخدم في تغليف الكعك يبدو غالياً، ويتوافر بألوان مختلفة: قرمزي، نيلي، أخضر عشبي، أبيض سحابي. نظرت

كورنليا إلى هانا نظرة ذات مغزى، وأمالت ذقنها في إشارة يبدو أن المرأة الأكبر فهمها، فقالت هانا لنيلا:

- رجاء، يا مدام. تفضلي بإلقاء نظرة على المكان.

بلباقة، طافت نيلا في أرجاء المتجر، تجول بعينيها على الفطائر، والبسكويت المتبل، وقطر القرفة والشوكولاتة، وكعك البرتقال والليمون، ولفائف الفاكهة. شاهدت أرنود عبر الفاصل المثقوب، يضرب الصواني الباردة ليفرغها من التوفي الإسفنجي العنيد، وفي أثناء ذلك،حاولت التنصت على هانا وكورنليا اللتين تتبادلان حديثاً خافتاً.

قالت كورنليا:

- إن فرانس وآغنس ميرماتز لم يريدا من السنيور سوى توزيعه. إنهما يعرفان مدى انتشار تجارته في الخارج. ومدام مارين تشجع الأمر. على الرغم من أنها تكره السكر، مع أنه سكَّرها!

- إن هذا قد يكسبهم جميعاً مالاً وافراً!

قالت كورنليا باستخفاف:

- هذا صحيح. لكنني أعتقد بوجود أسباب أخرى.

تجاهلت هانا هذا، واهتمت أكثر بما يتعلق بعملها:

- ولكن لماذا لا يبيعونه هنا؟ مع غياب نقابة تسيطر على هؤلاء الأنذال، فإن كثيراً من سكر هذه المدينة يُخلط في معامل التكرير الرخيصة بالدقيق والطباشير ويعلم الرب بماذا أيضاً. يوجد حلوانيون وخبازون بامتداد شارعي نيس وبانز ممن سيختارون منتجاً أفضل."

أطلق أرنود سباباً عالياً، وقد نزع التوق أخيراً.

تهتف هانا لنيلا ببشاشة:

- تذوقي شيئاً. ثم مدت ذراعها إلى منضدة البيع، عادت بصرّة مجعّدة قليلاً. أخذت نيلا، التي تحيرها رؤية الشفقة في عيني المرأة الأكبر منها، الهدية وفضتها. وجدت كرة عجين مقلية، مغلّفة بالسكر والقرفة.

- شكراً لكِ، قالت، وهي تعيد عينيها إلى أرنود الذي يشعل فرنه، متظاهرة أن انتباهها ينصب على الحلواني البدين وحده.

همست كورنيليا:

- هانا، أعتقد أن الأمر يحدث من جديد.

- لم تتأكدي قط في المرة الأولى.

- أعرف، ولكن...

- لا تملكين فعل شيء، يا كورنفلاور. تغاضي، هذا ما علمونا إياه.

- هان، ليت...

- صه، خذي هذا. إنه آخر ما تبقى تقريباً.

التفتت نيلا في الوقت المناسب لترى علبة تمرُّ بين المرأتين، فتختفي بسرعة من أصابع هانا إلى تنورة كورنيليا.

قالت كورنيليا وهي تنهض:

- يجب أن أذهب. علينا المرور بشارع الكالفرسترات، شددت على الكلمة.

ضغطت هانا على يد كورنيليا. وقالت: - حسناً، ادفعي الباب.

لقد انتهت دقائقي الخمس. عليَّ الذهاب ومساعدة أرنود. سيظن أي أحد أنه كان يصنع درعاً من خلال الطريقة التي يضرب بها تلك الصواني."

صارتا في الخارج من جديد، وسارعت كورنليا إلى الابتعاد. راحت نيلا تسأل: "

- من تكون هانا؟ ولماذا تناديكِ كورنفلاور؟ ولماذا ندفع الباب؟

لكن كورنليا ظلت كئيبة وصامتة، كان الحديث مع هانا قد أطلق حزناً غير متوقع.

الكالفرسترات شارع طويل، ومزدحم وبعيدٌ عن القناة، يمارس فيه بائعون كثر تجارتهم. لم يعد أحد يبيع عجولاً وأبقاراً هناك، لكن روث الخيول يضفي جواً عضوياً ولاذعاً وسط متاجر الطباعة والصباغة، ومتاجر الخردة والصيدليات.

- كورنليا، ما الخطب؟

- لا شيء، يا مدام. كان هذا ردها المتجهم الحاسم. لكن نيلا رصدت بالفعل يافطة الشمس. كانت شمس حجرية صغيرة قد نُقشت حقاً على يافطة مغروزة في طوب المبنى. كانت في طلائها الحديث بالذهب جرم سماوي نزل إلى الأرض، أشعة حجرية ساطعة تنبعث من كرة متوهجة. إنها عالية جداً في الحائط حتى أن نيلا تعجز عن لمسها. وتحت الشمس، نُقش شعار: كل شيء يراه الإنسان، فإنه يظنُّه لعبة.

- وهكذا يظل طفلاً إلى الأبد. قالت كورنليا بحزن: لم أسمع هذا المثل منذ سنوات. ونظرت يمين الشارع ويساره كأنها تبحث عن شيء ما. طرقت نيلا الباب الصغير الخالي

من النقوش، حتى أن المرء لا يكاد يلحظه وسط الضوضاء والضجيج، وانتظرت صانع الدُّمى أن يعلن عن نفسه.

لا أحد يجيب. وضربت كورنيليا الأرض بقدميها من البرد، قائلة:

- مدام، لا أحد في الداخل.

- انتظري فقط. قالت نيلا، وهي تطرق الباب من جديد. هناك أربع نوافذ تطل على الشارع، وخيِّل إليها أن ظلاً ربما يكون خلف إحداها، لكنها لا تستطيع أن تجزم. صاحت: "مرحباً؟" لكنها لم تلقَ جواباً.

ليس في اليد حيلة، مررت خطابها وإذن الصرف من عقب الباب إلى أعمق مسافة ممكنة. عندها فقط أدركت نيلا أن كورنيليا لم تعد معها. فنادت، وهي تجول بعينيها في الكالفرستراات:

- كورنيليا؟

تحجر اسم الخادم في حلق نيلا. إذ على بعد أقدام عدة من باب صانع الدمى، وقفت امرأة تراقبها. لا، لا تراقب - تحدِّق. ساكنة وسط الحشود المُتحركة، وعيناها ثابتتان على وجه نيلا. انتاب نيلا إحساس غير مسبوق بالاختراق، نظرة المرأة الثاقبة تشبه شعاع ضوء بارد يشرِّحها، يملؤها وعياً بجسدها. لا تبتسم المرأة، لكنها تنهل من نيلا، عيناها البنيتان أقرب إلى البرتقالي في ضوء الظهيرة الضعيف، وشعرها المكشوف يشبه شعاعاً ذهبياً باهتاً.

تسللت إلى عظام نيلا رجفة، فأحكمت شالها حولها، بينما المرأة تواصل تحديقها. كل شيء يبدو أكثر سطوعاً، وأكثر

وضوحاً، مع أن الشمس ما تزال خلف السحاب بعد. ظنت نيلا أن الطوب القديم، أو الحجر الرطب ربما يعلل التقلص المفاجئ للدفء. ربما، ولكن تلك العينين، لا أحد نظر إلى نيلا بهذه الطريقة من قبل في حياتها، بهذا الفضول الثاقب الهادئ.

كاد صبي يجر عربة يد أن يدهس نيلا في أثناء مروره. فصاحت من خلفه:

- كدتَ تكسر قدمي!

رد الفتى صائحاً:

- لم أفعل!

عندما أعادت أنظارها، وجدت أن المرأة قد اختفت. نادت: "مهلاً" وهي تشق طريقها في الكالفرستراات، وتلمح مؤخرة رأس بلون القمح الزاهي. لكن الشمس تنبلج من وراء الغيوم، وتحجب الرؤية أمام نيلا: "ماذا تريدين؟" رأت يقيناً المرأة وهي تختفي في زقاق ضيق، فأخذت نيلا تدفع الحشود بصورة أشد. وتغوص في هذا الزقاق المظلم، وفجأة، وثب قلبها عند رؤية خيال أمامها، لكنها وجدت كورنيليا، وحيدة في النهاية، شاحبة الوجه، وترتجف عند باب أمامي كبير.

فسألتها نيلا:

- أين هي؟ ماذا تفعلين؟ هل رأيتِ امرأة بشعر أشقر؟

سددت كورنيليا ركلة سريعة إلى لوح الباب، وقالت:

- كل عام، لأتذكر فقط كم أنا محظوظة.

- ماذا؟

أغلقت كورنليا عينيها، وقالت:

- بيتي القديم.

أصبح ضجيج الزبائن في شارع الكالفرسترات مكتوماً الآن بين جدران الزقاق المتقاربة، فاتكأت نيلا على الباب الذي ركلته كورنيلا، فوق عارضته وُضِعَت لافتة تُصوِّر أطفالاً يرتدون اللونين الأسود والأحمر رمز المدينة، ويتحلّقون حول حمامة عملاقة. وفي الأسفل، تمتد الكلمات في قافية غير مُضحكة:

أعدادنا تزيد وجدراننا تئن حولنا

جُد بما تستطيع حتى يسعد أطفالنا

سألت نيلا:

- كورنيليا، هل هذا ملجأ؟

لكن الخادم كانت قد غادرت الزقاق، نحو الحياة والضوء والضجيج. ولا تملك نيلا إلا اللحاق بها، وفي داخلها خواء من أثر نظرة المرأة الشقراء.

***

وحال عودتها إلى الهيرغراخت، اكتشفت نيلا أن مارين قد رتبت وضع الخزانة في غرفتها. ولأن الخزانة أعرض من أن يتسع لها باب غرفة النوم، فقد نُقلت برافعة من أمام المنزل.

- لم يكن ممكناً أن تظل في البهو، قالت مارين، وهي تفتح الستائر التي بلون الخردل لتكشف عن الغرف التسع الفارغة: إنها كبيرة جداً. كانت تحجب الضوء."

وبعيداً عن الوجود المتطفل للخزانة، صارت غرفة نيلا تفوح الآن برائحة الزنبق. وفي ليلة ذلك اليوم، وجدت زجاجة العطر

التي جلبتها من أسِدلفت، مقلوبة على جنبها، والزيت قد صنع بركة على الأرض في فوضى لزجة أسفل سريرها.

- كانوا عمال النقل. قالت مارين، عندما تريها نِلا الشظايا الزجاجية وتطلب تفسيراً. غير مُقتنعة، ألقت نِلا ببعض وسائد الزفاف المطرزة فوق اللطخة. وهي تأمل أن تمتص حشوتها الرائحة، مسرورة بغياب رموز الزواج الساحرة من أمام ناظريها.

اضجعت على ظهرها، تصغي إلى بيبو وهو ينقر في قفصه، والهواء تملؤه رائحة هدية والدتها غير السديدة، فكرت نِلا في أوتو وكورنليا، الولد العبد، والبنت اليتيمة. وتساءلت في نفسها: كيف وصلت كورنليا من هناك إلى الهيرِغراخت؟ هل أُنقذت مثل أوتو؟ هل أنتِ أيضاً أُنقذتِ؟ إن الحياة هنا تبدو، حتى الآن، نقيض الهروب.

في ظلام غرفتها، استحضرت الرأس الأشقر الفاتح والعينين الفريدتين للمرأة في شارع الكالفرسترات. كانت وكأنها تسلخ نِلا، مثل أحد الحيوانات في لوحات يوهانس، ثم تفكك جسدها قطعة قطعة. إلا أن نِلا في الوقت نفسه، شعرت باحتشاد في كل تركيزها. لماذا كانت المرأة هناك، في أكثر شوارع المدينة ازدحاماً، تقف وتحدق، ألم يكن لديها شيء أفضل تفعله؟ ولماذا كانت تنظر إلي؟

غطت نِلا في النوم، وهي تتخيل صحوناً فضية كبيرة ويوهانس يدوِّرها في الهواء، وقد التفت وجهه إلى سقفه المزيف، نحو العمق غير الموجود. وإذ تعمّق في هذا الكابوس اللولبي المضطرب، أيقظتها صرخة عالية قصيرة لما يبدو أنه كلب يتألم. ربما هي ريزيكي، هكذا فكرت، وقد أفاقت تماماً، وقلبها يدق

بقوة.

خيم الصمت من جديد كقماش الدَّمَقس، التفتت نهلا إلى الخزانة الفارغة، الضخمة، التي بدت أقرب إلى حارسة، تقف هناك منذ الأزل، في ركن غرفتها.

طرد

بعد ثلاثة أيام، كانت كورنيليا مع مارين في سوق اللحوم، وكانت نيلا قد سألتهما: - هل يمكنني المجيء؟ فردت مارين باقتضاب:

- سننجز الأمر أسرع أنا وكورنيلا.

كان يوهانس قد ذهب إلى مكاتب الفوك في الموجسترات القديمة، وأوتو في الحديقة الخلفية، يزرع البُصيلات والبذور للربيع القادم. الحديقة هي مملكته. فيها جُلّ وقته، فيشكِّل أسيجة جديدة، ويناقش يوهانس في رطوبة التربة.

وبينما كانت نيلا تعبر الدهليز مع بعض المكسرات التي اختلستها من أجل بيبو، سمعت طرقات متتالية على الباب الأمامي. أجفلت، ودست المكسرات في جيبها، وحاولت أن تفتح الباب الثقيل.

وقف أمامها شاب على أول سلم المدخل، لا يكبرها سوى بسنوات قليلة. حبست أنفاسها في حلقها. كان يباعد بين ساقيه الطويلتين وكأنما يحاول شغل كل المساحة. يتوّج وجهه الشاحب شعر أشعث داكن، وله وجنتان منحوتتان بدقة متماثلة. ملابسه عصرية لكنه يرتديها من دون ترتيب. فيخرج سوارا كُمّيه من ذراعي معطفه الجلدي الفخم، ويلتصق زوجا حذاء أحدث من المعطف بربلتي ساقيه وكأنهما يأبيان أن يفلتاه. أربطة قميصه مفكوكة، يظهر منها مثلث من جلده عليه بعض النمش. جسده حكاية في ذاته، يبدأ بالثقة وينتهي بالشك. أمسكت نيلا بإطار الباب، وهي تأمل أنها تتألق في

عينيه، كما بدا واضحاً تألقه في عينيها.

قال بابتسامة:

- طرد. باغت صوته و لهجته الغريبة نهلا، بلا نغم، ورتيبة. إنه يعرف الهولندية، ولكن يبدو جلياً أنها ليست لغته الأم.

وثبت ريزيكي، وشرعت في النباح أمام هذا الصبي، وزمجرت عندما حاول التربيت على رأسها. نظرت نهلا إلى يديه الفارغتين. وقالت:

- يُفترض بك استخدام الباب الخلفي لتسليم الطرود.

ابتسم مرة أخرى، وقال:

- طبعاً. دائماً ما أنسى. رغبت نهلا، التي أربكها جماله، في لمس تلك الوجنتين حتى لو كان ذلك لإبعادهما. ثم أحست بوجود شخص خلفها، فاستدارت، ووجدت يوهانس مقبلاً إليهما، شاقاً طريقه للأمام ومُعترضاً الطريق بين نهلا والفتى.

هتفت مُتعجبة:

- يوهانس؟ حسبتُك في العمل. لماذا أنت هنا.

سأل يوهانس الفتى:

- ماذا تفعل هنا؟ صوته أجش، يكاد يكون همساً. يتجاهل تعبير نهلا الحائر ويدفع ريزيكي الغاضبة إلى داخل المنزل.

وعلى الرغم من أن الشاب يضع يده بلا مبالاة تحت سترته، إلا أنه كان قد اعتدل قليلاً، وقرّب بين ساقيه. قائلاً:

- جئتُ لتسليم طرد فحسب.

- إلى من؟

- إلى نهلا أورتمان،

نطق الفتى لقب نهلا قبل الزواج بمكال حَذِر، مُواجهاً يوهانس بنظرة ثابتة، وشعرت نهلا بتوتر زوجها. مدّ الشاب يده بطرد موسوم بعلامة الشمس. هل انتهى صانع الدّمى من قطعي بالفعل؟ هكذا تتساءل، وهي تكاد لا تقمع رغبتها في انتزاع العلبة والركض إلى أعلى.

- إن سيدك يعمل بسرعة. قالتها مُعلِّقة، راغبة في استرداد شيء من الرزانة. فكرت، إنه طردي، وليس طرد زوجي.

استفسر يوهانس:

- عن أي سيد تتحدث؟

ضحك الشاب، وهو يسلمها الطرد، وتضمه نهلا إليها. وقال، وهو يتناول يد نهلا:

- أنا جاك فيليبس، من بيرموندزي. كانت قُبلته جافة ورقيقة، وخلفت رجفة من الإثارة.

- بير-موند-زي؟" لا تملك نهلا صورة يمكنها ربطها بهذه الكلمة الفريدة – لا تملك في الحقيقة معنى لهذا الفتى الفريد.

قال جاك:

- على حدود لندن. أعمل أحياناً لصالح الفوك. وأحياناً بصورة مستقلة. كنتُ ممثلاً في بلدي."

نبحت ريزيكي من الدهليز، وتردد صوتها في السماء المغيّمة، فسأله يوهانس:

- من استأجرك لتفعل هذا؟!

- أناس من جميع أرجاء المدينة يمنحونني أجراً لقاء توصيل الطرود، يا سنيور.

- من استأجرك هذه المرة؟

تراجع جاك خطوة، وقال:

- زوجك، يا سينور. زوجك. انحنى لنيلا، وهو ينزل الدّرجات على مهل ويبتعد.

قال يوهانس:

- تعالي، يا نيلا. دعينا نغلق الباب عن الأعين المتطفلة.

وفي الداخل، وجدا أوتو مُنتظراً على سلّم المطبخ، وفي يده مِدمّة، أسنانها الحادة تلمع في الضوء. سأل:

- من كان، يا سينور؟

- لا أحد. قال يوهانس، وأومأ أوتو.

التفت يوهانس إلى نيلا التي انكمشت أمامه، وقد بدا لها الآن أضخم في حيز البهو. - ماذا يوجد في الطرد، يا نيلا؟

- إنه للخزانة التي اشتريتها. قالت متسائلة ماذا سيقول إن رأى العود، والمرزبانة، وكأس العروسين.

- آه. ممتاز.

انتظرت نيلا مزيداً من الفضول، ولكن لا بوادر تنبئ بذلك في الواقع، لا يبدو على يوهانس شيء سوى الاضطراب: هل أضعه في الطابق العلوي؟ تستطيع المجيء والمشاهدة. هكذا عرضت عليه، علّه ينضم إليها. " في وسعك أن ترى كيف تكبر هدية زفافك."

أجاب بابتسامة متوترة، مُشيراً نحو مكتبه: "عليّ أن أعمل، يا نهلا. سأدعكِ لخصوصياتك."

"لا أريد خصوصياتي" صرخت في سرّها. سأنبذها حالاً إن كنتَ ستعيرني بعضاً من انتباهك.

لكن يوهانس كان قد رحل، وهرولت ريزيكي كعادتها خلفه.

***

اعتلت نهلا فراشها الضخم، وهي ماتزال مشوشة من رؤية جاك فيليبس البيرموندزي، جلست مع الطرد، الذي كان بضخامته التي تساوي عرض صحن غداء، وقد غُلِف بورق ناعم ودوبارة، وكُتبت حول الشمس جملة بحروف سوداء كبيرة:

كل امرأة هي مهندسة حظها

قرأتها نهلا مرتين، مُتحيّرة، فكّرت، إن النساء لا يبنين شيئاً، فما بالك ببناء أقدارهن. جميع أقدارنا في يد الرب، وأقدار النساء خاصة، بعد أن وضعها أزواجهن في أصابعهم، ووضعها المخاض بين فكي الرحى.

تُخرج أول المحتويات وتزن في كف يدها صندوقاً فضياً صغيراً. على قته، نُقش نون وألف، في محيط من الزهور والعرائش. رفعت الغطاء بعناية، مفصلاته المنمنمة جيدة التزييت، ولا تحدث صوتاً. وفي الداخل استقرت كتلة أنيقة من المرزبانية بطول حبة بنّ تقريباً، وتنتعش حينما تتخيل طعم سكر اللوز الحلو. تحسستها بظفر إصبعها ووضعتها على طرف لسانها. المرزبانية حقيقية، حتى أنها معطرة بماء الورد.

ثم أخرجت نهلا ثاني المحتويات. وكان العود، طوله لا يتجاوز

سبابتها، بأوتار حقيقية، وبدنه الخشبي ينتفخ ليحتوي صوت النغمات. لم تر مثل هذا من قبل، المهارة، والإتقان، وجمال هذه الأشياء. تنقر وتراً بتردد، وتذهل عندما يصدر عن الوتر الهادئ نغمة صدّاحة. تذكرت نهلا بقايا اللحن الذي عزفته ليوهانس في أسِدلفت، وأعادت عزفه الآن بمفردها.

وعندما مدت يدها للمرة الثالثة، ظهر لها كأس العروسين المطلوب. مصنوعاً من القصدير، وعلى حافته رجل وامرأة متشابكا الأيدي، ولا يزيد قطره عن عرض قمحة. جميع العرسان يشربون من هذا الكأس علناً أمام الحضور، كما كان يُفترض بها ويوهانس أن يفعلا في أيلول الماضي. تخيل نهلا كليهما يحتسيان رشفة من نبيذ رينيش، وهما يقفان في بستان والدها القديم، ويُهال على رأسيهما الأرز والبتلات. هذا الكأس الصغير هو تذكار لشيء لم يحدث قطُّ في الواقع. الشيء الذي اعتزمت أن يكون تمرداً على مارين جعل نهلا الآن تشعر بأنها غريبة وحزينة بصورة تدعو إلى الشفقة.

جمعت ورق التغليف لترميه، ثم شعرت بوجود محتويات أخرى في الداخل. ثمة خطأ هنا، هكذا ظنت، وحزنها تحول إلى فضول. كل شيء طلبته على الفراش فعلاً.

قلبت العلبة، فسقطت ثلاثة مجسمات مغلفة على الشراشف. فتحت نهلا بسرعة غلاف الأولى، فوجدت كرسيين خشبيين فائقي الجمال. نُقش على مساندهما أسود بحجم دعسوقة، وكُسي الظهران بمخمل أخضر مرصع بدبابيس نحاسية. فوق كل ذراع، تتلوى وحوش بحر في وريقات أقنثوس. أدركت نهلا أنها رأت هذين الكرسيين من قبل. الأسبوع الماضي في الصالون بالأسفل، كانت مارين تجلس على واحد منهما.

شعرت بشيء من عدم الارتياح، فضّت الجسم التالي. وبين ثنايا القماش كان ينتظرها شيء صغير إنما جسيم، فاستلته بحركة قوية. إنه مهد، مصنوع من خشب البلوط، ومرصع بزهور متشابكة، سيقانه من الصفيح وعلى غطائه شراشف من الدانتيل. أعجوبة خشبية هادئة، لكن حضوره المنمنم مع ذلك يسبب انقباضاً في حلق نهلا. وضعته في منتصف كفها، حيث يتهدهد في حركة مثالية، تكاد تكون من تلقاء نفسه.

فكرت، لا بد أنها غلطة، لا بد أن هذه القطع يُقصد بها شخص آخر. كراسي، ومهد، ربما الأشياء المعتادة التي قد تطلب امرأة نسخها من منزلها، لكنني لم أفعل. لم أفعل قطعاً. تُمزّق الغلاف الذي يحيط بالجسم الثالث، وتحت طبقة أخرى من قماش أزرق وجدت زوجاً من الكلاب المصغّرة. جسدين رشيقين لا يزيد حجمهما عن عثّة، يكسوهما فراء رمادي ناعم، ورأسان بحجم البازلاء. بينهما عظمة بحضانها، جذع قرنفلة مطلي بالأصفر، الرائحة مميزة. ترفع نهلا الحيوانين وتمعن النظر فيهما، وقد تجمّد الدم في عروقها. هذان الكلبان ليسا أي كلبين. إنهما ريزيكي ودانه.

رمتهما بسرعة كمن لُدغت، وقفزت عن السرير. في الزاوية المظلمة التي لا يصلها الضوء من الغرفة، كانت الخزانة ماتزال تنتظر ضيوفها الجدد. ستائرها ما تزال مفتوحة، كتنورة مرفوعة بصورة مُشينة. سمحت لنفسها بإلقاء نظرة سريعة على جسدي الكلبين المرميين. انحناء الخاصرة نفسه، والأذن الانسيابية الرائعة. قالت لنفسها:

- بربك، يا نهلا البزابيث. من قال إنهما الكلبان نفساهما المتقوقعان إلى جوار موقد كورنليا ؟"

رفعت الكلبين المُصغَّرين إلى الضوء. الجسد إسفنجي قليلاً، والمفاصل مبرَزة، يكسوها جلد فئران رمادي وناعم كشحمة أذن. وعندما قلبتهما على ظهريهما، تراجعت، وبات نبضها ضعيفاً، فعلى بطن أحد الكلبين نقطة سوداء صغيرة، تماماً في موضعها نفسه على بطن دانه.

حدقت نيلا في أرجاء الغرفة. هل يوجد أحد هنا؟ حاولت جاهدة أن تلزم المنطق. فكرت، طبعاً لا، يا نيلا - أنتِ وحيدة كما لم تكوني من قبل. من قد يرغب في عمل هذا المقلب؟ كورنيليا لا تملك المال الكافي لمثل هذه الحيل، ولا الوقت للتفكير فيها. ومثلها أوتو -ولن يكاتب قطماً شخصاً غريباً بإرادته؟

انتاب نيلا إحساس بالغزو، وكأن ثمة من يراقبها. عروس حمقاء في شهر العسل. فكّرت، إنها مارين. مارين تنتقم من يوهانس لزواجه مني واعتراضي طريقها. تريق عطر الزنبق الخاص بي، تحرِّم عليَّ المرزبانية، تقرص ذراعي بشدة. كانت هي من أعطتني دليل سميت. ما الذي يمنع مارين أن تؤجر صانع الدمى لإخافتي؟ إنها مجرد تسلية فارغة أخرى بالنسبة إليها.

ولكن. الفراغ والتسلية ليستا كلمتين قد يربطهما المرء بمارين براندت، وحتى أثناء تفكيرها فيها، تعرف نيلا أن الأمر يُجانب المنطق. إن مارين تأكل مثل فأرة وتتسوق مثل راهبة، باستثناء كتبها وعيناتها التي اختلستها على الأرجح من سفريّات يوهانس. ليس هذا من تدبير مارين، لأنه يتضمن إنفاق الأموال. لكن نيلا إذ تعيد النظر إلى القطع التي لم تطلبها، يتمنى جزء منها لو أن مارين فعلتها. لأنها إن لم تكن مارين، هكذا تتساءل، فأي أشكال الغرابة الأخرى دعوتُ إلى منزلي؟

كأن شخصاً ما قد تلصص على حياة نيلا وأوقعها في الحيرة، لو أن هذه الأصناف لم تُرسل خطأً، فالمهد إذن هو استهزاء من فراش الزوجية المهجور، فقد بدأت تشعر وكأنه عذرية أبدية. أي نوع من الأشخاص قد يجرؤ على وقاحة كهذه؟ الكلبان محددان جداً. الكرسيان، دقيقان جداً، المهد، إيحائي جداً، وكأن صانع الدُمى يملك منفذ رؤية خاصاً متكاملاً.

وبينما تعود لاعتلاء فراشها، تستوعب نيلا الاضطراب الذي أحدثه هذه القطع، كيف أن فضولها تمخض عن رعب حاد. تفكر، لن أقبل بهذا. لن أقبل تمزاً من بعيد ولا من قريب.

وبينما تستمع إلى تكّات البندول الذهبي، مُحاطة بتلك الطرود الغامضة، بدأت تكتب رسالة ثانية لصانع الدُمى.

سيدي،

إنني أشكرك على الأصناف التي طلبتها، والتي قام بتوصيلها اليوم جاك فيليبس البيرموندزي. إن حرفيتك لا مثيل لها. أناملك تصنع المعجزات. والمرزبانية خاصة رائعة.

يتلكأ قلم نيلا، ولكن قبل أن يُتاح لها تغيير رأيها، يلتقي رأس القلم بالورقة بسيل من الكلمات.

إلا أنك استطردتَ في الطرود بطريقة لم أتنبأ بها. إن الكلبين،على الرغم من دقتهما، قد يوحيان بتخمين مُوفّق، يا سنيور، لأن عامة الناس في المدينة يملكون كلاباً كهذه. لكنني لستُ من العامة - وهذان الكلبان، والمهد والكرسيان، ليسوا لي. ولأنني زوج تاجر مهم في الفوك، فلن يرهبني صنائعي. شكرًا على عملك ووقتك، لكنني سأقلص معاملاتنا فورًا.

المُخلصة بنية حسنة،

بترونيلا براندت

أخفت القطع تحت شراشف السرير، ونادت كورنليا، ووضعت الرسالة المغلقة والمُسوَّدة حديثاً في يد الخادم قبل أن تغير رأيها. سوف تعترف أن الاحتمال حقيقي تماماً. تفكر، ربما أكون قد رفضتُ شيئاً هنا، تحدّياً ما، غرضاً خفياً لهذه القطع المفاجئة، لن يُتاح اكتشافه أبداً. هل سأشعر بشيء من ندم؟ لا، هكذا تدارك نيلا نفسها. إنه خيالكِ وحسب.

قرأت كورنليا العنوان. وقالت:

- الحرفيُّ مرة أخرى؟ شخص ما؟

أمرتها نيلا:

- لا تفتحيها. أومأت الخادم، بصمت غير معهود إثر الإلحاح في صوت سيدتها الصغيرة.

لم تدرك نيلا، إلا بعد ذهاب كورنليا إلى الكالفرسترات، أنها لم ترفق القطع التي أرسلها صانع الدمى من دون طلب. أخرجتها واحدة تلو الأخرى من تحت الشراشف ووضعتها في الخزانة. فبدت في بيتها تماماً.

عبّارة



في اليوم التالي، بدت كورنيليا مُتجددة النشاط: تعالي، يا مدام. قالت الخادم، وهي تدخل الغرفة متوثّبة، ومارين في أعقابها.

- دعيني أصفف هذه الخصلات. أدسها تحت القلنسوة، وأداريها عن الأنظار.

- عمَّ تتحدثين، يا كورنيليا؟

قالت مارين:

- سيصحبكِ يوهانس إلى مأدبة في نقابة صاغة الفضة هذه الليلة.

- هل كانت فكرته؟

نظرت مارين إلى الخزانة، التي صارت ستائرها مغلقة الآن عن أعين المتطفلين. وأجابت:

- إنه يحب الولائم. وارتأى أنه من اللائق أن ترافقيه.

فكرت نيلا، الآن تبدأ المغامرة -زوجي يرمي بطوقه الصغير في البحار الهائجة بأرقى مجتمعات أمستردام- وهو، أفضل البحارة، سيكون هناك بوصفه مرشدي. صارفة تفكيرها عن الكلبين المصغّرين والمهد، مالت نيلا تحت سريرها، وأخذت مسحة من زيت الزنبق بأصابعها، وأمام عيني مارين، فركت بها عنقها.

وبعد انصراف مارين، سألت نيلا كورنيليا ماذا حدث في

الكالفرسترات، قالت الخادم:

- لم يجب أحد هذه المرة أيضاً، فرزته من عقب الباب."

- عند يافطة الشمس؟ ألم تري أحداً؟

- ولا نفساً واحدة، يا مدام. لكن هانا ترسل تحياتها.

***

سأل يوهانس في ذلك المساء، في أثناء انتظار عبّارتهم:

- مارين، لماذا لن تأتي؟ وكان يرتدي حُلّة رائعة من القطيفة السوداء، وقيصاً أبيض، وحذاء من جلد العجل مُلمّعاً كالمرآة على يدي أوتو، الذي ينتظر بفرشاة ملابس في إحدى يديه.

أجابت مارين، وهي تحدّق في عينيه بثبات:

- نظراً إلى جميع العوامل، أعتقد أنه عليك الظهور مع زوجك.

سألت نيلا:

- ماذا تقصدين نظراً إلى جميع العوامل؟

قالت مارين:

- حدث مع الناس، يا يوهانس. تباهى بها...

قاطع يوهانس شقيقته، مقطِّباً في وجهها:

- سأقدمكِ إلى الناس، يا نيلا. أعتقد أن هذا ما تعنيه مارين.

لكن مارين واصلت بملامح متجهمة:

- وتكلم مع فرانس ميرمانز، يا أخي. سيكون هناك الليلة. ادعه وزوجه لتناول العشاء.

وأمام دهشة نيلا، أومأ يوهانس. لماذا يسمح لأخته بالتحدث إليه هكذا؟

- يوهانس، هل تعد...

- مارين... انفجر يوهانس أخيراً أمام نبرة صوتها، وقال:

- - متى حدث أن أفسدتُ عملي؟

- لم تفعل. تنهدت، وتابعت: حتى الآن على الأقل.

***

شعرت نيلا بفمها جافاً، لكن معدتها في ميوعة سلّة سمك. إن الرحلة النهرية إلى نقابة صاغة الفضة هي المرة الأولى التي تنفرد فيها بزوجها خارج المنزل. يُخيَّل إليها أن الصمت سيغرقها، لكن الصوت داخل رأسها كان عالياً حد اقتناعها أن يوهانس أيضاً يسمعه. ترغب في سؤاله عن غرفة مارين المليئة بالخرائط، عن أوتو وسفينة العبيد، رغبت في إخباره عن الكلبين المنمنمين، والمهد، والعود المصغَّر الجميل. لن تخبره عن امرأة الكالفرسترات التي كانت تحدق فيها، لقد شعرت أنه شيء تريد الاحتفاظ به لنفسها، لكن فمها يرفض أن يتحرك، على أية حال.

شرع يوهانس في تنظيف أظفاره بذهن شارد. وسقطت الأوساخ الهلالية على أرضية القارب، وحينما لمحها تنظر إليه، قال:

- إنه الهال. يعلق تحت الأظفار. وكذلك الملح.

- فهمت.

استنشقت نيلا الهواء في القارب، أثر الأماكن التي سافر

إليها، رائحة القرفة العالقة في مسامه، تفوح منه بقايا رائحة من ذلك المسك الذي وجدت أثره في حجرة مكتبه ليلة أن عاد إلى المنزل في أول يوم لها. وجه زوجها البني وشعره الطويل جداً، الذي فتّحت الشمس لونه وفوّت الرياح خصلاته، يشعلان فيها شوقاً مُربكاً، رغبة ليست موجهة له بالضرورة، بل لمعرفة شعورها عندما يتبادلان الحب أخيراً. هدية الزواج في البداية، والآن هذه الرحلة معاً إلى النقابة، ربما سيحدث الأمر الليلة بعد المأدبة؟ كلاهما متورد الخدّين بفعل النبيذ، سيفعلانها.

الماء في غاية الانسيابية والمراكبي في غاية المهارة حتى لتبدو المنازل وكأنها تتحرك وليست العبّارة. نيلا، التي اعتادت ركوب الخيل، يصيبها الإيقاع المُخدِّر بالتقلقل، حيث يُفترض به أن يُهدئها في الوقت الذي تشعر فيه بكل شيء عدا الهدوء. تحاول التخلص من توترها باعتصار يديها. كيف أبدأ في حبك؟ - السؤال، بضخامته وصعوبة تجاهله، يدور ويدور داخل رأسها فيما تحدق فيه.

حاولت التركيز على بهو صاغة الفضة وكيف سيبدو، غرفة تغمرها أضواء مائية، أطباق تشبه قطعاً نقدية عملاقة، ووجوه المدعوين تنعكس على كل سطح.

يسألها يوهانس، مُقاطعاً أفكارها:

- ماذا تعرفين عن النقابات؟

- لا شيء.

امتص يوهانس جهلها بإيماءة، وشاهدته يغوص في داخله، مُتمنِّية لو أمكنها أن تبدو أكثر ذكاء. ثم قال يوهانس:

- إن نقابة صاغة الفضة تملك الكثير من المال. أحد أهم

النقابات. والنقابات توفر الحماية في الأوقات العصيبة، والتدريبات المهنية ووسائط البيع، لكنها أيضاً تحدد كمية العمل وتتحكم في السوق. ولهذا تحرص مارين على بيع السكر.

- ماذا تقصد؟

- حسناً، مثل الشوكولاتة والتبغ - والألماس والحرير والكتب، فإن سوقها حر. لا نقابة لها. أستطيع تحديد سعري - وكذلك فرانس وآغنس ميرمانز.

- فلماذا نذهب إلى نقابة صاغة الفضة؟

يبتسم مُظهراً أسنانه. "للفوز بوجبة مجانية. لا، إنني أمزح. إنهم يريدون مني أن أزيد من دعمي، وتسرُّهم رؤيتي أفعل ذلك فحسب. أنا الصدع في الجدار الذي يؤدي إلى الحديقة السحرية.

تساءلت نيلا، كم يبلغ سحر حديقته، وإلى أي مدى قد يفتح صرة نقوده؟ لقد بدت مارين في غاية القلق حول المال الذي أنفقه على بيت الدمى، وماذا يقصد أوتو حين قال:" يحدث الفيضان"؟ فكرت. كفاكِ سخافة. إنكِ تعيشين في الهيرنغراخت الآن.

كانت مارين حريصة جداً على أن تبيع سكَّر فرانس ميرمانز،" تكلمت بجرأة لم تلبث أن ندمت عليها. خيم سكوت طويل، طويل جداً، حتى ليُخيَّل إليها أنها تفضل الموت على تحمله لفترة أطول.

قال يوهانس أخيراً:

- إنها مزرعة آغنس ميرمانز، لكن فرانس تولى إدارتها. مات والد آغنس في العام الماضي من دون أن يُنجب ذكوراً على

الرغم من محاولاته المُضنية حتى أنفاسه الأخيرة: توقف عند رؤية نهلا تضرّج خجلاً: "

- أعتذر، لم أقصد التحدث بفجاجة. كان والدها رجلاً فظيعاً، ومع ذلك ورثت آغنس فداديه من حقول القصب، جميع الأوراق تحمل اسم امرأة، على الرغم من جهود والدها الكبيرة كلها. وقد سلبتهم الآن إلى فرانس. تلك المخاريط من السكر جعلت من كليهما بين عشية وضحاها شخصين قد يفعلان أي شيء من أجل المال. إنه ما كانا ينتظرانه.

- ما هو الذي كانا ينتظرانه؟

- فرصة جيدة. إنني أخزّن الأقماع في مستودعي، واتفقتُ على بيعها. لكن شقيقتي لا تثق في أنني سأفعل.

- لماذا؟

- لأن مارين تجلس في المنزل وتملك أفكاراً، لكنها لا تفهم الفروق البسيطة المتعلقة بالتجارة الحقيقية. إنني أفعل هذا منذ عشرين عاماً، منذ زمن طويل جداً، تنهد، وأردف: على المرء أن يطأ الأرض بحرص شديد، لكنها ترتطم بها مثل فيل.

- فهمت...

قالت نهلا مع أنها لا تعرف ما هو الفيل. بدا من وقع الكلمة أنها زهرة بهيّة، لكن لا يظهر على يوهانس أنه يمدح أخته:

- يوهانس، هل مارين، صديقة لآغنس ميرماز؟

ضحك يوهانس:

- لقد تعارفتا منذ زمن طويل، وأحياناً يكون من العسير أن يحب المرء أحداً يعرفه حق المعرفة. هاكِ إجابة سؤالك. آمل

ألا تصدمك."

انغرز التعليق في نهلا مثل شظية جليد:

- هل تؤمن بذلك حقاً، يا يوهانس؟

- عندما تتعمقين جيداً في معرفة شخص ما، يا نهلا، عندما ترين ما وراء اللفتات اللطيفة والابتسامات، عندما ترين الغضب والخوف البائس الذي يخفيه كل منا، فإنكِ لا تملكين حينها سوى المغفرة. جميعنا يحتاج إليها بشدة. ومارين، ليست ممن يغفرون بسهولة. سكت قليلاً، وأردف: توجد سلالم في هذا المجتمع... وآغنس تحب تسلقها. المشكلة هي أنها لا تحب المنظر أبداً. لمعت عيناه أمام نكتة غير مرئية:على أية حال، أراهنكِ بجلدر أن فرانس سيرتدي أكبر قبعة في الغرفة، وآغنس هي من ستجعله يرتديها.

- هل غالباً ما تذهب الزوجات إلى هذه الولائم؟

ابتسم قائلاً:

- تكون النساء پروبيداس في العادة، إلا في المناسبات الخاصة. لكن نساء أمستردام يحظين بحرية يفتقر إليها الفرنسيون والإنجليز.

- حرية؟

- تستطيع المرأة أن تسير بمفردها في الشارع. ويستطيع الزوجان حتى أن يشبكا أيديهما. يسكتُ مرة أخرى، وهو ينظر عبر النافذة. "هذه المدينة ليست سجناً، ما دمتِ ترسمين طريقكِ بصورة صحيحة. قد يتأفف الأجانب بكلمات مثل ويل-آي-نهيرز، وآلورز، لكني واثق أنهم يغبطوننا.

أجابت نهلا:

- طبعاً، لم تكن تفهم كلماته الأجنبية على الإطلاق، برويبيداس. كان يوهانس خلال إقامتها القصيرة في المنزل، كثيراً ما يتحدث بلغات أخرى، وهو يفتنها عندما يفعل ذلك. لا يظهر أنه يتفاخر - بل هي محاولة للتعبير عن معنى تعجز لغته الأم عن بيانه. أدركت نهلا أنه لا رجل، لا شخص في الواقع، تحدث إليها قط بطريقته الليلة. بصرف النظر عن التلميحات الغامضة، فإن يوهانس يعاملها بمساواة، يتوقع منها أن تفهم.

قال:

- تعالي هنا، يا نهلا.

تحركت نحوه مُطيعة مع شيء من الخوف، رفع ذقنها برقة ليُطيل عنقها. وبادلته التحديق كانا يقوّم أحدهما الآخر كجارية وسيّد في السوق. وبينما يحتوي وجهها بين يديه، يلمس منحنى خدها النضر. تميل إلى الأمام. أنامله خشنة، لكن هذا ما كانت نهلا تنتظره. صدغها ينبض من أثر لمسته. أغلقت عينيها، فيما تتذكر كلمات والدتها - الفتاة تريد الحب، تريد الخوخ والقشدة.

سألها يوهانس:

- هل تحبين الفضة؟

- نعم. قالتها نهلا همساً. لن تفسد هذه اللحظة بالثرثرة.

قال يوهانس:

- لا شيء في العالم أجمل من الفضة. ثم أبعد يديه عن وجهها، فتحت عينيها على اتساعهما، وقد شعرت بهجمة من

الإحراج مع وقفتها المائلة.

- سوف آمر بصنع قلادة تليق بهذا العنق.

بدا صوته بعيداً عن هدير أفكارها، فركت حنجرتها وكأنها تعيدها إلى الحياة، وسمعت نفسها تقول:

- شكراً لك.

- أنتِ الآن زوج. يُفترض بنا أن نُجِلّكِ.

ابتسم يوهانس، لكن الجملة بدت مؤلمة لنيلا، وتحجّر الخوف في أعماقها، ولم تجد شيئاً تقوله.

- إنني لن أؤذيكِ، يا بترونيلا.

نظرت نيلا عبر النافذة إلى التدفق غير المنقطع لواجهات المنازل التي تمر أمامها. تضمّ ساقيها بإحكام، وهي تتخيل لحظة حميمة هل شيء ما بداخلها سيتمزق، هل سيكون الأمر مؤلماً كما تتخيل وتخشى؟ أيًا كان الإحساس، فهي تعلم أنها لا تستطيع تجنبه، ويجب أن تتجاوزه.

قال يوهانس:

- أنا جاد فيما أقول. جاد جداً. ومال نحوها. روائح الملح والهال العالقة به، لحولته الغريبة، تهددان بالاستحواذ عليها.

- نيلا، نيلا، هل تصغين إليّ؟

- أجل. أصغي إليك، يا يوهانس. أنا ... أنت لن تؤذيني.

- جيد. ليس هناك ما يدعوكِ إلى الخوف مني."

قال يوهانس هذا، وتراجع محدقاً في المنازل المُطلة على القناة. تذكرت نيلا الصورة في كتاب الأسفار الخاص بمارين، الأصلي

والمُحتل، مساحات شاسعة من سوء الفهم بين جسديهما. كان الليل قد حلَّ بتمامه. نظرت إلى أضواء القوارب الأصغر حجماً، وشعرت أنها وحيدة تماماً.

شركاء الزواج

كانت قاعة الطعام في نقابة صاغة الفضة واسعة وتعج بالناس، الذين تمازجت وجوههم في غشاوة من الأعين والأفواه والريشات التي نوائبت من أطراف القبعات. حولهما، صوت اصطكاك أوانٍ فضية يتصاعد، وضحك رجالي يبلغ أعلاه إلى نقيض أكثر رقة من ضحكات نسائية مكتومة. هناك وجود هائل للطعام، حيث اصطفت موائد طويلة يكسوها الدَّمَقس الأبيض، تعلوها أطباق الدجاج والديوك الرومية والفواكه المُغلَّفة بالسكر، وفطائر الخس لحوم والشمعدانات الفضية. تأبط يوهانس ذراع نيلا بإحكام، وسارا حول الجمع المُدوِّخ، مُلتزمين الجدار المكسو بألواح الماهوجني الداكن، والهمسات والضحكات المكبوتة كأنها تلاحقهما حول الغرفة.

تحركت بقية الزوجات بانسيابية إلى أماكنهن، وقد بدا على كل منهن أنها تعرف أين تجلس. جميعهن يرتدين الأسود، ويغطين ما فوق صدورهن ب"جابوط" من الدانتيل، شريحة من الجلد الأبيض للعرض. امرأة بذاتها قفزت بعينين لامعتين كالكهرمان الأسود في ضوء الشموع، مُستهدفة نيلا. نظرتها تختلف تماماً عن نظرة المرأة في شارع الكالفرسترات. قال يوهانس، وهو يمنح المرأة ابتسامة مُتصلِّبة:

- ابتسمي، واجلسي معي. دعينا نأكل شيئاً قبل مواجهة الحشود.

خُيِّل لنيلا أنها قد تُؤكل حية لولا الطعام.

اتخذا مجلسيهما إلى مائدة وُضع عليها أول صنف مكون من

السلطمون.

- إنني أجد في الطعام كثيراً من نفسي. قال يوهانس مُعلِقاً وهو يرفع شوكة السلطمون. وتساءل نيلا، مُحدِقة في الأمشاط الفضية اللامعة وأباريق النبيذ البارزة، عما يعنيه. إنه ينسى مشكلاته مع مارين في حضور هؤلاء الآخرين. ويصير يوهانس لطيفاً، مُدركاً لنظرات الضيوف المجتمعين، يدردش مع عروسه الصغيرة وكأنهما أمضيا عقدين من الزمان معاً يجران حول العالم.

قال يوهانس بصوت مرتفع:

- بذور الكمون، التي تزين الجبن الطازج، تُذكِّرني بأنني شخص مُبهج. زبدة دلفت – التي هي غاية في النعومة والدسامة، وغاية في الاختلاف عن غيرها من الأنواع، تمنحني أبلغ الرضا. إنني أبيع الأطباق الصينية في دلفت وأبتاع منها قوالب كاملة. أما جعة الخوخ بالمردقوش من يد كورنيليا فهي تمنحني سعادة تفوق سعادتي بصفقة ناجحة. لا بد أن تعدَّ لكِ شيئاً منها.

أجابت نيلا، وقد بدأت أصوات المضغ واصطكاك الأواني ترهبها:

- إن أمي تصنعها. شعرت أن حيوية الغرفة تستنزفها، تبلورها مثل قطع الفاكهة المُغلَّفة بالسكر.

لكن يوهانس من دون انتباه لما قالت، يتابع: - التين والقشدة الحامضة في وجبة فطور مبكرة بالصيف، هي فرحة استثنائية، تعيدني إلى أيام الطفولة، التي لا أتذكر منها سوى المذاق، ونظر إليها قائلاً: تتذكرين طفولتكِ، بلا شك، إذ لم يمضِ عليها زمن طويل.

تساءلت نيلا: هل تراه تعمَّد هذا المعنى اللاذع، أم أنه أحد أعراض جرأته، التي استمدها من وجوده هنا وسط الصحبة، وتحت نظراتهم المُدققة؟

وعلى أي حال، فهي تريد الاعتراض على قوله. إن طفولتها تبدو الآن بعيدة بصورة لا تُصدق. كانت قد استُبدلت بالشكوك، ومعدل أساس من الاستياء المتواصل. ينقسم حجر الخوف في بطنها إلى توتر مُضْنٍ، فهي تكره تنافر الأصوات في هذه الغرفة، ورنين هذه المحادثة، واجتياح الغرباء.

تمتمت:

- لقد تركتُ مهدي منذ زمن طويل. وتذكرت المهد الذي أرسله صانع الدمى من دون أن تطلبه، فشعرت بمزيد من الغثيان.

قال يوهانس:

- الذكريات المُرتبطة بالطعام. الطعام لغة في ذاته. الجزر الأبيض واللفت والكراث والهندباء، أقرمشها عندما لا يوجد أحد قد يسمع. والسمك! المفلطح، وسمك موسى، والداب، والقد، هم أكثر الأنواع التي أحب، لكنني سأتناول أي شيء آخر تقدمه البحار والأنهار التي تجري عبر بلادي.

شعرت نيلا أن طريقة حديثه تطوي احترازاً، وكأنه يأمل أن تحمي كلماته عقلها من التوهان في القلق. استجمعت شجاعتها لمجاراته، وسألته:

- ماذا تأكل عندما تكون في المحيط؟

وضع شوكته، وقال:

- آكل رجالاً.

أطلقت نيلا ضحكة، انفجرت بخجل، ورفع قطعة أخرى من السلطمون إلى فمه. وقال: -

- إن أكل لحوم البشر هو الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة حال نفاد الطعام، لكنني أفضل تناول البطاطا. تقع حانتي المُفضّلة في هذه المدينة على الجزر الشرقية، قرب مستودعي. يصنعون بطاطا ساخنة لُبها من أطرى ما يكون." نكز السلطمون في صحنه: إنها مكاني السري.

- لكنك أخبرتني به لتوّك.

وضع شوكته على المائدة. وقال:

- حقاً فعلت. حقاً فعلت. يبدو عليه أنه أخذ بتعليقها، و أشاح بعينيه إلى سلطمونه. ونيلا، التي لا تجد شيئاً تقوله، تعاين بدورها أشلاء السلطمون المعرّضة للتلف، كلاباته بلون الحبر، وقوقعته تشكل ظلالاً حمراء أكثر التهاباً. وفيما ينتزع ساقاً ويستخدم شوكته لاستخراج آخر ما تبقى من ألياف بيضاء، يصيح يوهانس بتحية لأحد صاغة الفضة. نجحت نيلا في تناول لقمة صغيرة من سلطمونها. كان مذاقه مالحاً، ويلتصق بأسنانها.

يغادرها يوهانس بعد انتهائه من تفريغ سلطمونه تماماً: "لن أغيب كثيراً" قالها بتنهيدة. "إنه العمل" وانضم إلى مجموعة من الرجال في أحد الأركان.

شعرت نيلا أنها مكشوفة تماماً من دونه، لكنها تراقب بافتتان تحوّل زوجها الظاهر. حتى لو أن يوهانس سئم من الحديث عن العمل، والطلبيات، وحالة التجارة، فقد نجح في إخفاء ذلك. كم يبدو وسيماً مقارنة بالآخرين، على الرغم من معاطفهم

وأحذيتهم الجلدية الفاخرة. علت الضحكات فوق قبعاتهم، وتراجعت رؤوسهم إلى الخلف، ووسط الوجوه البيضاء والخدود الحمراء، بلحى تناثرت عليها بقايا صغيرة من السلطمون، تمركز يوهانس، مُسْمراً ومبتسماً.

فكرت نهلا، في وسعي أن أحبه. لا صعوبة في أن تكون المرأة زوج رجل كهذا. والحب يجب أن يأتي، وإلا ضاقت الحياة. ربما سينمو على مهل، كإحدى بذور أوتو الشتوية.

شرع التلامذة في الاقتراب من يوهانس، فيريه كل منهم صنع يديه، وهو يتناول كل قطعة، فيحمل الأباريق والمزهريات الفضية باحترام مُرهف. بإطراء واحد منه ينصرف الشبان مسرورين. تراجع بقية التجار، وهم يشاهدون يوهانس بأعين فطنة يفتح المجال للنقاش في الفن، ومزايا النقوش التي تصور مشاهد البحر مقارنة بالأشكال الزهرية. إنه يظهر اطلاعاً، وقوة ملاحظة، نادرين حتى الصميم. فيدوِّن الأسماء، ويقبل صندوقاً فضياً، ويخبر تلميذاً أن يقابله في الفورك.

وبينما تنظر نهلا إلى ثاني أصناف العشاء، والذي هو زبدية تحوي إسكالوب مرشوش بمرق اللحم وصلصة البصل، تُقبل المرأة صاحبة العينين الثاقبتين. ظهرها مستقيم، وشعرها الأشقر ملفوف داخل قلنسوة متقنة يتوجها شريط أسود من القطيفة، خيطت على طول تقوسه لآلئ صغيرة. في سرها شكرت نهلا الرب على معجزاته الصغيرة، على حياكة كورنيليا الرشيقة التي جعلت فستانها يناسب مقاسها.

توقفت المرأة عند المائدة، وانحنت بخفة، وقالت:

- حسناً، قالوا إنك صغيرة في السن. هل عمركِ؟

أمسكت نهلا بطرف زبديتها:

- إنني في الثامنة عشر.

اعتدلت المرأة في وقفتها، وعيناها تمسحان الغرفة. وواصلت بنبرة الصوت الهادئ نفسها:

- لقد تساءلنا كيف ستكون هيئتك. لكنني أرى الآن أن براندت يختار زوجه بالمعايير ذاتها التي يفعل بها كل شيء آخر. اسم أورثمان غاية في القدم. وماذا يقول سِفر الجامعة؟ "الصِّيتُ خَيْرٌ مِنَ الدُّهْنِ الطَّيِّبِ!" في نبرتها اهتمام وإعجاب، لكنها تنطوي على شيء يثير حساسية نهلا.

تحاول نهلا أن تحرر نفسها من مجلسها، لكن رأس الطاولة وتنورتها الكبيرة يتآمران لإبقائها في الداخل. انتظرت المرأة انحناءة التحية بصبر، مُراقبة محاولات نهلا. وأخيراً إذ تتحرر من الفراغ الضيق بين المسند والدكة، انحنت نهلا انحناءة كبيرة، واقترب وجهها من تنورة المرأة السوداء المُقصَّبة، وهي تمتد أمامها كجناحي غراب خانق.

قالت المرأة:

- هه اعتدلي، يا صغيرة، أنا آغنس، زوج فرانس ميرمانز. نقيم عند يافطة الثعلب في البرنسغراخت. إن فرانس يعشق الصيد، لذا هو من اختار المكان.

هذه الحيمية المعروضة تعلّق بصورة مُحرجة في الجو، وتكتفي نهلا بالابتسام، إذ كانت قد تعلمت من مارين أن في الصمت ربحاً أكيداً.

ربّتت آغنس على قلنسوتها ورأت نهلا ما يُفترض أن تراه -الخواتم التي تزين كل واحد من أصابعها- ياقوتاً أحمر

وجمشت وزمرداً بلمعته الخضراء المعدنية. إن هذا العرض العلني لكل هذه الجواهر الثمينة يكاد يخالف الطبيعة الهولندية -أكثر النساء يرتدين جواهرهن تحت طبقات عميقة من ملابسهن. تحاول نيلا تخيل يدي مارين تتلألأن بهذه الطريقة.

وأمام صمت نيلا، ابتسمت آغنس ابتسامة مقتضبة واستأنفت:

-إننا في حكم الجيران، جزء من الخيبورت نفسه.

تتكلم آغنس ميرمانز بطريقة مُتكلفة، كلماتها مُصطنعة، وكأنها كانت تتمرن على اللباقة أمام مرآة. حدّقت نيلا في هالة اللآلئ الصغيرة المتدلية التي تحيط رأس المرأة المُتعجرف. اللآلئ بحجم الأسنان اللبنية، تتلألأ في الضوء الراقص للشمعدانات.

ربما تكون آغنس أكبر قليلاً من مارين، لكن وجهها النحيف المجرد لم يَشُبْه شيء - فلا شامات أو بقعاً شمسية، لا هالات تحت عينيها، ولا إشارة لكدّ أو أطفال. تبدو لا مادّية، لا مأهولة، باستثناء تلك العينين الداكنتين، اللتين ترمشان في تعاقب سريع ثم ترتخيان في كسل سنّوري. تمعنت آغنس بفستان نيلا الفضي وخصرها الصغير، ثم سألتها:

- من أين أنتِ؟

- أسِدلفت. واسمي بترونيلا.

- اسم شائع تحمله كثيرات في هذه المدينة. هل كنتِ تحبين أسِدلفت؟

أسنان آغنس، كما تلاحظ نيلا، مصفرّة قليلاً. فكرت ملياً في أفضل إجابة تمنحها لهذه المرأة، التي يبدو أنها تختبرها:

- لقد رحلتُ عنها منذ أحد عشر يوماً يا مدام، شعرتُ بها عِقداً.

ضحكت آغنس:

- إن الوقت يشبه شمعة عنيدة في الشباب. وكيف وجدتكِ مارين؟

- وجدتني؟

مرة أخرى ضحكت آغنس، مُقاطعة نيلا، نفخة هواء خفيفة بدت مثل ازدراء. ليست هذه محادثة، بل هي آغنس تطلق سهاماً وتشاهدها تتغلغل. في صوتها ما يبدو أنه إيقاع لهو ثابت، لكن نيلا تثق في أن شيئاً آخر يجري خلف هذه الثقة المستقرة، شيئاً تحس به ولكنها تعجز عن تسميته. نظرت في عيني آغنس، وابتسمت مُدافعة عن ضيقها بأسنان أنضر وأنصع بياضاً.

من حولهما، روائح الدجاج المطبوخ ومنقوع الفواكه وصوت النبيذ الخافت في أباريقه تهدد بالتعدي على دائرتهما الصغيرة، لكن انجذاب نيلا المغناطيسي نحو آغنس يُبعد كل شيء آخر.

- عروس من أجل يوهانس براندت. قالتها آغنس مع تنهيدة، وهي تجذب نيلا برفق مُلحّ من ذراعها لتجلس معها على الدكة.

- لقد مضى زمن طويل جداً. لا بد أن مارين في غاية السرور، لطالما قالت إن عليه أن ينجب أطفالاً. لكن براندت كان يثير غيظاً شديداً بسبب رأيه في الوَرَثة.

- عفواً؟

- ليسوا رهاناً مضموناً، حسب قوله، وولِقون على الرغم من الرعاية، وأغبياء رغم ذكاء والديهم. ظريف إلى حد ما طبعاً، وبراندت ظريف دائماً. لكن على المرء أن يورث كل شيء.

ليس من الاحترام أو التوقير أن تستخدم آغنس لقب يوهانس وحده للتحدث عنه بهذه الطلاقة. شعرت نهلا بالإهانة، والخرس، عاجزة عن تخيل ظرف قد يجعل يوهانس يناقش أمر الورثة مع هذه المرأة الغريبة.

رفعت آغنس إبريقاً وأخذت تصبُّ لهما كأسين من النبيذ. ولبضع لحظات جلستا في صمت، تستطلعان حالة السُّكر المستقر، رذاذ البورت على المفرش الدَّمَقس، بريق الأطباق المرفوعة، آخر طعام يوضع. "الجودين بوخت،" قالت آغنس وعيناها تجثان في نهلا وكأنها مجموعة أوراق لعب: لا بد أنها تبدو لكِ من أسدلفت في بُعد باتافيا. ودست خصلة وهية خلف أذنها، فأرسلت أصابعها المزينة بالخواتم وميضاً من جديد.

- بعض الشيء.

- لكن زواجاً عن حب كزواجي، هو نادر جداً! إن فرانس يُدَلِّلني. هكذا همست وكأنه سر: كما أن براندت سيدللكِ.

أجابت نهلا، وهي تشعر بالسخافة:

- آمل ذلك.

قالت آغنس:

- إن زوجي فرانس رجل صالح.

حام التعليق الدخيل كتحدٍّ، ودهشت نهلا من هذه المواجهة الغريبة. ربما تكون طريقة نقاش عصرية، عدوانية ومستفزة،

فيُخيَّل للمرء أنها محادثة تخلو من التكلف.

تابعت آغنس:

- وهل قابلتِ الزنجي؟ أعجوبة! يوجد منه المئات في أرضي بسوريام، لكنني لم أقابل واحداً منهم.

ارتشفت نهلا من نبيذها.

- تتحدثين عن أوتو. هل ذهبتِ إلى سوريام من قبل؟

ضحكت آغنس، وقالت:

- يا للطفك!

- لم تفعلي إذن؟

- إن منحنا التركة بكاملها لهو مثال رائع على إحسان الرب، يا مدام. لا أخوة يتربصون، كما ترين، أنا فقط. كان يستحيل أن أخاطر بحياتي في رحلة مدتها ثلاثة أشهر، وقد وضع الرب محصول السكر الخاص بابا في عهدتي. كيف سأكرم ذكراه وأنا عالقة في مكان ما على سفينة؟

مالت آغنس عليها، وأردفت:

- أفترض أن الزنجي ليس عبداً بالمعنى الحرفي للكلمة. لم يكن براندت ليقبل أن نطلق عليه ذلك. أعرف اثنين من وصيات العرش تملكان واحداً هنا في أمستردام. أريد واحداً يعزف الموسيقى. الأمين العام على خزينة الجمهورية يملك ثلاثة، منهم امرأة، وهي تعرف العزف على كمان الساق! أفترض أن هذا إثبات على أن في وسع المرء الآن أن يبتاع أي شيء في وضح النهار. جميعنا نتساءل، كيف تُراه يجد الحياة هنا؟ كعادته، يحضره براندت إلى المنزل...

- آغنس... ناداها أحدهم: فأسرعت نيلا بالنهوض: من فضلك، قال الرجل الذي أمامهما، وهو يشير إليها ألا داعي إلى الانحناء تحية.

شبكت آغنس أصابعها الرشيقة في حجرها، وقالت:

- زوجي، سنيور ميرمانز. وهذه بترونيلا أورتمان.

- بترونيلا براندت. قالها، مُجيلاً أنظاره في الغرفة. "أعرف."

لوهلة، بدا المشهد، إذ الرجل واقف، والمرأة إلى جواره جالسة، ترتدي ثروتهما، وبينهما رابط خفيّ، هو أكثر صورة مثالية رأتها نيلا للزواج على الإطلاق. كان الاتحاد فيها مُهدِّدا.

كان فرانس ميرمانز أصغر قليلاً من يوهانس، إذ لم تلوّح وجهه الضخم آثار الريح والشمس، ويمكن لفكه الحليق العريض أن يأكل خمس أسقلوبات. ويحمل قبعة، حرفها أعرض من أي قبعة في الغرفة: فكرت نيلا، الجلدر لك، يا يوهانس، وتساءلت: ما الرهانات الأخرى التي يكسبها زوجها.

ميرمانز من الرجال الذين يسمنون سريعاً، حسب تخيلها. والأرجح أنه سيفعل نظراً إلى الطعام الذي يقدم في هذه الأماكن. كانت رائحته مثل رائحة الكلاب الممزوجة بالرطوبة ودخان الحطب، وأكثر بَرِية من دهن الفاكهة الذي تضعه زوجه. انحنى وتناول ملعقة برّاقة. وسألها:

- هل أنتِ صائغة فضة؟

ابتسمت آغنس باقتضاب أمام النكتة الثقيلة. وقالت:

- هل ستتحدث مع براندت الليلة؟

رفع ميرمانز رأسه تلقائياً، ومسح الغرفة. كان يوهانس قد

ترك المجموعة القريبة من مائدة نيلا وغاب تماماً عن الأنظار. قال ميرمانز:

- سنفصل. إن السكر في مستودعه منذ قرابة أسبوعين.

- علينا -أن نتفق على الشروط. ليس لأنها ترفض تناول الحلويات، فعلى الجميع أن يُحرم منها. ها. أطلقتها آغنس بقهقهة في الهواء، بينما تسكب لنفسها كأساً آخر من النبيذ، ويدها ترتجف قليلاً.

نهضت نيلا، قائلة:

- عليَّ أن أجد زوجي.

- إنه مُقبل علينا، قالتها آغنس بتزمُّت. وانحنت بتبجيل بطيء وعميق عند اقتراب يوهانس. قال يوهانس:

- - مدام ميرمانز. لكن الرجلين لا يتبادلان التحية بانحناءة لائقة.

- سنيور، همست آغنس، وعيناها الداكنتان تنهلان من قصَّة معطفه الفخمة. يبدو لنيلا وكأن آغنس تكبح رغبة عميقة في أن تمد يدها وتُمَلِّس ياقته المخملية:

- أراك تمارس سحرك المعتاد هذا المساء.

- ليس سحراً، يا مدام. إنه أنا وحسب.

اختلست آغنس نظرة إلى زوجها، الذي يظهر أنه يركز عينيه على مفرش المائدة، ثم وكأن في وسعه أن يشعر بعينيها على عنقه، يتحدث ميرمانز:

- كنا نريد التباحث في السكر... بدا صوته يتراجع، ورأت نيلا الغشاوة على وجهه غير الواضح.

- متى يُباع؟ هكذا طرحت آغنس سؤالها الذي يشق الهواء.

- إنني أبذل قصارى جهدي، يا مدام.

- طبعاً، يا سنيور. لا أملك أي شك في...

قاطعها يوهانس:

- إضافة إلى فساد فان ريبيك في مستوطنة الرجاء الصالح، والأباطرة الملاعين التافهين على حدودنا النائية، ومقدمي الرشاوي في باتافيان، والأسواق السوداء في الشرق، فإن الناس يتوقون إلى منتج جيد، وأنا أخبرهم أنه سيتوافر عن طريقكِ، يا مدام. أتخيل أن جزر الهند الغربية هي في النهاية من سينقذنا جميعاً، لكنني لن آخذ محصولكِ من السكر إلى البورصة. إن قاعة التداول هي سيرك، والسماسرة يحجبهم الماريّات (١) المجنونة. هذا السكر يحتاج إلى تصديره بدقة وتحكم إلى الخارج...

قاطعته آغنس:

- ولكن ليس إلى الإنكليز. إنني أكره الإنكليز. لقد أثاروا مع أبي الكثير من المشكلات في سوريام."

طمأنها يوهانس:

- ليس إلى الإنكليز أبداً، وأضاف بنبرة معسولة: إنه مُخزَّن في أمان. تستطيعين أن تذهبي وتتأكدي إن شئتِ."

علّق ميرمانز:

- أنت غريب، يا سنيور، في إصرارك على التصدير. أكثر الهولنديين الصالحين سيحتفظون بكنز كهذا لأنفسهم، ونظراً إلى جودته، فإنه سيُباع بثمن كبير.

- إنني أجد حب الذات نهجاً غير مثمر. لا يساعد أحداً إنهم يروننا في الخارج غير أهل للثقة. لا أحب أن أوصف بهذا. لماذا لا تنشر صيت السكر الذي تنتجه؟

- في السراء والضراء، وضعنا ثقتنا بك.

قاطعته آغنس، في محاولة لتلطيف الجو:

- إنني احتفظ بمخروط سكر في المنزل. إنه جميل في تماسكه. صلب كالماس، حلو كالجراء. ذاك ما كان أبي يقوله دائماً.

تمايلت نهلا، مُحدِّقة في بقايا النبيذ بكأسها، مخمورة قليلاً.

قال يوهانس: "سوف أعبر إلى فينيسيا من أجلكما. إن فيها الكثير من المشترين. إنه ليس أفضل وقت لوصول محصولكما من السكر، ولكن تأكدا أنه يوجد بندقيون سيرغبون في الشراء."

شهقت آغنس:

- فينيسيا؟ كاثوليك؟

اندفع ميرمانز قائلاً:

- لم يكدح والدها، يا سنيور براندت، ليملأ بطون الكاثوليك.

- الجلدر يظل جلدراً من أي جيب كان، أليس كذلك؟ كل رجل أعمال حقيقي يعرف ذلك. إن فينيسيا وميلانو يأكلان السكر كما نتنفس نحن الهولنديون...

- هيا، يا آغنس. قال فرانس: إنني متعب، ومعدتي ممتلئة. ثم ضغط قبعته على رأسه كأنما يضع سدادة على أفكاره. وقفت آغنس متنفرة والصمت المحرج يتنامى.

- طابت ليلتكما، إذن. قال يوهانس أخيراً، وابتسامته العريضة تعجز عن إخفاء الإنهاك خلف عينيه.

- في أمان الرب، ردت آغنس مُتأبِّطة ذراع زوجها. وإذ يشق الزوجان طريقهما بين ألواح الماهوجني، ومفارش المائدة المشوَّهة، والأباريق الفضية المقلوبة وبقايا الطعام، شعرت نهلا بإحساس قلق يتنامى.

قالت: "يوهانس. قالت مارين إن علينا دعوة...

وضع يده على كتفها فتهدلت تحت ثقله. تنهد وقال:

- نهلا، عليكِ دائماً مع هذا النوع من الناس، أن تتركيهم في شوق إلى المزيد.

ولكن عندما أدارت آغنس عينيها، وألقت إليها بنظرة متعجرفة، أصاب نهلا الشك فيما يقول.

حجرة المكتب

وفي طريق عودتهما، استلقى يوهانس ممدداً داخل العبّارة مثل فقمة جنحت إلى الشاطئ.

- تملك الكثير من المعارف، يا يوهانس، وهم يقدِّرونك.

ابتسم، وقال:

- هل تظنين أنهم سيوجهون إلي حديثاً لولا أنني غني؟

- وهل نحن أغنياء؟ خرجت الكلمات من فمها قبل أن يسعها إيقافها، كان القلق في صوتها واضحاً، ونبرة الاستفهام عالية جداً واتهامية.

أدار رأسه نحوها، وشعره محصور على الدكة تحت خده، وسألها: "

- ما الخطب؟ دعكِ من مارين وما تقول. إنها مغرمة بالقلق."

أجابت نيلا:

- ليست مارين.

- عندما يخبرك شخص شيئاً بقليل من الشغف، فإن ذلك لا يعني أنه حقيقي. كنتُ أغنى من ذلك. وكنتُ أيضاً أفقر. لم يتراءى لي قط أنه صنع فرقاً ملموساً. خفت صوته، مُخدَّراً بالطعام وإرهاق الأمسية: لا يمكنكِ حقيقة أن تلمسي ثروتي، يا نيلا. إنها في الهواء، تنتفخ، وتتقلص، وتنمو مرة أخرى. ما تشتريه صلب، لكنها هلامية مثل سحابة.

- ولكن، يا زوجي، لا شيء قطعاً أكثر صلابة من قطعة

نقود؟"

تثاءب وأغمض عينيه، وراحت نيلا تتخيل أموال زوجها، لا أكثر من ندى، يذوب ويعود للتشكل من دون تكهن:

- يوهانس، ثمة ما أريد إخبارك به. سكتت لبرهة قصيرة، ثم تابعت:

- هناك ... صانع دُمى استعنتُ به...

لكنها من خلال نظرة سريعة، رأت أنه استسلم لإغفاءة الشبع. رغبت نيلا في أن يستيقظ، حتى يسعها أن تطرح عليه المزيد من الأسئلة، فهو بعكس مارين، يعطيها دائماً جواباً مثيراً للاهتمام. بدا متململاً بعد انصراف فرانس وآغنس، وعيناه الرماديتان تتنقلان بين أفكار خاصة، عازلاً نفسه عنها من جديد. لماذا بدا ميرمانز أقل حماساً من زوجه في التعامل مع يوهانس؟ لماذا لم يقم يوهانس بدعوتهما إلى منزله؟

شمت نيلا آثار عطر آغنس الزهري على يديها. وبدأت معدتها تقرقر من تحت تنورتها الداتنيل الداخلية، وتمنت لو أنها أكلت أكثر. أصبح عمر يوهانس واضحاً في انسدال جفنيه وتهدل ذقنه على صدره. يبدو مُتغضِناً، بوجه عمره تسع وثلاثون حكاية خرافية. فكرت في الصمت الذي يعقب ثرثرته المُنفتحة، قبل أن ينتقل من جديد إلى شرود أكثر قتامة. أغلقت عينيها، وتذكرت قول أغنس" كما أن براندت سيدللك".

تذكرت رسالة الحب المخبأة في غرفة مارين. من أرسلها، وكم يوماً -أو عاماً- مرّ عليها هناك بين صفحاتها؟ تتساءل نيلا بأي إحساس تقرؤها مارين - بسرور أم بازدراء؟ ملمس الفرو الناعم مقابل خشونة مشدّها الأسود البسيط، باقة زفافها

جمجمة مصغرة تتكئ على رفوفها. كلا، لا أحد أبداً سيذلل مارين. لم تكن لتسمح بذلك.

رفعت نيلا يدها في العتمة، ونظرت إلى خاتم زواجها، أظفارها تشبه أصدافاً وردية باهتة. ربما لم يكن في أسدلفت سوى ميدان واحد، إلا أن من يجلسون فيه كانوا سينصتون إليها على الأقل. هنا هي دمية، إناء يسكب فيه الآخرون أحاديثهم. كما أن من تزوجته ليس رجلاً، بل هو عالم. صاغة فضة، شقيقة زوج، معارف غريبون، منزل تشعر فيه بالضياع، وآخر أصغر منه يخيفها. إن ما يُقدَّم لها كثير في الظاهر، لكن نيلا تشعر أن شيئاً يُؤخذ منها.

عندما يدخلان إلى المنزل، تلتفتُ، عازمة على التحدث، لكن يوهانس ركع يهمس لريزيكي. إنها المفضَّلة لديه كما هو واضح، مرر يوهانس كفاً مضمومة فوق رأس الكلبة. كشفت ريزيكي عن أسنانها في سرور ودِّي. لم يكن أحد قد أوقد الشموع في البهو. المكان مظلم جداً، ولا قمر من وراء النوافذ العالية.

سأل بصوت رقيق مفعم بالحب:

- هل أطعموكِ، يا جميلتي؟" ردت الكلبة بلطم ذيلها القوي فوق البلاط، فقهقه يوهانس.

مثير الضحكة غيظ نيلا، ما تريده من اهتمام يُمنح لحيوان. قالت:

- سآخذ إذن إلى الفراش.

فأجاب وهو ينتصب:

- افعلي، افعلي، لا بد أنكِ متعبة.

- لا، يا يوهانس، لستُ متعبة.

تبادلا التحديق إلى أن أشاح بعينيه:

- عليَّ تدوين ملاحظات عن الرجال الذين قابلتهم. وسار نحو مكتبه والكلبة في أعقابه.

قالت نهلا:

- هل تؤنسك؟ وفكر، أحد عشر يوماً وحدي وأنا متزوجة. أطول مما استغرقه الرب في خلق العالم.

أجاب:

- إنها تساعدني. لو أني جرَّبتُ مباشرة حل مشكلة ما، فإنني أفشل. أما عندما أدللها، فإن الجواب يأتي.

- إنها مفيدة إذن.

ابتسم يوهانس:

- هي كذلك.

سألته:

- وبكم اشتريتَ أوتو، هل هو مفيد؟ صوتها بارد وحاد بوقاحة.

تلبد وجه يوهانس، وشعرت نهلا بالدم ينبض في صدغها. قال:

- ماذا قالت لكِ آغنس؟

أجابت:

- لا شيء، لكن كانت فعلاً قد تأثرت بكلمات آغنس.

قال بصوت هادئ:

- كل ما فعلته هو أنني دفعتُ أجر الشهور الأولى لأوتو مقدماً.

- هل يعتقد أوتو أنك حرّرته؟

زم يوهانس فمه، وقال:

- هل يزعجكِ، يا بترونيلا، أنكِ تعيشين معه هنا؟

- مُطلقاً. كل ما هنالك، أنه لم يحدث من قبل... أعني...

أجاب يوهانس:

- إنه الخادم الوحيد الذي اقتنيته. والذي لن أقتني بعده.

أدار وجهه. وقالت نيلا في سرها، لا تذهب. إن ذهبتَ، أصبح خفيةً، الآن في هذا الدهليز، ولا أحد سيجدني مرة أخرى. أشارت إلى الكلبة التي تجلس مطيعة إلى جانبه، وسألته:

- هل هذه ريزيكي أم دانه؟

رفع يوهانس حاجبيه، وهو يربت على الكلبة بيد مُحِبَّة: حفظتِ اسميهما إذن. هذه ريزيكي. دانه لديها دائرة لون في بطنها.

أعرف ذلك، هكذا فكرت، وهي تستعيد صورة الكلبة الصغيرة في الأعلى، قابعة في الخزانة.

- اسماها غريبان.

- ليس إن كنتِ من سومطرة.

- ماذا تعني ريزيكي؟ شعرت أنها صغيرة وغبية.

- رزق، هكذا أجاب، وهو ينسلُّ إلى المكتب ويغلق الباب.

انتظرت نهلا في ظلام البهو، ومن جهة ما عبر البلاطات الرخامية الفسيحة هبّ تيار بارد نحوها وكأنّ باباً آخر انفتح. اعصب الشعر على مؤخرة عنقها. هناك شخص ما في العتمة.

- من هناك؟

انبعث من أعماق المطبخ أصوات خافتة، تمتمات لحوحة، جلجلة مقلاة من حين إلى آخر. يتناقص قليلاً إحساس المراقبة، وهذه الأصوات، وإن كانت بعيدة، إلا أنها مُطمئنة. يُفقِد المنزل نهلا إحساسها بالأبعاد، فتمد يدها وتلمس الخشب الصلب لإطار باب يوهانس، وكأنما لتطمئن نفسها. عندما تسمع ما يُخيَّل إليها أنه شهيق خلفها، ويلامس شيء طرف فستانها، طرقت نهلا بقبضتها على باب المكتب.

- مارين، ليس الآن.

- أنا نهلا!

لم يجب يوهانس، وتحدق نهلا في نهاية الظلام وهي تحاول ألا تسمح لرعبها أن ينتصر، فتقول بنبرة رجاء:

- يوهانس، أرجوك. دعني أدخل.

عند الباب، رحب بها الوهج الأصفر إلى درجة أوشكت معها نهلا على البكاء.

صدمها منظر حجرة المكتب، التي بدت لها أكثر مكان مأهول دخلته في المنزل. هذه غرفة ذات غاية محددة. إنها تعرف نفسها، وهي أشبه الأماكن بزوجها. عندما خطت إلى الداخل وأغلق الباب، حاولت أن تنفض عنها رعب الدهليز.

- لا أحد هناك، يا نيلا. إنه الظلام فحسب. لماذا لا تخلدين إلى الفراش؟

دهشت نيلا كيف عرف خوفها، تماماً كما عرف كيف أثارت آغنس استياءها حول أوبو. فكّرت، عندما يتأملكَ يوهانس فكأنما تراقبكَ بومة. تشعر بأنّك مُكبَّل.

كان المطر قد بدأ ينهمر في الخارج، وفي الغرفة الصغيرة تفوح رائحة ورقيّة لاذعة، أخذت تجول ببصرها في الغرفة، فرأت طاولة خشبية عالية مُركبة بمفاصل إلى الحائط، وفوضى من اللفائف، ودواة حبر من الذهب. كان دخان الشمعة يغطي السقف المنخفض ببطانة سوداء، ويكاد التصميم الدوامي لبساط تركي سميك ألّا يُرى بسبب الأوراق المتناثرة والمخطوطة بلغات غير مألوفة. تبعثرت قطع صغيرة من أختام شمع أحمر في كل مكان، وبعضها دُكَّ في الصوف.

على جميع الجدران خرائط، أكثر مما لدى مارين. تفحصت نيلا أشكال فرجينيا وبقية الأمريكيتين، المحيط الهادئ، جزر الملوك، اليابان. كل منها نُقش بخطوط دقيقة رُسمت بخط ماسي. رسومات تتسم بالدقة، وليست تلك التي تتناثر بأسئلة تواقة. أسفل النافذة صندوق ضخم مُغلق بقفل، منحوت من خشب داكن. "ذلك هو المكان الذي تُحفظ فيه الأموال، قال يوهانس وهو يستوي على كرسيه.

تمنت نيلا لو أن يوهانس يكون أشبه بالذئاب منه بالبوم. كان ذلك سيمنحها دوراً مناسباً، مادامت عاجزة عن أداء دورها بوصفها زوجاً:

- أردتُ ... أن أشكرك... على بيت الدمى. لديَّ خطط...

- لا حاجة بكِ إلى شكري، قالها، مُلوّحا بيده في الهواء مرة أخرى: "إنه أقل شيء أقدِمه.

تقول:

- لكنني أردتُ أن أظهر لك شكري.

حاولت تقليد حركات آغنس ميرمانز الرشيقة، فسدّت قبصه بيدها المرتجفة. إنها تريد أن تجعل من ذلك الاتحاد، من تلك الصورة الزوجية حقيقة. لكنه لم يستجب. وظلت أصابعها تلامسه بصورة خرقاء مثل طفل نافر.

قال: نعم؟

خفضت يدها، ووضعتها على مقدمة فخذه. لم يسبق لها قط أن لمست رجلاً هكذا، فضلاً عن رجل بكل هذه المهابة. إنها تشعر بالكتلة العضلية لساقه عبر الصوف السميك. قالت: -

- عندما تتحدث تلك اللغات، فإنك تسحرني.

عرفت فوراً أنها قالت شيئاً في غير محله. لأنه ينتزع نفسه من المقعد. ويقول:

- ماذا؟

اضطرب يوهانس، حتى أن نيلا وضعت يديها على فمها وكأنها تريد أن تمحو الكلمات:

- أنا فقط... كل ما هنالك...

- تعالي هنا. قاطعها. وأمام ذهول نيلا، مسّد شعرها بحركات خشنة.

- أنا آسفة... قالت، مع أنها لا تعرف علام تعتذر. مال

ممسكاً بذراعيها النحيلتين وهو يقبّلها على فمها.

صُدمت من تصرفه، الآثار الحارة والمنبهة للنبيذ والسلطعون، استجمعت كل قوتها حتى لا تخشب بين يديه. فتحت شفتيها قليلاً، لمجرد أن تخفف من ضغط فمه. ظل ممسكاً بها، -وتقرر بسرعة قبل أن يتمكن الخوف منها، أن تنزل يدها إلى واجهة سرواله القصير. لو أن هذا شيء واجب فعله على جملة النساء، فعلى التطبيق إذن أن يضفي على الأمر متعة ما.

نيلا لا تستطيع سوى البحث عنه، الانتفاخ المستكين الذي لا تعلم عنه شيئاً. لكنها لم تجد ما وعدتها أمها به، بل وجدت شيئاً مثل دودة ملتوية، أو...

رماها يوهانس بنظرة مرعبة، وتراجع مصطدماً بحافة مكتبه. قال:

- نيلا، رباه...

- زو...

يصرخ "اذهبي اخرجي."

تراجعت نيلا متعثرة، يلاحقها نباح ريزيكي، الذي بدا محذراً، فصفق يوهانس الباب. وسمعت مفتاحه يدور في القفل، شعرت برهبة الظلام مجدداً، وراحت تصعد السلالم مسرعة إلى غرفتها.

كان بيت الدمى في الركن، فتحت ستائره، فلمع المهد في ضوء القمر مثل شتيمة. ركلت نيلا ساق بيت الدمى، لكن الخشب والكسوة المزخرفة لا يلينان، وسمعت صوت عظم ينكسر. فأخذت تلوى من الألم، لكنها رفضت البكاء، وأخذت تهول في الغرفة بقدم عرجاء، وتقلب لوحات زوجها

على ظهرها، الأرنب الفريسة والرمان العطن، كل واحدة منها،

خطوات

- لماذا جميع اللوحات مقلوبة؟

سألتها كورنيليا، وهي تعيد أقرب لوحة إليها إلى وضعها الطبيعي. بسرعة مرسومة، تخرج من ثمرة رمان، وتزحف نحو طرف الإطار. ارتعدت الخادم، وهي ترسل نظرة إلى بيت الدمى. تقول بصوت خافت: في وسعكِ أن تحظي العيش هنا، يا مدام. كل ما عليك هو أن ترغبي في ذلك.

راقبتها نيلا بعين واحدة مفتوحة، وخزي الليلة السابقة يعود متدفقاً إليها. يثبتها في الفراش وتدس وجهها في الوسادة. هل هي كورنيليا من كانت في البهو ليلة أمس؟ تنصت إلى الكارثة تحل؟ لماذا لم تواسِني إذن؟ تؤلمها فكرة أن يكون أحد قد سمع فشلها بوصفها زوجةً.

صدَّ يوهانس غلّف روح نيلا بغشاوة. كانت لتهشّم رأسها لو أنها ستستطيع بذلك محو هذه الأفكار الحمقاء عن الحب الحقيقي، عن فراش الزوجية، والضحك والأطفال. وإذ تدير كورنيليا لوحة أخرى، أشلاء المحار على خلفية نيلية داكنة، تشعر نيلا أن الجدران تطبق عليها، بلوحاتها المضخّمة للطرائد الميتة والزهور التي تخطّت زمن تفتحها.

قالت كورنيليا: أظن أن مارين حاولت أن تدفع إليكِ بأسوأ اللوحات. فتات آخر تلقيه، على الأقل هذه الابتسامة، عطايا كورنيليا الصغيرة من المعلومات، مارين واحتيالها يفضحان على يد شخص ما كِ.

فتحت كورنليا الستائر، فأضاف ضوء صباح أواخر تشرين الأول وضوحاً صارخاً إلى كل شيء. تلوّى وجهها وهي تنزع فردة قبقابها، وتبرز قدماً صغيرة. وتقول: صدقي أو لا تصدقي، يا مدام، لكن قدمي تعبان أيضاً. اتكأت على الجدار، وبدأت في تدليك باطن قدمها: تعبان بشدة. كقدمي رجل ميت.

استوت نيلا جالسة في فراشها. إنها لم تر قط خادماً كهذه عندما كانت في أسِدلفت. إحساس الحرية الذي تمتلكه كورنليا، أن تفعل وتقول أشياء لم تكن لتفعلها أو تقولها في مكان آخر. صوت كورنليا غير متكلف بصورة مُبهجة، ومتعة فرك قدميها تبدو أكبر من أن تبالي بما قد تظنه سيدتها. تفكّر، ربما هو شيء في هذا المنزل، تساهل من نوع ما لا أفهمه. إن الحياة هنا فعلاً مقلوبة، تبدو خطأً، لكنها تشع نوراً عليهم جميعاً. يا لاهتراء جوربي كورنليا، غابة من الغرز، تصل بين خرق من الصوف. ألا يسع مارين أن تقدم لها جوربين أفضل حالاً؟ تتذكر نيلا تعليق يوهانس على ثروته الضبابية التي لا يمكن لمسها.

تتذكر لمسة يوهانس المبهمة، المتحفّظة والخالية من الإحساس. ارتعدت نيلا وهي تشاهد كورنليا تعيد لوحة الأرنب المُعلّق إلى وضعها الأول، وشعرت بالاستياء يخز جلدها. أرادت أن تقول، إنكِ لا تعرفين شيئاً. جربي أن تكوني زوجاً.

لكنها قالت:

- كورنليا، لماذا مارين مصممة على بيع محصول آغنس من السكر؟ هل نحن فقراء؟"

حدّقت فيها كورنليا فاغرة فمها:

- مدام، لا تكوني سخيفة. فقراءا إن نساء المدينة ليقطعن ذراعاً مقابل أن يكن في مكانك...

- لا أحتاج إلى موعظة، يا كورنليا. لقد سألتُ سؤالاً...

- أن تحظي بزوج يعاملكِ باحترام، ويصحبكِ إلى الولائم ويبتاع لكِ الفساتين وبيت دمى بثلاثة آلاف جلدر؟ إنه يطعمنا، ويسأل عن أحوالنا. أوتو سيقول المثل.

"ما قاله أوتو إن فيضاناً سيحدث."

ردت كورنليا، بكلمات مُندفعة ومُتلاحقة:

- حسناً، إن في السنيور الكثير مما يثير الإعجاب. لقد ربّى توت كابنه. من قد يفعل ذلك؟ خادم يستطيع التحدث بالفرنسية والإنجليزية؟ خادم يستطيع رسم خريطة، والتأكد من جودة ثوب صوف من هارلم...

- ولكن بمَ يفيد أوتو من كل ذلك، يا كورنليا؟ بمَ يَفيد أيّ منا؟

ظهر على كورنليا عدم الارتياح:

- من موقعي هذا، يا مدام، أرى أن حياتكِ قد بدأت للتو. تفضلي. مدت الخادم يدها إلى جيب مئزرها الرئيس، ووضعت طرداً كبيراً على فراش نيلا: لقد تُرك في الخارج على عتبة الباب، مُعنوَنًا إليكِ. ما الخطب؟

- لا شيء، تلعثمت نيلا. واستقرت العلبة الدخيلة، موسومة بعلامة الشمس، على شراشفها.

واصلت كورنليا، وعيناها على الطرد: "سيسرُّكِ أن تسمي ألا رنكة اليوم. بل مربى الفواكه الشتوية وكريمة الزبدة. لقد

طلب السنيور عشاء مبكراً، ثم تناول قبقابها الشارد وتدفعه من جديد فوق نعلها.

قالت نيلا:

- لا شك في ذلك. إنه يجد كثيراً من نفسه في الطعام حسبما يبدو. سأنزل بعد قليل.

وحالما أغلقت الباب، تناولت نيلا الطرد برفق في يديها، وفكرت، لم أطلب هذا. لقد أبلغ خطابي صانع الدمى بوضوح أن يتوقف. لكن حتى وهي تتذكر ذلك، مزّقت الغلاف الورقي. ومن قد يقاوم فتح طرد كهذا؟ هكذا أقنعت نفسها، وهي تستحضر كلمات خطابها بدقة. وبوصفي زوج تاجر كبير في الثوك، فلن أسمح بإرهابي على يد صنائعي.

تنبثق رسالة، وفوقها كلمات تقول:

أحارب من أجل الظهور

- آه، أحقاً تفعل، يا سيد مُنمنِم؟ قالت نيلا جهراً.

تقلب بقية العلبة فتسقط منها تشكيلة من القطع المنزلية الصغيرة. مكاوٍ بطول حبتي شعير، سلال منمنمة، أجولة منسوجة، بضعة براميل ومِمسحة، كانون لتجفيف الملابس. قدور ومَقالٍ، سكاكين وشوك للسمك، وسادة مطرَّزة، بساط جداري ملفوف يكشف عن لوحة لامرأتين ورجل، أدركت نيلا أنها القصة نفسها التي تكسو حائط يوهانس في الأسفل، مرثا ومريم، تتجادلان حول يسوع.

في برواز ذهبي صغير، رُسم إناء زهور بالألوان الزيتية، مُتمَّماً بيسروعة زاحفة. إنها فكرة شائنة، هكذا تقول نيلا لنفسها، محاولة الحفاظ على هدوئها، وعينها على النسخة الحقيقية التي

كانت كورنليا للتو قد قلبتها على وجهها. ضمت التشكيلة أيضاً بضعة كتب مجلّدة بإتقان، بعضها لا يزيد حجمه عن علبة ستايفر، تغطيها كلمات بخط غير مقروء. تصفحها، وشيء منها يترقب أن تجد رسالة حب، لكنها لا تجد شيئاً. هناك أيضاً خريطتان صغيرتان لجزر الهند، وإنجيل خُطَّ الحرف الأول على غلافه بخط كبير.

لكن علبة منفصلة تستوقف نظر نيلا، تلوح عبر ثنايا القماش. وبين الطيات، وجدت مفتاحاً ذهبياً صغيراً، يتدلى من شريط. أرجحته في ضوء الصباح البارد. إنه جميل، لا يزيد طوله عن ظفر إصبعها الصغير، نقش على عنقه زخرفة بتصميم معقد. أصغر من أن يفتح أي باب، فكرت نيلا. عقيم إنما مُزخرف.

لا شيء آخر في العلبة - لا رسالة، لا تفسير، لا شيء سوى شعار التحدي الغريب وهذا السيل من الهدايا. لقد أقسمت كورنليا أنها سلمت الخطاب الذي أخبرت فيه صانع الدُمى بالتوقف. فلماذا لم يطعن؟

لكنها، بينما تنظر إلى هذه القطع وجمالها الاستثنائي، وغايتها التي يصعب استنتاجها، تساءلت نيلا إن كانت حقاً تريد من صانع الدُمى أن يتوقف. إن صانع الدُمى نفسه لا نية له في ذلك كما هو واضح.

وضعت نيلا بلطف القطع الجديدة في بيت الدمى، واحدة تلو الأخرى. شعرت بإحساس امتنان عابر يفاجئها

- إلى أين تذهبين؟

سألتها مارين وهي تعبر الدهليز، فردت نيلا:

- لا مكان محدد. كان ذهنها منصرفاً إلى يافطة الشمس،

والأجوبة التي تكمن خلف باب صانع الدُمى.

قالت مارين:

- هكذا خمَّنت. سيلقي القس يليكورني موعظة في الكنيسة القديمة وافترضت أنكِ سترغبين في الحضور."

- هل سيأتي يوهانس؟

- لن يأتي يوهانس، بعد أن ادعى ضرورة ذهابه إلى البورصة، لمتابعة آخر الأرقام التي وصلت إليها الأسهم.

تساءلت نيلا هل العبادة هي ما يتجنبه زوجها.

في استمالة لزيارة الكالفرسترات، تباطأت نيلا عمداً عن مارين، التي كانت قدماها تضربان دروب القناة وكأنها وجهت إليها إساءة شخصية. وريزيكي، التي لا يسعدها إلا أن تكون مع سيدها، في البورصة مع يوهانس. ولأنها لم ترغب في ترك دانه وحيدة، سارت نيلا مع الكلبة الثانية، التي تخبُّ مطيعة إلى جانبها، وهي توجه أنفها الأسود الرطب نحو سيدتها المُتبنَّاة حديثاً.

سألت نيلا كورنيليا:

- هل تصحبان الكلبتين إلى الكنيسة في العادة؟

أومأت الخادم:

- تقول مدام مارين: إنها لا تثق فيما قد تفعلانه إن تُركتا وحدهما.

- يمكنني إحضار بيبو.

- يكفيك تُفف. قالت مارين، فاستغربت نيلا من قدرتها على

استراق السمع.

إنه يوم مُشرق، سطوح المنازل التيراكوتا شبه قرمزية، ودرجة الحرارة تكفي برودتها لتخفيف أي رائحة كريهة في القناة. مرّت إلى جوارهم العربات عُجلة جلبة، وعجّت مجاري المياه بالسفن المحملة برجال ونساء وحزم من البضائع، وبضع غنمات أيضاً. سرن في الهيرغراخت، ومنه إلى الفيزلسترات وعبر الجسر إلى سوق تورف المؤدي إلى الكنيسة القديمة. نظرت نيلا بتوق نحو وجهتها الأصلية، قبل أن تذكّرها كورنليا بأنه إذا لم تنظر المدام أمامها، فسوف تزل فوق الحصى.

الناس يحدقون، من القوارب، من نوافذ المنازل، من درب القناة. مع كل خطوة يخطونها من جوار المنازل العالية والنحيلة لتجار الحرير في الفورموسترات، ومن جوار نوافذ المتاجر التي تبيع المايوليكا الإيطالية، وحرير ليون، والتفتا الإسبانية، وخزف نورمبرغ وكتّان هارلم، يُمطرهم الأمستردامُيون بتشكيلة من النظرات. تساءلت نيلا لوهلة ماذا تراهم فعلوا، ثم رأت توتر العضلات على مؤخرة عنق أوتو، وسمعت أحدهم يقهقه:

- إنه يتكلم!

عندما يمر أوتو، فإنه يثير الدهشة في كل الوجوه، بعض الملامح تتحول إلى شك، وأخرى إلى ازدراء أو خوف صريح. بعضها مفتون بانشداه، وأخرى لا يبدو عليها الاهتمام، لكنها لا تكفّ عن الباقي. عندما يصل الحزب الصغير إلى نهاية الفورموسترات ويقتربون من مؤخرة الكنيسة القديمة، فإن رجلاً على وجهه آثار جدري يجلس على دكة خفيضة عند الباب، ينادي عند مرور أوتو:

- لا أجد عملاً، وأنتم توظفون هذا الحيوان؟

اضطربت مارين، لكن كورنليا توقفت عن المشي، وعادت بخطوات واسعة إلى الخلف، رافعة قبضتها مسافة بوصات عن جلده المملوء بالحفر، وقالت:

- هذه أمستردام، يا وجه الحفرة. الأفضل يفوز.

أطلقت نيلا ضحكة متوترة مكتومة خمدت عندما يرفع الرجل قبضته إلى وجه كورنليا، قائلاً:

- هذه أمستردام، أيتها العاهرة. الأفضل هو من يعرف من يصاحب.

نادت مارين:

- كورنليا، أمسكي لسانك. تعالي إلى هنا.

- يجب أن ينال جزاءه!

- كورنليا! ربّاه، هل جميعنا حيوانات؟

تمتمت الخادم في طريقها إلى سيدتها:

- عشر سنوات مضت على نوت هنا، ولا شيء تغيّر. يظن المرء أنهم سيعتادون الأمر.

قالت مارين:

- وجه الحفرة، يا كورنليا. كيف أمكنكِ؟ لكن شعرت نيلا بتحسن واضح في نبرة صوتها.

نظر أوتو متأملاً نحو أفق يتجاوز مباني أمستردام. يشيح ببصره عن وجه الحفرة، وينادي:

- دانه، لا تمادي كثيراً، يا فتاة.

فتقول كورنليا مُتنهدة:

- أنا، أم الكلبة؟

واصل الناس تحديقهم، إنما، لا أحد يجهر بتعليقه. ولاحظت نيلا كيف ينظرون إلى مارين أيضاً. طولها غير المعتاد بين النساء، مع عنقها الطويل ورأسها الشامخ، يشبّهانها بتمثال الصارية في مقدمة سفينة، فتخلف في أعقابها حشوداً من الوجوه المنتبهة. نظرت إليها نيلا من خلال عيونهم، المرأة الهولندية المثالية، طاهرة، وسيمة وتسير بعزم. لا شيء ينقصها سوى زوج.

سمعت نيلا مارين تقول لأوتو:

- كيف سيكون منظرنا، ويوهانس لا يحضر إلى الكنيسة. وعندما لم تجد سوى الصمت، التفتت مارين إلى الفتاتين. وسألت نيلا:

- - هل دعا آل ميرمانز إلى العشاء؟

فردت نيلا، وهي توشك على اختراع كذبة:

- ليس بعد.

توقفت مارين، عاجزة عن إخفاء غضبها، وقد فغر فمها بلا وقار، وهي ترسل إلى نيلا بنظرة اتهام من عينيها الرماديتين.

فقالت نيلا:

- حسناً، لم أكن لأجبره على دعوتهما.

صرخت مارين:

- يا إلهي... وخطت في بركة ماء، ماضية قدماً، تاركة الثلاثة

الآخرين وراءها:

- هل عليّ أن أفعل كل شيء؟

إزهار وازدهار

كانت هذه أول مرة لنيلا في الكنيسة القديمة. همست لكورنيليا:

- من يكون بيليكورني؟ أليس في منزلنا ما يكفي من الكتاب المقدس؟

تجهم كورنيليا، فقد سمعت مارين ما قالته، وردت:

- على المرء أيضاً أن يتعبد مع الجماعة، يا بترونيلا.

تمتم أوتو:

- مهما واجهتِ من أمور تقال؟

تظاهرت مارين أنها لم تسمع:

- إن بيليكورني، والرعيَّة يراقبون.

لديهم في أسِدلفت كنيسة أصغر، وجدت هذا البناء عملاقاً قياساً إلى كنيستهم. تفصل بين أقبية مُمشى الكنيسة وحتى منتصفه أعمدة حجرية بيضاء شاهقة. وصُوِّرت على العديد من النوافذ مشاهد من الكتاب المقدّس، وعبر القديسين المرسومين على زجاجها الملون، تفيض أشعة الشمس على الأرضية بألوان مائعة من الأحمر والذهبي، والنيلي والأخضر الشاحب. شعرت نيلا أن في وسعها أن تغوص فيها، لكن أسماء الموتى المحفورة في الأرضية تذكرها أن الماء هو حجر في الحقيقة.

الكنيسة مُزدحمة، فالأحياء يطالبون بحقوقهم. تُفاجئ نيلا بالمسموح من الضوضاء، والآباء والأمهات، والنميمة

والدردشات، والكلاب المتجولة، والأطفال الصغار. النباح ولغو الأطفال يحتل الجدران المكلَّسة، وخشب السقف لا يمتص الأصوات إلا قليلاً. يقضي واحد من الكلاب حاجته في الجوار، وقد أمال ساقه بتبختر على عمود. حيثما تنظر نهلا تجد ضوءاً، وكأنما لساعة واحدة، وجّه الربُّ انتباهه الحصري إلى هذه الغرفة الشاهقة والقلوب التي تنبض بداخلها.

وعندما خفضت نهلا عينيها إلى الحشود التي تحوم بداخل الكنيسة، أرسل قلبها دفقة دم حارّة إلى معدتها.

امرأة الكالفرسترات هنا. تجلس وحدها على كرسي قرب الباب الجانبي، والشمس التي تتخلل نافذة بسيطة تلمس شعرها الأشقر. وهذه المرة أيضاً، تراقب نهلا. لا شيئاً حيادياً في هذه النظرة، إنها نظرة نشطة، مُتسائلة وفضولية، لكنها شديدة الثبات حتى ليُخيَّل إلى نهلا أنها قد تكون واحدة من القديسين المرسومين على النوافذ الملونة، وقد هبطت من زجاج الكنيسة.

شعرت أن هناك من يُقوِّمها ويجدها ناقصة الاكتمال، وأصبحت نهلا عاجزة عن مقاومة النظرة. لكنها هذه المرة، تحوم فوق أوتو وكورنيليا ومارين، وحتى دانه فتستوعب خمستهم. رفعت نهلا يدها بتحية، فقاطعها صوت مارين:

- إنها أكبر سنًّا من أن تخرج.

- ماذا؟ قالت نهلا وهي تُنزل يدها.

- الكلبة، قالت مارين، وهي تنحني، محاولة تحريك دانه من حيث وضعت ردفها بثبات على الأرض. رفضت دانه أن تتزحزح، مُصدرة عواءً مكتوماً، وخطمها صوب المرأة، ومخالبها تخمش الأرضية: ما خطبها بحق السماء؟ اعتدلت مارين وهي

تدلك نهاية ظهرها: كانت طبيعية قبل دقيقة.

عادت نهلا بعينيها إلى حيث تجلس المرأة، لكنها لم تجد سوى كرسي خالٍ: "أين ذهبت؟"

سألتها كورنليا:

- من؟

على الرغم من الضوء الآتي من الشمس، إلا أن الكنيسة تبدو شديدة البرودة. يعلو الصخب وينخفض ويعلو من جديد، ويواصل الناس طنينهم، ويبقى كرسي المرأة شاغراً. ثم شرعت دانه في النباح.

- لا شيء. أجابت نهلا: اصمتي، يا دانه، إنكِ في بيت الرب.

قهقهت كورنليا، وقالت مارين:

- كلاكما أكثر صخباً من اللازم. تذكروا رجاء أن الناس لا يتوقفون عن المراقبة.

قالت نهلا:

- أعلم أنهم كذلك، لكن مارين كانت قد ابتعدت.

التزاماً بالمذهب الكالفيني، يكون المنبر في منتصف ممشى الكنيسة، حيث تحتشد الجماهير المتهامسة في تكتلات. "كذباب فوق قطعة لحم،" قالت مارين باستنكار، وقد أدركها البقية، يسيرون بخطى مُترفِّعة في ممشى الكنيسة. "لن نجلس في الزحام. كلمة الرب تصل إلى أي مكان. لا حاجة بهم إلى التلاحم كأطفال في الرابعة لرؤية القس بيليكورني."

قال أوتو:

- كلما حاولوا إضفاء قدسية على أنفسهم، قل اقتناعي.

ظهرت ابتسامة ضئيلة في زاوية فم مارين، لكنها تلاشت سريعاً عندما تبرز آغنس وفرانس ميرمانز في المشهد.

مُهيجة محملة من التوتر، وعطر الزهور، تنساب آغنس في تنورتها الكبيرة بين شواهد القبور الباردة. تهمس في أذن زوجها، وعيناها مثبتتان على أوتو:

- لقد أحضروا الهمجي.

قالت مارين:

- سنيور ومدام ميرمانز" وهي تُخرج سفر المزامير من جراب عند خصرها، وتنقله بين يديها وكأنها تُقوِّم وزنه كقذيفة. تثني المرأة ركبتيها تحيةً، وانحنى فرانس ميرمانز، وعينه على أصابع مارين النحيلة التي تتحرك بعصبية فوق كتابها ذي الجلد المُهترئ من الاستعمال.

سألتها آغنس:

- أين شقيقك؟ يوم الحساب...

قاطعتها مارين:

- يوهانس يعمل. إنه يشكر الرب بطريقة مختلفة اليوم.

أطلق ميرمانز صوتاً مُزدرياً. فقالت: هذا صحيح تماماً، يا سنيور."

قال:

- طبعاً، معلوم أن قاعة التداولات ملاذ الأتقياء.

قالت مارين مُتجاهلة لهجته:

- لقد حدث سهو في نهاية صائغ الفضة. كان في نيّة أخي أن يدعوكا لمشاركتنا الطعام، لكن مسؤوليات كثيرة تشغل ذهنه، لا. "لا بد أن تأتيا لتناول العشاء في منزلنا.

قال ميرمانز بازدراء:

- لسنا في حاجة إلى...

قاطعه آغنس، وعيناها الداكنتان تخفيان حماساً مكتوماً:

- إنه شرف لنا، يا مدام براندت. ولكن ألا ينبغي أن تكون الدعوة من زوجه؟

شعرت نيلا بخديها يضطرجان، وقالت مارين بصوت حازم:

- شاركانا العشاء غداً.

- غداً! عجزت نيلا عن كبح نفسها. ليس من عادة مارين أن تكون بهذا التسرع.

- ولكن...

- وأحضري رجاء مخروط السكر. سنتذوقه ونحتسي نخب ثروتكِ الموعودة.

- تريدين تذوق كنزنا الكاريبي، دفنت آغنس ذقنها في ياقتها الفرو المُبهرجة، وقزحيتاها الكهرمانيتان تحدِّقان في مارين.

ابتسمت مارين، ولاحظت نيلا كم تصبح جذابة عندما تفعل، حتى وإن كان مُصطنعاً.

قالت مارين:

- أريد ذلك، بقوة.

قال ميرمانز معذراً:

- آغنس، دعينا نقلّ مجلسينا.

أضافت آغنس:

- سوف نأتي غداً، وسنحضر معنا طعاماً حلواً لم تذوقوا مثله قط."

يبتعدان على مهل، فيلقيان التحايا، ويلوحان ويومئان في أثناء سيرهما.

تمتمت مارين، وعيناها على ظهريهما المُنسحبين: "

- في مقدوري أن أقتله.

تساءلت نيلا من تقصد. "كنز كاريبي، تبًا لي! لماذا بحق السماء وافق يوهانس على هذا؟

- ولكن ألا نحتاج إليه، يا مدام؟ تمتمت كورنيليا.

التفتت مارين بحركة خاطفة:

- لا ترددي كلماتي كالببغاء، يا فتاة. تنصتكِ على الأبواب لا يجعلكِ عالمة. احرصي فقط على صنع عشاء لائق غداً.

تراجعت كورنيليا مُنكمشة، وانحنت لتشغل نفسها بالكلبة، وقد غلف وجهها قناع من الكبرياء المجروح. فركت مارين صدغيها، وعيناها مُغمضتان في ألم، فسألتها نيلا:

- هل أنتِ على ما يرام؟

نظرت مارين إليها، وقالت:

- على خير ما يرام.

قال أوتو الذي يبدو كشخص منبوذ وسط التعليقات، التي تكاد تعلو عن الهمس مع كل حركة يقوم بها:

- علينا أن نجد مجلساً. هناك عند كراسي الجوقة.

صعد القس بيليكورني إلى المنبر. كان طويل القامة، قد تجاوز الخمسين، ذقنه حليقة، وشعره الرمادي قصير ومُرتب، وياقته عريضة وناصعة البياض. يوحي مظهره أن لديه طاقم خدم مجتهدين.

لا يزعج بيليكورني نفسه بالمقدمات. "ممارسات قذرة!" هكذا صدح فوق أصوات الكلاب والأطفال، والأقدام الزاحفة ونعيق النوارس في الخارج. خيّم الصمت، وأصبحت كل الأنظار عليه عدا أوتو، الذي يحني رأسه، مُرتكزاً على يديه المتشابكتين. أرسلت نيلا نظرة إلى آغنس، التي يرنو وجهها إلى القس كطفل مفتون. وفكرت، كم هي غريبة. في لحظة تكون فصيحة ومتغطرسة، ثم في لحظة أخرى تصبح صبيانية وتتوسل الإعجاب!

تابع بيليكورني، بصوت صارم لا يهادن

- "في مدينتنا الكثير من الأبواب المغلقة التي لا يمكننا أن نرى من خلفها. ولكن لا يظنن أحدكم أنه يستطيع إخفاء ذنبه عن الرب، وقبضت أصابعه المدببة على حافة المنبر، وهو يهتف على رؤوس الرعية: سوف يكشفه. لا شيء سيظل خافياً. سيأمر ملائكته أن تنظر عبر نوافذ قلبه وثقوب أبوابه، وسيلزمه بأفعاله. لقد شُيّدت مدينتنا فوق مستنقع، ولقد عانت أرضنا سابقاً من غضب الرب. انتصرنا، وطوّعنا الماء لصالحنا. ولكن لا تركنوا إلى ذلك، لأن ما ساعدنا على الانتصار هو الحكمة وحسن الجوار.

هتف رجل من بين الحشود: "أجل." وشرع طفل في العويل. كما أن دانه راحت تئن وتحاول الاختباء تحت تنورة

نهلا.

قال بليكورني:

- إن لم نحكم قبضتنا على لجام ضعفنا، فسوف نعود جميعاً إلى البحر. كونوا صالحين من أجل مدينتكم! انظروا في قلوبكم وفكروا كيف أذنبتم في حق جيرانكم، أو كيف أذنب جيرانكم في حق أنفسكم!

وسكت لإحداث الوقع المطلوب، مُبهراً في ورعه. تخيل نهلا المصلّين وكل منهم يفرج بين ضلوعه، ويحدق في الفوضى النابضة المُتمثلة في قلبه الآثم، ثم ينظر كلٌ إلى جاره قبل أن يغلق جسده. في ركن الكنيسة، يخفق زرزور بجناحيه. وفكرت على أحدهم أن يُطلق سراحه.

همست كورنليا:

- دائماً ما يعلق أحدهم في الداخل.

- دعونا نتجنب أن يصيبنا غضبه مرة أخرى.

انبعث من المصلين همهمات موافقة، وصار صوت بليكورني الآن مُرتجفاً قليلاً من الانفعال. - إنه الجشع. الجشع هو الداء الذي علينا استئصاله، الجشع هو الشجرة، والمال هو جذرها العميق!

تمتمت كورنليا:

- المال هو ما دفع ثمن طوقك الجميل أيضاً. وشعرت نهلا باختناق وهي تحاول كتم ضحكتها، وغامرت باختلاس نظرة إلى فرانس ميرمانز. ومع أن انتباه زوجه يتوجه إلى المنبر، فإن عينيه لا تبرحان عائلة براندت.

- علينا ألا نخدع أنفسنا بتسخير البحار. بدّل بيليكورني نبرته إلى همهمة لحوحة ومُسكِّنة قبل أن يغرز سكينه: أجل، لقد حلت علينا هبة إله المال، لكنها يوماً ما ستغرقنا جميعاً. وأين سيكون كل منكم في ذلك اليوم المشؤوم؟ أين؟ غارقاً حتى أذنيه في الحلويات المُغلَّفة بالسُّكَّر وفطائر الدجاج الدسمة؟ أم سابحاً في الحرير وسلاسل الماس؟

تنهدت كورنيليا، وتمتمت:

- يا ليت، يا ليت.

ظل بيليكورني يحذر:

- احترسوا، احترسوا. إن هذه المدينة تزدهر وأموالها تمنحكم أجنحة تحلقون بها، لكن تلك الأموال هي أغلال على أكتافكم ويحسن بكم أن تراقبوا الكدمات التي تحدثها حول أعناقكم.

كانت مارين قد أغلقت عينيها بقوة كمن توشك على البكاء. وتمنت نيلا أن هذا ليس أكثر من سعادة روحانية، استسلام لقوة الكلمات التحذيرية المقدسة التي يلقيها بيليكورني. مازال ميرماتز يحدق فيها، وحين فتحت مارين عينيها لاحظت ذلك، فانقبضت أصابعها الممسكة بسفر المزامير. وتململت في مقعدها، في حين تجلى البؤس على وجهها الجامد. حلق نيلا جاف لكنها لا تجرؤ على السعال. وصل بيليكورني إلى ذروته وتكاتفت أجساد المصلين معاً، في توهد، واستنفار.

صرخ القس:

- الزناة. المُضاربون. اللوطيون. اللصوص. احذروا منهم، ابحثوا عنهم! أخبروا جيرانكم عندما تقترب غيوم الخطر. لا تسمحوا للشر أن يدخل دياركم، لأنه ما إن يحدث التفسخ حتى

يصبح ذهابه عسيراً. حتى اليابسة من أسفلنا ستتصدع، وغضب الرب سيتغلغل في الأرض."

- أجل، يقولها الرجل نفسه مرة أخرى.

- أجل!

نحت دانه باضطراب متزايد. فهمست كورنيليا: "صه."

- ماذا في وسعكم أن تفعلوا لإبعاده؟ دوى صوت بيليكورني، عائداً إلى أعلى مستوياته، وذراعاه مرفوعان وكأنه المسيح نفسه: الحب. أحبوا أطفالكم، لأنهم البذور التي ستجعل هذه المدينة تزدهرا يا أزواج، أحبوا زوجاتكم، ويا نساء، كُنَّ مُطيعاتٍ لكل ما هو مقدس وصالح. حافظوا على بيوتكم نقيّةً، وهكذا تصير أرواحكم...

وهنا يصل إلى ختامه. تنبعث تنهدات إفراج، وهمهمات انفاق، استيقاظ وسيقان تتمطى. يتسلل إلى نيلا شعور بالدوار. الضوء يسطع على شواهد القبور. كُنَّ مُطيعات. يا أزواج، أحبوا زوجاتكم. أنتِ نور الشمس في النافذة التي أقف أمامها، مستدفئاً. حبيبتي. يعود الطفل إلى العويل، وترفع نيلا ومارين أعينهما في وقت واحد فيما تحاول والدته إسكاته من دون جدوى، فتنسحب من بين المصلين وتنسل من الباب الجانبي للكنيسة.

تعقب نيلا نظرة مارين، فتحدق كلتاهما بحسرة إلى مربع الضوء الذهبي الوجيز الذي وفّره خروج الأم. في هذا العالم الجديد والقاسي لأمستردام، في هذه الكنيسة المدنية الباردة، ساعة واحدة من العبادة تبدو وكأنها سنة.

***

في تلك الليلة في غرفة نيلا، ألقى القمر على بيت دماها رقعاً من الضوء. ودقات الساعة البندول تضرب الهواء كنبض مكتوم، فتبدو أكثر وقعاً في أذنيها. تفكر في المرأة التي كانت في الكنيسة تراقبها في صمت.

"لماذا لم تتحدثي إليَّ؟" تجهر نيلا بالسؤال، وهي تنظر إلى فراغات غرفها التسع المظلمة. "ما الذي أملكه وتبتغين؟"

لا تحصل على إجابة طبعاً، وتُرسل القطع الموجودة داخل بيت الدمى سطوعاً فضياً مُتحرِكاً. تُفكِر نيلا، غداً سأذهب إلى صانع الدمى لتسوية أمر وجوده غير المرغوب فيه بصورة نهائية. ليس صواباً، بالتأكيد، أن يرسل إليك أحدهم أشياء لم تطلبها؟ إنه اختراق لمنطقة محرَّمة.

صحيح أنَّ نيلا مسرورة بخروجها من أسِيدلفت، لكن أين هو بيتها؟ لا هو هناك وسط الحقول، ولا هنا جوار القناة. شعرت أنها هائمة، ممزقة بين ظاهر زواجها وحقيقته، وبيت الدمى، بجماله وعقم فائدته، هو تذكير فظيع بكل ذلك.

كان حياء يوهانس منها قد بدأ يتغلغل عميقاً. فكان يختفي كثيراً في قاعة التداولات، أو الفوك، أو مستودعه قرب الحانات الشرقية، حيث يصنعون بطاطا ساخنة لُبها من أهش ما يكون. لا يوجِّه إليها اهتماماً، لا يأتي إلى الكنيسة. تُفكِر أن مارين تلاحظني بما يكفي على الأقل لإصابتي بكدمة. كم هو سخيف، أن يشعر المرء بامتنان بسبب قرصة! لقد ألقت مرساتها لكنها لم تجد ما تتشبث به، لذا فهي تخترقها، ضخمة، وماضية، وخطيرة، وتسقط في البحر.

تنتبه من رثاء الذات على أصوات هامسة. حتى عندما تجلس في فراشها، تشم نيلا رائحة زيت الزنبق العالقة في الهواء. تُفكِر،

حتى أنا بدأتُ أنفر منها. سارت بخطى خفيفة عبر غرفتها، وأصغت السمع، عندما فتحت بابها. كان الممر شديد البرودة، لكنها تثق في سماع صوتين في الدهليز، كلمات تهب من بين أنفاس عاجلة. يبدو الصوتان منفعلين أو خائفين، ولكنهما قطعاً، لا يباليان بانتشار همساتهما في المنزل.

تساءلت نيلا هل خانها الخيال عندما توقف الصوتان، وأغلق بابان، غرق المنزل في الصمت من جديد. فسارت في الممر، تلصق جبهتها بين أعمدة سور السلم، وتصيخ السمع عبثاً. فلا تجد شيئاً سوى الصمت، وكأنما الصوتان قد تلاشيا في ألواح الحائط.

عندما انطلق صوت النبش، انتصب الشعر على ذراعي نيلا. وانقبضت أحشاؤها وهي تخفض عينيها إلى مصدر الصوت، لكنها لم تجد سوى ريزيكي، ريزيكي، ترفع إليها أنظارها قبل أن تنسل عبر البلاط. تتحرك الكلبة مثل سائل مُراق، بلا قيود، قطعة شطرنج تتدحرج من مكانها.

الزوجة

بحلول منتصف النهار، كانت كورنليا قد أمضت فعلاً ساعات في مطبخ الخدمة لتحضير عشاء آل ميرمانز. ستكون الوليمة فخمة، مائدة من الأطعمة الشتوية، التي نكّهت باللذائذ من صفقات يوهانس في الشرق.

وجدتها نيلا جالسة إلى الطاولة تقطع ملفوفتين ضخمتين، فسألتها:

- هل أنت جائعة؟

أجابت نيلا:

- مثل كلبة!

وحاولت تتبع علامات الأرق على وجه كورنليا، لكن الخادم بدت مضطربة أكثر من أي شيء آخر.

قالت كورنليا:

- تبًّا للإخطارات المُفاجئة! لديكِ خبز جاف ورنكة حتى أنتهي من جميع الأصناف - كما تصر مدام مارين. هذه الملفوفة تحتاج إلى تزيين. وحينما ترى كورنليا وجه نيلا، تخضع قائلة: آه، هاكِ فطيرة. لقد خرجت لتوها من المقلاة، ثم دفعت إليها بصحن، تكدّس فوقه فطائر مقلية صغيرة ومغلّفة بالسكر.

- ماذا أعطتكِ هانا، في متجر زوجها؟ وبينما تتحرك دانه إلى مضجعها بجوار الموقد، تتردد يد كورنليا فوق الملفوف المتبقي. جلدها أحمر ملتهب - وأظفارها بيضاء من كثرة الغسيل.

قالت كورنيليا، وهي تحني إلى الأمام:

- إنكِ تأكلينه.

كانت عيناها شديدتي الاستدارة والزرقة، وقزحيتاها مطوقتين باللون الأسود: آخر دفعة من سكر أرنود الفاخر. إن هانا محقّة. أكثر ما يباع في هذه المدينة سيئ للغاية. إنها لخسارة أن يصدِّر السنيور كل سكر آغنس.

أسهم بوح كورنيليا في كسر حاجز، وشعرت نيلا في داخلها بإحساس دفء يتصاعد. حتى الملفوف تراه يلمع، كرة خضراء في ضوء النار الوردي للفرن المفتوح.

***

حينما أخذت نيلا نفساً عميقاً من الهواء البارد، شمّت إثر رائحة طفيفة للمجاري، وفكرت، وهي تسير في الجودين بوخت" هذه القناة ستكون جحيماً في الصيف" لكنها الآن تستمتع بالمشي وحيدة، بسير النساء من دون صحبة، كما علّق زوجها على العبارة، ليس شيئاً نادراً شعرت نيلا بترصد الأعين. إذ تقطع شارع الفيزوسترات، وتعبر الريخليرشدوورسترات لتدخل الكالفرسترات بعد السؤال عن الطريق، وجدت نيلا في يسر علامة الشمس مع الشعار أسفلها: كل شيء يراه الإنسان، فإنه يظنُّه لعبة. طرقت الباب الثقيل. لم يكن الشارع مزدحماً، فالناس يُفضّلون البقاء في الداخل حيث الدفء. تحولت أنفاس نيلا إلى بخار في الهواء وهي تطرق من جديد.

نادت: مرحباً؟ وفي سرها تقول، أجب رجاءً. "مرحباً؟ أنا نيلا أورتمان. بترونيلا براندت. أحتاج إلى الحديث معك. لقد أرسلت أشياء لم أطلبها. إنها تروقني، لكني لا أفهم لماذا فعلتها.

ألصقت نيلا أذنها بالخشب السميك، وأصغت جيداً إلى أي حركة أو وقع قدمين. تراجعت، ورفعت عينيها إلى النوافذ. لا شموع ترسل ضوءاً من الداخل وكل شيء ساكن، إلا أن المكان يتمتع بأجواء سكن لا لبس فيها.

عندما ظهر الوجه في النافذة، تراجعت نيلا متعثرة إلى منتصف الشارع، وقد اختنقت الأنفاس في حلقها جراء صدمة تعرفه. ربما يكون الزجاج سميكاً ومموهاً، لكنها لا يمكن أن تخطئ ذلك الشعر. إنها المرأة التي كانت تراقبها في الكنيسة.

وجهها قطعة نقدية باهتة، والخصلات الذهبية تشع عبر الظلال الداكنة للزجاج، أراحت المرأة كفها على لوح النافذة. وظلت ساكنة في هذا الوضع، ملقية نظرة هادئة على الشارع.

قالت نيلا:

- أنتِ! لكن المرأة لا تتحرك. لماذا...

- لن تخرج... قاطعها صوت رجل، مهما بذلتِ من محاولات. أميل إلى إبلاغ الشرطة عنها."

دارت نيلا حول نفسها صوب الصوت. إنه بعيد قليلاً عنها، جالس خارج ما يبدو أنه متجر صوف. ابتلعت نيلا لعابها. إنه الجُدري، وجه الحفرة، الذي نعت أوتو بالحيوان، والذي وبّخته كورنيليا في الشارع. جلده عن قرب، يشبه إسفنجة البحر، مليئاً بفوهات وردية.

أعادت نيلا عينيها إلى النافذة. اختفت المرأة، بدت النافذة خالية، وصار للمنزل فجأة مظهر خامد، وكأن لا أحد يسكنه على الإطلاق. اندفعت إلى الباب تطرقه، وكأنها تبتغي إعادة الحياة إلى المبنى.

على وجه الحفرة:

- أخبرتكِ، لن تجيب. إنها لا تنصاع إلى أية قوانين."

استدارت نيلا، وألصقت ظهرها بالباب، وقالت:

- من هي؟ أخبرني من تكون.

نفض منكبيه، وأجاب:

- إنها لا تتحدث كثيراً. لهجتها غريبة. لا أحد يعرف.

- لا أحد؟ لا أصدقك.

- حسناً، ليس جميعنا مهتماً بالانخراط في المجتمع، يا مدام. إنها تحتفظ بشؤونها لنفسها.

تمهلت نيلا لالتقاط أنفاسها:

- في دليل سميث، إعلان عن صانع دُمى يقطن هذا العنوان. هل ما تقصده، يا سنيور، أن الشخص الوحيد الذي يسكن هذا المنزل هو امرأة؟

أزال وجه الحفرة خيوط صوف عن سرواله، وقال:

- هذا صحيح، يا مدام. ومن يدري ما الذي تخطط له هناك؟

- كل شيء ولا شيء.

- هل هكذا تسمّينه معشر النساء.

لا تُصدِّق أن امرأة تعيش بمفردها في قلب أمستردام، على مرأى من رؤساء البلدية، والنقابات، والمتشددين أمثال وجه الحفرة. أي أفكار يا ترى تدور كالنحل تحت شعرها الفاتح، لماذا ترسل هذه القطع التي تخطف الأنفاس من طلب؟

كل ما أريده هو أن أعرف، هكذا تُفكِّر نيلا، وهي تغمض

عينيها، وبتذكر الإحساس الذي لا يوصف لنظرة المرأة في الكنيسة وقبل ذلك، هنا في شارع الكالفرسترات. إن هذا رائع بدرجة لا يمكن تصديقها، امرأة يسري الخجل عبر نيلا لما كتبته في خطابها الثاني - سيدي... سأقلِص معاملاتنا فوراً. لكن ذلك لم يصنع فارقاً على ما يبدو. إن المرأة تتلذذ فيما يبدو بمخالفة الأوامر.

يستطرد وجه الحفرة: "إن امرأة تعيش بمفردها هكذا لا يعني سوى شيء واحد، أنها مومس. والفتى الذي يأتي لتوصيل طرودها أجنبي أيضاً. تلك الأحداث المريبة يجب إبقاؤها في الجزر الشرقية. أما الشرفاء الذين لا يبتغون إلا العمل وصلاح العيش فليس عليهم أن...

- منذ متى وهي هنا؟

- ثلاثة أشهر أو أربعة تقريباً. لماذا هي بهذه الأهمية لكِ؟

- ليست كذلك، قالت نيلا، وارتج فمها بالأكذوبة. شعرت بها كخيانة. شحذت همتها، وشعرت أنها يجب أن تحمي المرأة لكنها لا تعرف السبب تحديداً.

- ليست مهمة على الإطلاق.

خُيِّل إلى نيلا أنها ترى حركة من إحدى النوافذ العلوية، ولكن يشوشها انعكاس امرأة أخرى في النافذة التي تعلو متجر الصوف، وهي تنفض بساطاً في الشارع وتبدو مغتاظة من الضجة التي تحدث أمام بابها.

- سنيور، إن تحدثت إليها...

قاطعها وجه الحفرة:

- لن أفعل ذلك، إنها تحمل الشيطان في داخلها.

بحثت نيلا في جيبها عن جِلدر، ووضعته في كفه القذرة، قائلة:

- إن حدث وخاطبتها، ثم التفتت صوب النافذة، وهتفت: أخبرها أن نيلا براندت آسفة! وأن تتجاهل خطابها الأخير. كل ما أريد هو أن أعرف لماذا. وأخبرها، أنني أتلهف إلى ما سترسله في المستقبل.

حتى وهي تصرخ بهذه الكلمات إلى النافذة، تتساءل نيلا هل هي صادقة تماماً فيما تقول. لا تعيش وحدها سوى أرملة أو عاهرة، بعضهن سعيدات بذلك، وبعضهن مُجبرات، فما الذي تفعله صانعة الدُمى بالضبط في الأعلى؟ و كيف تجول المدينة بمفردها؟ لا تعلم نيلا بأي شيء تلهو، لكنها لا تبدو لعبة بالتأكيد.

جرت قدميها عائدة من الكالفرسترات، وفكرت: إن شخص صانعة الدُمى الاستثنائي مهدور على أناس مثل وجه الحفرة، وانه استثنائي، أيًا كانت طبيعته، عيناها، وتلك النظرة، وطرودها المذهلة المليئة بالتلميحات والقصص. شعرت نيلا بوخز في مؤخرة عنقها وهي تستدير بسرعة، مؤمنة باتصالها بذاك المنزل المحدد بعلامة الشمس.

لكن الكالفرسترات يعود إلى هدوئه، غير مدرك للوجود المختبئ في قلبه.

***

عادت نيلا إلى المنزل، هرعت صاعدة إلى الخزانة، تمرر أصابعها على منحوتات صانعة الدُمى. وجدتها مشحونة

بطاقة مختلفة، محمّلة بمعان لا يمكنها استيعابها، لكنها موغلة في الغموض. لقد اختارتني أنا، فكرت نيلا، فرحة بهذا الاكتشاف، وتواقة لمعرفة المزيد.

أيقظها من أحلامها صوت كورنيليا، وخطى قدميها المُقتربة. فأسدلت ستائر بيت الدمى على عجل في اللحظة التي ولج رأس الخادم من الباب، وهي تقول في ثرثرة:

- سيصل آل ميرمانز خلال ساعة، ولم يعد السنيور بعد.

كانت كورنيليا وأوتو قد أنهكا نفسيهما في الطابق الأرضي، بجرعة إضافية من التلميع، والكنس، والمسح، ونفض الستائر، وضرب الوسائد، وكأن المنزل في فوضى ويحتاج إلى ترتيب يتعذر تحقيقه. في مطبخ التقديم يتلألأ الخزف والأواني الصينية، ويومض عِرْق اللؤلؤ من بين الزخارف، وعندما ترى كيف استُبدلت كل شموع الشحم بشموع عسل، تنتهز نيلا الفرصة لتنهل من رائحتها الجميلة.

تمتم أوتو لنفسه في أثناء مروره:

- مهام فوق مهام من أجل شيء فارغ، وتتساءل هي عما يعنيه.

كانت مارين قد ارتدت أفخم فساتينها السوداء. ولم تتنازل إلى درجة وضع عطر لكنها تدرعت بترسانة من التنانير الضخمة، والآن هي تذرع غرفة الصالون، خطواتها واسعة ومنتظمة كالساعة البندول. أصابعها النحيلة تنهش سفر المزامير، وشعرها تفصله عن وجهها عصبة رأس من الدانتيل الأبيض المُنشى، وملامحها الوسيمة صارمة. جلست نيلا، وقد ألبستها كورنيليا فستاناً آخر من فساتينها المعدّلة، فستاناً بلون الذهب. وتسأل:

"أين يوهانس؟"

قالت مارين:

- سيأتي.

مع كل خطوة مضطربة تأخذها مارين عبر الأرضية المصقولة، تمنّي نيلا لو أمكنها العودة إلى الطابق العلوي والبحث في دماها عن أي إشارة لما قد يحدث بعد ذلك، أو لا يحدث، وماذا تعني العبارات.

عندما وصل آل ميرمانز، ومن خلفهما هواء القناة البارد مُندفعاً إلى البهو، لم يكن يوهانس قد أتى. كانت جميع النوافذ قد غُسلت على يدي أوتو، وانعكس على زجاجها ضوء عشرين شمعة مشتعلة تومض في بواكير الشفق، وقد امتزج عطرها العسلي برائحة الخل والقلْي.

حتى وإن لاحظت آغنس المجهود الذي فرضته مارين على خدمها، فإنها لم تعلّق. دخلت بخطى ناعمة، بوقار مثالي الآن، وقد زالت عنها تماماً كل الآثار الصبيانية التي كانت في الكنيسة. تبادلتا التحية بثني الركبتين، ولم يكسر صمتهما سوى ارتطام تنورتيهما الواسعتين بالأرض. تقدم فرانس، وفي عينيه إجهاد واضح. رفعت مارين يدها فتناولها، ولون دبلته الذهبي فاقع فوق بشرته الشاحبة. بدا الوقت بطيئاً، وتلألأ الأضواء في الجو من حولهم.

قالت مارين:

- سنيور.

- مدام.

- تفضلا رجاءً. حررت يدها، وقادتهما إلى غرفة الصالون.

نادت آغنس:

- هل عيدكِ هنا؟ لكن مارين تظاهرت أنها لم تسمع.

استغرقت النسوة الثلاث بضع دقائق لترتيب وضعهن على الكراسي حول المدفأة، بسبب طبقات القماش التي تلفهن. وقفت ميرمانز عند إحدى النوافذ، ونظرت إلى الخارج. بينما نيلا أخذت تتأمل المقاعد القطيفة الخضراء، مساميرها النحاس وأسودها الخشبية المنقوشة، وتفكر في أشباهها المُصغَّرة في الأعلى في بيت الدمى. كيف توصَّلت صانعة الدُمى بحق السماء إلى إرسال تلك الكراسي؟ هكذا تساءل، والرغبة تقتلها في المعرفة.

لكن نبضة خوف خفقت في داخلها. لقد اختارتني، ولكن من أجل ماذا؟ مَن هذه المرأة، التي تراقبني من بعيد، وتعلِّق على حياتي؟ تستدير غريزياً نحو النافذة، متخيِّلة أنها قد ترى وجهاً خلفها، يحدِّق من الشارع. لكن الضوء في الخارج كان قد ازداد خفوتاً، وجسد ميرمانز سيخيف أي إنسان.

تقول مارين:

- يجدر بكورنيليا أن تسدل الستائر.

قالت نيلا:

- لا.

التفتت إليها مارين:

- الجو بارد، يا بترونيلا. هذا أفضل.

تقول آغنس، مُقاطعة: "اجلسي بقربي."

أطاعت نيلا، ودلفت نحوها بثوبها الذهبي. تهتف آغنس بدهشة:

- تبدين مثل قطعة نقدية! سقط التعليق السخيف الملقى بقوة وابتهاج في الجو، على الأرض مكتوماً.

سأل ميرمانز:

- أين يوهانس؟

قالت مارين:

- في الطريق، يا سينور. أخره عمل مفاجئ.

اختلست آغنس نظرة إلى زوجها، وقالت:

- نحن متعبان بعض الشيء.

ردت مارين:

- آه؟ ما السبب، يا مدام؟

- آغنس، ناديني آغنس. مارين، لا أعرف لماذا، بعد اثني عشر عاماً، لا يمكنكِ ذلك. ضحكت آغنس، ضحكة أجفلت نيلا.

تقول مارين بهدوء: " آغنس."

استأنفت آغنس، وفي صوتها تواطؤ:

- الولائم عامة. حفلات زفاف كثيرة قبل الشتاء. هل علمتِ أن كورنليس دي بوير قد تزوج من أنيتجي ديركانز؟"

فقالت مارين:

- لا أعرف الاسم.

اعترضت آغنس، بإبراز شفتها السفلى، وقالت لنيلا:

- إنها لا تخفيز أبداً، بدت نبرتها مزيجاً من التوبيخ الهزلي والتهكم المتعمد، وتابعت: أحب حفلات الزفاف، ألا تحبانها؟

لم تقل مارين أو نيلا شيئاً، فقالت أغنس:

الزواج هو... وتوقفت عمداً، آخذة مُستمعتيها بعين النظر.

كانت يدا مارين ساكنتين جداً في حجرها، حتى ليتصورهما المرء منقوشتين على قبر. شعرت نيلا بالتوتر في هذه المحادثة، فالنهايات المسدودة والكلمات المتروكة يصنعن عقدة في دماغها. لا يكسر الصمت سوى طقطقة النار في المدفأة وصرير حذاء ميرمانز الجلدي وهو ينقل ثقله بين قدميه عند النافذة. تنبعث من مطبخ الخدمة نفحات طهي كورنيليا، لحم ديك في جوزة الطيب والروزماري، حمام بالبقدونس والزنجبيل.

قالت آغنس: "

- لا بد أن أعرف، التفتت مارين إليها، وفي عينيها حذر، ولكنها تابعت: ماذا قدّم لكِ براندت هدية زفاف، يا نيلا؟

التقت عينا نيلا بعيني مارين، وقالت:

- بيت.

- يا لروعته! هل هو كوخ صيد؟ سوف نشتري كوخاً في بلومندال.

- بيتي مطلي بألوان مزخرفة، قالتها نيلا، وقد بدأت تلتذ بالأمر، بينما عينا آغنس تتسعان في محجريهما، وهي تسأل:

- وهو لا يصلح... للسكن فيه.

علت الحيرة وجه آغنس:

- لماذا؟

قالت مارين:

- إنه منزل مُقلّص إلى حجم خزانة.

التفت ميرمانز من أمام النافذة.

- آه، واحد من أولئك، تأفف آغنس. حسبتكِ تقصدين منزلاً حقيقياً.

قالت مارين:

- هل تملكين واحداً، يا آغنس؟ بيت بترونيلا مزخرف بالبيوتر.

عادت صبيانيّة آغنس للظهور، في رفرفة خاطفة من التحدي على وجهها، وأجابت:

- طبعاً، أملك واحداً. إنه مكسو بالفضة.

تحول تفاخرها العنيف إلى كذبة صريحة، مكوِّناً بركة بين النسوة الصامتات. كل منهن عيناها على فستانها، عاجزة عن رفعهما. وأخيراً سألت آغنس:

- من استأجرته لتأثيث منزلك؟

تلعثمت نيلا. إنها لا تطيق تخيُّل آغنس تذهب إلى الكالفرسترات، وتتواصل مع تلك المرأة، أن تعرف بوجودها أصلاً. وكأن ما خُصِصت بمعرفته يُنتزع منها، ويُقتَص منه ألذ أجزائه.

وكن استشعرت نقطة ضعف، مالت آغنس إلى الأمام:

- حسناً؟

- أنا...

قالت مارين:

- تركت لي أمي بعض الدمى من الطفولة، وبترونيلا تستخدمها.

ردت آغنس:

- ماذا، يا مارين؟ كان لديكِ طفولة؟

- عليَّ إحضار نبيذ الريبيش. هكذا أضافت مارين، مُتجاهلة ما قالت آغنس والامتنان الذي يشع من وجه نيلا: لقد أغفل أوتو تقديمه.

غابت مارين خارج الغرفة، وهي تنادي أوتو. راقبت آغنس انصرافها، مُتراجِعةً في كرسيها، وهمست: "مسكينة، مسكينة." ثم التفتت إلى نيلا، وجهها محفور بالقلق، وقالت:

- لا أعرف لماذا هي تعيسة هكذا. ثم مالت أكثر، وتناولت يدي نيلا في يديها. أصابعها رطبة، مثل ضفدع سُحب من بركة: كان زوجانا، يا نيلا، صديقين حميمين فيما مضى: عصرت يديها بقوة، أحجار خواتمها التي تزحزحت من مكانها تحز في راحتي نيلا: لقد تجاوزا بعض أسوأ العواصف التي شهدها بحر الشمال على الإطلاق."

نادى زوجها من أمام النافذة:

- إنكِ تبالغين في الاهتمام بالماضي، يا عزيزتي. أليس الحاضر أكثر إثارة للاهتمام؟

ضحكت آغنس:

- آه، يا فرانس. نهلا، لا بد أن زوجكِ أخبركِ، أنهما التقيا في الثانية والعشرين من عمريهما، في أثناء العمل على سفن الفوك؟ عبرا خط الاستواء، متجاوزين العواصف الكاريبية، لأن الرياح التجارية في الاتجاه الشمالي الشرقي كانت تدفعهم قدماً. بدا كلام آغنس وكأنه حكاية أطفال، حفظتها إثر سنوات من التكرار.

- عزيزتي...

- كانا موهوبين جداً، ويعملان لرفعة البلاد! طبعاً، وجد فرانس مكانه في الستدهاوس، لكن جدران أمستردام الحجرية لم تكن لتسع براندت قط.

عندما توقف زوجها عند الباب، تبعته نظرة آغنس كالصقر، وسألت نهلا:

- هل أخبركِ برانت عن حكاياته في باتافيا؟

- لا.

- لقد باع أسهمه بأربعة أضعاف المبلغ الذي اشتراه به. لقد استمال النقود حرفياً إلى جيبه وعاد بطاقمه الخاص.

إعجاب آغنس، الذي يداخله ازدراء مبهم، هو بمنزلة مُخدِّر، ومع أن ميرمانز بدا منزعجاً بسبب هذه المعلومات، إلا أن نيلا تلهف إلى المزيد.

قال ميرمانز، بنبرة تحمل حرارة مصطنعة:

- كان ذلك قبل سبعة عشر عاماً، يا آغنس. إنه أكثر سعادة هذه الأيام بوجوده في الجزر الشرقية والتهامه البطاطا.

كان محقاً في أمر واحد، وهو أن آغنس هي الوحيدة التي

تحب تذكر الماضي ممن قابلتهم نهلا. كان الماضي يؤلم والدتها، ويثير الدموع في عيني والدها. أما بقية سكان أمستردام فيبدو أنهم يحبون المضي قدماً، فيرفعون بأبنيتهم رغماً عن الأرض السبخة التي قد تغرقهم جميعاً.

تبدو آغنس مُنفعلة، وجامحة قليلاً. تفتح يديها وتهز كتفيها، وتنفض بشرود ذرة غبار وهمية عن تنورتها، وتقول، وقد عادت إلى غموضها ورصانتها:

- الرجال هم الرجال.

أجابت نهلا:

- طبعاً. وهي تفكر أنه لا يوجد رجلان أكثر اختلافاً من فرانس ميرمانز ويوهانس براندت.

قالت آغنس:

- لقد سلّمتُ خادمتكم مخروط سكر من محصولنا.

قال فرانس:

- إننا سنجربه بعد العشاء. هل ستذوقه مارين برأيك؟" تسيل جفنيها. كل تلك المخاريط المثالية! كان فرانس، رائعاً. جرت عملية التكرير بكل سلاسة.

- كان ميراثكِ الوحيد، هل أصبت؟

طرفت عينا آغنس. وتمتمت: "عندما يخضع المرء، يا مدام براندت، فهو يجني دائماً أكثر بكثير."

رفضت نهلا غريزياً هذه الثقة البادية. وآغنس، التي خاب أملها إثر الصمت الثقيل بينهما، اعتدلت في جلستها، وقالت:

- على الرغم من إمكانية أن ننتج المزيد من السكر في المستقبل، إلا أنه يجب على زوجكِ أن يُحسن معاملتنا. فليس الطقس دائم اللطف نحو سوريدام، والأجانب لا ينفكون يهاجمون أرض أبي - والتي هي أرضنا. هذا المحصول قد يكون كل ثروتنا لأعوام عديدة.

طبعاً، يا مدام. نحن ممتنون جداً باختيارك لنا.

لانت آغنس قليلاً على نحو ظاهر، وتسأل: -

- هل ذهبتِ إلى مكتب زوجكِ من قبل؟

- لم أفعل قط، يا مدام.

- إنني أذهب بصفة دورية إلى الستدهاوس. يبتهج فرانس عندما أزوره. أتحمس كثيراً لرؤية إنجازاته في ضبط هذه البلاد. إنه رجل استثنائي. ولكن أخبريني: هل أجبرتكِ مارين على أكل عشاء الرنكة الخاص بها، تلك الأكلات التعذيبية للارتقاء بالذات؟

- نحن...

- عشاء برنكة واحدة وفساتين سوداء بسيطة! وضعت آغنس يداً على قلبها، وأسبلت جفنيها مرة أخرى، قائلة: لكن هنا، يا مدام، يرى الرب أصدق أعمالنا هنا.

- أنا...

- هل تبدو مارين مريضة برأيك؟ فتحت آغنس عينيها بحركة مفاجئة، و اتخذ وجهها تعبير القلق السابق.

احتارت نيلا ماذا تقول، وقد أنهكها تقلب المرأة في الحديث. يظهر أن التعاسة تنبعث من آغنس في موجات

متضاربة، إلا أنها تستطيع أن تبدي من الثقة المُقنعة بالنفس ما يعوض عن ذلك الإرباك. إنها تشتهي شيئاً ما، ونهلا عاجزة عن إشباعه.

علقت آغنس، بمسحة غيظ خافتة:

- اعتادت مارين دائماً أن تكون هي الأقوى.

وينقذ نهلا من الرد صوت نباح ريزيكي.

- آه! قالت الضيفة، وهي تسوّي فستانها. "لقد عاد زوجكِ أخيراً."

مقايضات

على الرغم من كل جوع نيلا، وموهبة كورنيليا في الطهي، يتحول العشاء إلى تعذيب مبرح. على المفرش المُمتد بلونه الأبيض الناعم، تحتسي آغنس ثلاثة كؤوس من الريبيش وتتحدث عن المواعظ البديعة للقس بيليكورني وتقواه، وعن أهمية أن يكون الإنسان دائم الامتنان، وماذا عن أولئك اللصوص الحقراء بأيديهم المبتورة الذين رأتهم عندما أطلق سراحهم من الرَّسبهاوس؟

سألتها نيلا:

- ما هو الرَّسبهاوس؟"

قالت آغنس:

- سجن الرجال. السبينهاوس هو حيث يرسلون النساء الشقيّات، والرَّسبهاوس هو حيث يُروِّض الرجال الجامحون. هناك يعيش المجاذيب،" أردفت، وهي تمدُّ عنقها وتدير مقلتيها تقليداً للجنون. إنه مشهد صادم وعندما تطيل فيه آغنس، يخفض فرانس عينيه إلى مفرش المائدة. "سلّمتهم عوائلهم إلى السجن مقابل أجر لحفظ سلامتهم." وتوجه إصبعاً مزيناً بخاتم إلى نيلا. "لكن الجامحين بحق يُرسلون إلى حجرة التعذيب في قبو الستدهاوس، المجاورة لمخازن ذهب المدينة.

شاركت مارين بكلمات قليلة، وهي تختلس النظرات إلى شقيقها، الذي يباري آغنس كأساً بكأس ويزيد عليها عندما ترفع كورنيليا أطباق الجزء الأول من العشاء.

تماسك يوهانس، لكن عينيه ظلتا جامدتين، ولحيته الخفيفة تضفي لوناً فضياً على وجهه المسمرّ. تأمل صحنه بتركيز إضافي، وهو يغرز شوكته في قطع الحمام المدهونة بصلصة الزنجبيل. عندما أوغلت آغنس في الحماقة، وتولّى ميرمانز زمام الحديث، مُحاولاً إثارة الإعجاب بأحاديثه التجارية. يريد أن يناقش عصير القصب ومعدات النحاس، ومخاريط السكر، وحدود معاقبة العبيد. مضغ يوهانس جزره بضراوة لا يكاد يكتمها.

وأخيراً، انتهت الشوكات من تلاحمها مع فطيرة البرقوق والقشدة الدسمة وابتلعتها الأفواه، بلغت الوليمة نهايتها، ولم يعد من الممكن تجنب السبب الحقيقي لوجودهما هناك. بإيعاءة من مارين، تأتي كورنليا بمخروط السكر على طبق صيني، تحمله بحذر كمن تحمل مولوداً جديداً. وخلفها، يدخل أوتو بصينية عليها ملاعق.

تعاين نيلا مخروط السكر، بناء مخروطياً متلألئاً بطول ساعدها، رُصّت بلوراته بإحكام.

قال ميرمانز:

- لقد خُرِّط نصف المحصول قبل شحنه. وتم تكرير النصف الآخر في أمستردام.

- ملاعق؟ قال يوهانس، وهو يوزعها. ويتناول أداته، وأردف: كورنليا، أوتو، فلتتذوقا. أنتما أكثرنا خبرة.

اتسع منخارا آغنس وزمت شفتيها. بحذر شديد، أخذت كورنليا ملعقة وناولت واحدة لأوتو. وأخرج يوهانس سكين جيب صغيرة لكشط أول شريحة، فنهض ميرمانز من كرسيه وسحب خنجراً من حزامه، وقال، ملوّحاً بالنصل: "اسمح لي."

فابتسم يوهانس وعاد إلى الجلوس. وظلت مارين جامدة، وكلتا يديها على المفرش الدمَقس.

هبطت أول شريحة بيضاء في تموج عند قاعدة المخروط، فقال ميرمانز، وهو يناولها بحركة مسرحية إلى زوجه:

- من أجلك. فتهلل وجه آغنس. وأخذ يوزع المزيد من الشرائح، تاركاً يوهانس وأوتو إلى الأخير. "مذهل،" قالها بالفرنسية، وهو يقرمش شريحته في فمه. "ربما لم يُرزق والدك بالذكور، يا عزيزتي، لكنه حصل على جائزته في هذا السكر."

شعرت نيلا بالشريحة تذوب في فمها، حلوة وحُبيبية، مُتلاشية في لحظة. إنها تترك في الفم مذاقاً مميزاً للفانيليا، أمسكت مارين بملعقتها، وعيناها تتجنبان الحلاوة المُترقبة. عينا آغنس لا تفارقانها وأصابعها تنقبض على يد الملعقة، وفمها لا يفتح إلا قليلاً وهي تزدرده بسرعة.

قالت مارين بابتسامة باهتة:

- طيب المذاق بصورة مذهلة.

قال آغنس:

- ملعقة أخرى، يا مدام؟

سأل يوهانس:

- كورنيليا، ما رأيك فيه؟" فأرسلت مارين نظرة تحذير للخادم.

- جيد جداً، يا سنيور. لذيذ. كان في صوت كورنيليا تجهل لم تسمعه نيلا من قبل.

يسأل يوهانس:

- أوتو، ما رأيك؟

قاطعه آغنس:

- الشكر لله، طبعاً، لكنك ستصنع ثروتنا، يا براندت! ابتسم يوهانس، وهو يقبل شريحة بيضاء أخرى من المخروط المتلألئ. شاهدت نهلا أوتو يمسح له بعناية، كل حركة محسوبة.

سأل ميرمانز:

- متى ستذهب إلى فينيسيا؟ كل تلك القصور والجناديل، وكأنك في الوطن.

وضعت مارين، التي كانت تجرب شريحة أخرى، ملعقتها، و قالت:

- فينيسيا؟

وسألت آغنس زوجها:

- ما هو الجندول، يا عزيزي؟ كان صوتها مزعجاً، وعيناها تلمعان بنبيذ الرينيش والرغبة في أن تكون محبوبة.

- إنه قارب. أجابها بالفرنسية.

فقالت آغنس:

- آه.

قال يوهانس:

- سأرحل خلال هذا الشهر. ربما تود مرافقتي، يا فرانس؟ آه، أردف رافعاً إصبعه: نسيتُ كيف يشق عليك ركوب البحر.

أطلق ميرمانز صوت ازدراء:

- قليل منهم يتحمل الأمواج الهائجة.

- صدقت. أفرغ يوهانس ما تبقى من كأسه، وتابع: ولكن يوجد دائماً من يستطيعون.

نهضت مارين من أمام المائدة، وقالت:

- "بترونيلا، هلا عزفتِ على العود؟

- العود؟ عجزت نيلا عن إخفاء دهشتها، وهي تتذكر تحذير مارين من نقر أوتار عود شقيقها.

التقت أعينهما للمرة الثالثة في ذلك المساء. ونيلا التي ترى الإرهاق في وجه مارين، تتجنب أي اعتراض، وتقول:

- طبعاً، سأفعل، يا مارين.

***

إنها لبهجة أن تعزف على العود، لكن رؤية وجوه جمهورها وخضوع الأوتار المضبوطة على عجالة، هي بهجة أكبر. وأصبحت نيلا، من باب التغيير، موضع اهتمام مُعجَب، فتعزف لأربعين دقيقة وقد التفّت حولها كراسي مستمعيها على هيئة حدوة حصان. حتى أوتو وكورنيليا جاءا للاستماع.

كان المخروط المثير للخلاف مُتقلّص الحجم الآن قد عاد إلى حقيبة آغنس، وخيم هدوء، مرصوص لحظة بلحظة عن طريق نغمات بسيطة وأغنية متحشرجة عن حب ضائع. يراقب يوهانس عروسه بشيء يشبه الفخر. حدقت مارين في النار، مُستمعة، بينما آغنس تهز رأسها بغير تزامن، وزوجها يتململ في مقعده.

لم يلبث آك ميرمانز أن غادرا، مع وعد بمتابعة يوهانس حول

التطورات خلال تشرين الثاني. أغلقت مارين الباب، وهمست:

- شكراً للرب أنهما رحلا. ثم قالت لكورنيليا: "نظفا كل شيء في الصباح.

عجزت كورنيليا عن إخفاء صدمتها لإعفائها من غسيل أطباق سيكلفها ليلة كاملة.

احتضنت نيلا العود بيديها، مبتهجة بانتصارها واستندت إلى نافذة الدهليز، بينما آغنس وفرانس يشقان طريقيهما أسفل درجات المدخل.

- ألوان مزخرفة، يا فرانس." قالت آغنس، و هي تعجز بعد كل هذا النبيذ، عن خفض صوتها. "بالبيوتر."

- آغنس، أخفضي صوتك.

- يا لها من هدية زفاف غريبة، إنني لأعجب كيف تعمل تلك العقول العظيمة! سوف أحصل على بيت دمى خاص بي، يا فرانس. في وسعنا تحمل تكلفته قريباً. وأريده أن يكون أفضل من بيتها.

- لم أكن لأصف عقله بأنه عظيم...

- والشكر لله، هل رأيت وجه مارين عندما ذاقت سكّرنا؟ كنت أنتظر ذلك لأسابيع. فرانسي، كان الرب رحيماً...

- آه، أخرسي فقط لسانكِ الذي لا يطاق.

وفيما يبتعدان، تغرق مدام ميرمانز في صمت لا ينكسر مرة أخرى.

الفتاة المهجورة

كانت كورنيليا قد أشعلت ناراً في المدفأة عندما أفاقت نيلا صباح اليوم التالي، وارتدت نيلا ثيابها بنفسها، لكيلا تزعج نفسها بوضع مشد، مُفضِّلة قيصاً وصدرية على عظم الحوت التي كانت كورنيليا ستفرضه عليها.

سألت أوتو وهي تنزل الدرج:

- هل وصلتني أية رسائل؟

- لا، يا مدام.

ظل تعليق آغنس يتردد في رأس نيلا. إن فرانس يبتهج عندما أزوره. وعلى الرغم من شعور نيلا بارتفاع معنوياتها، لأنها عزفت على العود، إلا أن الأمسية عموماً تركت آثارًا من عدم الرضا.

إن نيلا لا ترغب في تقليد آغنس ميرمانز في أي شيء، لكنها تعرف عن الزواج أكثر من أي شخص في هذا البيت. فكرت نيلا، يجب أن أظهر لأشجع يوهانس، لأشيد به في مهامه. وربما لن يلبث في المقابل، أن يشيد بي. إن خطتها هي مفاجأة يوهانس في محل عمله، ثم العودة إلى علامة الشمس. ربما لن تمانع صانعة الدُّمى في الحديث، في غياب وجه الحفرة في الجوار.

أصبحت جميع الغرف الآن نظيفة من جديد، إلا أن المنزل يغلفه شعور مكتوم، وجو من الإرهاق بعد معركة. كان باب مكتب يوهانس مفتوحاً، وتراءت لنيلا خرائطه وأوراقه المبعثرة

على الأرض.

تجولت في حجرة المائدة، وتوقفت حينما رأت مارين، التي لم تكن متأنقة، بل اكتفت برداء بسيط فوق قميص وتنورة، كان شعرها البني الفاتح منسدلاً فوق كتفيها، مُرسلاً رائحة خفيفة من جوزة الطيب. إنه مثل رؤية مارين، ولكن من خلال عدسة أكثر نعومة وغنى.

سألتها نيلا:

- هل ذهب يوهانس بالفعل إلى الهوغسترات؟

صبّ أوتو فنجانين من القهوة، التي شحذت رائحتها المرّة حواسها. وسقطت بضع قطرات من فوهة الإبريق، انتشرت على المفرش مثل جزر جديدة على خريطة.

سألتها مارين:

- لماذا؟

- أردتُ سؤاله عن مكان بيرغن.

- إنها في النرويج، يا بترونيلا، لا تزعجيه.

- ولكن...

- ولماذا تريدين أن تعرفي عن بيرغن، من بين كل الأماكن؟ كل ما يفعلونه هناك هو تجارة السمك.

في الدهليز، كانت كورنليا تنظف البلاطات البيضاء والسوداء حول الباب الأمامي، مطأطئة الرأس في تركيز. وأوتو يمضي في طريقه إلى المطبخ، وفي أثره نفحة من إبريق القهوة. أرسلت شمس تشرين الأول أشعة واهنة عبر النوافذ، و أُعيدت شموع الشحم إلى غابئها،

حينما فتحت نهلا الباب، توقفت كورنيليا و اعتدلت، فدخل الهواء من الخارج، قالت ورأسها منتصب، ويداها تقبضان على المكنسة مثل رمح:

- مدام، إنها الساعة الثامنة. إلى أين تذهبين في هذه الساعة المبكرة؟

- مشاوير للمنزل. قالت، وهي تشتعل غضباً أمام نظرة الشك في عيني كورنيليا. ويعاودها الشعور أنها مسجونة، وكان الإحساس الغر بالقوة الذي منحها إياه عزفها على العود قد خبا فعلاً.

قالت كورنيليا:

- لا تقوم السيدات بالمشاوير، يا مدام. عليهن أن يعرفن مقامهن.

وكأنها تلقَّت صفعة، إساءة لا يجرؤ أي خادم على ارتكابها في أسدلفت.

أصرت كورنيليا، وهي تبدو أقرب إلى البؤس:

- يجدر بكِ البقاء في المنزل. استدارت نهلا لتستنشق الهواء الطلق، بعيداً عن دخان الشموع، ووجه كورنيليا الحارس. تمتمت الخادم، بلطف أكثر هذه المرة، وهي تضع يداً على ذراع نهلا:

- حيثما تذهبين، لا يجدر أن تذهبي بمفردك. أنا فقط...

- "خلافاً لكِ، يا كورنيليا، أستطيع الذهاب حيثما أريد."

***

سيكون شيِّقا أن تشاهد زوجها في مكان عمله، أن تشهد جهوده في توطيد ثروته. إنها طريقة لفهمه. انعطفت نيلا إلى الكلوفينيرشبورخوال، قريباً من رائحة البحر، وصواري السفن العالية في الأفق المتوسط. وبينما تسير حذو القناة، حتى أنها فكرت في أن تُري يوهانس مُصغَّرتي كلبتيه الغاليتين. سيسعده ذلك بلا شك.

عبرت القوس الرئيس لمدخل الموغسترات إلى مبنى الفوك، قرب مستودع الأسلحة، حيث قعقعة الدروع والتروس وفرزها حسب حجمها. هذا المكان هو خزنة المدينة كلها، بل خزنة البلاد كما قد يقول بعض منهم. أخبرها والدها ذات مرة أن أمستردام قد شاركت بأكثر من النصف في صندوق تمويل الحرب. كان يتكلم بلهجة مشككة حول ثروة المدينة وقوتها، لكن امتزاجها بهذا الاحتراز كان إجلالاً متحسِّراً.

قطعت نيلا محيط الفناء الأول، دائخة بسبب مباني القرميد المتكررة. في الركن البعيد رجلان يتحدثان، وعندما مرت بهما، قاما بانحناءة كبيرة. فانثنت ركبتاها تحية و هما يرمقانها بفضول.

قال الرجل الأول:

- لا نرى نساءً أبداً في الفوك.

أضاف صديقه:

- إلا في الليل. برائحة مسك الفانيليا."

أجابت:

- أبحث عن يوهانس براندت، صوتها متوتر و لهجتهما مليئة بالتلميحات. هالة من البثور الحمراء تغطي جبين الرجل الثاني. إنه يزيد عن الصبي قليلاً. لقد كان الرب قاسياً في رسمه.

تبادل الرجلان نظرة. وقال الأول:

- اعبري ذلك القوس، إلى الفناء الثاني، وهناك باب أقصى يسارك." ثم أردف: إنها منطقة خاصة هناك. لا يُسمح للنساء بدخولها.

شعرت نيلا بأعينهما على ظهرها، وهي تعبر القوس الثاني. لا أحد يجيب عندما تقرع الباب أقصى اليسار، وبنفاد صبر فتحته. كان الملح قد تغلغل في قطع الأثاث المتفرقة والجدران، ما أضفى رطوبة على الغرفة. في المؤخرة درج حلزوني شرعت نيلا في صعوده، درجة درجة، إلى أن تصل إلى طابق أفسح، ممر طويل في نهايته باب خشبي كبير آخر.

نادت:

- يوهانس؟

فكرت، دائماً أنادي عليه. دائماً أنتظر أمام بابه. ركضت نحو مكتبه، سريعة كهرة، وحماستها تزيد مع التفكير في مفاجأته.

وجدت مقبض الباب في نهاية الممر جامداً، فدفعته نيلا بقوة وفُتح الباب فجأة، يتفسّخ اسم زوجها في حلقها. كان زوجها وجاك فيليبس هنا، في مشهد لن يُمحى أبداً

- نيلا، قال زوجها، لكن رأسها يدور ولا تكاد تسمعه: لا يفترض بكِ. لا يُفترض...

وبسرعة رمى جاك ليوهانس قميصه. وراحا يتخبطان -أذرعاً وأصابع وركباً- بصورة خرقاء كلاهما، وكلاهما فزع، وبينما تشاهد رقصتهما المعجولة، تفقد ركبتا نيلا توازنهما، وسقطت على الأرض، رفعت عينيها، ورأت زوجها قد تمكن من

النهوض. إنه يمد يده -إليها، إلى جاك، إلى الملابس، لا تعرف- يبدو كما لو أنه يتشبث بحبال وهمية في الهواء. وهناك جاك البيرموندزي، عاري الصدر، يمرر أصابعه خلال تموجات شعره، هل هو يبتسم أم يجهم أم كلاهما في وقت واحد؟ تخفد الفكرة وسط المدير في رأسها وتطير يداها إلى عينيها.

جأر الصمت في أذني نيلا، وانفجر الألم في قلبها. انقلبت المهانة من بذرة سوداء واحدة إلى آلاف، والجرح الذي كان خامداً وجد صوتاً أخيراً.

لا تعرف إن كان يستطيع سماعها، إن كانت الكلمات تخرج. "غبية، غبية، غبية،" هكذا تهمس وعيناها مغلقتان بقوة. ساقاها متيبستان، وجلدها ساخن، وجسدها ثقيل كحجر الطاحون. شعرت بيدي رجل عليها، ترفعها، وبرأسها المتدلي، ترى الأصابع البيضاء لواحدة من قدمي يوهانس. إنها أول مرة يلمسها فيها أحد منذ قرصة مارين.

- نيلا، قالها صوت مألوف.

إنها كورنيليا. لقد جاءت كورنيليا. تركت نيلا نفسها تُجرُّ من الغرفة، في تخبط متعجل داخل الممر الذي لا ينتهي، وكأنما كلتاهما تركضان هرباً من موجة.

نادى يوهانس باسمها. استطاعت سماعه، لكنها لا تستطيع الإجابة، وهل كانت سترغب في ذلك حتى لو استطاعت؟ فقد فقدت قدرتها على النطق. واختنقت الكلمات على لسانها.

نزلت كورنيليا معها آخر درجات للسلم، تأمرها أن تحرك قدماً أمام الأخرى:

- يا يسوع المسيح، مدام، سيري فقط، رجاء سيري فقط

حتى نصل بكِ إلى المنزل.

كان الرجلان ما يزالان واقفين في الفناء. اضطرت كورنليا إلى جرِّها، حاجبة رأس نيلا حتى لا يرى أحد الغراب وقد صفع وجه سيدتها.

صعدتا الكلوفينيرشبورخوال، تملك الضيق داخل نيلا وحاولت التقيؤ، فوضعت كورنليا يداً حازمة على فمها، إذ إن الصراخ سيلفت الكثير من الانتباه غير المستحب في هذه الشوارع اليقظة والضيقة.

وصلتا إلى المنزل. وفتح الباب كأنما من تلقاء نفسه، إلا أن نيلا رأت مارين وأوتو ينتظران في الظل. اتكأت على كورنليا، وصعدت معها الدرج. تمددت في فراشها، وشدت إليها شراشف الزفاف، وهي تحاول التنفس، وغصت بدموعها.

ثم، من أعمق أعماقها، خرجت صرخة تمزق الهواء.

شعرت نيلا بشخص يمسِّد جبينها، مرة تلو مرة، يرفعها، ويدفع بشراب في حلقها. وأخذ عويلها يخفت تدريجياً، وآخر صوت يخمد. وفوقها يميل أوتو ومارين وكورنليا كالحكماء الثلاثة على مهد المسيح، ووجوههم شاحبة بالقلق.

فكرت نيلا، أنا المُخطئة. غبية. لم يكن يفترض بي...

اختفت الوجوه وتسقط نيلا، وتلاشت صورة زوجها العاري تحت بركة مظلمة.

الجزء الثاني

تشرين الثاني، ١٦٨٦م

أَلَعَلَّ يَنْبُوعًا يُنْبِعُ مِنْ نَفْسِ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ ٱلْعَذْبَ وَٱلْمُرَّ؟

رسالة يعقوب ٣: ١١

باطن الأشياء

أيقظتها رائحة حلوة بصورة لا تقاوم. فتحت عينيها، ورأت مارين عند نهاية سريرها، مُستغرقة في التفكير، وطبق من الرقائق على حجرها. بدت مارين فجأة أكثر نعومة، عيناها الرماديتان خفيضتان، وفمها خط بائس. لسبعة أيام، تأتي وتجلس عند نهاية فراش نيلا، وفي كل يوم تتظاهر نيلا بالنوم.

ظلت صورة يوهانس وجاك فيليبس تطن لأيام داخل جمجمة نيلا، كعثّة ما فتأت ترفرف بجناحيها. وبقوة إرادتها الخاصة أعجزتها نيلا عن الطيران. خدّرتها ونزعت جناحيها، لكنها لم تختفِ.

ماذا فعل الرجلان أيضاً قبل وصولها إلى ذلك المكتب – فراشهما كتاب خرائط مفتوح، إلهان فوق عالمهما الورقي؟ "لستُ مؤهلة لهذه الحياة في أمستردام" هكذا فكرت نيلا، وهي تتمنى لو أنها بعيدة كل البعد. أشعر بي أصغر من ثمانية عشر لكني مهمومة كامرأة في الثمانين. إنه شبيه بمرور حياتها أمام عينيها دفعة واحدة، وهي تخوض في بحر من الفرضيّات بلا سبيل للانسحاب. يا لي من حمقاء، حتى أتصور قدرتي على امتلاك أمستردام، قدرتي أن أكون كفؤاً ليوهانس براندت! لقد انتزعتُ جناحي بنفسي. لا كرامة لي.

لا بيت الدمى، غير المسكون، في الزاوية. كان أحدهم قد فتح ستائره، وبدا أكبر وأشعة الشمس تضيء إطاره. إنه يشد انتباه مارين أيضاً – فتضع صحن الرقائق على الأرض وتسير ببطء نحوه، فتُدخل يدها في الصالون المصغّر، وتُخرج المهد،

وتؤرجحه فوق راحتها.

- لا تلمسيه، انفجرت نهلا، بأولى كلمات نطقتها في أسبوع: تلك الأشياء لا تخصك.

جفلت مارين وأعادت المهد إلى مكانه. وقالت:

- هناك رقائق بماء الورد لأجلكِ، مع القرفة والزنجبيل. حصلت كورنيليا على صينية خبز جديدة.

تتساءل نهلا ماذا فعلت كورنيليا لتستحق صينية جديدة. كانت النار قد أضرمت، مشرقة وبهيجة في المدفأة. وفي الخارج، كان الشتاء قد أعلن قدومه الفعلي، وتشعر نهلا بنفحة برد داخل الغرفة.

- حسبتكِ قلتِ إن خواء البطن نقاء للروح؟ قالتها على الرغم من أنها كانت تقبل أطباق الموتسبوت وشرائح جبن الجودا التي كانت كورنيليا تتركها خارج الباب. شعرت بالاتهامات تغلي في داخلها، وبدت متأهبة للانفجار.

قالت مارين:

- تناولي قليلاً من الطعام رجاءً، ثم لنتحدث.

تناولت نهلا الطبق، الذي زُيّن بتصميم دلفتي من زهور وأوراق متعانقة. نفضت مارين وسائدها، مستأنفة جلوسها في نهاية السرير. الرقائق ذهبية مقرمشة إلى حد الكمال وماء الورد يتناغم مع الزنجبيل المُدَفأ. يزعق بيبو داخل قفصه في الركن، وكأنه يستشعر بهجة نهلا المكبوتة.

تساءلت:" ماذا تُراها ستقول مارين عندما أخبرها بما رأيت"؟

- ربما تحبين النهوض من الفراش؟ نبرة صوت مارين تشبه

ملكة تحاول التودد إلى فلاحة.

أشارت نيلا بإصبعها إلى بيت الدمى:

- أفترض أنكِ ستسعدين أكثر برؤيتي هناك.

- ماذا تعنين؟

- لقد انتهت حياتي هنا.

انقبض وجه مارين أمام قولها، ودفعت نيلا طبق الرقائق المتبقية نحوها، وقالت:

- لا مزيد من أوامرك، يا مارين، إنني أفهم كل شيء.

- ولكن هل تفهمين حقاً؟

- أجل. تأخذ نيلا نفساً عميقاً، وتابعت القول: ثمة شيء يجب أن تعرفيه.

تدفق الدم إلى وجه مارين الشاحب، وقالت: - ماذا؟ ما هو؟

نيلا، التي أمدّتها معرفتها الخفية بقوة لحظية، وضعت يداً على الأخرى فوق الشراشف وحدّقت في عيني مارين الجادّتين، شعرت بجسدها ثقيلاً، مثبتاً إلى الفراش.

- يوجد سبب لالتزامي فراشي طوال أسبوع، يا مدام، إن يوهانس، شقيقك، لا، لا أجدني قادرة على قولها.

- قولي، ماذا؟

- إن يوهانس ... إن شقيقكِ... لوطي.

طرفت عينا مارين، وداخل عقل نيلا تعود الحياة وتنفجر في الصورة الجامدة ليوهانس وجاك، تلتصق قطعة من العجين في حلقها. لكن مارين لا تتكلم، بل هي تتأمل التطريز على غطاء

السرير، حيث تلتفُّ حروف الباء بين التوريقات وطيور الغابة.

ثم تقول مارين بصوت هادئ:

- أنا آسفة جداً على ضيقكِ، يا نيلا. أعترف أن يوهانس لا يشبه معظم الأزواج.

في البداية، لا تفهم نيلا. ثم يُفتح أمامها وجه مارين، كتاب يُظهر صفحاته. يكتسحها إحساس بالوخز. يورّد خديها، ويجري مندفعاً عبر دمها.

- كنتِ تعرفين؟ كنتِ تعرفين؟

تشعر باقتراب النحيب، إن هذا أسوأ من رؤية زوجها عارياً على أريكة حجرة مكتبه مع جاك. - يا إلهي. إنني أضحوكتكم، كنتُ أضحوكتكم منذ بداية وصولي.

- لم نضحك عليكِ، يا بترونيلا. قط. لستِ أضحوكة أحد.

"لقد انتقصتم من قدري. وقد رأيت ذلك بأم عيني الآن. الشيء المقرف، الذي فعله مع ذلك الصبي...

نهضت مارين، وسارت إلى النافذة:

- هل يُقرفكِ يوهانس كله؟

- ماذا؟ نعم. اللوطيُّون، احذروا منهم، كما قال بيليكورني. غضب الرب سيتغلغل في الأرض. إنني زوجه، يا مارين! تخرج منها الكلمات دفعة واحدة، كلمات لم يخطر لها قط أنها ستقولها، ومع كل حرف، تشعر بأنها أخف وزناً، وكأنها تطير.

بسطت مارين أصابعها على زجاج النافذة إلى أن ابيضتْ أناملها:

- مُدهل تذكرك لتلك العطلة."

- كنتِ تعلمين أن يوهانس لن يحبني!

عندما تتكلم مارين، يخرج صوتها متحشرجاً. - عجبتُ كيف لا يستطيع. أنا لا أفهم دائماً. سكتت برهة قصيرة، وتابعت: إنك تعجبينه.

- مثل حيوان أليف. وريزيكي تعجبه أكثر. لا أستطيع أن أغفر هذه الخدعة، هذا العار، كنتِ تعرفين ماذا سأواجه. الليالي التي انتظرتُ فيها...

- لم أعدّها خدعة، يا نيلا! لقد كانت فرصة. للجميع.

- أنتِ؟ هل اختارني يوهانس بنفسه؟

ترددت مارين:

- كان يوهانس مُمانعاً. لم يكن يريد، لكنني، استطلعت عنكم. أحد أصدقاء والدكِ في المدينة ذكر المأزق المالي الذي ترككم فيه. كانت والدتكِ أكثر من مُتحمِّسة. فكرتُ أنه سيرضي الجميع.

قذفت نيلا بالطبق على ألواح الأرضية فتهشّم إلى ثلاث قطع، وصرخت:

- وأي فرصة تلتُ أنا، يا مارين؟ لقد تحكمتِ في كل شيء، اشتريتِ لي ملابسي، وتمسكين دفتر الحسابات، وتجرّينني إلى الكنيسة، وتزجّين بي إلى ولائم النقابات حيث يحدّق بي الجميع. كنتُ مُمتنّة جداً عندما سمحتِ لي بعزف العود. بائسة. أنا من يفترض بها أن تكون الزوج في هذا المنزل ولكني مثل كورنيليا.

غطت مارين وجهها بيديها، إذ شعرت بثقل الجو بينهما. أما نيلا فشعرت بحيويتها ترضع فجأة وهي تشاهد معاناة مارين في الاحتفاظ بتماسكها.

- مارين، كفي ادعاءً للهدوء! إن هذه كارثة. ترقرقت الدموع في عينيها، حاولت نيلا أن توقفها، لكنها انهمرت على خديها رغماً عنها: كيف في وسعي أن أكون سعيدة مع رجل مصيره جهنم؟

تحول وجه مارين إلى قناع من الغضب. - صمتاً. صمتاً. لم تكن عائلتكِ تملك سوى لقبها. تركتكم والدكم فقراء. كان الأمر سينتهي بكِ زوج فلاح.

- لا عيب في ذلك.

- فلتقولي ذلك بعد مرور عشرة أعوام عندما تكسر السدود، عندما تصبح يداكِ مسحوجتين ويركض عشرة أطفال حول قدميكِ، مطالبين بالطعام. كنتِ في حاجة إلى الأمان، أردتِ أن تكوني زوج تاجر. ظلت نيلا صامتة: بترونيلا؟ ماذا ستفعلين؟

ازدادت حدة الهلع في لهجة مارين، وبدأت نيلا تدرك أن شيئاً من النفوذ الحقيقي قد صار ملكاً لها أخيراً. هل تظن مارين أنني سأذهب إلى رؤساء البلدية؟ حدقت بتعجب في قسمات مارين الملتوية والشاحبة، شاعرة بالخاسة لأنها -ذات الثامنة عشر عامًا من أسيدلفت- تستطيع الذهاب وإخبار آباء أمستردام أن زوجها التاجر المحترم قد مسه الشيطان.

قالت نيلا لنفسها، آه، تستطيعين فعل ذلك. إنها في هذه اللحظة، تشعر بميلها إلى فعل ذلك. تستطيعين تسليم جاك

فيليبس أيضاً. مَن في وسعه منعكِ إن أردتِ الذهاب؟ تستطيعين تحطيم حياة هذه المرأة بجملة واحدة وردّ اعتبارك كاملاً.

وكأنما قرأت أفكارها، عادت مارين إلى التحدث:

- أنتِ جزء من هذه العائلة، يا بترونيلا براندت. حقيقتها تلتصق بك كالزيت على الطائر. ماذا تريدين، العودة إلى حياة الفقر؟ وماذا سيحدث لأوتو وكورنيليا إن أفشيتِ سرّنا؟

تفردُ ذراعيها كجناحين، وشعرت نيلا أن جسدها ينكمش في الفراش.

أردفت مارين:

- نحن لا نملك أن نفعل شيئاً، يا بترونيلا – نحن النساء. أي شيء. تشتعل عيناها بسورة لم ترها نيلا فيها من قبل. كل ما نملك فعله إن حالفنا الحظ هو رتق الأخطاء التي يرتكبها الآخرون.

- آغنس سعيدة بما يكفي.

- آغنس؟ آه، إن آغنس تلعب دورها، لكن ماذا سيحدث عندما ينقطع إنتاجها؟ كانت تلك المزرعة ملكاً لوالدها وقد سلمتها الآن إلى زوجها. يذهلني كيف بوسعها أن ترى في ذلك قلة الذكاء. وبعضنا يمكنهن العمل،" صرخت مارين،" عمل يقصم الظهر، ولن يأجرونا حتى نصف ما يجنيه الرجل. لكننا لا نستطيع تملُّك العقارات، لا يمكننا أن نقيم دعوى قضائية. الشيء الوحيد الذي يرون أننا نستطيع القيام به هو إنجاب الأطفال الذين يصبحون بعدها ملكاً لأزواجنا."

- لكنكِ لم تتزوجي، أنتِ لا...

"وهناك أزواج لا يتركون نساءهن وشأنهن، طفل تلو الآخر حتى يصبح جسمها شِوالًا مُجعَّدا.

- لا أمانع أن أصبح شِوالًا مُجعَّدًا ما دمتُ لن أكون وحدي! الزوج الاجتماعية، زوج وحيدة، أليس هذا ما يقوله الناس؟

- وكم امرأة تموت في المخاض، يا بترونيلا؟ كم فتاة تصبح ربة منزل بلا روح؟

- كفاكِ صراخاً في وجهي! كانت هناك جنازات في أسِدلفت أيضاً، إنني أدرك الخطر.

- بترونيلا...

- هل كانت أمي تعرف ما هو؟ هل كانت تعرف؟

توقف مارين، مُنقطعة الأنفاس:

- لا أظن ذلك. لكنها أخبرتني أنكِ فتاة ذات خيال، قوية ومُؤهلة، وأنكِ ستزهرين في المدينة. سوف تجد نيلا سبيلاً، هكذا كتبت -أسِدلفت أصغر من أن تتسع لعقل مثل عقلها. كنتُ مسرورة بتصديق ذلك.

قالت نيلا:

- ربما أكون كذلك. ولكن، ألا أحيا كامرأة لائقة لم يكن قراراً تملكين اتخاذه.

ملامح مارين الهازئة كمخالب تجرح جلد نيلا. - ماذا تعنين، بامرأة لائقة؟

- المرأة اللائقة تتزوج، تنجب الأطفال...

- وماذا يجعلني هذا إذن؟ امرأة غير لائقة؟ في آخر مرة

نظرتُ في المرآة كنتُ لائقة بلا شك.

- لا أنا، ولا أنتِ كذلك.

تنهد مارين، مُدلِكة جبينها:

- يا إلهي، لا أريد أن أفقد أعصابي. إنها تفلتُ مني فأعجز عن إمساكها. أعتذر.

صدق الاعتذار يخلق لحظة سلام. مُرهقة، تعود نهلا للاستلقاء على فراشها وتتنفس مارين عميقاً، وتقول:

- الكلمات تسري كالماء في هذه المدينة، يا نهلا. قطرة واحدة قد تغرقنا.

قالت نهلا:

- هل ضحيتما أنتِ ويوهانس بمستقبلي، حتى تجنّبا مستقبلكما مثل هذا الخطر؟

أغمضت مارين عينيها:

- لقد استفدت من هذا الزواج، أليس صحيحاً؟

- حسناً، لم أكن لأغرق في أسِدلفت.

- لكن حياتكِ هناك لم تختلف عن الحياة تحت الماء. بضع بقرات، ومنزل رث، وملل. فكرتُ في أن هذا الزواج قد يمنحكِ مغامرة.

انفجرت نهلا:

- حسبتكِ قلتِ إن النساء لا يملكن المغامرة." ولكن حتى مع قولها، فكرت في صانعة الدمى بشارع الكالفرسترات: هل نحن في خطر، يا مارين؟ لماذا نحتاج إلى أموال السكر؟ لم يكن

يوهانس ليبيعه إلا مضطراً.

- قرِّب منك أعداءك.

- ظننتُ آغنس ميرمانز صديقتك.

أجابت مارين، وهي تعظر من النافذة:

- أرباح السكر ستحمينا. في أمستردام، لا يستطيع الرب، مع كل مجده، أن يفعل كل شيء.

- كيف لكِ أن تقولي هذا؟ أنتِ، بكل تقواكِ...

- ما أومن به لا علاقة له بما أملك السيطرة عليه. لسنا فقراء، لكن السكر بمنزلة سد أمام الأمواج العالية. وأنتِ أيضاً تحمينا، يا بترونيلا.

- "أنا أحميكم!

- طبعاً، وصدقيني، نحن ممتنون لذلك.

هذا الامتنان الغريب يزدهر في دم نيلا، فيزيدها إحساساً بأهميتها. حاولت إخفاء سرورها، بتأمل التصميم الدوامي للشراشف.

- مارين، أخبريني، ماذا سيحدث إذا اكتشفت آغنس وفرانس أمر يوهانس؟

- أرجو أن تأخذهما الرحمة. سكتت مارين برهة قصيرة، وهي تبحث عن كرسي: لكني أشك في أن يفعلا.

في الصمت الثقيل، تتداعى مارين ببطء مثل دمية، ساقاها تنثنيان تحتها، ذراعاها ورقبتها يتراخون، ذقنها يميل على صدرها. قالت:

- هل تعرفين ماذا يفعلون برجال مثل أخي؟ يغرقونهم. يضع القضاة الربّانيون أثقالاً على أعناقهم ويدفعون بهم إلى الماء. غمرت موجة من الكآبة جسد مارين. وقالت: ولكن حتى لو عادوا وأخرجوا يوهانس وشقوا جسده، فلن يجدوا ما يريدون.

- لماذا؟

انهمرت دموع مارين على خديها الشاحبين. وضغطت يدها على صدرها كأنما تريد دفع حزنها:

- لأنه، يا بترونيلا، شيء في روحه. إنه شيء في روحه ولا يمكنكِ استئصاله.

قرارات



بعد ساعة، فتحت نيلا باب غرفتها، حاملة بيبو في قفصه. كانت الشمس ترسل شعاعاً ضعيفاً من نافذة الدَّرج، مُحيلة لون الجدار الذي يقابلها إلى ليموني باهت. تناهى إلى سمعها صوت يوهانس في غرفة مارين الصغيرة، والتذبذب الخفيض في صوتيهما المكتومين. وضعت قفص بيبو على مقدمة الدرج، وقطعت الممر بخطى مُتسلِّلة.

- لماذا لا يمكنك تجنب ذلك الرجل؟ أتخيَّل كيف قد ينتهي هذا فلا أتحمَّل.

- لا أحد لديه، يا مارين.

- أنت تستهين به. بدا صوت مارين منهكاً: إنه لا ولاء لديه.

- تظنين السوء في الجميع.

- إنني أرى حقيقته، يا يوهانس. سوف يستنزفنا حتى آخر قطرة. كم من النقود منحته حتى الآن؟

- إنه يساعد في حراسة السكر. المال حقه. وهو يمنعه على الأقل من توصيل الطلبيات والمجيء إلى هنا.

- بأي عينين عمياوين ترى العالم، لماذا قد يكون عزنك آمن من هذا المنزل؟ ينبغي إبعاده بمقدار ماتستطيع عن أي شيء له علاقة بنا. ماذا لو أن بترونيلا أخبرت والدتها، أو رؤساء البلديةُ؟

- إن نيلا تملك قلباً...

- والذي لم أكد اعترفت بوجوده.

- غير صحيح. هذا ظلم. لقد ابتعتُ تلك الخزانة، تلك الفساتين، اصطحبتها إلى الوليمة. ماذا أيضاً عليَّ أن أفعل؟

- تعرف ماذا أيضاً.

حلّ صمت طويل، ثم قال يوهانس:

- أعتقد أنها القطعة الناقصة في أحجيتنا.

- والذي تواجه خطر فقدانها. الضرر الذي أحدثته، بإهمالك الشديد لاحتياجات الآخرين...

- أنا؟ كم يُذهلني نفاقكِ، يا مارين. حذرتكِ في آب الماضي أنني لا أستطيع...

- وأنا حذرتك، أنك إذا لم تقطع علاقتك مع جاك فإن شيئاً رهيباً سيحدث.

لا تطيق نيلا سماع المزيد. فتعود إلى الدَّرج وتحمل قفص بيبو. وبينما تنزل الدَّرجات، تدرك أنها لم تشعر في حياتها بهكذا نفوذ أو خوف. تتخيل يوهانس وهو يختفي تحت الماء، وجه مُتمعّج، وشعر يتلوى كأعشاب البحر الرمادية. قد يكون هذا من صنيعها. لقد عاشوا لأعوام مُحتمين بهذه الجدران وهذا الباب الثقيل، لكنهم فتحوه وسمحوا لنيلا بالدخول، وانظروا ماذا حدث الآن. نحن لا نحب الخونة - كلمات مارين تعود إليها، تذكيرٌ بالاتحاد الغريب بين هؤلاء الأشخاص الذين تنتمي إليهم نيلا جزئياً، في انتظار أن يُرى أين تضع ولاءها.

جلست على آخر درجة في السلم، ووضعت القفص إلى جوارها. كان بيبو على مجثمه، قابضاً عليه في إذعان. لمحت

نهلا في شد باب القفص بقوة، ففُتح، وقفز طائرها الصغير، ورأسه يتحرك يميناً ويساراً في فضول، وهو ينظر إليها بعينيه الخرزيتين في ذهول.

كان متردداً في البداية، لكنه انتهز فرصته، فطار، وراح يدور ويدور حول البهو العملاق، يحلق أعلى وأعلى، مُنطلقاً ومُرفرفاً في الفضاء الكبير، وفضلاته تتساقط بوفرة على بلاطات الأرضية. فكّرت نهلا، لتتساقط. ليغطي بيبو هذه البلاطات اللعينة بالقذارة.

تراجعت في جلستها، وأخذت تراقب تحليق بيبو في دوامة صاعدة، وترتجف بسبب النافذة الأمامية المواربة. حلق الطائر من أحد جانبي البهو إلى الآخر، وشعرت نهلا بالرياح التي تحدثها رفرفات جناحيه - جُنيْحان دقيقان من عظم وريش، وحفيف ريشاته عندما يجد مجثماً في الروافد التي لا تصل إليها عينا سيدته.

وعلى الرغم من كل تحذيرات والدتها، النساء اللاتي يُدفنَّ بسنٍّ صغيرة في فناء كنيسة أسِدلفت- إلا أن نهلا لطالما افترضت أنها يوماً ما ستنجب مولوداً. تلمس بطنها، وهي تتخيل تكوُّرًا هناك، بالوناً من الجلد يخفي طفلاً. إن الحياة في هذا المنزل لا تنافي العقل فحسب، بل هي لعبة، تمرين في التزييف. من هي الآن؟ ماذا يُفترض بها أن تفعل؟

يسألها صوت:

- جائعة؟

جفلت نهلا عندما ظهرت كورنيليا من خلف الدَّرج، بادية الشحوب والقلق. لم تسأل الخادم لماذا تهول. لا أحد ينفرد

بنفسه حقاً في هذا المنزل، فهناك دائماً من يراقب أو يتنصت، أليست هي نفسها تتنصت إلى خطى الأقدام، وغلق الأبواب، إلى تلك الهمسات المجولة؟

أجابت: "لا،" لكنها جائعة. بوسعها أن تأكل عشاء نقابة الصاغة كله الآن، ولا تتوقف أبداً - مُلتهمة كل لقمة علّها تشعر بامتلاكها لكينونة ما.

تسألها كورنليا:

- هل ستتركينه طليقاً؟ مشيرة بإصبعها إلى اللمحة الخاطفة من الريش الأخضر عندما يطير ببو على ارتفاع منخفض ثم يختفي في الظل من جديد.

- سأفعل. إنه ينتظر هذه اللحظة منذ يوم وصوله.

أحنت كتفيها، وجثت، وهي تضع يديها على ركبتي نيلا:

- إن هذا بيتكِ الآن، يا مدام.

- كيف يُطلق على هذا المنزل المليء بالأسرار بيتاً؟

قالت كورنليا:

- لا يوجد إلا سر واحد في هذا المنزل. إلا إن كنتِ تملكين واحداً أيضاً؟

قالت نيلا:

- لا.

- ماذا لكِ في أسِدلفت، يا مدام؟ أنتِ لا تحدثين عنها أبداً، أراك لا تشتاقين إليها.

- لا أحد يسألني عنها أبداً، فيما عدا آغنس.

- حسناً، حسبما سمعتُ، فإن فيها من الأبقار ما يتجاوز البشر.

- كورنيليا.

لكن نيلا استدركت بضحكة مضطربة، مُفكرة في البُعد الذي تشعر به الآن عن ذلك المنزل المتداعي، عن تلك البحيرة، عن تلك الذكريات حول الطفولة. ولكن ليت الناس لا يكونون بكل هذه الفظاظة عند الحديث عن الأمر. فكرت، بإمكاني أن أعود، ستسامحني ماما في النهاية، خاصة عندما أخبرها بالحقيقة. وإذا بقيت، فإن يوهانس سيظل يحظى بمغامراته، مُخاطراً مع القساوسة والقضاة، وفكرة الخلود في جهنَّم تتقلص أمام رغباته. في حين أني لن أحظى بأي شيء تقريباً. لا أمومة، لا أسراراً مُتقاسمة في جوف الليل، لا منزل أديره - عدا الموجود داخل خزانة حيث لا روح إنسان ستزدهر.

ناجت نيلا نفسها، ولكن، إنني أكافح لأظهر، هي رسالة صانعة الدُّمى لي. إن أسِدلفت صغيرة، رفقتها محدودة، وعالقة في الماضي. أما هنا، في أمستردام، فقد فتحت ستائر الخزانة عالماً جديداً، عالماً غريباً، أحجية ترغب في حلها. والأهم من ذلك كله، أنه لا صانعة دُمى في أسِدلفت.

المرأة التي تعيش في الكالفرسترات سديمية وغامضة. يُحتمل أيضاً أن تكون خطيرة، لكنها الآن الشيء الوحيد الذي يمكن لنيلا أن تدَّعي امتلاكها له. إن عادت إلى الريف، فلن تعرف أبداً لماذا اختارتها صانعة الدُّمى لإرسالها تلك المنحوتات غير المُتوقَّعة، ولن تكتشف أبداً الحقيقة خلف عملها. إنها أكيدة من رغبتها في استمرار وصول تلك الطلبيات أكثر من توقعها. وفي لحظة تخييلية، يطرأ لها أن وجود تلك الطلبيات في ذاته

لربما يبقيها على قيد الحياة.

- كورنيليا، لقد تعقّبتني في ذلك اليوم. إلى مكتب يوهانس.

- لقد فعلت، يا مدام.

- لا يعجبني أن يتعقبني أحد. لكنني مسرورة أنكِ فعلتِ.

في مطبخ الخدمة، ناولت الخادم نيلا كأساً من نبيذ الكانديل الحار المُتبل، وسكبت لنفسها واحداً، وقالت:

- السلام أخيراً.

- لا أريد سلاماً، يا كورنليا. أفضِّل أن أحظى بزوج."

- لا بد أن فطائر اللحم التي أعددتها قد أصبحت جاهزة. قالت الخادم، وهي تمسح يديها في مئزرها بينما يطقطق جذع في النار مع وابل من الشرارات المتوهجة. تضع نيلا كأس الكانديل على السطح الملطخ بالزيت لطاولة الفرم الصغيرة قرب ركبتها. لن أؤذيك، يا بترونيلا، كان وعد يوهانس، الذي قطعه لها في العبَّارة في أثناء ذهابهما إلى نقابة الصاغة. كانت دائماً تعدّ اللطف يأتي من الأفعال. لكن عدم الفعل، كبح النفس - هل يُعدُّ ذلك أيضاً من اللطف؟

لقد علَّموها أن اللواط جريمة ضد الطبيعة. ومن هذه الناحية، لا فرق كبير بين عقيدة واعظ من أمستردام وقس من أيام طفولتها في أسِيلفت. ولكن ما الصواب في قتل الرجل بسبب شيء موجود في روحه؟ لو أن مارين مُحقة، في أنه شيء لا يمكن استئصاله، فما الفائدة من كل ذلك الألم؟ ارتشفت نيلا من الكانديل، وتركت مذاق التوابل الحارة يحملها بعيداً عن الصورة المروعة ليوهانس تحت بحر أسود بارد.

- أضيف إليها بازلاء جافة أيضاً. فكرة جديدة. قالت كورنليا والحرارة تندفع من باب الموقد، وتملأ المكان. تضع الفطائر على

طبق، وتقطرها بعصير عنب، ومرق لحم ضأن، وزبدة قبل أن تقدمها إلى نيلا.

- كورنيليا، هل كان في حياة مارين شخص أحبّته؟

- أحبّته؟

- هكذا قلت.

انقبضت أصابع كورنيليا على الطبق، وقالت:

- تقول المدام إن الحب كوَهم أفضل منه حقيقة، السعي إليه أفضل من الحصول عليه.

- ربما تقول ذلك، يا كورنيليا. لكنني، وجدتُ شيئاً. رسالة. رسالة حب، مخبّأة في غرفتها.

امتقع وجه كورنيليا. ونيلا تتردد، ثم تجازف هامسة:

- هل كتبها فرانس ميرمانز؟

همست كورنيليا:

- آه، بحق الملائكة. غير معقول، لم يحدث قط أنهما...

- كورنيليا – تريدين أن أبقى، أليس كذلك؟ لا تريدين أن أصنع مشكلة؟

رفعت الخادم ذقنها، ورمقت نيلا بكبرياء، وقالت:

- هل تساومينني، يا مدام؟

- ربما أفعل.

ترددت كورنيليا، ثم قرّبت مقعداً، ووضعت يدها على قلب نيلا.

- هل تقسمين، يا مدام؟ هل تقسمين ألا تحدثي مخلوقاً بهذا؟!

- أقسم.

- سأخبركِ الآن إذن. قالت الخادم، بصوت خفيض:

- كانت آغنس ميرمانز دائماً قطة تخفي مخالبها. كل تلك الهالة والسمو، ولكن أمعني النظر، يا مدام. انظري إلى القلق في عينيها. إنها تعجز تماماً عن إخفاء مشاعرها نحو مارين، لأن مارين سرقت قلب زوجها.

- ماذا؟!

نهضت كورنليا، قائلة:

- لا يمكنني إخباركِ بكل هذا من دون شيء يشغل يدي. سأصنع بعضاً من الأولي-كوكي." خلطت في زبدية، لوزاً وحفنة قرنفل و قرفة. وحينما شرعت في طحن المكسرات والقرنفل، أصبحت همسات الخادم، وجو السرية والإدانة أطيب مذاقاً لنيلا من الفطيرة في طبقها.

تفقدت كورنليا السلم للتأكد من عدم مجيء أحد. ثم قالت:

- كانت مدام مارين أصغر منكِ كثيراً عندما قابلت ميرمانز لأول مرة. كان صديق السنيور في أثناء عملهما موظفين في بيت المال. كان السنيور في الثامنة عشرة، ولا بد أن مدام مارين كانت في الحادية عشرة.

حاولت نيلا تخيُّل مارين طفلة، لكن آغنس محقَّة، إنه مستحيل. مارين هي مارين منذ البداية. طفا شيء في ذاكرة نيلا، ملاحظة متضاربة:

- لكن آغنس قالت إن فرانس ويوهانس التقيا في الفوك

عندما كانا في الثانية والعشرين.

- حسناً، لقد اختلقتْ ذلك، هذا أو أنَّ ميرمانز كذب عليها. إنه لم يعمل قط في الفوك. بل التقى السنيور في بيت مال أمستردام وانتهى به الأمر إلى ترسيم القوانين في الستدهاوس. ليس مُبهراً كثيراً، أليس كذلك - أن يجلس المرء إلى مكتب بينما صديقه في البحر مع أكبر شركات البلاد. إنه يصاب بدوار البحر، يا مدام. هل تتخيلين هولندياً يدوِخه البحر؟

قالت نيلا:

- حسناً، إنني أفضل الخيول على السفن.

هزّت كورنيليا منكبيها:

- وكلاهما قد يطرحكِ من فوق سرجه. على أية حال، كان أول لقاء لميرمانز بمدام مارين في عيد القديس نيكولاس. امتلأ المكان بالموسيقى، قيثارات وأبواق وكمان، ورقصت مدام مارين مع ميرمانز أكثر من مرة. ظننت أنه أمير، بوسامته البالغة. إنه يأكل كثيراً الآن، لكنه كان مثار إعجاب الجميع في ذلك الحين.

- ولكن كيف تعرفين هذا، يا كورنيليا؟ هل كنتِ حقاً قد وُلدتِ في ذلك الوقت؟"

قطّبت كورنيليا جبينها، وهي تضيف دقيق القمح والزنجبيل، وتقلب خليطها بخفّاقة. ثُبّت عينيها الزرقاوين على نيلا بنظرة العارف، وهمست:

- كنت رضيعة في دار الأيتام حينها. لكني استنتجتُ كل شيء، حسناً؟ تقوبَ الأبواب. لقد عرفتُ ماهيتها، أخذت وعاء تفاح صغير، وراحت تقشر كل واحدة بلفة واحدة من

سكونها:

مدام مارين تخفي شيئاً. إنها عقدة جميعنا يريد حلها.

لكن نيلا تتساءل هل توجد يا تُرى أصابع حاذقة أو بارعة بما يكفي لفكِّ خيوط مدام مارين. إن مارين بتقلبات مزاجها، ولحظات سماحتها الخجول التي يبددها تعليق مؤذ، هي العقدة الأكثر إحكاماً بينهم جميعاً.

وبينما تستأنف كورنيليا خفقها، شعرت نيلا بقلبها ينقبض بين أضلعها. وفكرت، هذه الفتاة جاءت إلى مكتب يوهانس لتنقذني. وإن حقَّ ذلك، فهي إذن أول صديقة حقيقية أحظى بها. فاضت نيلا بالمشاعر، قد تنهض في أية لحظة وتلقي بذراعيها حول هذه الطفلة الغريبة من الملجأ، التي منحتها موهبتها في الطهي قدرة خارقة على المواساة.

- كان السنيور وميرماتز صديقين حميمين. لذا كان يكثر من زيارته إلى المنزل للعب الفيركيرشبيل. ثم تدخَّل الحب في الأمر.

- ماذا... كانت مدام مارين تعرف عن الحب، وهي في الحادية عشرة؟

- أنا في التاسعة عشرة تقريباً، ومتزوجة، يا كورنيليا. ومع ذلك، لا يسعني التحدث عن الحب بثقة أكبر مما لو كنت طفلة.

تضرج وجه كورنيليا، وأدركت نيلا أن السنَّ لا يزيد المرء يقيناً كما يبدو، بل هو يمنحه المزيد من أسباب الشك.

واصلت كورنيليا:

- مات والداهما عندما كانت مدام مارين في الرابعة عشرة، وغادر السنيور بيت المال لينضم إلى الفوك. وانتقل ميرمانز إلى الستدهاوس.

- كيف مات والداهما؟

"كانت والدتهما دائمة التوعك، وقد أوهنها المخاض. نجت بصعوبة بعد ولادة مدام مارين. لقد أنجبت آخرين غير السنيور ومدام مارين طبعاً، لكن أحداً منهم لم يبق على قيد الحياة. وبعد عام على موت والدتهما، رحل والدهما بالحمى، وقاد السنيور أول سفينة فوك له إلى باتافيا. بلغت مدام مارين الخامسة عشرة. وكان فرانس ميرمانز يعمل في الستدهاوس، ولكن لم يكن ممكناً أن تقابله، في غياب من يرافقها."

تخيل نيلا زوجها تحت سماء زرقاء هائجة، أو فوق رمال ساخنة تتخللها الأصداف والدماء المسفوكة، فرصنة ومغامرة، بينما فرانس ومارين وسط الأثاث الخشبي والمنسوجات الجدارية الخانقة وقنوات المياه الراكدة وجلجلة الأجراس الداعية إلى العبادة.

"حاول السنيور ضمه إلى الفوك. نصحه باغتنام الفرصة. وكانت مدام مارين تقول له: 'لا تنتقد فرانس. لا يمتلك الجميع إمكاناتك، يا يوهانس، وأنت تحب ما تعمل.

قلبت كورنيليا وعاء من الزبيب المنقوع بطرف ملعقتها الخشبية:

- كانت المشكلة، أن ميرمانز لم يستطع مضاهاة السنيور. لم يستطع فتح الأبواب المناسبة، لم يكن ملهماً للرجال، لم يحظ سوى بنجاح متواضع، بينما أثرى السنيور ثراء فاحشاً. ثم بعد

خمسة أعوام، عندما صارت مارين في العشرين، زار ميرمانز المنزل من دون علمها. كان قد ادخر مالاً وطلب يدها للزواج من السنيور."

- انتظر خمسة أعوام؟ وماذا قال يوهانس؟

- لقد رفض.

- ماذا؟ خمسة أعوام من الانتظار ليكون الجواب بالرفض، ولكن لماذا؟ لم يكن ميرمانز سيئ السمعة، أليس كذلك؟ ولا بد أنه أحبها حقاً.

- إن السنيور لا يفعل شيئاً قط من دون سبب وجيه، قالت كورنليا بلهجة دفاعيةٍ، مُلقية أول شرائطها من الخليط في مقلاة بها زيت ساخن.

- أجل، ولكن...

- كان ميرمانز وسيماً، لو كانت الوسامة طلبكِ. لكن سمعته لم تكن أفضل ما قد يحظى به المرء، سكتت برهة قصيرة، وتابعت: كان يمتلك نزعة ما، كان يطمع دائماً فيما هو أفضل مما لديه. وبعد تلك الإهانة، لم يعد قط. عدا الآن.

أخرجت الكعكة المبرومة التي نضجت، ووضعتها برفق على صينية السكر الجاهزة. وأضافت، في شيء من المكر: لقد كشَطتُ رأس مخروط آغنس.

قالت نيلا:

- ربما أراد يوهانس إبقاء مارين حيث يحتاجها. زوج دمية، وانظري! صار الآن يمتلك التنين، تغضن وجه كورنليا، آه، يا كورنليا. مازالت هي سيّدة المنزل. ترين بنفسكِ كم هي

صارمة، وتفرض النظام على الجميع. أنا من يُفترض بها أن تقوم بهذا. ولكن، هل لاحظتِ كيف أنها أحياناً تبدو مشتتة؟"

صمتت كورنيليا لوهلة. ثم قالت:

- لم ألحظ أي فرق، يا مدام.

- هل عَرَفَتْ مارين بما فعله يوهانس؟

- عَرَفَتْ في النهاية، ولكن ميرمانز كان قد ذهب وتزوج إحدى صديقات مدام مارين. آغنس فينك." نطقت كورنيليا الاسم وكأنه لعضو في جسد دبور: عمل والد آغنس مع شركة الهند الغربية وأثرى في «العالم الجديد». وكان قد حرمها الزواج من أي رجل لا يمتلك ثروة معتبرة. كان السنيور فينك وحشاً، بمحاولاته إنجاب الذكور وهو في الثمانين حتى لا ترثه! كان زواج آغنس من ميرمانز هو تمردها الأول والأخير. إنها تعشق فرانس كالمرض. جعلت زوجات النقابة الأخريات يقفلن ضد مدام مارين، لمجرد أن تطمئن إلى انتهاء ذلك الفصل من حياتها. أرادت آغنس نذراً من النفوذ، ثم إذ بوالدها يموت ويترك لها كل تلك الحقول.

تذكرت نيلا السيدات اللاتي وصفتهن كورنيليا، وهن يزرن المنزل، ويضعن عصافيرهن في شعر أوتو، هل كانت آغنس فينك إحداهن يا ترى، ومثلهن تلقت من مارين أمراً بعدم العودة؟

واصلت كورنيليا:

- كان عرساً ضخماً، كلَّف فرانس كل النقود التي اقترضها، استمر الحفل لثلاثة أيام. لكنكِ تعرفين ما يقولون عن الأعراس الضخمة. إنها تخفي نقصاً في الشهية."

تصرخ نهلا، لو عكسنا الأمر، فكان يفترض بها وبيوهانس، بعد حفلهما الوضيع، ألا يغادرا مخدعهما أبداً.

قالت كورنيليا:

- فرانس وآغنس متزوجان منذ اثني عشر عاماً، ولم ينجبا بعد. ثم تأتيه مزرعة آغنس للسكر، مباشرة في حجره! إن هذا أفضل من وريث بالنسبة إليه. ربما هو يعوّل على هذا السكر في صنع تركة، لكن هذا لا يغير حبه لمدام مارين.

تناولت نهلا أول كعكة أولي-كوكي. ما تزال دافئة، والطبقة المقلية تتكسر تحت أسنان نهلا، مُطلقة المزيج الرائع من اللوز والزنجبيل والقرنفل والتفاح. تسألها نهلا:

- ومارين ما زالت تحبه؟

- لا أشك في ذلك. إنه يرسل لها هدية كل عام. خنازير وطيور حجل، وورك غزال ذات مرة، ولم تكن مدام مارين تعيدهم. إنها مثل محادثة صامتة لا يريدان انقطاعها. أنا طبعاً، من يضطر إلى تدبير كل ذلك، من نتف، وتقطيع، وحشو، وقلي، وسلق. كانت قلادة لتصبح أسهل." تمسح كورنيليا زبدية العجين بخرقة مبللة. "عن طريق تلك الهدايا اكتشفت مدام مارين أن السنيور رفض طلب فرانس يدها للزواج. حدث ذلك بعد عرس آغنس بفترة قصيرة عندما جاءت أول هدية.

- ماذا كانت؟

- كنتُ قد وصلتُ للتو. أتذكر مدام مارين بوضوح تام، وهي تحمل خنزيراً صغيراً مملحاً في الدهليز. بدت في غاية التعاسة. وسألت:

- لماذا يرسل لي هدية، يا يوهانس' وأخذها السنور إلى حجرة المكتب، حيث أفترض أنه اضطر إلى الشرح.

- رباه.

بدت الكآبة على كورنيليا:

- ومنذ ذلك الحين وميرمانز يرسل شيئاً. على الرغم من أنه لا يضع اسمه أبداً، إلا أن جميعنا يعرف أنه هو. ثم تدلك جبينها. وتقول: "لكن رسالة الحب شيء مختلف. رسالة الحب شيء خطير. آه، تغاضي عنها، يا مدام نيلا، وتظاهري أنكِ لم ترها قط.

***

صعدت نيلا السلالم لتمنح بيبو فتات "الأولي-كوكي" ورأسها يعجّ بصور مارين وهي شابة ترسل نظرات خجولة نحو ميرمانز الشبيه بالأمراء. إنه مثل محاولة تخيل والديها وهما شابّان يقعان في الحب. فكّرِ، أفضّل أن أسمو في الحب، أن يرفعني وسط السحاب، لا أن يسقطني إلى الأرض. تخيل نفسها، خفيفة ومعشوقة، وهائمة في النشوة.

كانت الروافد خالية. جابت حجرات الطابق الأرضي، وهي تنادي اسم بيبو، وتمد ذراعها، متوقعة أن يشق الهواء ويحط عليه، بجسده المألوف، وعينيه الخرزيتين. صعدت إلى الطابق الأول، تتحقق من أنه لم يحتمِ داخل بيت الدمى. تنادي: "بيبو؟" غرفة مارين مغلقة، إذ تحاول النوم. يعبر عقل نيلا كابوس مفاجئ لجثة مُقتنصة، وريش يتدلى.

غرفة يوهانس قليلة الأثاث، خالية أيضاً. نادت نيلا مرة أخرى: "بيبو؟" اعصبت دانه، مستشعرة في صوتها وجود

مشكلة تحتاج إلى مطاردتها. تخيلت نهلا البيضاء وأسنان الكلبة تعض عليه، الطبيعة وهي تأخذ مجراها بأقسى طريقة. اخترق معدتها شعور بالخوف، ونزلت الدرج ركضاً. تنادي:

- كورنيليا؟ هل تعرفين أين...

ثم رأت نافذة البهو، التي ما عادت مواربة بل مفتوحة للخارج، والهواء البارد يندفع منها.

ثماني دمى

مضى العصر وحل المساء، وكورنيليا ونهلا تناديان على الببغاء على طول القناة من دون طائل. وداخل المنزل، كانت الروافد خالية، لا حفيف أجنحة. مُحال أن يصمد بيبو طويلاً مع البرد القارس المُضيِّع للاتجاهات. كانت درجة الحرارة قد انخفضت بين عشية وضحاها، وبدأ الجليد في تكوين قشرة رقيقة على مياه قناة هيرين، وها هو آخر خيط يربطها بحياتها القديمة قد انقطع هائماً في السماء. تهمس نهلا: "أنا آسفة. آسفة جداً."

في صباح اليوم التالي، كانت مُرهقة من القلق والأرق جرّاء اختفاء بيبو، وجدت نهلا باقة صغيرة من زهور حمراء وزرقاء زاهية مرفقة برسالة، قد تُركت أمام بابها. أخذها الأمل في أنها من صانعة الدمى، ولكن لدهشتها، يدشن الرسالة أول حروف اسمها بخط كبير، مُندفعاً للأمام، مع ميلان نشيط نحو نقطة الختام.

نهلا:

زهرة العناقيّة الزرقاء رمز الصداقة القديمة، والأنارفية رمز الترميم - كنتُ لأشتري لكِ طائرًا جديدًا، لكنه لن يزيد عن صورة باهتة.

يوهانس

استنشقت نهلا رائحة الزهور في عتمة غرفتها، رائحتها اللطيفة التي تصطدم بحزنها وتبعث من جديد مشاعر الإذلال.

ماذا سيعني، أن تمضي بقية حياتها متزوجة من هذا الرجل

المعقد والحب للمتعة، ولكن من دون فراش زوجيةا سوف يشركها يوهانس في لقاءاته الاجتماعية وحفلات النقابة وولائمها. كما أنه يرغب في صداقتها. لكنها ستواجه ليالي لا تنتهي من الوحدة، ونهارات يملؤها الشوق، إذ أُغلق باب الحب إلى الأبد. تتمنى لو أن صانعة الدُمى ترسل إليها أي طرد قريباً. الخوف من محتواه فقط يستحق التشتيت.

تجدل نيلا زهرتين من المناقيّة خلف أذنيها. لم تتصور قط أن تمضي حياة كاملة من دون أن تُمَسّ، إلا أن صوتاً ضعيفاً في أعمق أعماقها، يعلو لتسمعه. إنكِ تشعرين بالارتياح لأنه لن يفعلها. تقرُّ بصدمتها من مشاهدة يوهانس عارياً. كان جزء كبير منها منذ وصولها، قد حث، بل سعى إلى تحويل نفسها إلى ما افترضت طويلاً أنها الزوج الحقيقية، المرأة اللائقة. أمضت وقتاً طويلاً تتوق إلى هذا التحول، وتُرتِّقه في عقلها، حتى صارت غافلة عن غموضه. اليوم، تفقد المرأة اللائقة كل معانيها. رغبة نيلا المتينة تتداعى، لتصبح ضباباً في داخل رأسها. ماذا يعني حتى أن تكون المرأة زوجاً حقيقية؟

أفاقت من دائرة أفكارها الهائمة على طرق الباب. قالت كورنيليا وهي تُدخل رأسها من فرجة الباب، وتتردد أمام منظر عيني نيلا المتورمتين:

- لقد سألتُ أوتو، إنه لم يترك النافذة مفتوحة، ولا أنا

- إنني لا ألوم أحداً، يا كورنيليا.

- قد يطير عائداً إلى هنا.

- لن يفعل. كنتُ حمقاء.

- هاكِ، قالت كورنيليا، وهي تمدُّ لها طرداً يحمل بالحبر علامة

الشمس: تُرِك لكِ أمام باب المنزل.

ثارت الدماء في عروق نيلا. وفكرت وكأنها تسمعني، حتى من دون أن أتكلم. ما الذي تحاول قوله؟

سألت، وأصابعها ترتجف خفيفاً حول العلبة، برغبة مستميتة في فتحها:

- هل كان، جاك هو من سلّم هذا الطرد؟

جفلت كورنيليا عند ذكر الاسم، وعيناها على يدي سيدتها المرتعشتين. قالت:

- كان الطرد هناك عندما ذهبتُ إلى مسح العتبة الأمامية. أظن الإنكليزي يبقي نفسه بعيداً. مدام، ماذا يوجد في هذه الطرود؟

كانت نيلا تدرك أنها ليست مستعدة لمشاركة امرأة الكالفرسترات مع أحد. صارت الآن تتوق إلى الخصوصية، بعد أن كانت ترفضها في البداية، مُتلهفة للانفراد بنفسها مع ما تريد صانعة الدُمى أن تريه لها.

- لا شيء. قطع طلبتها لبيت الدمى.

- قِطَع؟

- يمكنكِ الانصراف.

وما إن غادرت كورنيليا مع نظرة أخيرة من فوق كتفها، قلبت نيلا العلبة فوق فراشها. وأذهلها ما تراه.

فوق شريط من القطيفة الزرقاء، اصطفت ثماني دمى. هي من الواقعية والدقة، حتى لتبلغ من الكمال ما يتجاوز قدرات البشر. شعرت نيلا مثل عملاق، وهي ترفع إحدى الدمى

وكأنها قد تكسر. كان يوهانس يرقد في راحتها، تتدلى من كتفيه المريضين عباءة بلون نيلي غامق، وإحدى يديه مضمومة، والأخرى مفتوحة، باطنها ظاهر، شعره أطول من أي مرة رأته فيها نيلا يتجاوز كتفيه. داكن العينين، وتبيِّنه الظلال على وجهه أضعف من الحقيقة. عند خصره صرة نقود ثقيلة، تصل إلى ساقه، كما أنه أكثر نحافة. تُثقل الصرّةُ على مفاصل وركيه، فتجعله يميل على جانب واحد.

أما دمية نيلا نفسها فشعرها يفلت من القلنسوة، كما يفعل عادة في الحقيقة. بفستان رمادي أنيق، تحدِّق دميتها إلى الأمام، وعلى وجهها الجامد تعبير دهشة خفيف. في إحدى يديها الصغيرتين قفص عصافير فارغ، يتأرجح بابه مفتوحاً على مصراعيه. شعرت نيلا بإحساس غريب في جسدها، وكأن دبابيس تخز جلدها من الداخل.

في اليد الأخرى للدمية، رسالة منمنمة مكتوبة بحروف سوداء أنيقة:

لا شيء يبقى على حاله

لم تعد قادرة على النظر إلى صورتها المصغرة، انتقلت إلى كورنيليا، فتنتها عينا الخادم الزرقاوين، اللتان ترمقانها بقليل من المرح. يد كورنيليا مرفوعة إلى وجهها، وبنظرة أقرب، تبدو وكأنها تضع إصبعاً على شفتيها.

بعدها أوتو، شعره مصنوع من صوف حمل مصبوغ. ويبدو رشيقاً أكثر من يوهانس، هو أيضاً أكثر نحافة من الحقيقة. لمست نيلا ذراعيه. زيه البسيط لا يظهر العضلات المنحوتة أسفلها. جفلت أصابعها مُبتعدة. "أوتو؟" قالتها جهراً، شاعرة بالحماقة عندما لا تجيب الدمية.

ثم تأتي مارين، عيناها الرماديتان شاخصتان في أفق وهمي. إنها هي بلا شك، الوجه النحيف، والفم المهيب حاملاً فكرة ملهف للخروج. ملابسها كئيبة مثلها في الحقيقة، مكونة من قطيفة سوداء، وياقة عريضة من دانتيل بسيط. تمرر نيلا أصابعها مأخوذة على معصمي مارين النحيفين، وذراعيها المشوقتين، وجبينها الشاغ، وعنقها المتيبِّس. وإذ تتذكر السر الذي أفشته لها كورنيليا، عن البطانة الناعمة أسفل ملابس مارين الزاهدة، تحسس نيلا باطن الصدرية. فتلمس أصابعها جلد سمور فاخر.

فكرت، يا إله السموات. ماذا يجري هنا؟ لأن هذا يتجاوز كل التجليات السابقة لصانعة الدمى. المفتاح الذهبي، والمهد المزاز، والكلبان - كلها من دون شك أشياء قد تشكِّل الجوانب الترفيهية للحياة في منزل أي تاجر. لكن هذه الدمى مختلفة. كيف تعرف صانعة الدُمى ما ترتديه مارين أسفل ثيابها، أو أن بيبو قد طار بعيداً؟

قالت نيلا لنفسها: "كنتِ تظنين أنكِ صندوق مُقفل داخل صندوق مُقفل. لكن صانعة الدُمى تراكِ - تراناً"! مررت نيلا إصبعاً مُرتجفاً فوق تنورة مارين (التي تبدو مصنوعة من أفضل صوف أسود في السوق)، أخفت نيلا دمية مارين في أقصى ركن بالصالون المصغَّر، خلف كرسي حيث لا يراها أحد.

أتى بعد ذلك تمثال ذكر، أقصر قليلاً من يوهانس، يعتمر قبعة عريضة، و يتقلد سيفاً، ويرتدي البزة الرسمية لميليشيا سانت جورج. وجهه كبير، وعلى الرغم من التفاصيل المُقلَّصة لجسده الممتلئ، إلا أنه ولا شك فرانس ميرمانز. تعقبه آغنس، بخنصرها النحيف وخواتم في أصابعها مصنوعة من شظايا زجاج ملون.

وجهها أرفع مما تذكره نيلا، لكن اللآلئ المألوفة تتناثر بيضاء على عصبة رأسها السوداء. حول عنقها يتدلى صليب كبير، وتمسك في إحدى يديها مخروطاً من السكر، لا يتجاوز طوله نملة.

سقطت الدمية الثامنة والأخيرة من الشريط المخملي، لتطلق نيلا معها صرخة. وإذ ترفعه عن الأرض، ترى جلياً أنه جاك فيليبس، بسترته الجلدية وقميصه الأبيض ذي الكمّين المتهدلين، ويكسو ساقيه زوج من الأحذية الجلدية. الشعر جامح، والفم أحمر كرزي. تتساءل نيلا، لماذا تريد صانعة الدمى تذكيري بهذا الصبي الفظيع؟ لماذا عليّ أن أضعه في منزلي؟

لا يأتيها جواب من الدمى، التي تحدق فيها، في نفوذ مصغّر لا مثيل له. تحاول نيلا جاهدة أن تنظر بهدوء إلى هذه الشخصيات، راقدة على غلافها المخملي، ومصنوعة بعناية وانتباه. تضعها واحدة تلو الأخرى في زوايا مظلمة داخل المنزل المصغّر.

مُؤكَّد أنها لا تحمل شراً في داخلها؟ حاولت جاهدة إقناع نفسها، لكن ما يحدث يبدو خارقاً للطبيعة، يوجد هنا تفسير تعجز عن استنباطه. إن هذا أكثر من مجرد محاكاة.

تبقّت رزمة واحدة غلافها من قماش أسود، أصغر من البقية. لم تجد نيلا جرأة كافية لفتحها، لكن الرغبة أقوى منها. عندما فضت الغلاف، خُيّل إليها أنها قد تتقيأ. فهناك يرقد طائر أخضر مصغّر، ينظر إليها بعينين سوداوين براقتين، ريشه حقيقي، مختلس من مخلوق أقل حظاً. مخالبه الصغيرة مصنوعة من السلك ومكسوة بالشمع، ويمكن تطويعها لإجلاسه في أي مكان.

انكمش عالمها، ومع ذلك يبدو أصعب تطويعاً من أي وقت

مضى.

دارت حول نفسها، هل صانعة الدُمى هنا في الغرفة، مختبئة تحت السرير؟ نظرت نيلا تحت السرير، وشدّت الستائر بعيداً عن الحائط في حركة سريعة وكأنما لتباغتها، وتنظر حتى خلف الستائر في بيت الدمى. كل ما وجدته هو فضاءات تسخر من رغبتها في التصديق. أنتِ نيلا الهائمة في الخيال، هكذا توبخ نفسها، أنتِ وأوهامكِ وخيالكِ الجائع. كان يُفترض بكِ أن تنبذي تلك الفتاة الأسدافتية.

خلف النافذة، أناس يسيرون على طول الطريق، و الهيرغراخت مزدحم اليوم، لأن الجليد منع سهولة الحركة في القناة. تُبدِّل بائعة الرنكة بين قدميها في الركن طلباً للدفء، ويمشي رجال ونساء برفقة خدمهم، جميعهم متدثرون اتقاء للبرد القارس. رفع بضعة أنظارهم إلى نيلا في أثناء مرورهم، وجوه تتحول كزهور اللبن الثلجية نحو سماء الشتاء.

انتظرت نيلا بعيداً نحو الجسر. لمحت شعراً أشقر، إنها واثقة من ذلك. ينتشر الوخز في جلدها من جديد، وتشعر بأمعائها تهوي. هل تلك هي؟ الزحام كبير في هذا الجانب من الهيرغراخت، والمتقاطع مع الجسر. مالت نيلا أكثر خارج النافذة. إنها هي فعلاً، ذلك الرأس اللامع، المحجوب بسرب من رؤوس أغمق، يتحرك سريعاً في وجه البرد.

صرخت نيلا من النافذة:

- انتظري! لماذا تفعلين هذا بي؟

كبت أحدهم ضحكة في الطريق. وسألت امرأة: "هل هي مجنونة؟" شعرت نيلا بالحرقة من ذلك التدخل الكريه والجائر.

لكن الشعر الأشقر كان قد اختفى، تاركاً السؤالين المفتوحين يترددان في الهواء.

وعود كاذبة

أسرعت نيلا تنزل الدَّرج الرئيس، وبيبو الجديد في صورته المصغَّرة مدفون عميقاً في جيبها. كان قبقابها المنزلي ما يزال في قدميها، فصدت الباب الأمامي، لكن صوتي مارين ويوهانس المرتفعين في حجرة المائدة جعلاها تجمد في مكانها. وتردد، حائرة بين اللحاق بصانعة الدُّمى، أم التنصت على زوبعة الشقيقين.

- قلتَ إنك ستذهب، يا يوهانس، وعليك أن تفعل.

كان صوت مارين خفيضاً وفظاً، "لقد طلبتُ عبَّارة توصلك إلى الميناء، وحزمت كورنيليا صندوق متاعك.

أجاب يوهانس:

- ماذا؟ سأذهب خلال بضعة أسابيع. هناك متسع من الوقت.

- إننا في تشرين الثاني، يا يوهانس! فكر في كل الحلويات والحفلات التي تحتاج إلى سكر في هذا الفصل. فإن ذهبت في كانون الأول سيكون الوقت قد فات، ورطوبة المستودع أضرت بهذا السكر...

- وماذا عن الرطوبة في عظامي، وأنا أتنقل من مركب إلى مركب في هذا الجو؟ إنكِ لا تعرفين شيئاً عن رتابة الأكف المتمرِّقة، ومجهود التحدث بالإيطالية، والعشاء مع الكرادلة الذين لا يسعهم الحديث سوى عن حجم قصورهم التوسكانيَّة.

أطلقت مارين صوت ازدراء: صدقت، أنا لا أعرف فعلاً.

ولكن نظراً إلى جميع الظروف، سيكون، من الأسلم بالنسبة إليك، أن تبتعد.

- أسلم، لماذا؟ بدا صوت يوهانس ممازحاً: إلام تخططين في غيابي؟

- لا خطط، يا يوهانس. سأستجمع شتات أفكاري، وكذلك بترونيلا.

- أنا متعبٌ، يا مارين. قاربتُ الأربعين.

- أنت من أراد بحه في الخارج. وإن كلّفت نفسك زيارة فراش زوجك، ربما في وسعك بعد خمسة أو ستة عشر عاماً، أن تولّي ابنك كل هذا. ولا يهمني عندها حتى أن تمضي شيخوختك في حانة.

- ماذا قلتِ؟ ابني؟

شعرت نيلا بالصمت الذي أعقب ذلك، يطبق عليهم جميعاً، يوهانس ومارين في الغرفة وهي خارجها، مثل لحاف ثقيل من الثلج قد ينزلق المرء في داخله ويختفي. ألصقت خدها بالخشب في ترقب، هل كان شوقاً هو ما سمعته في صوت زوجها أم هو مجرد اندهاش؟ إلى أي مدى أصابت آغنس في تلك الليلة بنقابة الصاغة؟ كان رأي يوهانس المزعوم في الورقة، أنهم ليسوا رهاناً مضموناً. لو كانت الأشياء تتغير، هكذا فكرت نيلا، وهي تمرر أصابعها على الطائر المصغر في جيبها، فربما ذلك يشمل الناس أيضاً.

- مارين، همس يوهانس، مُقاطعاً أفكار نيلا، ومُدوِّباً ثلج التخيلات: حياة مثالية تلك التي تريدين أن نعيشها، مرسومة على خرائط لن تقودنا إلى أي مكان! بعد خمسة عشر عاماً

سأكون قد متُّ على الأرجح.

- آه، بل إنني أرى وجهتنا بوضوح، يا أخي، وهذا ما يؤلمني.

- إن ذهبتُ فعليَّ اصطحاب أوتو.

- نحن في حاجة إلى أوتو هنا. ثلاث نساء وحدهن، ولا رجل يحمل الحطب؟ الجليد قادم.

- تريدين إدارة عملي، لكنكِ لا تقدرين على رفع حطبة؟ في هذه الحالة، يقولها يوهانس باستخفاف، عندما لا تقدّم مارين رداً، لا يتبقّى سوى مساعد واحد يمكنني اصطحابه."

- إن كنتَ حتى تفكر في...

اندفعت نيلا إلى الغرفة. إنها أول مرة ترى فيها زوجها منذ تلك اللحظة في عمله. اختلج وجه يوهانس بتعبير مؤلم، وهو ينهض من كرسيه، ويضرب بالأرضية رجله في ارتباك:

- نيلا، هل كنتِ...

- ما هذا؟ قاطعته نيلا، مشيرة بإصبعها إلى حيث تعكف مارين على خريطة.

تقول مارين، وهي ترمق بتلات المناقيَّة التي تستكين عند أذن نيلا: "

- إنها خريطة دي بارباري لمدينة ڤينيسيا.

يسأل يوهانس:

- هل حالفكِ الحظ مع بيغانك؟

أدخلت نيلا يدها في جيبها:

- لا. لم يحدث.

- آه... ثم سكت برهة قصيرة، وراح يفرك ذقنه في تأمل، وينظر إليها بحذر، ويختلس نظرة إلى مارين:

- - لقد قررتُ وجوب ذهابي إلى فينيسيا، لبدء مفاوضات حول سكر آغنس.

- فينيسيا ! ألن تكون هنا في أعياد الميلاد؟"

- لا أضمن ذلك.

- آه. استغربت نيلا من سماع لمسة الإحباط في صوتها. ورفعت مارين عينيها.

قال يوهانس:

- رأينا أن هذا هو الأفضل.

- لمن؟

- للسكر...

قاطعته مارين:

- للجميع.

وكما أرادت مارين، صعد يوهانس عبّارة القوك من خارج المنزل، والتي ستأخذه إلى الأرصفة، حيث يركب سفينته.

وقفت نيلا على عتبة المنزل، ترتجف، وهو يرفع إليها يداً مترددة. حذت حذوه، كفها تواجه الهواء البارد، لا تلوح، وإنما مرفوعة في تحية.

قال:

- وضعتِ الزهور في شعرك.

- فعلت.

تأملت بشرته التي لوحتها الشمس، والتجاعيد حول عينيه، واجتياح لحيته الفضية. "لإصلاح ما فسد."

وأمام كلماتها، بدا يوهانس عاجزاً عن التعبير، وفي تلك اللحظة المعلّقة القصيرة بينهما، شعرت نيلا وكأنها ارتفعت قامة، وكأن الكرامة شيء في وسعها أن تمسكه في يدها.

خرجت ريزيكي مُتوثّبة من المنزل، مُعربة عن استيائها بالنباح لأنه لم يأخذها معه.

سألته مارين:

- هل معك عينة الخرائط؟

يجيب يوهانس:

- كلمتي تكفي، يا مارين.

كانت كلماته تختنق بالعاطفة.

تساءلت نيلا، من هذا الرجل، بالغ التأثر بكلمات وداعي؟

قالت مارين:

- لماذا لا تصحبها معك؟

- ستصير عائقاً. اعتني بها وحسب.

أملت نيلا أنهما يقصدان الكلبة. كانت نبرة مارين مع شقيقها جليدية جداً، حتى ليصعب استيعاب ما يحدث. إنه ذاهب أليس كذلك – أليس هذا ما تريده؟ تتساءل نيلا، ربما ترسل لي صانعة الدمى قريباً شيئاً يفسّر هذه المرأة الغريبة. دمية مارين لا تحمل أية مفاتيح. تقول لنفسها، الليلة. الليلة أذهب إلى يافطة الشمس.

عادت مارين إلى الداخل بحركة بطيئة، وكأنما البرد آلم مفاصلها. ثمنت كورنليا سير سيّدتها المُتعرّج. وإذ هي واقفة جوار أوتو، تشاهد نيلا قامة زوجها تقلص شيئاً فشيئاً وعبّارته تعبر الجودين بوخت. سألته:

- ألم تكن راغباً في الذهاب إلى ڤينيسيا؟

أجاب أوتو، وعيناه على أثر الماء:

- ذهبتُ فعلاً، يا مدام. زيارة واحدة تكفي إلى قصر دوجي.

تقول نيلا:

- وددتُ لو أراه. كان في وسعه أن يصحبني.

لمحت كورنليا وأوتو يتبادلان نظرة، وحينما عادوا إلى المنزل، رأى ثلاثتهم جاك فيليبس واقفاً عند عطفة أعلى من القناة. فشعرت نيلا أن معدتها تلتوي. يدا جاك في جيبه، وشعره جامح كعادته، وهو ينظر مُتجهماً إلى عبّارة يوهانس المُبتعدة. حث أوتو نيلا حتى تصعد سلم المدخل، نخارت قواها أمام لمسته، وأذعنت إلى طلبه، وأغلقت كورنليا بلطف.

***

في الخارج، كان ليل الشتاء قد حلّ. السماء نهر عميق من اللون النيلي، والنجوم مُتناثرة كمصابيح في تياره المتدفق. جلست نيلا عند نافذتها، وتمثال بيبو في حجرها. كان جاك قد غادر موضعه منذ وقت طويل. أين يوهانس الآن، هل سيستقل واحداً من تلك الجناديل الغامضة، هل سيعود إلى قصر دوجي؟ فكر نيلا، طبعاً سيفعل. إنه يوهانس. التفتت إلى بيت الدمى، ووضعت بيبو برفق على واحد من الكراسي المخملية. لا شيء يبقى على حاله. حاولت ألا تتخيل طائرها

الحقيقي في الخارج في ليلة كهذه، فريسة للصقور والبوم، ربما حتى صانعة الدُمى؟ وإن كانت تتساءل من أين لها إذن بهذه الريشات الصغيرة ؟ لم تحتمل فكرة أن المرأة قد تقنصه وتؤذيه.

حان وقت أن تعرف. سيكون الكالفرسترات شديد البرودة في هذه الساعة، هكذا تفكر نيلا، وهي تشد عليها عباءة الخروج. ومن يدري كم سيستغرق إقناع صانعة الدُمى بالخروج؟

علقت المفتاح الذهبي الصغير الذي أرسلته صانعة الدُمى حول عنق دميتها، ثم وضعت نفسها الصغيرة برقة على الشرشف الحقيقي. "أنا لستُ خائفة،" قالتها جهراً، وهي تلتفتُ لترى بريقاً وجيزاً على نحر الدمية المتمنمة. إلا أنها لم تستطع التخلص من فكرة أن هذه اللفتة نحو دميتها هي الشيء الوحيد الذي يضمن عودتها آمنة.

لم يسبق لنيلا قط أن خرجت من المنزل بعد حلول الظلام. حدث في أسِدلفت، أن واجهت ثعلبا ضالاً يقتحم حظيرة دجاج. قد تتخذ الثعالب في أمستردام أشكالاً مختلفة جداً. وبينما تفتح باب غرفتها بهدوء، تشم رائحة خزامى جميلة، تنتشر في الممر والبخار يرطِّب الهواء. عمّ الصمت بقية المنزل فيما عدا صوت سكب ماء يأتي من نهاية الممر. يبدو أن مارين، التي تحتفظ بأسرارها كأسلحة، وترتدي ثياب السمور وتأكل الرنكة المقددة، تعمم بحمّام متأخر.

الاستحمام في أي وقت من اليوم هو فعل باذخ، ونيلا تعجب من مثل هذا الإفراط الليلي. وعاجزة عن كبح نفسها، قطعت الممر بخطى غير مسموعة، ووضعت عينها على ثقب المفتاح.

كانت مارين توليها ظهرها، حاجبة نظر نيلا عن حوض

الاستحمام، الذي يشغل معظم المساحة المتبقية في غرفتها الصغيرة. من الذي وضعه هناك، وملأه إلى حافته بالماء الساخن، ليست مارين نفسها بكل تأكيد؟ لم تكن مارين نحيلة كما ظنت نيلا. يوجد امتلاء من الخلف في فخذيها وردفيها، يتوارى كله في العادة خلف عورتها. ملابس مارين تسبقها، فتخبر العالم من تريد أن تكون.

لكن مارين من دون ملابسها هي مخلوق مختلف، بشرتها شاحبة، وأطرافها طويلة. وإذ تخفي لجسّ حرارة الماء، ترى نيلا أن ثدييها ليسا صغيرين. من الواضح أن مارين تضع حولهما أكثر المشدّات قسوة. إنهما أكثر امتلاءً واستدارة، وكأنما يجب أن ينتميا إلى امرأة أخرى. أن يكون هذا هو جسد مارين، يبلبل ذهنها بصورة غريبة.

رفعت مارين ساقاً إلى الحوض النحاسي، ثم تتبعها بالأخرى، ثم تنزل ببطء كمن يتألم. يتراجع رأسها للخلف، تغلق عينيها، ويغطيها الماء. تبقى في الأسفل لمدة ثوانٍ، وهي تركل بساقيها جدار الحوض فيما يبدو قبل أن تصعد لاستنشاق الهواء. وإذ تنساب براعم الخزامى الجافة على سطح الماء وترسل رائحتها، تدلك مارين جلدها إلى أن يصبح لونه وردياً.

خصلات الشعر المبللة على مؤخرة عنقها تبدو صبيانية، وهشّة بصورة لا تُحتمل. أمامها على الرف إلى جوار الكتب وجماجم الحيوانات، وقع نظر نيلا على وعاء صغير من ملبّس الجوز، يتلألأ كالجواهر في ضوء الشموع. إنها لا تتذكر مرة واحدة تناولت فيها مارين علانية فطيرة مقلية أو وافل أو كعكة، لا شيء، عدا سكر آغنس الذي ابتلعته بصعوبة. هل اختلست مارين هذا الملبّس من المطبخ، هل لكورنيليا دور في الشهوات

السرية لسيدتها؟

فكرت نيلا، ياسبكِ هذا تماماً - تخفين ملبَّس الجوز في غرفتك ثم تنتقدين ولعي بالمرزبانية. السكر والرنكة، إن سلع مارين تعرِّف بجمال تناقضاتها المُسببة للغيظ.

وبغتة تسأل مارين الهواء:

- ماذا فعلت؟ ما هذا الذي فعلت؟

يظهر على مارين أنها تنتظر، ناظرة في الفراغ حيث لا جواب يأتي. تُبقي نيلا عينيها على ثقب المفتاح، خشية أن يصدر صوت من تحرك طيات عباءتها. بعد قليل، خرجت مارين من حوض الاستحمام بصعوبة، جففت كل ساق وذراع ببطء.. إنها تبدو ممتلئة الجسد مقارنة بامرأة تأكل كالعصافير، امرأة تخبر العالم أنها تحرم نفسها من ملذات الحلوى. ترتدي مارين رداءً طويلاً من الكتان، ثم تجلس على فراشها يسار الحوض مُجيلة النظر في كعوب كتبها.

عجزت نيلا عن رفع عينيها عن مارين، و تنورتها المتكاملة، حزامها الأسود، عصبة رأسها بأكاليلها البيضاء. صارت نيلا تعرف ما يكمن تحت كل ذلك، ترى اللحم بعينيها. تمد مارين يدها، فتسحب ورقة من أحد الكتب. إنها رسالة الحب، لا شك عند نيلا - ومارين تمزقها الآن إلى قطع صغيرة حتى لا يتبقى منها سوى بتلات بيضاء تتساقط على سطح ماء الاستحمام. ثم تضع رأسها بين يديها وتبدأ في النحيب.

وصوت بكاء مارين يتدفق في أذنيها، خمنت نيلا، أن رؤيتها في هذه الحالة، ستشعرها بالقوة. لكنها حتى في هذه اللحظة احتارت. إن مارين تشبه فكرتها عن الحب، يحسن بالمرء أن

يراها من بعيد، لأنها من هذه المسافة القريبة، أكثر إلغازاً. تتساءل نيلا، كيف الشعور يا ترى، بحيازة قمة مارين، بتخليصها من هذا الألم والمساعدة في محوه؟

أصاب نيلا الحزن فجأة، فأدارت وجهها. لن يحدث هذا أبداً. حميمية هذه اللحظة تسري بتمرد في داخلها، فتقمع الرغبة في مواجهة ظلام الخارج وبرده. تريد أن تنام. غداً، تقولها نيلا لنفسها. أما الآن، سترفع نفسها الصغيرة من على الشرشف، مكللة بالمفتاح الذهبي، وتعيدها إلى بيت الدمى.

وفيما تحكم نيلا عباءتها حولها وتتوجه إلى غرفتها، يتحرك ظل عند قمة الدرج. مؤخرة قدم، كعب مرفوع، غائصاً من جديد في الظلام.

الصبي فوق الجليد

كانت جثة قد طفت على سطح الميرغراخت، رجل مبتور الذراعين والساقين، بجذع ورأس فقط. اخترق الرجال الجليد لرفعه فيما مارين تشاهد، متوارية خلف الباب الأمامي. كانت القناة أرض نفايات لمدة عام، وإذ يجمّدها البرد الآن، تطفو المخلفات القديمة لتصبح مشهداً لبقية المدينة. مضى على غياب يوهانس أسبوع ثان، وبرز المزيد من القطع عبر الجدابة كلما ازداد الماء تجمّداً، أثاث محطم، مباول، وعشر قطط في مجموعة مثيرة للشفقة. فكرت نيلا في تدفئتهم، ورؤيتهم يعودون إلى الحياة أصبح العذاب الذي كابدوه حلماً. عندما حملت السُلطات جثة الرجل بعيداً وكأنه نخلة حيوان مقطوع، وتنبأت مارين أن ملابسات قتله ستظل مجهولة.

علقت:

- لقد ارتكبت هذه الأفعال في الظلام حتى تظل في الظلام.
كادت نيلا تشم من جديد رائحة الخزامى من حمام مارين. أما مارين نفسها، فقد بدت مشتتة الفكير، تنظر من النوافذ، وتجول بين الغرف.

وحينما أصبحت وحيدة في غرفتها، التفت بشالين، وحملت دمية جاك فيليبس بين يديها. إن فعل هذا يبدو أسهل، الآن وقد صار يوهانس بعيداً. يتمتع جاك بليونة في جسده ومعطفه الجلدي قد صُنع بإتقان. شدت نيلا شعره برفق، وهي تتساءل إن كان جاك، حيثما هو، يستطيع أن يشعر بالألم في فروة رأسه. يبدو ممكناً. أرجو أن يشعر، هكذا فكرت نيلا. وقد

راودها شعور بالقوة، رغبة في التدمير. وإذ هي تقاومها، لكنها سعيدة بها، تعيده، إلى أعلى بيت الدمى حيث يرقد على جنب واحد.

في الخارج، بدأ أطفال الشوارع يغامرون بالتزحلق على القناة المتجمدة، أجسامهم الخفيفة لا تمثل تهديداً على القشرة الجليدية الحديثة. إنهم يُذكِّرون نيلا بكاريل، بانزلاقهم وتزحلقهم، صارخين في فرح. فتحت الباب الأمامي، فسمعت نداءاتهم المتبادلة، كريستوفل! دانيال! بيترا خرجت نيلا، ورفعت عينيها تلقائياً إلى السماء بحثاً عن لمحة عزيزة من الأخضر، لكنها لم تجد شيئاً.

أحد المُتزحلقين هو الولد الكفيف الذي سرق من بائعة الرنكة في أول يوم لوصول نيلا. يناديه الآخرون بيرت. يبدو بيرت ضعيف البنية، إلا أنه على الأقل يستمتع فيما يظهر بالتنفيس الذي يمنحه إياه التزحلق، مُنطلقاً في كل اتجاه مع أصدقائه. عجبت نيلا من سرعة تزحلقه التي تضاهي البقية، وهو يمد ذراعاً واحدة، تحسُّباً لأية وقعة. وتكون زَلَاقة الأرض عامل مساواة رائعاً. يبتعد مُتزحلقاً، نحو شعاع الضوء المُتجمِّد واللانهائي.

في كل مرة تعزم نيلا على الذهاب إلى الكالفرستراات، تجد لها مارين شيئاً تفعله. لم تصلها أية طرود منذ الدمى وتمثال بيبو، وجدت نيلا أنّ صبرها ينفد. كان يوهانس قد غاب أسبوعين عندما حلَّ كانون الثاني، فقررت أن عليها الخروج وشراء هدايا العيد لعائلتها. تتسوق عبر شوارع أمستردام، فتختار سوطاً من ميلانو لكاريل ومزهرية توليب خزفية لوالدتها، أشياء تشهد على زوج تاجر ناجح. لكنها في شارع بونس مع كورنليا، بحثاً عن ألذ خبز زنجبيل لشقيقتها، لا تنفك تنظر حولها التماساً لرأس

يملك شعراً أشقر شاحباً، تلك العينين المُتيقظتين والمادحين. كادت نيلا ترغب في أن تتجسس عليها. لعل ذلك يجعلها تشعر بالحياة.

إنها ترغب في الذهاب إلى الكالفرسترات، لكن كورنليا تدبر لاتباه مطاقهما في متجر أرنود ماكفريد، قائلة:

- إن أرابيلا تستحق أفضل مخبوزات أمستردام.

- لقد منعوا خبز الزنجبيل، قالت هانا بوجه متجهم: تحديداً، تلك التي على أشكال بشر. ظننتُ أرنود سيبيض من شدة الغضب. توجّب علينا أن نطحن عائلات بأكلها ونبيعها فتاتاً.

- ماذا؟ ما السبب؟

- رؤساء البلديَّة. قالتها، وكأن هذا يفسر كل شيء. وارتعدت كورنليا.

أكدّ أرنود أنهم قد حظروا فعلاً الخبز المُشكّل على هيئة رجال ونساء، صبيان وبنات، وكذلك أكشاك بيع الدمى في فيزلدام. يتعلق السبب بالكاثوليك، كما يقول. الأصنام، تفوق الروحاني على المحسوس. تقول كورنليا بازدراء:

- إن الدمى أشياء مُسلية.

قال أرنود:

- إن هذا لا يجعل الكنيسة على صواب. فكّر في الثمن.

- سيكون علينا فقط أن نشكّلها على هيئة كلاب. قالت هانا المغامِرة دوماً.

عوضاً عن خبز الزنجبيل، تبتاع نيلا لأرابيلا كتاباً يحوي صوراً للحشرات. تفترض أن أختها كانت لتفضل بسكويت أرنود

الفاخر، لكنها تفكر أن أرابيلا يحسن بها أن تحظى بكتاب وتتعلم قليلاً. لم تكوني لتفكري هكذا في آب الماضي، تقولها نيلا لنفسها. إنها تشعر بالاختلاف، كأنما شيء يُحرِّكها والتقطت هي الطُعم.

في المنزل، قوّمت مارين السوط:

- بكم اشتريتِ هذا؟ إنه مجرد طفل.

كانت فرِحةً بمشترياتها، وتشعر بالقوة والثراء، علّقت نيلا:

- هذا ما فعله يوهانس مع بيت دماي، إنني أحذو حذوه فحسب.

مع حلول الأسبوع الثالث من غياب يوهانس، كانت رقاقات الثلج قد تدلّت من كل باب، ونافذة، وحتى بيوت العنكبوت في الحديقة، شبيهة بإبر بلورية صغيرة. استيقظ أربعتهم وهم يشعرون بالبرد، احتموا بفرشهم مُرتجفين. تاقت نيلا إلى الربيع، والزهور، ورائحة الأرض المحروثة، والحيوانات الجديدة، والرائحة الدهنية النفاذة في منابت صوف الحمل. تنتظر عند الباب ترقبًا لأي شيء يصل من صانعة الدُمى، لكن شيئاً لم يأت. وإذ تتذكر تعليق هانا عن رؤساء البلديّة، وحظر الدمى في أعياد الميلاد، تشك في أن صانعة الدُمى سترسل أي شيء مرة أخرى.

عندما عادت إلى غرفتها، وجدت مارين مُقحمة يديها في بيت الدمى. كانت رؤيتها هناك صادمة، فهرعت نيلا نحوها، محاولةً إغلاق الستار.

- لم تستأذني في الدخول!

أجابت مارين:

- لا، لم أفعل. أتساءل كيف الشعور بذلك. كانت تمسك شيئاً في يدها، وبدت مضطربة:

- بترونيلا، هل أخبرتِ أحداً عنا؟

فكّرت نيلا، أرجوك، يا رب، ألا تكون قد وَجَدَتْ دميتها. فتحت مارين كفها وعليها يكون جاك فيليبس، جميلاً كما هو في الحقيقة: ما الذي تحاولين فعله بنا؟

- مارين...

- في وسعي تماماً أن أفهم الطلبات المحدودة للأثاث والكلاب. لكن دمية لجاك فيليبس؟

وأمام ذهول نيلا، جذبت مارين النافذة بعنف ورمت جاك منها. فركضت إلى النافذة البابيَّة لتشهد رحلته المُتخبِّطة، التي تنتهي به في منتصف القناة المُتجمِّدة تماماً، جامداً ومنفياً في مساحة شاسعة من الأبيض. يهيج في داخلها خوف، وقلت:

- ما كان يجدر بك أن تفعلي ذلك، يا مارين. ما كان جديراً حقاً.

انفجرت مارين قائلة:

- لا تلعبي بالنار، يا بترونيلا.

"في وسعي أن أقول لكِ الشيء ذاته"، هكذا فكّرت نيلا، وهي تنظر بائسة إلى الدمية المهجورة. هتفت، بينما مارين تغلق باب الغرفة:

- إنه بيت دماي، وليس بيتك.

ظل جاك في الخارج على الجليد. وحاولت نيلا إقناع ريزيكي

بإحضار الدمية بين فكيها، لكن الكلبة تدمدم أمام المنظر، وهي تركض منتصباً شعرُ عنقها. أرادت نيلا أن تعبر القناة المتجمِّدة بنفسها، لكنها ليست بخفة بيرت وبقية الأطفال، وهم ما عادوا هنا لتطلب منهم. تصورت نفسها تسقط في القناة وتغرق، وكل ذلك لإنقاذ دمية، مدفوعة لحمايتها وإن كانت لا تعرف السبب. وكأن إبقاء جاك في بيت الدمى هو آمن شيء، إذ في وسعها مراقبته. وعلى مضض تعود نيلا، وهي تلعن مارين في سرِّها.

في تلك الليلة، غطّت نيلا في نوم مضطرب، كلمات رسالة الحب التي مزقتها مارين تطفو على سطح ذاكرتها. ينطق بها جاك، لهجته الإنكليزية ترتطم بالكلمات كما يفعل مركب شراعي صغير مع أمواج هائجة. أنتِ نور الشمس في النافذة التي أقف أمامها، مستدفئا... شبرًا شبرًا منكِ، أحبك... ألف ساعة. يركض جاك عبر أروقة عقل نيلا، مبتلاً من الجليد، ويعتمر فوق شعره المجعد واحدةً من جماجم حيوانات مارين. استيقظت نيلا مجفلة، حلمها حيٌّ حتى أنها كانت مقتنعة بوجود جاك في ركن الغرفة.

كان صباح اليوم التالي هو عيد القديس نيكولاس، السادس من كانون الأول. عندما فتحت نيلا ستائرها ونظرت إلى الأسفل، حبست أنفاسها في حلقها. لأن دمية جاك تجلس متكئة على قائمة بابهم، مُستمتعة بالضوء الجليدي.

المتمرِّدة

حينما خرجت نيلا مُتسللة لأخذ الدمية المُتجمِّدة من على عتبة المدخل، كان الشارع خالياً، والضباب يعلو كأنفاسٍ دوَّامة فوق الجليد.

- أين الجميع؟ هكذا سألت على مائدة الفطور، بينما جاك مُخبَّأ في جيبها. لم تقل مارين شيئاً، وهي تقصص بأناقة سمكة رنكة.

- لقد نجح رؤساء البلدية مرة أخرى. قالها أوتو بلهجة ثقيلة، وهو يدخل حاملاً لوحاً عامراً بالهيربيرود، وقرصاً طويلاً من جبن الجوده الأصفر لنيلا. تبرمه من بيروقراطية الدولة يكاد يبدو مُتأصلاً، إنه يشبه يوهانس.

تركت مارين الرنكة وقلَّبت زبدية من منقوع الفواكه، أناملها زرق على الملعقة. تقلِّب وتقلِّب، محدِّقة في منقوع البرقوق المتلألئ، وتقول: -"لقد أعلنوا تحريم الدمى والعرائس،" شعرت نيلا بدمية جاك المُتجمِّدة والملامسة لساقها، تلك القطعة المُحرَّمة تكوِّن دائرة بلل غامقة على الصوف. أردفت مارين: "الكاثوليكية. الوثنية. محاولة شنيعة لاستهلاك الروح."

قالت نيلا:

- تتحدثين وكأنكِ تخافينها. وكأنكِ تخالين أنها ستُبعث إلى الحياة.

علقت كورنيليا:

- حسناً، لا أحد يعرف، ومثل المرأتين الأخريين، كانت مُلتحفة بطبقات من الثياب، مُتدثرة جيداً بشالها المارلي.

ثارت مارين:

- لا تكوني سخيفة. تخيلت نيلا ذرات سكر صخيرة مُتجمّعة كنتف ثلج في زاوية فم مارين الرصين وهي تنتحب في حوض الاستحمام القادم. إن مارين إذ ترتدي فروها السري، وتأكل خبيئتها من ملبَّس الجوز، وتحمي شقيقها الآثم، فهي تعيش في عالمين. هل استقامتها العلنية الثابتة هي حقاً خوف من الرب، أم خوف من نفسها؟ ما الذي يكمن نابضاً داخل ذلك القلب الحصين؟

كان الهواء المتجمد يصفر من خلال شقوق الجدران في حجرة المائدة، ويمنح المنزل شعوراً أكثر برودة مما هو فعلاً، وكأن هواء الليل قد تسرب إلى الداخل وظل هناك. تقول نيلا:

- المداف مُضرَمة، لكنها لا تحدث أدنى فرق. هل لاحظتم ذلك؟

قال أوتو:

- السبب هو قلة مخزوننا من الخشب.

ردّت مارين:

- لن يضيرنا أن نجرّب البرد.

سألتها نيلا:

- ولكن، هل لا بد لجميع التجارب أن تكون شاقة، يا مارين؟

التفتوا جميعاً إلى مارين، التي قالت:

- في المعاناة نجد ذواتنا الحقيقية.

نزلت نيلا وراء كورنيليا تلوذ بدفء مطبخ الخدمة، وجاك ما يزال في جيبها. وضعت كورنيليا وعاء مربى الخوخ بقعقعة ولوحت بشوبكٍ للانقضاض على عجين تصنع منه فطيرة. لحق بهما أوتو، وتناول خرقة لتلميع طابور من أحذية يوهانس قصيرة العنق والمصطفة على طول باب المطبخ:

- أوتو، هلا اختلست بعض الخث من العلية؟ لن تلاحظ مدام مارين." أومأ برأسه في شرود. علقت كورنيليا: إنها تحب الحرمان، لكننا نحب المُتع حتى النخاع. أراهنكِ بكل المَقالي التي أملكها أن خلف الأبواب المغلقة، تبتلع بطون النساء بسكوت الزنجبيل الذي على هيئة بشر، مهما يقل رؤساء البلديةّ.

أضافت نيلا:

- أو يقضم الأزواج أشكالاً على هيئة زوجاتهم" نكتتها ثقيلة، علقت غير مفهومة في الهواء، هذا الحديث عن الزوجات، عن الرجال في هيئة طعام تمسك به الأيدي. نيلا التي لن يقضمها أحد، يتضرج وجهها من الحياء. وحتى تصرف عنها الفكرة، تتخيل مشاهد أكثر بهجة خلف أبواب غير بابهم. احتفالات منزلية، بيوت مُزينة بسلاسل ورقية وفروع تنوب، كعكات طازجة من الفرن، ضحكات ونبيذ قرفة ساخن. إن هذا يحدث في كل أرجاء المدينة اليوم، عيد القديس نيكولاس، شفيع الأطفال والبحارة يُحتفل به في كرنفال من التحدي الخفي. القديس نيكولاس يخصهم. كما شهوات البطون، كما الذنوب.

يصعب الآن تخيل المجوس الثلاثة يقطعون الصحراء الحامية ليسجدوا للمسيح المُرتقب. تريد نيلا أن تُفتح الأبواب والنوافذ، حتى تدخل روح التجلّي. نافذة مفتوحة قد تحافظ على العقل

مفتوحاً. قالت كورنيليا:

- اقتربت أعياد الميلاد، وبعدها عيد الغطاس. كان في صوتها سعادة خاصّة.

- وماذا في عيد الغطاس؟

- يسمح لنا السنيور، أنا وتوت بارتداء ملابس النبلاء، وتناول الطعام على مائدته. لا أعمال منزلية طوال اليوم. ثم تُردف: ولكن، يظل عليّ أن أصنع الطعام. مدام مارين لا تقبل أن يتعدّى الأمر هذا الحد.

- بالطبع لا.

قالت كورنيليا:

- سأصنع كعكة الملك أيضاً. سأخفي قطعة نقدية في العجين، ومن تقع تحت أسنانه يصبح ملكاً ليوم واحد.

ضحك أوتو، في صوته أثر مرارة. يجعل رأس نيلا يلتفت، هذا الصوت لا يشبهه أبداً. وعندما تنظر إليه، يتجنب النظر إليها.

قالت مارين، وهي تنزل سلم المطبخ:

- وصل هذا من أجلك.

يهفو قلب نيلا بوصول شيء جديد من صانعة الدُمى، لكن الكآبة على الوجه تهيل عليها كآبة حتى قبل أن يُفتح الخطاب. إنه خط والدتها الرفيع، تدعو ابنتها وزوجها لقضاء بعض أيام العيد في أسِدلفت. كاريل يشتاق إليكِ. الخطوط والانحناءات تذكير مؤلم بحياة لم يعد لها وجود عند نيلا.

سألتها مارين:

- هل ستذهبين؟

جاءت نبرة التوسل في سؤالها بمنزلة مفاجأة. شيء ما تسرّب في مارين خلال هذه الأسابيع الثلاثة، وصار لها وسط نوبات المزاج الحاد هشاشة جديدة. فكرت نيلا، إنها حقاً تريدني أن أبقى - وهل سأطيق حتى أن أعود، بطني المسطحة محاطة بثوب من الحرير البنغالي، لا طفل كبير أتباهى به، وزواجي نصر أجوف؟ يستطيع يوهانس أن يؤدي دور الزوج المحب من دون كثير جلبة. إنه يكون واثقاً من نفسه عندما يتعلق الأمر بإظهار حصافته، أما أنا فتهرب مني - تتساقط من بين كفّي حالما أرى وجه أمي المتفائل.

أجابت نيلا:

- كلا. أظن من الأفضل أن أبقى هنا. سوف أرسل الهدايا التي ابتعتها. ونذهب في العام المقبل.

قالت مارين:

- سنقيم ما يشبه الوليمة.

- لا رنكة؟

- أبداً.

حلّق الوعدان بين المرأتين كزوج من فراشات الليل، شاحناً الجو بنوع جديد من الطاقة.

أعادت نيلا جاك إلى مكانه في بيت الدمى بمشاعر مختلطة. مازال يبدو لها من الأفضل أن تبقيه حيث يمكنها مراقبته، مع أن وجوده يجعلها تشعر بالتوتر لاحقاً في المساء، يأتي عازفون معطورون ويجازفون بالغناء أمام منزلهم طلباً للمال، واقتربت

نيلا من نافذة الدهليز للاستماع إلى غنائهم المُنخفض. تردد أوتو وكورنيليا، يتقاسمهما التوق لمشاهدة العازفين، والخوف مما قد تقوله مارين. قالت كورنيليا:

- قد تأتي ميليشيا سانت جورج. يجدر بكِ رؤية سيوفهم. إنهم يسعون لحفظ السلام لكن الأمر قد لا يخلو من الدماء.

قالت نيلا بجفاف:

- كائنات محطمة؟ أتطلع إلى رؤية ذلك.

ضحكت كورنيليا، وقالت:

- تتكلمين مثل السنيور.

تُحذِّر مارين نيلا من أن عليها إغلاق النافذة وإسدال الستائر:

- سوف يراكِ الناس، تتدلين من النافذة كغسَّالة ملابس – أو أسوأ،" تقولها بهسيس بينما تهرول كورنيليا مُبتعدة. تذرع المكان خلف نيلا في ظلام البهو غير المضاء، ولكن فيما تواصل نيلا الاستماع إلى العازفين، كذلك يفعل أوتو، وهو يقف أبعد قليلاً.

مع تسارع وتيرة المزمار، ضرب الطبَّال جلد الخنزير المشدود بإيقاع مُبهج ولجوج، تماشياً مع دقات قلب نيلا. كان أوتو قد قال إنه لا يجدر بها أن تستفز خلية النحل، لكن جزءاً منها سيظل دائماً تلك الفتاة الريفية. تفكر في جاك في الأعلى، في جميعهم، مُثبتين في تلك الغرف المنمنمة، ترقُّباً لحدوث شيء. قررت نيلا: " لا. لن أخاف شيئاً قد يصيبني بلدغة".

الثعلب مسحور

صباح اليوم التالي، كانت مُنتعشة جرّاء تمردها بالاستماع إلى العازفين وقرارها البقاء في أعياد الميلاد، خططت نهلا للذهاب إلى الكالفرسترات مع أطول خطاب كتبته حتى الآن إلى صانعة الدمى.

المدام العزيزة (وأعلم أنكِ مدام - لديكِ جيران مُستعدون للتكلم)،

أشكركِ على الدمى الثمانية، وعلى نموذج ببغائي المصغَّر. إنني واثقة أنها أنتِ من كانت على جسر الميرغراخت، تراقب بؤسي وأنا أدرك خسارتي لآخر صلة مُتبقية لي من طفولتي. هل ظهور طائري الصغير من جديد تقديم للمواساة أم درس قاسٍ؟

هل تعرفين ما فعله مندوب توصيلك، ما سببه من تعاسة؟ أفترض أنها أنتِ من أعاد دمية الإنجليزي إلى عتبة منزلنا - أكان ذلك من باب اعتزازكِ بعملكِ أم انزعاجك، لا أعرف بالتحديد. أنا آسفة لإلقاء تحفتكِ الفنية على الجليد، لكن نواياكِ تظل لغزاً، وهذا يثير توتر بعض الأشخاص.

يقولون إن رؤساء البلديةَ قد حظروا تصوير البشر بكل أشكاله. أتساءل هل تراكِ تخشين غضبهم - العوالم التي تصنعينها، أصنامكِ الصغيرة التي تسللت إلى عقلي ولا تنوي الرحيل. لم ترسلي لي شيئاً منذ فترة، ورغم حقيقة تخوفي مما قد ترسلينه، إلا أن ما يقلقني أكثر هو أن تتوقفي تماماً.

أظنه مازال في مقدوري أن أطلب الدُمى، أليس كذلك؟ وعليه، تكرمي بصنع لوح فيركيرشبيل، لعبتي المفضلة في التخطيط والحظ. لن أعود إلى منزل أهلي في أعياد الميلاد، وحياتي يعوزها تسلية كهذه. لذلك، أسعديني بنسخة مصغرة.

يوماً ما، سنلتقي، أنا وأنت. أصر على ذلك. أنا واثقة من أنه سيحدث. أشعر أنكِ ترشدينني، نجمة ساطعة، لكن أملي يشوبه هلع من ألا يكون نوركِ طيباً. لن يهدأ لي بال حتى أعرف عنكِ أكثر، ولكن إلى ذلك الحين، فلتكن الرسائل الخطّية وسيلتنا لفهم أفضل.

مرفق بالخطاب إذن صرف آخر بخمسمائة جلدر. اعتبريه الزيت الذي سيليّن المفاصل العنيدة لباب منزلك.

مع شكري وانتظاري،

توقع نيلا الخطاب باسم: بترونيلا براندت.

نظرت من نافذتها لتستمتع بالبساط الأبيض الذي صنعه الجليد. تكون المدينة جميلة وهي مُترعة بالصقيع هكذا، الهواء رقيق، والطوب أشدُّ حمرة، وأطر النوافذ المطلية تشبه أعيناً صافية. وأمام دهشتها، رأت أوتو يمشي على عجل حذو القناة. أثار ذلك فضول نيلا، فوضعت الخطاب في جيبها وتبعته بسرعة، مُهملة الفطور أو ارتداء معطف، ومُتسللة من المنزل في خفية عن الأعين.

عبر أوتو ميدان دام، متجاوزاً مبنى الستدهاوس الجديد الشاخص في الأفق، حيث يمتلك فرانس ميرمانز منصباً، وربما أنه حتى يعمل في هذه الساعة. "بِعْ سكّر زوجه، يا يوهانس". هكذا فكّرت نيلا، مُرسلة إليه برسالة صامتة وهي تتجاوز الرمال التي

نُثرت لتسهيل السير فوق الحصى. عادت إليها ذكرى مارين في حوض استحمامها، سائلة الهواء: "ماذا فعلت؟" كان الأفضل لو أن آل ميرماتز لم يظهروا في حياتهم قط.

يبدو أن سكان أمستردام يستغلون الوضع بصورة كاملة، بعد القمع في عيد القديس نيكولاس. الشمس قوية، ودقات أجراس الكنيسة القديمة تصل إلى سطوح المنازل المتلألئة، والصوت خلاب. أربعة أجراس عالية تجلجل في السماء، مُعلنة الولادة المرتقبة للطفل المقدس، وتحت صخبها يدق جرس واحد أكثر خفوتاً -صوت الرب، عميق وحقيقي وممتد. يبدو أن الموسيقى يمكنها أن تصدح عالياً، باسم الطاعة الجماء.

تملأ الهواء رائحة طهو اللحم، و سار أوتو إلى جوار كشك للنبيذ الحار شُيِّد بسفور قبالة مدخل الكنيسة الأمامي. ينهر القس بيليكورني الخمّارة، بينما ينظر الأمسترداميّون بلهفٍ إلى المسند الذي يتقوّس أسفل زبديّة النبيذ.

تمتم رجل:

- إنه أضيق من مؤخرة خنُّوص. النقابة جهزته، ووافق عليه رؤساء البلدية!

أجاب صديقه مُضفياً غطرسة على صوته:

- الرب فوق النقابات، يا صديقي.

- هكذا يريدنا بيليكورني أن نفكر.

- هوِّن عليك. انظر. قالها الرجل الثاني، وهو يكشف خلف معطفه عن قنينتين صغيرتين تحويان سائلاً أحمر يرسل بخاراً:

- حتى أني طلبتُ إضافة فص برتقالة إليه.

هرعا بعيداً إلى أجواء أقل صحة، كانت نهلا مسرورة لأنهما أفلتا، وسُرّت أكثر لأنهما لم يتوقفا للتحديق بفم فاغر في أوتو. استقرت نظرة بيليكورني عليها، لكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ.

دخل أوتو إلى الكنيسة القديمة، خافضاً رأسه. بدت نهلا مرتجفة، وهي تخطو إلى الداخل، إذ تبدو الكنيسة أبرد من الهواء. وعلى الرغم من أنها تتبع أوتو كما يُفترض، إلا أنها وجدت نفسها تجيل ناظريها، بحثاً عن رأس أشقر فاتح، منارة ذهبية وسط الألوان البنية والبيضاء الباهتة داخل الكنيسة. ربتت على الخطاب في جيبها. ألا تقوم صانعة الدمى في موسم الأعياد هذا، بزيارة أخرى – لتذكر عائلتها في النرويج، لتصلي طلباً لرحمة رؤساء البلدية؟ بدأت خيوط الخيال في عقل نهلا تغزل، وتطرز محادثات، رُقعٌ تخيطها معاً غرز فضفاضة. من أنتِ، لماذا أنتِ، ماذا تريدين؟ المشكلة هي أن التوجه مباشرة إلى صانعة الدمى، بدا وكأنه يدفعها إلى الاختفاء. ومع ذلك، فهي موجودة أغلب الوقت، تراقب وتنتظر. تتساءل نهلا أيهما الصياد، وأيهما الفريسة.

أبقت عينيها على أوتو. المقاعد التي تلتف حول المنبر شاغرة، خلا شخص وحيد هنا أو هناك ممن لا يملكون على الأرجح مكاناً آخر يذهبون إليه. عادةً، ما تُقام العبادة في جماعة، بأفراد حريصين على أن يراهم الجميع يصلُّون وكأن هذا سيضفي نقاء أكثر على صلاتهم. اتخذ أوتو مجلساً، وفي غفلة من عينيه، لفت نهلا من حوله لتراقبه من خلف عمود.

تحركت شفتاه في لهج. ليست هذه صلاة ساكنة، بل هي أقرب إلى الاضطراب. إن وجود أوتو هنا، بمفرده ما الذي دفعه إلى ضرورة أن يشاهده الناس في بيت الرب، خاصة

وهو من هو، والأشياء التي قد تحدث؟ رأت نيلا تشابك يدي أوتو والذعر في جسده. شيء ما يمنعها من الاقتراب نحوه. لن يكون من الصواب مقاطعة شخص في تلك الحالة.

ترتعش نيلا، وعيناها تحيدان إلى الكراسي، تتسلقان الجدران البيضاء، إلى السقف المغطى بالتصاوير الكاثوليكية القديمة. ترغب جداً في أن تكشف صانعة الدُمى عن نفسها. ربما هي تختبئ هنا الآن، تراقب كلاً منهما؟

من خلفها ينطلق الأرغن بالعزف، مدوياً يرج نيلا حتى النخاع. إنها لا تحب صوت الأرغن الصاخب، وتفضّل عليه دقّ العود الناعم، وانسيابية المزمار المبحوحة. تسللت قطة كانت قد دخلت للاحتماء من البرد، بين القبور، وقد انتصب شعرها. رفع أوتو عينيه، وتوارت نيلا خلف العمود. تغطي أذنيها أمام دوي الأرغن وأغلقت عينيها، والدوار يسيطر عليها.

لمست يدٌ كُمَّ ثوبها. أغلقت نيلا عينيها أكثر، لا تجرؤ على النظر. حانت اللحظة - إنها المرأة، لقد أتت.

قال صوت:

- مدام براندت؟

فتحت نيلا عينيها. كانت آغنس ميرمانز تقف أمامها، أنحف من آخر مرة رأتها، وجهها العادي قد تقلّص، وشعّ بياضاً وسط لفاع من أرانب وثعالب. ظلت قبضتها على كُمّ نيلا، وقررت: - مدام براندت؟ هل أنتِ على ما يرام؟ إنكِ حتى لا ترتدين معطفاً. ظننتُ لوهلة أن الروح القدس قد هبطت عليكِ!

- مدام ميرمانز. لقد جئتُ - لأصلي.

تأبطت آغنس ذراع نيلا. وهمست، وهي تومئ خلف العمود حيث يجلس أوتو:

- هل تراقبين وحشكِ؟ أحسنتِ. لا ضير في المبالغة بالحذر، يا نيلا. ما الذي حدث وجعله بهذا التشتت؟ وأطلقت آغنس ضحكتها الجافة. "تعالي،" قالتها، وهي تلف أحد ثعالبها حول نيلا، وتضمها إليها. تشم نيلا رائحة دهن الفواكه مرة أخرى. الفراء بارد برودة رطبة.

علقت آغنس وهي تمسِّد الفراء حول عنق نيلا:

- لم نعد نرى مارين كثيراً في الكنيسة. بدت عاجزة عن إبقاء أصابعها بلا حركة، وتلاحظ نيلا كم هي جرداء، بخلوها من الخواتم. بدت آغنس من دون خواتمها شبه عارية. توقف الأرغن فجأة، كانت آغنس مُتقلقلة، وكأن شيئاً يتصدع عميقاً تحت مظهرها المصقول بإتقان. تستطرد: - ولا رأينا براندت. ولا رأيناكِ.

- إن زوجي مُسافر.

اتسع منخارا آغنس، وقالت بدهشة:

- مُسافر؟ لم يخبرني فرانس.

- ربما لا يعلم. أعتقد أنه يباشر مصالحكِ، يا مدام. لقد ذهب إلى فينيسيا. حاولت سحب نفسها: عليَّ العودة، يا مدام ميرمانز. إن مارين ليست على ما يرام.

مع أنها ترغب في الهروب، إلا أن نيلا ندمت فوراً على حجتها. اتسعت عينا آغنس، وقالت:

- لماذا؟ ما خطبها؟

- داء شتوي.

قالت آغنس:

-لكن مارين لا تمرض أبداً. في وسعي إرسال حكيمي، وإن كانت مارين لا تثق بهم أبداً."

انطلقت أنغام الأرغن من جديد، مُتساقطة الواحدة تلو الأخرى، على آذان نيلا في نشاز ساحق. "سوف تُعافى، يا مدام. إنه موسم نزلات البرد."

وضعت آغنس يدها على ذراع نيلا مرة أخرى، وقالت:

- ما سأقوله قد يدفع مارين إلى القفز من فراش مرضها. بلغيها هذا: إن ميراثي كله ما يزال في مستودعاته بالجزر الشرقية." صوتها أقرب إلى فحيح. "حقول القصب تلك غير مضمونة، يا مدام – من يدري متى يأتي المحصول القادم؟ لم يبع زوجكِ مخروطاً واحداً مما نجحنا في تكريره. ويظهر الآن أنه ذهب إلى فينيسيا خالي الوفاض؟ نحن في حاجة إلى هذا المال."

- سيقوم بشحنه، أنا واثقة أن كلمته كافية...

- لقد ذهب فرانس إلى المستودع. رأى بعينيه. كدتُ لا أصدقه عندما أخبرني. مكدَّسة حتى السقف! قال، لن تعيش طويلاً، يا آغنس. ستتعفن قبل حتى أن نحصدها."

طرقت أنغام الأرغن صدر نيلا وهي تتلقى انفعال آغنس المتصاعد. نظرت خلف العمود إلى جهة أوتو، لكنه كان بلا أثر.

- اطمئنّي، يا مدام...

فثارت آغنس:

- لن أسمح لأحد باستغفال زوجي! لم يكن واثقاً في أن يوهانس براندت هو أفضل رجل لهذه المهمة، لكنه إصراري، أنا. يظن آل براندت أن في إمكانهم الحصول على كل شيء، لكنه ليس كذلك. لا تسخروا منه، يا مدام. ولا مني. وانسحبت بالسرعة نفسها التي اقتربت بها. شاهدتها نيلا تهرع في ممرات الكنيسة، محدودبة وحركاتها خرقاء على غير العادة. ثم فتحت الباب الجانبي الصغير، واختفت.

قررت نيلا أن أفضل ما تفعله هو العودة إلى المنزل وإخبار مارين بهذا الحديث المُقلق. إلا أنها ستكون المرة الثانية التي تبقى فيها صانعة الدُمى من دون زيارة. سأرسل كورنيليا بخطابي، هكذا فكرت، ورأسها يدور من أثر غضب آغنس. غادرت الكنيسة متوجهة صوب الهيرِغراخت.

وبينما هي تقترب من المنزل مُتعجِّلة لإخبار مارين، أدركت أن هناك خطباً ما. الباب الأمامي مفتوح على مصراعيه، فم فاغر على الجو غير المضاء. تناهى إلى سمعها صوت الكلبتين تنبحان، ولكن لا أصوات بشرية. تتردد، ثم صعدت سلم المدخل بخطى غير مسموعة ووقفت إلى جانب الباب.

رأت حذاءه أولاً. جلد عجل بالغ النعومة، لكنه مكشوط الآن. رؤيته أصابت معدتها بالتقلص. كان جاك فيليبس، مسعوراً، والشر مكتوب على وجهه، يذرع بلاط الدهليز.

تصدُّعات

وقفا وجهاً لوجه الآن. كان جاك طليق اللحية، ضعيف البنية، بشرته باهتة بعد أن كانت مشرقة ذات يوم. في أسفل عينيه المُحدِّقتين بقع أرجوانية. لكنه ظلّ محتفظاً بحضوره، بمعطفه الجلدي، وذلك البوط الذي دخل الآن مُقتحماً. كان جاك في آخر مرة رأته فيها نهلا من هذه المسافة القريبة، عاري الصدر، ويلمع بعرق زوجها، تلك الذكرى جعلت أنفاسها تتقطع.

أسرعت كورنيليا من سلم المطبخ، وحاولت دفعه من الباب الأمامي.

هتف جاك، رافعاً يديه، بريئاً:

- مهلاً، أحمل شيئاً من أجلكِ، يا مدام." تذكرت نهلا لهجته الإنجليزية الغريبة، وعجزه عن الالتزام بتموجات اللغة الهولندية وتهاديها. مدّ يده داخل سترته فتشنجت كورنيليا مثل قطة، وقالت:

- لقد عدتُ إلى توصيل الطرود.

قالت نهلا:

- ماذا؟ يُفترض أن تحرس سكَّرنا، قال يوهانس...

- أوه، إنكِ تزعقين مثل فأرة.

وقف مادًّا يده، وكأن الطرد الذي يقدمه سيخفف من وقع إهانته. الرزمة أصغر من آخر مرة، لكنها هناك، رمز الشمس

الجليّ بالحبر الأسود. انتزعتها نيلا منه، من غير أن تدع أصابعه تلمسها.

هرولت كورنليا إلى الطابق العلوي ووجهها ممتقع من الخوف. قال جاك:

- أحتاج إلى رؤيته. هل عاد؟ ثم نادى في الممر المؤدي إلى حجرة المكتب: يوهانس، هل أنت هنا؟

في الطابق العلوي، فتح باب وسمعت نيلا هسيس كورنليا.

قال جاك:

- هل حقاً ذهب إلى ڤينيسيا؟ هي عادَتُهُ.

تضرج وجه نيلا، وهي تستشعر العلاقة الحميمة بين الرجلين، شيء كانت قد أنكرته.

- إنه يستبدل ميدان دام بريالتو، ابتسم جاك مُظهراً أسنانه، سمك طازج أكثر، اقترب منها، وفي صوته إصرار مُهدئ: هل صدقته، عندما قال إنه ذاهب إلى هناك للعمل؟

- كيف تجرؤ على المجيء...

- إنني أعرف عنه أكثر مما قد تعرفينه أبداً، يا مدام. لا أحد يعمل في ڤينيسيا. ميلان، ربما. لكن ڤينيسيا ليست إلا قنوات مائية مظلمة ومومسات، وفتيان كالعث، يطيرون إلى أكثر الآلهة إضاءة."

شعرت نيلا بجسدها خفيفاً، مفتوناً بصوت جاك. ربما كان فيما مضى ممثلاً بارعاً، بلغته الأم. شعرت بقلبها في حجم حبة بازلاء يقفز داخل ضلوعها.

- ما الذي يحدث هنا؟ رن صوت مارين من أعلى الدَّرج،

لماذا ما يزال باب المنزل مفتوحاً؟

خطا جاك إلى دائرة الضوء عند سماع صوتها، باسطاً ذراعيه. فكرت نيلا، إنه حقاً جميل جداً، وجائع جداً. لا تستطيع إزاحة عينيها عنه. أمرها مارين:

- بترونيلا، أغلقي الباب.

- لا أريد أن أحبس مع...

- أغلقيه وحسب، يا بترونيلا. الآن.

بيدين مُرتجفتين، أغلقت نيلا الباب الأمامي. وأصبح الدهليز حلبة نصف مضاءة، حلبة ماذا بالضبط، لا تحتمل التفكير في الإجابة. أخذت تتساءل هل يوهانس مسرور يا تُرى بابتعاده عن هذا الفتى الخشن، أم هو يشتاق إلى حضوره الساحر، ذلك الصوت المتوثّب. صوت شيء يُنتزع من مكانه، يجعل نيلا تستدير.

كان جاك قد غرز خنجراً رفيعاً وطويلاً في لوحة لطبيعة صامتة. فانشقّت زهورها وحشراتها الوفيرة مثل جرح، بتلاتها تتدلى بصورة خرقاء. أطلقت كورنيليا، التي تقف على الدرج خلف مارين، أنين من يشعر بالغثيان.

صرخت نيلا في صوت حاد:

- توقف عن هذا!" ثم تفكّر، تحكّي في صوتك، إنه عُق، أنتِ فأرة. لستِ سيّدة هذا المنزل. معدتها تميع وفمها يجف. "أوتو،" حاولت أن تناديه، لكن صوتها لا يتجاوز الهمس.

- سيد فيليبس!

هذا البرود في صوت مارين يقطع الدَرج بطوله، في المقابل

يجبر جاك على التوقف. من الواضح أن جاك ليس الممثل الوحيد في المكان. تبدّل مارين، مُسلطة كل تركيزها على الفتى ذي الشعر الداكن الذي اقتحم مملكتها.

سألته:

- كم مرة أمرتك ألا تقترب من هنا؟ وتردد صدى كلماتها، مُضاعفاً التهديد المُنبعث من حضورها.

تراجع جاك إلى منتصف البهو، ونزلت مارين وقفت في نهاية السلم متجاهلة اللوحة بالكامل. أرخى ذراعه التي تحمل الخنجر بخمول، وبصق على الأرض.

قالت بغضب:

- امسحها.

لوّح جاك بالخنجر أمام جسدها:

- إن أخاكِ لن يمانع في مضاجعة كلب، طالما أن الثمن مناسب."

- سيد فيليبس...

- يقولون إنه يجامعكِ أيضاً، وإنه الوحيد الذي سيفعل.

رفعت مارين يدها، وقربت كفها المفتوح رويداً من رأس خنجره، وقالت:

- يا لها من إهانة قديمة مُبتذلة. تراجع جاك قليلاً، لكن المسافة بين طرف سلاحه الحاد وجلد مارين لا تزيد على بوصة واحدة: إلى أي حد أنت شجاع، حقيقة، يا جاك؟ هل تجرؤ على إراقة دمي؟ هل هذا ما تريد أن تفعله؟

أحكم جاك قبضته على الخنجر، وعندما وضعت مارين باطن كفّها على حافته مباشرة، لوّح بالنصل بعيداً، وقال:

- عاهرة. لقد أخبرني أنه لم يعد في وسعي العمل لحسابه. من كان صاحب هذا القرار؟

- تعال، يا جاك، قالت مارين، بصوت هادئ ومُتعقّل:

- - لقد مررنا بهذا من قبل. كفاك صبيانيّة، وأخبرني كم سيكون ثمن رحيلك.

- أوه، أنا لا أريد أموالك. جئتُ لأريكِ ما الذي يحدث عندما تتدخلين. صرخ، ورفع الخنجر إلى نفسه، وقبل أن تتمكن نيلا من استيعاب الأمر، صفعته مارين بقوة على خده، فأسقط ذراعيه، وحدّق فيها مذهولاً.

- لماذا أنت بهذا الضعف؟ تقولها مارين بهسيس، وإن كان في وسع نيلا أن تراها هي أيضاً ترتجف: لا يمكن الوثوق بك لساعة واحدة.

فرك جاك وجهه، مُستجمعاً نفسه، لقد دفعتِه للتخلص مني.

تقول مارين:

- لم أفعل قط. إن يوهانس رجل حر وأنت من اختار أن يصدّق ما يقول. ثم تضيف مشيرة إلى الخنجر: كان هذا ملكاً لأبي.

- حسناً، أعطاني إياه يوهانس.

من جيبها، تُخرج مارين رزمة مجعدة من أوراق الجلدر، تضعها في يده، فتلمس أصابعها راحته. وتقول: لا شيء لك في هذا المكان.

مسّد جاك الجدرات بخفّةٍ، وعلى حين غرّة، يسحب مارين إليه ويقبِّلها بقوة على فمها.

همست نيلا:

- رباه.

تحركت كورنيليا ونيلا في وقت واحد نحو مارين، بفكرة واحدة هي التفريق بينهما - لكن مارين ترفع يدها كي تقول، لا تقتربا - هذه المقايضة يجب أن تتم.

توقفت كورنيليا في ذهول مرعوب. ومارين، مُتيبِّسة، لا تضع ذراعيها حول الفتى، لكن القبلة تبدو كأنها ستدوم إلى الأبد. لماذا يفعل هذا؟ ولماذا لا تصدّه مارين؟ هكذا فكرت نيلا، إلا أن جزءاً صغيراً منها يتساءل رغماً عنها كيف تراها تشعر مارين في هذه اللحظة، وهي تلمس فماً جميلاً كهذا.

ثم يفتح الباب الأمامي. وعلى عتبته يتوقف أوتو، العائد من الكنيسة، وقد شُلَّ جسده كله أمام الجسدين المُتشابكين لمارين وجاك. وكأن شيئاً في داخله يثور، فاندفع نحوهما، صرخت نيلا:

- إنه يحمل سكيناً! لكن أوتو لا يتوقف.

مع صرخة نيلا، ينفصل جاك عن مارين، التي تعود مُترنِّحة إلى الدَّرج الرئيس

- مذاق عجوز شمطاء. قالها ساخراً في وجه أوتو.

قال أوتو بفحيح:

- اذهب، قبل أن أقتلك.

ارتد جاك بقفزة واحدة إلى الباب الأمامي، وقال:

- ربما ترتدي ملابس النبلاء، لكنك لست أكثر من وحش.

- قذر، يدوي صوت أوتو مثل القس بيليكورلي.

تجمد جاك:

- ماذا، يا فتى؟ ماذا قلت لي؟

يتقدم أوتو نحو جاك، وصرخت مارين:

- أوتو.

قال جاك:

- سوف يتخلص منك، أيها الوحش. إنه يعلم أنك فعلت شيئاً، وسوف...

- توت! لا تقترب منه! لا تكن أحمق.

- فليغلق أحدكم الباب!

- يقول إن الزنوج ليسوا محل ثقة.

رفع أوتو قبضته، فصرخت كورنيليا: لا، بينما ينكمش جاك مُبتعداً.

لكن أوتو لم يزد عن وضع راحته برفق على صدر جاك، كريشة معدنية مشبوكة في ياقة، ترتفع يده وتهبط مع أنفاس الإنجليزي. تمتم أوتو:

- أنت لا شيء بالنسبة إليه، يا فتى. والآن اذهب.

أبعد أوتو يده في اللحظة نفسها، التي وثبت فيها ريزيكي عائدة إلى البهو، وعمود ضوء ضعيف يأتي من الخارج يحوِّلها إلى لون مشروم باهت. زمجرت في وجه جاك، مُرجعة أذنيها

إلى الخلف، وربضت على بلاط الأرضية، مُحذرة إيّاه من الاقتراب. ناداها أوتو:

- ريزيكي! ابتعدي!

نظرة الذعر في عيني جاك أخضعت نيلا. قالت:

- جاك، جاك، أعدك، سوف أخبر يوهانس أنك كنت...

لكن جاك كان قد دفع خنجره في جمجمة ريزيكي.

أصبح الجميع كما لو أنهم تحت الماء، لا أحد فيهم يمكنه التنفس. اخترق النصل بصرير مُغثٍ الفراء والعظم. وانهار جسد ريزيكي على الأرض.

انطلق عويل خفيض، يعلو رويداً، وعرفت نيلا أن مصدره كورنيليا، التي تترنّح عبر البلاط نحو جسد ريزيكي.

بدأت ريزيكي في الاختناق. كان جاك قد غرز الخنجر بقوة حتى لتعجز أصابع كورنيليا عن نزعه. وانتشر دم قانٍ في دوائر قرمزية. بيدين حنونتين ومرتجفتين، احتضنت كورنيليا رأس الكلبة. أنفاس ريزيكي تحشرج، ويتدلى لسانها من فمها الفاغر. انتفضت ساقا الكلبة انتفاضتهما الأخيرة، ضمّتها كورنيليا بقوة، في تشبث يائس بدفئها المُنحسر. همست كورنيليا:

"لقد رحلت. فتاته ماتت."

يغلق أوتو الباب ويقف بين جاك والعالم الخارجي، وقد شغل جسده مساحة المدخل. انتزع جاك خنجره من رأس ريزيكي، فتدفق مزيد من الدماء على البلاط. وصرخ:

- "ابتعدا" وبرأسه نطح صدر أوتو، ونصله مرفوع. يتعاركان، حدثت معمعة -لحظة- ثم تراجع جاك مترنحاً. يخفض عينيه

إلى جسده بنظرة رعب.

استدار جاك إلى نيلا. كان خنجره مغروزاً في الجزء العلوي من بداية صدره، أسفل عظمة الترقوة ولكنه قريب من القلب بما يكفي ليمثل خطراً. يداه ترتجفان حول مقبض الخنجر. ربّاه، هكذا تهتف مارين، من بعيد. لا، أرجوك يا رب!

ترنّح جاك مثل مهر، ذراعاه ممدوتان، وركبتاه تتخبّطان، وبينما يتداعى إلى الأرض، تشبث بتنورة نيلا. فنزلا معاً إلى البلاطات ذات اللونين الأسود والأبيض، وأخذت بقعة حمراء زاهية تنفتح في قميصه، وتعجز حتى الرائحة الترابية للدم الممتزج عن إخفاء رائحة بوله الحادة.

- أوتو... قالت نيلا، لكن صوتها خرج همسة متحشرجة: ماذا فعلت؟"

يجذب جاك نيلا إليه فتشعر بالحرارة الصلبة لمقبض السكين المحشور بين جسديهما. وانصب ألمًا في أذنها، متوسلاً:

- إنني أنزف. لا أريد أن أموت.

- جاك، انهض. انهض!

- مارين، إنه يحتضر...

زاد جاك من تشبثه بها، وكأنما هو يتشبث بالحياة، ويتمتم في أذنها:

- مدام نيلا...

قالت نيلا:

- كل شيء سيصبح على ما يرام. سنحضر لك طبيباً.

صوته مكتوم في قلنسوتها، لكن جاك يبدو كمن يضحك، ويهمس:

- آه، يا مدام، أيتها الفتاة الصغيرة، ليست إبرة لعينة هي التي ستقتلني.

لبرهة قصيرة لم تفهم نيلا. نهض جاك ببطء على قدميه، يترنح نحو الباب الأمامي، والسكين ما تزال في جسده، يتحرك مثل سكارى الحانة، مترعاً بتمثيله. لا يمكنها أن تجمع بين القميص الملطخ بالدماء، والمقبض الناتئ من جسده، وتوسلاته بالنجدة وبين هذا الغرور، هذا المرح المُخيف في إيهامها بأنه على وشك أن يلقى خالقه.

همس:

- لقد صدقتك.

تراجع أوتو، مذهولاً. وفتح جاك الباب، وبينما يمضي ببطء إلى الضوء الضعيف، استدار ليواجههم، انحنى انحناءة كبيرة، وأصابعه تعبث بالمقبض. وفجأة انتفض ساحباً الخنجر من الجرح، مسروراً بالارتياع المرتسم على وجه نيلا: "سوف أحتاج إلى هذا." قال، وهو يوقف التدفق بإحدى يديه، وبالأخرى يرفع المعدن الذي يومض بالقرمزي: شروع في قتل. دليل.

قالت نيلا:

- ليت ذلك السكين وجد قلبك.

يقول، وهو يمنحها ابتسامة المُنتصر:

- إنني أخفيه جيداً. تلبدت جدائل شعره الجامحة على جبينه، وظل الخنجر يقطر دماً في يده. واستدار راسماً خطاً متعرجاً

على الدّرجات.

مارين، التي كانت شفتا جاك قد تركت على وجهها علامة حمراء باهتة، انهارت مُستندة إلى ألواح الحائط، وهمست: "يا يسوع الحبيب، يا يسوع الحبيب، أنقذنا جميعاً."

الجزء الثالث

كانون الأول، ١٦٨٦ م

حَلْقُهُ حَلاَوَةٌ وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ.

هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ.

نشيد الأنشاد ٥: ١٦

"عثر السنور على ريزيكي في جوال،" قالت كورنيليا في الدهليز، صوتها يخنقه الحزن. شاهدت نيلا تضع جثة الكلبة المُتيبّسة في كيس حبوب فارغ. "عند الباحة الخلفية للشوك، منذ ثمانية أعوام. كانوا جميعهم موتى – جميع الجراء، عداها."

- نحتاج إلى ممسحة، يا كورنيليا، وعصير ليمون وخل.

أومأت كورنيليا. مازالت بقع حمراء من الدم على البلاط الرخامي، لكن الخادم لا تتحرك. إطار اللوحة التي هاجمها جاك أصبح الآن مسنوداً إلى الحائط. وكانت مارين قد أمرت بتفريغه:

- لن يبالي، يا مدام. نصحها أوتو، لكنها أصرت، قائلة:

- ليس من أجله. لا أطيق رؤيتها نصف مُدمّرة. فأتمّ أوتو صنيع جاك، بيدٍ ترتعش قليلاً وهي تنزع القماش من الخشب.

كان أوتو ومارين يتحدثان في المطبخ، بصوت خفيض. فكرت نيلا: "إنه خطئي، حملتُ دمية جاك إلى الداخل بعد أن كانت مارين قد رمتها" كان في الصباح التالي، موضوعاً على عتبة المدخل، نذيراً لما سيأتي. لو أنّ صانعة الدُمى هي من وضعته هناك، نبوءة فظيعة لما سيحدث في هذا البهو، لماذا قد تفعل ذلك؟ لماذا تصر على ضرورة بقاء هذا المخلوق المؤذي قريباً؟ قالت وهي تنهض:

- كورنيليا، نحتاج إلى تنظيف هذا.

حاولت دفع ساق ريزيكي في كيس الخيش، لكنهما

طويلتان جداً.

حينما نزلت نيلا وكورنيليا إلى المطبخ، ومخالب ريزيكي تخرج من الكيس، خيّم جو التداعيات بين لمعة المقالي. إن قتل كلبة السيد الحبيبة، مع اقتراب أعياد الميلاد يبدو مثل العرض الافتتاحي لكرنفال مخيف. والقاتل طليق في الخارج، يداوي أكثر مما هو مجرد جرح جسدي.

وضع أوتو يديه المرتجفتين على البلوط القديم للطاولة. كانت أفكار نيلا محاصرة. ورغبت في مواساته، لكنه تحاشى حتى النظر إليها. دانه متكومة عند المدفأة، تئنّ وعيناها على الكيس الذي تحمله نيلا.

سألت كورنيليا:

- هل يمكننا دفنها الآن، رجاء؟

وبعد سكوت مضطرب، قالت مارين:

- لا.

- لكن رائحتها ستبدأ...

- ضعوها في القبو فحسب.

نيلا هي من تضع ريزيكي برفق، في الظلام، فوق الطمي الرطب والبطاطا، وتقول بأنفاس مُختنقة:

- فتاة مسكينة، مسكينة. في أمان الله.

وفي المطبخ قال أوتو:

- ماذا لو قام جاك بالتبليغ عنّي؟ إنه يملك السكين، والجرح لإثبات ما حدث ولسان في رأسه يختلق الحكايات. لقد ذكر

شيئاً عن دليل وشروع في القتل. سوف تعتقلني الميليشيا. وماذا لو أنهم سألوه عن سبب وجوده هنا؟"

- تماماً، قالت مارين، وهي تضرب الطاولة بقبضتها: إنني أعرف جاك فيليبس قليلاً. إنه يحب طعم الحياة. جاك يحب التبجح لكنه لن يلجأ إلى السلطات أبداً. لأنه بهذا سيوقّع حكم إعدامه وهو يعلم ذلك. إنه إنجليزي، ولوطي، وكان ممثلاً فيما مضى. إنها أكثر ثلاثة أشياء يكرهها رؤساء البلديّة في مدينتنا.

يقول أوتو، بتعابير مكفهرةً:

- إنه مفلس، يا مدام. إن المرء قد يفعل أي شيء عندما يكون يائساً. إن سألوه لماذا أتى إلى هنا، فسوف يورّط السنيور."

هز رأسه، كانت كورنيليا تروح وتجيء بسلة من الهيربرود، وقطع من الهندباء، ومثلث زاهٍ متناقص من جبن الجوده. تقطع نيلا الجبن بينما تشغل الخادم نفسها أمام الموقد. سيخلو عشاء الليلة من البطاطا أو عيش الغراب، لأن كورنيليا لا تطيق حتى النظر إلى باب القبو، فضلاً عن ولوج الظلام. تشبثت نيلا بأصوات انكبابها على أعمال المنزل، قعقعة القدور، ذبول البصل في الزبدة، وطقطقة اللحم. إيقاعهم المتواصل على الرغم من تنافره لهو الآن أفضل من الألحان البهيجة التي قد تعزفها أية فرقة جوالة.

وضعت كورنيليا شرائح اللحم المقلي أمامهم، ورأت نيلا مقدار شحوبها بسبب القلق.

قال أوتو:

- لقد أنقذني السنيور. علّمني كل شيء. وهكذا أرد له الدَّين.

ريزيكي...

قالت مارين:

- جاك من فعلها، وليس أنت. ولم يكن هناك دَيْن من البداية. لقد اشتراك أخي لمتعته الخاصة.

رمت كورنليا قِدراً ثقيلة في الحوض، فأحدث ذلك صوتاً خافتاً.

قال أوتو:

- لقد أعطاني وظيفة، يا مدام.

غمست مارين قطعة خبز في دهن اللحم، لكنها لم تأكل. وحارت نيلا في تحديد مزاجها. بدت عازمة ألا تتأثر بما حدث، لكنها عصبية كعادتها.

قالت مارين بصوت غاضب:

- الفتى حيٌّ يُرزق. أنت لم تقتل أحداً. سينشغل يوهانس بريزيكي أكثر من انشغاله بك.

وكأن التصريح لطم أوتو في صدره. يقول:

- لقد عرّضتكم إلى الخطر. عرّضتكم جميعاً إلى الخطر.

تمد مارين يدها إلى يد أوتو في مشهد استثنائي، أصابعهما، الداكنة والفاتحة معاً، وعجزت كورنليا عن تحويل عينيها. انسحب أوتو وراح يصعد سلَّم المطبخ، بينما مارين تلاحقه بوجه ممتقع، وعينين مرهقتين. ثم قالت، بصوت يكاد يصبح همساً:

- بترونيلا، تحتاجين إلى تبديل ملابسك.

- لماذا؟ ما خطبي؟

أشارت مارين إليها، وعندما تخفض نيلا عينيها، ترى مشدها وقميصها ملطخين بالبقع البنية التي خلفها الدم الإنجليزي.

***

في الأعلى، جلست نيلا مُرتجفة في ثيابها الداخلية، بينما كورنيليا تنظفها بالإسفنجة من البقع التي خلّفها جاك. وعندما تُلبس نيلا رداءها، تستأذن الخادم في الانصراف، قائلة:

- أشعر بالقلق على أوتو، يا مدام. إنه لا يملك أحداً آخر يتحدث إليه.

- عليكِ الذهاب إذن.

تشعر بالارتياح لأنها صارت بمفردها. جسدها يوجعها من توتر الصباح، من أثر تشبث جاك بذراعيها. تناولت الدمية التي على شكلها من بيت الدمى، التي كانت مستلقية بجمود في المطبخ المُصغّر، وضغطت على جسدها الصغير، وكأنها بذلك ستُبعد الألم. عندما تعتصر دميتها بقوة تشعر بألم في ضلوعها، ولوهلة يُخيَّل إليها ألا فارق بين نسختها بيد صانعة الدمى وبين ضلوعها الحقيقية. وتتساءل، لأني ماذا أكون، سوى صنيع خيالي؟ إلا أن الوجه الذي بحجم حبة فاصولياء ينظر إليها، ولا يفصح عن شيء، بينما تبقى نيلا في بلبلة وبقايا حزن.

على فراش نيلا، استقر الطرد الذي أرسلته صانعة الدُمى مع جاك منذ بضع ساعات فقط. كادت تتركه تحت الكرسي في الدهليز، غير واثقة من رغبتها في فتحه، والآن، بينما هي تتأمله من جديد، تغلغل في داخلها خوف جعل جسدها يتعرّق. ولكن من هناك غيرها ليفتح هذه الطرود؟ لم تتحمل أن يكون

هناك آخر.

لو أن صانعة الدُمى معلمة غريبة ترفض أن تتوقف، فإن نيلا تشعر بأنها أكثر التلامذة عزوفاً. لقد أخفقت في فهم ما تعنيه هذه الدروس. إنها تلهف إلى قطعة واحدة فقط تفسّر ما تريده منها صانعة الدُمى. وإذ تفتح الرزمة، تجد أنها لا تحوي سوى قطعة واحدة.

في راحة يدها يستكين لوح فيركيرشپيل المنمنم. مثلثاته لم ترسم فحسب، بل شُكِّلت بالخشب - وهناك قطع لعب أيضاً، في صرّة منمنمة. تكشف راحتها أنها بدور كزبرة مقسومة، ومطلية بالأسود والأحمر.

ألقت نيلا باللوح، وبحثت في جيبي تنورتها، عن الخطاب الطويل الذي كتبته هذا الصباح فقط، مُوجَّهاً إلى صانعة الدُمى، وتطلب فيه لوح فيركيرشپيل، لم يعد هناك. تفكِّر، لكنه كان معي. كان معي اليوم. تعقَّبتُ أوتو إلى الكنيسة، وشعرتُ به في جيبي، وحادثتُ آغنس، وعدتُ راكضة لأجد جاك بزرع البهو. وبعدها، كانت كل فكرة عنه قد نُسيت.

تلاشى الوقت، لا وزن للساعات عندما تنسلُّ من بين يديك. تقلب نيلا العلبة فتقع منها ورقة.

نيلا: إن اللفت لا يمكن أن ينمو

في تربة زرعُها التوليب

لقد استخدمت اسمي، هكذا فكرت نيلا، المسرة الشخصية التي يحدثها هذا الأمر تذوب سريعاً في غرابة العبارة التي تليها. شعرت بحرج يتسلل إليها، هل تقصد صانعة الدُمى أنني لفت؟ اللفت والتوليب ظاهرتان طبيعيتان مختلفتان تماماً - الأولى

عملية وبسيطة في تصميمها، والأخرى زخرفيّة يهندسها البشر.

لمست نيلا وجهها لا شعورياً، وكأن الكآبة الأنيقة ستحول خديها إلى ثمرة جذرية ثخينة ومكتنزة، خضار مملّ من أسدلفت. أما صانعة الدُمى فهي الذكية، البهيّة والزاهية، نفوذها يسرق العين. تتساءل نيلا، هل هذه طريقتها في نصحي بالابتعاد، إخباري أنني لن أفهم أبداً؟

وإذ تمدُّ يدها داخل بيت دماها، تأخذ نيلا دمية جاك وتنزع معطفه الجلدي، ثم تسحب واحدة من سكاكين السمك المنمنمة بين سبابتها وإبهامها، وتغرزها في مقدمة صدره كدبوس، قريباً من العنق بدرجة تكفي لاختناقه. دخول السكين يمنحها شعوراً بالرضى، وهي تنساب في الجسم الطري، سهماً فضياً ناتئاً.

عندما أعادت جاك إلى بيت الدمى، وقد صارت دميته الآن تعكس موقفهم الرهيب بصورة أدق، تناولت نيلا الدمية التي تعيد لها الذكرى المؤلمة لجسد ريزيكي. قالت للدمية الصغيرة: كان يجدر بيوهانس أن يأخذكِ معه. كيف تُراه سيكون إخباره بما حدث لكلبته المقرّبة؟ سوف أقدِّم هذه المنمنمة تذكاراً عن حياتها، هكذا تفكر، عندما تطرأ ببالها فكرة تستجلب ذنباً أكبر. هذه الدمية ستذكر زوجي بمن هو جاك حقاً.

مسدت على رأس الكلبة، فتجمدت أصابعها بين الشعيرات على مؤخرة عنقها. فهناك، على الجسد الصغير، علامة حمراء غير مستوية تشبه الصليب. انتقلت نيلا إلى النافذة، إنها واضحة، بلون الصدأ. بدأ قلبها في الخفقان، ويجف حلقها. إنها لا تتذكر إن كانت العلامة هناك من البداية. لم تتفحصها عن قرب.

ربما كانت مصادفة، ربما أوقعت صانعة الدُمى لوناً أحمر على

رأس الكلبة في أثناء تحركها بالفرشاة؟ ربما لم تلحظ غلطتها، فتركت الخطوط الرفيعة تنتشر على منحنى الجمجمة. استلقى أنموذج ريزيكي في كف نيلا، رأسها واضح التفاصيل، والعلامة في مؤخرة عنقها تعميد مُخيف. الغرفة باردة، لكن جسد ريزيكي الموسوم هو ما يبعث قشعريرة في العمود الفقري لنيلا.

حاولت التحكم في مسار أفكارها. لا يبدو أن صانعة الدُمى كانت تعرف بما سيُقدم عليه أوتو من دفع ذلك الخنجر في كتف جاك، لأن دمية جاك وصلت من دون علامات. كان عليّ أن أخبرها بتلك القصة. فهل هذه القطع أصداء أم تنبؤات، أم هي ببساطة تخمين مُوفّق؟

قالت لنفسها: "يجب أن تذهبي إلى الكالفرسترات. لا مفرّ هذه المرة، وهذه المرة، لن تغادري حتى تخرج صانعة الدُمى من منزلها. حتى إن اضطررتِ للوقوف هناك طوال اليوم مع وجه الحفرة.

أعادت نيلا الكلبة إلى بيت الدمى، ونقاش كورنليا ومارين حول الأوثان الكاثوليكية يتردد في عقلها. قالت كورنليا: " إنه لا أحد يمكنه الجزم بأن هذه الأشياء لن تنبثق فيها الحياة" وها هي دمية ريزيكي تشع بطاقة تعجز نيلا عن تحديدها. وبيت الدمى نفسه، الإطار الخشبي وكأنه يتوهج، الزخرفة شديدة الثراء، التصميم الداخلي شديد الفخامة. حدّقت نيلا في دميتها المُتشبثة بالقفص الصغير، ذلك السجن المذهب الذي لا يحوي شيئاً. وراحت في سرّها تتلو العبارات التي سبق لصانعة الدُمى أن أرسلتها " لا شيء يبقى على حاله. كل امرأة هي مهندسة حظها. أحارب لأظهر"

تساءلت نيلا، ولكن من الذي يحارب ليظهر هنا؟ ومن

هي المهندسة، صانعة الدُّمى، أم أنا؟ السؤال القديم المفتوح عاد ليطرح نفسه: لماذا تفعل هذه المرأة هذا؟ إن صانعة الدمى تعيش، مجهولة الاسم، في عزلة من المجتمع، متحررة من قواعده، لكننا جميعاً، لفتاً أم توليباً، مسؤولون أمام شخص ما في النهاية. ريزبكي ماتت وبيبو اختفى، وجاك طليق وسُكَّر آغنس مُهمل في الجزر الشرقية، يتناهى لنيلا شعور بفوضى قادمة، وكل ما تتوق إليه هو شيء من التحكم.

على صانعة الدُّمى أن تساعدها. صانعة الدُّمى هي من تعرف. كل من في هذا المنزل يُعجزه الخوف عن فعل شيء عدا رمي الدمى من النوافذ، لكن هذا لا يأتي بفائدة. أحضرت نيلا قلماً وورقة.

وتكتب، المدام العزيزة،

إن اللفت ينمو تحت الأرض، بينما التوليب يزدهر فوقها. الثاني يُمتِّع العين، بينما الأول يغذي الجسد، لكن كلا الخلقين يستفيدان من التربة. كل منهما يمتلك نفعاً بذاته، وليس أحدهما بأثمن من الآخر.

تتردد نيلا - ثم، عاجزة عن كبح نفسها، تكتب - وبتلات التوليب ستتساقط، يا مدام. ستتساقط قبل وقت طويل من خروج اللفت من الأرض، وهنًا لكنه منتصر.

تخشى نيلا أنها كانت وقحة أكثر من اللازم، وواضحة أكثر من اللازم. تضيف، أخبريني، ماذا يجب أن أفعل؟

ثم وضعت قلمها، مع شعور طفيف بالسخافة مع كل هذا الحديث عن النباتات، لكنها مصحوبة بذعر من فكرة أن صانعة الدُّمى كانت تعرف منذ البداية ما سيحدث لكلبة يوهانس.

قبل هذه العلامة على رقبة ريزيكي، كانت نيلا تعدّها مُراقِبة، مُطلّة، مفسّرة، لكن هذا، حسناً، إن هذا أشبه بالتنبؤ. ماذا تعرف أيضاً، ماذا يمكنها أيضاً أن تمنع؟ أو ما هو أسوأ، علامَ هي مُصمّمة أن يحدث؟

***

قرب الفجر من صباح اليوم التالي، تتسلل نيلا من غرفتها، وفي جيب عباءتها رسالتها الرابعة لصانعة الدمى. تفكر، سأحافظ عليها هذه المرة، إلى أن أضعها بنفسي في كفها. إنها أكثر من خائفة أمام ما قد تكتشفه في الكالفرستراات، وجهاً لوجه أخيراً مع المرأة التي لا ترصد فقط عالمها، بل وكأنما هي أيضاً تبنيه.

وإذ تمسك الشمعدان بيد، تسحب نيلا بالأخرى في بطء مزلاج الباب الأمامي. عندما تفتح الباب، مسرورة بالضوء الباهت الذي يبزغ في أفق السماء، تسمع صوت قعقعة خفيفة من أعماق المنزل. تتجمّد، وتستمر القعقعة. وإذ تنظر إلى امتداد شارع القناة ثم تلتفت نحو المطبخ، تشعر نيلا بأنها ممزقة إلى نصفين. تفكر، دائماً، دائماً عندما يحين الوقت لمقابلة صانعة الدمى، لا يتوانى هذا المنزل عن إعادتي إليه.

تفوز قعقعة المنزل بفضولها الفطري. إنه أكثر إلحاحاً من أن يسعها تجاهله. لقد طال الوقت وأنا أسمع هذه الهمسات والأصوات، هكذا فكرت، وهي تغلق الباب، وتنزل الدَّرج على رؤوس أصابعها، وتدخل مطبخ التقديم في محاولة لتعقب الصوت. الأطباق المستديرة، المايوليكا والدلفت والأواني الصينية، تلمع في الصوان الضخم كصفوف من أعين مفتوحة في أثناء مرورها بشمعتها الوحيدة.

تتوقف قليلاً، فتشم الهواء. رائحة معدنيّة، تربة مبللة، صوت

أنفاس ثقيلة. وفوراً، تفكر في ريزيكي. لقد عادت إلى الحياة، صانعة الدمى هنا، لقد أعادت ريزيكي إلى الحياة. ببطء، تسير نيلا في الممر الضيق الذي يفصل بين مطبخي الخدمة والتقديم، نحو الباب الصغير في نهايته حيث تُخزّن براميل الجعّة والخلل. تزداد حدة الرائحة، متخثّرة على ظهر لسانها. إنها رائحة دم، واضحة الآن. أصبحت الأنفاس أعلى.

توقفت نيلا، وأصابعها على مقبض الباب، اعتقاد كابوسي أن ريزيكي خلفه، أنها بأرجلها الطويلة قد شقت طريقها خارج الكيس وهي الآن تخمش الباب ليفتح لها أحدهم. ابتلعت نيلا لعابها وهي تدفع باب القبو، مرتعبة حتى النخاع.

في الداخل تقف مارين، مُشمّرة الكمّين، وعلى الطاولة إلى جوارها قنديل ضعيف. وإلى جوار القنديل صف من الخرق البيضاء، والتي يبدو أنها تزيل عنها دماً.

- ماذا تفعلين؟ تسألها نيلا، والارتياح يغمر جسدها على الرغم من الارتباك الذي يصارعه أمام هذا المشهد الجديد الغريب. - ماذا تفعلين بحق السماء؟

- اخرجي، قالت مارين بصوت يشبه الفحيح. هل تسمعينني؟ اخرجي.

تراجعت نيلا، مأخوذة بالضراوة في صوت مارين، والغضب الذي يلوي وجهها، ولطخة الدم الصادمة على خدها. وإذ تصفق باب القبو، تتخبط على سلم المطبخ إلى الدهليز. تمتزج في عين عقلها العلامة الحمراء في دمية ريزيكي بملابس مارين الملطخة بالدماء، بينما تعثر عبر الباب الأمامي وتنزل السلم إلى أحضان الفجر.

أسلحة حلوة

ما يزال الكالفرسترات، بامتداده الطويل من الباعة والضوضاء، هادئاً نسبياً. بين الحين والآخر يجرّ بائع فواكه عربة يد، ويُفتِّش قط برتقالي جريء، بين عظام الحيوانات التي لم تتمكن من الوصول إلى القناة في الليلة السابقة. تلمع عيناه الصفراوان في وجه نيلا وهو يمط جسده السمين الشاهد على مهارة بحثه.

وجدت نيلا لافتة الشمس. وقفت أمامها، تشمُّ الهواء الرطب، وبقايا الضباب، ورائحة النفايات المغطاة في عجالة بالقش. طرقت الباب، طرقاً حاداً واثقاً، وانتظرت. لا أحد يأتي. لكنني سأنتظر، يا مدام توليب، هكذا تفكر، وهي تربت على الرسالة في جيبها. سأنتظر وأنتظر إلى أن أحصل على جوابي.

عادت خطوة إلى الوراء، وهي تنظر إلى النوافذ الأربع، الشمس الذهبية والعبارة المحفورة أسفلها. كل شيء يراه الإنسان يظنُّه لعبة. بدت عبارة ساخرة، وتستنفر نيلا. تفكر، لستُ أنا كذلك. لم أعد أفعل على الأقل. لا شيء يسلي أو يطمئن في المنمنمة التي صنعتها لبيو، أو ريزيكي وندبتها الدموية.

صرخت على الرغم من الساعة المبكرة: "أعلم أنكِ هناك. ماذا يجب أن أفعل؟"

وفي الحال، فُتح باب خلفها. استدارت، فرأت رجلاً بديناً يرتدي مئزراً. وجهه مربوع، وكرشه يبرز من جسده بمسافة

كبيرة، ويقف ويداه على وركيه. من خلفه، غرفة هادئة صغيرة تظهر منها لفّات طويلة معلقة من الصوف غير المصبوغ وعدد من جلود الغنم مثبتة بمسامير إلى الجدران.

- يا فتاة، لا داعي أن يصل صراخكِ إلى مدينة أنويرب.

-المعذرة، يا سيدي. جئتُ لمقابلة صانعة الدُّمى.

رفع الرجل حاجبيه.

- صانعة ماذا؟

رفعت عينيها إلى المنزل مجدداً، فقال الرجل بصوت ألطف:

- آه. هي. لن تجيبكِ. لا فائدة من المحاولة.

عادت نيلا لمواجهته:

- هكذا قيل لي. لكنني لا أمانع في الانتظار.

نظر بطرف عينيه إلى المنزل:

- حسناً، ستموتين من البرد في أثناء ذلك، لأنه لا يوجد أحد في هذا المنزل منذ أكثر من أسبوع.

أصاب معدة نيلا أسى صغير. وقالت:

- هذا مستحيل. بالأمس فقط، أرسلت...

- ما اسمك؟ يسألها بائع الصوف.

- لماذا؟

- ربما أحمل لكِ شيئاً.

- اسمي... سكتت قليلاً... بترونيلا براندت.

-انتظري. عاد للاختفاء في عتمة متجره. ثم خرج ثانية،

حاملاً علبة صغيرة في يده، موسومة بعلامة الشمس، وأردف: تُركت على عتبة الباب المقابل. فكرتُ أن قطةً ربما تستولي عليها. يبدو أن صبيّها الإنجليزي قد توقف عن توصيل الطلبات، لذا احتفظتُ بها عندي.

وضعها في كف نيلا الممدودة، ثم رفع عينيه إلى الشمس المصقولة التي حُفرت فوق باب صانعة الدمى، وسأل:

- ما الذي يعنيه أصلاً؟ كل شيء يراه الإنسان، فإنه يظنّه لعبة؟

- أي أننا نحسب أنفسنا عمالقة، لكننا لسنا كذلك.

رفع حاجبيه:

- فهمت. يجدر بي ألا أبالغ في تقدير نفسي، أليس كذلك؟

- مطلقاً، يا سيدي. الأمر وما فيه أن الأشياء، ليست دائماً كما تبدو.

- إنني عملاق بما يكفي. ضحك بائع الصوف، مادًّا ذراعيه: واثقاً جداً من ذلك.

ابتسمت نيلا بوهن، ونظرت إلى عتمة متجره، مُحكِمة قبضتها على الرزمة:

- هل تستأجر رجلاً على وجهه آثار جدري؟

- آه، نعم. نقل الصوف لأسبوعين ثم رحل فجأة.

- لماذا رحل؟

- شيء أخافه.

- أخافه؟

- إلى درجة الرعب، هرب ليلاً. الرب وحده يعلم ما أصابه."

من مسافة قريبة، يأتي صوت مسير، طرم-طرم في شارع الكالفرسترات. عاد بائع الصوف إلى داخل محله. يتمتم، وهو يُنزل المصراع الأمامي:

- ميليشيا سانت جورج. ابتعدي عن الطريق، يا فتاة، أو يدهسونك.

تقول نهلا، وقد ثار غضبها:

- مهلاً إلى أين ذَهَبَتْ؟ هل رأيتها تذهب؟

لكن ميليشيا سانت جورج تلوح في الأفق، والقط أصفر العينين يبتعد مهرولاً في الوقت المناسب. كان الحرس جميعهم قد أحاطوا صدورهم العريضة بشرائط حمراء، انعكست عليها أشعة شمس الشتاء فصارت كتياراً من الدم. أحذيتهم المزودة بواق معدني تحك الطريق، وأسلحتهم الهائجة تقعقع على جنباتهم طبنجات ذات بريق لؤلؤي وبنادق مُدلاة ليراها الجميع.

رأت نهلا فرانس ميرماتز بين جموعهم، صدره بارز، ووجهه متجهم ينظر نحو علامة الشمس. نادته: "سنيور؟" وعند رؤيتها أشاح بوجهه، ضاماً رمحه إلى صدره. ابتعدوا، تتبعهم سحابة من الغبار، في خطى جاهدة نحو صباح أمستردام.

غرق الشارع في الصمت، وتلاحظ نهلا كم أصبحت أصابع قدميها خدرة في البرد. تُمزّق غلاف الرزمة، حانقة من فظاظة فرانس ميرماتز، ساخطة من صانعة الدُمى للتملص منها هذه المرة أيضاً. فكرت، في كل مرة ألتمس مقابلتها، ينتهي بي الأمر وحيدة.

لكن إحباطها يتبدَّل إلى بهجة، لأنها وجدت في الداخل مجموعة من الكمكات والمعجنات الصغيرة. فطائر صغيرة ووافل بقسيمة مضلعة، وبسكويت زنجبيل على هيئة إنسان، وأولي كوكي مرشوش بمسحوق أبيض، مدوَّراً وشهيَّ المنظر. تبدو وكأنها مصنوعة من عجين حقيقي، ولكن عندما لمستها نيلا، وجدتها يابسة لا تنثني. وجدت رسالة أخرى، مكتوبة على الورق أسفلهم:

لا تتركي الأسلحة الحلوة تضيع

نظرت نيلا إلى نوافذ المنزل. وصاحت، وهي تمرِّر رسالتها المُتوسلة من تحت باب صانعة الدُّمى: "الأسلحة الحلوة؟" يتحرك ضوء الصباح فوق ألواح النوافذ، مخفية أسرار صانعة الدُّمى. خفضت نيلا عينيها إلى هذه الأطعمة الشهية المزيفة، تكاد تغريها رغبة في رميها في أقرب قناة مائية. ماذا تعني المرأة بهذه القطع؟ تفكر نيلا، لا حرب انتصر فيها المرء قط، أمام ترسانة من ملذات الحلوى،

الفراغ المتروك

عندما عادت نيلا إلى المنزل، وجدت كورنيليا في انتظارها عند الباب.

رأت النظرة المنكوبة على وجه الخادم، فسألتها:

- ما الأمر؟

همست كورنيليا:

- السنيور. لقد عاد من فينيسيا. وما فتئ يسأل أين ريزيكي.

- ماذا؟ شعرت نيلا بالهواء يثقل، وتغرز شوكة خوف في حلقها. تخيّل جسد ريزيكي الملطخ بالدماء ينتظر في القبو، ويوهانس، الذي يجهل الأمر، ينتظر وقع خطى قدميها المتناسقتين.

قالت كورنيليا بنبرة توسل:

- أنتِ من يجب أن يخبره، يا مدام. أنا لا أستطيع.

أغلقت نيلا الباب الأمامي بحرص، وهي تُجري عينيها على الأرضية، مطمئنة ألا أثر يُرى للدماء. كانت كورنيليا قد مسحت ومسحت، مُغرِقة البلاط في الخل وعصير الليمون، دلاء من الماء المغلي والقِلْي فوق البقع. وفي المقابل، كان محال في بيت الدمى بالأعلى، إزالة العلامة التي تشبه الصليب من على رأس ريزيكي المنمنم.

سألت:

- ولكن لماذا أنا، يا كورنيليا؟

-أنتِ قوية، يا مدام. إنكِ خير من يخبره.

لا تشعر نيلا بأنها قويّة، بل تشعر أنها غير مهيأة لذلك، مُتهيّبة من القصة التي سيتعين عليها إخبارها. فكرت، كنتُ في حاجة فقط إلى مزيد من الوقت لأجمّل هذه الحقيقة في إطار من كذبة ما. كيف قد يبدأ أي شخص محادثة كهذه؟

كان يوهانس يقف في منتصف الصالون، قد استقرّت عيناه على إطار الصورة المجوف والمتكئ على الرسوم الجدارية التي تمتد على الحائط كله. كان قد أحضر معه بِساطَين، نسيجين سميكين بأشكال هندسية. فكرت نيلا، إن لديهم عشرين أو ثلاثين من هذه الجداريات. فما الغرض من الزيادة؟ كانت الغرفة شديدة البرودة، وهو ما يزال في عباءة سفره.

فوجئ بعيني يوهانس تُشرقان. إن زوجها يبدو في الواقع مسروراً برؤيتها.

قالت:

- يوهانس، عدتَ سالماً. هل كانت فينيسيا، مُسلِّية؟" ترددت في سمعها هولندية جاك المعوجّة- سمك أكثر طزاجة.

شم يوهانس الهواء، مُجعّداً أنفه أمام رائحة الخل المُتخلِّفة التي تهبّ من البهو. صلت نيلا أن تطغى عليها سريعاً روائح طهي كورنيليا.

يقول: "كانت فينيسيا هي فينيسيا. وكان الفينيسيون ثرثارين. وكان هناك من الرقص ما يفوق قدرة ركبتيّ".

وأمام ذهولها، ضمّها في عناق كبير. رأس نيلا لا يتجاوز عظمة صدر يوهانس، وهو يضغط أذنها حيث تشعر بضربات

قلبه. وإذ يغرز ذقنه في الجزء العلوي من رأسها، تجد العناق الغريب راحة غير متوقعة. إنها لم تلمس من يوهانس هذا القدر من قبل. تبدأ قدماها في الارتفاع عن الأرض وكأنها تتشبث بطوق نجاة. عندما تغلق عينيها، يتراءى لها وجه ريزيكي الملطخ بالدماء، ومهما تضغط جفنيها لا تذهب الصورة.

- إنني سعيد برؤيتكِ، يا نيلا. قال قبل أن ينزلها: لماذا لا نار في هذه الغرفة؟" ثم ينادي: أوتو!

أجابت:

- وأنا أيضاً سعيدة، يا يوهانس، وعقلها يحاول الإمساك بالكلمات التي ما انفكّت تفلت كلما شعرت بإقبالها. "أنا - هلّا جلسنا؟"

يتهاوى على كرسي مع تنهيدة، ظلت نيلا واقفة.

سألها:

- ما الخطب؟ ويُخيَّل إليها أن القلق في صوته سيفطرها.

اندفعت قائلة:

- لا شيء، يا يوهانس. هناك... أنا ... آغنس كانت غاضبة مني. إنها لا تستطيع فعلها، لا تستطيع قول الكلمات. اختيار موضوع آغنس ميرمانز أسهل من إبلاغه بخبر كليته الحبيبة.

اكفهّرت ملامح يوهانس. "ولماذا كانت آغنس غاضبة؟"

- أنا، رأيتها في الكنيسة القديمة. قالت إن كل سكرهم ما يزال في المستودع. وإنه ربما يصبح بلورات.

وضع يوهانس يده أسفل ذقنه:

- لا تملك الحق في التحدث إليكِ بهذه الطريقة.

ظهر أوتو على عتبة الصالون، حاملاً سلة من الخث، تردد، وهو لا يكاد يستطيع رفع عينيه.

قال يوهانس:

- آه، النار. ادخل، يا أوتو، وأدفئنا.

- سنيور، مرحباً بك في بيتك.

- ماذا تطبخ كورنليا؟

- نقانق كبد الخنزير مع الشعير، يا سنيور.

- أكلتي المفضلة في كانون الأول! أتساءل ماذا فعلتُ لأستحقها. ابتسم يوهانس، وهو يشمُّ الهواء ثانية، ويمرر يده على الإطار المجوف: ما الذي حدث هنا؟ كانت هذه واحدة من لوحاتي المفضلة.

كاد لون أوتو يصبح رمادياً في الضوء الخفيف، رمقه يوهانس بنظرة نافذة.

تقول نيلا:

- حادث.

- فهمت. حسناً، ضع حطباً كثيراً، يا أوتو. إن قدمي من البرودة تكادان أن تسقطا.

استدارت نيلا، فرأت مارين واقفة عند الباب. وجهها ممتقع، ترددت قبل أن تنسلَّ إلى الداخل، ملتزمة الحائط.

- كم مخروط سكر بعت في فينيسيا؟

- اجعلها ناراً كبيرة، يا أوتو.

- أخي، كم بعنا؟

وضع يوهانس الإطار المجوف في وضع قائم على حجره، فأحاط الإطار بالجزء العلوي من جسده، أومأ داخل التجويف. اختار وضعية الحاكم المغرور، وقال:

- كان راكداً كما توقعتُ له. كان الأفضل أن أذهب في العام الجديد.

- ربما يجدر بك إذن أن تشعل النار الهائلة، التي تريدها عندما يُباع السكر فعلاً؟ بدا أن صمت يوهانس الذي يعقب ذلك يثير سخط أخته. "اَلْمُولَعُ بِالْكَسْبِ يُكَدِّرُ بَيْتَهُ."

- استقبالكِ يزداد سوءاً، يا مارين. أنتِ من زجَّ بي على متن سفينة إلى إيطاليا في أقسى أيام الشتاء. لا تحدثيني عن الطمع، ورجاء، كفاكِ استشهاداً من الكتاب المقدس، صار الأمر مُضجراً، نظراً إلى تدينكِ المشبوه.

أطلقت مارين ضحكة، صوت غريب يشق الهواء:

- أنت من يثير الاستفزاز باستمرار، ولستُ أنا.

نزع عباءة سفره، وألقى بها في كومة، وقال:

- كفى حديثاً عن هذا المنزل وكأنه ملككِ. إنه ملك بترونيلا.

انطلقت هذه الكلمات في الهواء كصاعقة نحو نيلا، لكن مارين حدّقت فيه في ذهول، ثم قالت:

- هو لبترونيلا إذن.

بهذه السهولة؟ هكذا فكرت نيلا، وهي تلتفتُ إليها. إن هذا غير ممكن، لا يعقل أن مارين تعني ما تقول.

- لقد ضيّعتُ حياتي بأكلها في تسيير أموره. قالت مارين، وهي تخطو نحو شقيقها: نحن لسنا أكثر من أسرى لرغباتك.

تنهد يوهانس، وهو يرفع كفيه إلى النار ملتمساً الدفء لنفسه: أسرى! والتفت إلى أوتو، الذي يجثو على الجهة الأخرى من اللهب المتصاعد: أوتو، هل تشعر كأنك أسير؟

ابتلع أوتو لعابه، صوته أقرب إلى الهمس:

- لا، يا سنيور.

- نيلا، هل أغلق عليكِ بالقفل والمفتاح؟

أجابت نيلا:

- كلا، يا يوهانس. وإن كانت تلك الليالي الخاوية في انتظار مجيئك قد بدت أقرب للسجن: هكذا تُفكِّر. ترغب في أن تكون في غرفتها الآن، وحدها، مدفونة تحت الشراشف.

- هذا المنزل هو المكان الوحيد الذي يتمتع فيه كل منا بحريته. مال يوهانس في كرسيه ووضع رأسه بين يديه: وأنتِ، يا مارين، من بين كل الناس لا يمكنك إنكار ذلك.

انفجرت مارين:

- لا تكن أحمق. تبدو هذه المشادّة لنيلا وكأن فتيلها جاهز للاشتعال، وكالنار متصاعد حرارتها سريعاً: أنت أناني جداً. بإمكانك الاحتفاظ بي هنا، بينما أنت لا تكلف نفسك إلا عناء قليلاً لإخفاء الأشياء التي تفعلها."

رفع يوهانس عينيه إلى أخته. رأت نيلا كم هو منهك، وجهه متهدل، وعيناه قاتمتان. وقال:

- تظنين أنه يوافقني، هل تلك هي القصة التي تخبرين بها

نفسك؟ مارين، لقد تزوجتُ طفلة، مُعارضاً رغبات روحي، وقد فعلتها من أجلك.

"لستُ طفلة،" هكذا همست نيلا، وهي تغوص في كرسي أخيراً من قوة كلماته. ومن جانب آخر، فهي تشعر فعلاً كطفلة. كان يوهانس قد حوّلها في لحظة، فصارت الآن تريد أمها، تريد شخصاً يلحظ ألمها، وآخر يُبعد جسد ريزبكي.

- لا شيء تغير، قالت مارين، متجاهلة استجداء يوهانس: موقفك المستهتر نحو سكر ميرمانز، نحو مستقبلنا...

ركل يوهانس الإطار المجوف فتكسّر، زاحفاً عبر الأرضية المصقولة في اللحظة نفسها التي دخلت كورنيليا، مرفوعة الكمّين، وعلى جبينها عرق. حاملة صينية من النبيذ والخبز، حدّقت الخادم في الإطار المُهشّم، وهي تتردد عند الباب.

قال يوهانس:

- إنكِ لم تُجبَري قط على تقديم تنازلات!

- بل هو كل ما فعلته طوال حياتي. تظن في مقدورك شراء الأشياء المعنوية، يا يوهانس. الصمت، الولاء، أرواح الناس...

- سوف يفاجئكِ...

- أخبرني إذن، ماذا يحدث عندما يضبطونك فعلاً؟ ماذا يحدث عندما يكتشف رؤساء البلديّة حقيقتك؟

بدا أوتو وكأنه يغصُّ بأنفاسه.

قال يوهانس:

- إنني أثرى من أن يقترب مني رؤساء البلديّة الملاعين.

- لا... بدا صوت مارين قاسياً: "لا. إنك لا تعير انتباهاً. أنا من يراجع دفاتر الحسابات. أنا من يفعل، ودعني أخبرك أن القصة التي تحكيها الدفاتر هي قصة مؤسفة حقاً.

نهض يوهانس من كرسيه، وكأنما كل شبر منه يتجمّد بالتدريج، فيما كلمات مارين تتألب عليه مع ثلاثين عاماً من السلاسة الممتهنة.

- لطالما اعتقدتِ أنكِ مختلفة، أليس كذلك، يا مارين – عدم زواجك، تدخلكِ في عملي. هل حقاً تظنين، أنكِ ببضعة خرائط لجزر الهند الشرقية على حائط غرفتك، وبضعة كتب عن السفر، وعنبات متعفنة، وجماجم حيوانات، تعرفين كيف تبدو الحياة هناك؟ ماذا أفعل لضمان رفاهيتك؟ بل أنتِ من لا تعرفين شيئاً.

حدقت مارين فيه، وقالت:

- أحمل لك أخبارًا سيئة.

لا، هكذا فكرت نيلا. ليس بهذه الطريقة. أسقط أوتو قطعة كبيرة من الخث على ألواح الأرضية. وتناثر فتاتها الأسود فوق الخشب.

- إن رؤساء البلديّة يجلدون امرأة عزباء مثلكِ إن استطاعوا! تزلّف يوهانس، وهو يتقدم نحوها: كل ما كان عليكِ فعله، يا مارين، أن تتزوجي من رجل ثري، رجل ملائم، آه، يا إلهي، أن تتزوجي وحسب– لم تنجحي حتى في تحقيق ذلك. لقد حاولنا، صحيح؟ حاولنا تزويجك، ولكن تبيّن أن كل جِلدرات أمستردام لم تكن كافية...

ارتفع من حلق مارين صوت قاتم وأجش، فمها ملتو، وقد

ارتسمت على وجهها بوضوح سنوات من الإحباط:

- هل تسمعني، يا يوهانس؟

- كنتِ ألماً عديم النفع، عديم الأصدقاء منذ أن ولدتِ...

- لقد جاء رجلك الإنجليزي يطرق بابنا في الأمس. عثة ماخورك. وهل تعرف ماذا فعل؟

صرخت نيلا:

- لا!

- بسببه، ماتت حبيبتك ريزيكي.

تجمد يوهانس في مكانه:

- ماذا قلتِ؟

- لقد سمعتني.

- ماذا؟ ماذا قلتِ؟

- غرز جاك فيليبس خنجراً في رقبتها وسط دهليز منزلك. لقد حذرتك. أخبرتك أنه خطر."

تراجع يوهانس ببطء شديد نحو الكرسي، وجلس عليه بحذر غريب، وكأنه لا يأمن لمسة الخشب، وقال:

- إنكِ تكذبين.

- لولا أوتو، لربما كان قتلنا جميعاً.

تصيح نيلا: "مارين! كفى!"

نقل يوهانس عينيه إلى زوجه:

- هل كلامها صحيح يا نيلا؟ أم أنّ شقيقتي تكذب؟

فتحت نهلا فمها لتجيب، لكن لا كلمات تأتي. وأمام تعبير وجهها، غطى يوهانس فمه كمن يكتم صرخة.

نهض أوتو من أمام النار عيناه مغرورقتان بالدموع:

- كان يحمل خنجراً، يا سنيور. ظننته سوف... لم أقصد قط...

قاطعته مارين:

- إن جاك لم يمت، يا يوهانس. كان أوتو أرحم منه. رجلُك الإنجليزي الصغير نهض ورحل على قدميه، ووضعت زوجك جثة ريزيكي في القبو.

- أوتو؟ نطق يوهانس اسم خادمه مثل سؤال لا يحتمل أن يطرحه، وسقطت يده عن فمه، فراغاً خالصاً ينتظر موجة الحزن.

همست نهلا:

- لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة... لكن يوهانس، وقد حلّت فيه طاقة غريبة، اندفع متجاوزاً شقيقته، وكورنيليا، التي أخرستها الصدمة عند الباب. سمعوا صوت تعثره عبر الدهليز، ثم على سلم المطبخ. لحقت به نهلا، وسمعته يفتح باب القبو. فاجعة يوهانس يتردد صداها في الممر، يهتف: "فتاتي الحلوة. فتاتي الحلوة، فتاتي الحلوة. ماذا فعل بكِ؟"

قطعت نهلا المسافة المتبقية في خطى خافتة، مُقاومة رغبتها في التوقف، وجزء آخر منها يعرف أنها يجب أن تحاول مواساته. وجدت يوهانس راكعاً، يحتضن جسد الكلبة المُتخشِّب، الذي يتدلى نصفه من الجوال الملطخ بالدماء. يستقر رأس ريزيكي على ذراع سيدها، جرحها يلمع في الضوء الخافت، وأسنانها

مكشوفة في تكشيرة معوجّة.

همست نهلا: "أنا آسفة جداً،" لكن يوهانس كان عاجزاً عن النطق. يرفع عينيه إلى زوجه، عيناه دامعتان، متشبثاً بحبيبته غير مصدق.



بدا المنزل خلال اليومين التاليين، وكأنه يداوي نفسه في هدوء معلّق. التزمت مارين غرفتها، وتولت كورنليا تنظيم الصناديق الخيرية التي سيرسلونها إلى دور الأيتام في أعياد الميلاد، كان الكعك أصغر هذا العام، وفطائر اللحم أقل. تحاشى أوتو الجميع، ملتزماً الحديقة حيث يحرث التربة المتجمدة من دون ضرورة. قالت له كورنليا: "ستبعثر الجذور، يا توت،" لكنه يتجاهلها. شمت نيلا رائحة حساء كوارع يغلي، وسمعت احتكاك الأطباق وقرع المصافي مترافقاً مع بؤس كورنليا.

يخرج يوهانس خلال اليومين مساءً. لا أحد يسأله إلى أين، لأنهم يخشون الإجابة. في المساء التالي للمشاجرة، وقفت نيلا وحيدة في غرفتها، أمام بيت دماها، رفعت دمية آغنس إلى الضوء الآفل. في مكان ما في المنزل، تناهى إلى سمعها صوت شخص يتقيأ، ارتطام القيء بوعاء صفيح، وشوشات، الرائحة المنعشة لشاي النعناع لتهدئة معدة متعبة. هي أيضاً تود لو تتقيأ القلق الذي يقبع داخلها. ترجو أن يكون يوهانس في مستودع الجزر الشرقية، يعمل على بيع السكر، وإن كان سلوك آغنس في الكنيسة القديمة مستفزاً، إلى درجة لا تصدق معها نيلا أن السبب الوحيد لغضبها هو مستقبل محصولها.

وبينما تتأمل مُصغَّرة آغنس، شعرت نيلا برجفة تسري في ظهرها، وقشعريرة مفاجئة تنتشر في جلدها. كان رأس مخروط السكر الذي تحمله آغنس قد تحوّل كليًّا إلى اللون الأسود. صرخت محاولةً كشط البويغات، لكنها لطخت بقية المخروط

مثل عظام. تحاول نزع المخروط -وهي تفكر بدفنه في الحديقة، طمس طاقته- فينقصم، آخذاً معه يد آغنس الصغيرة.

رمت نيلا الدمية المشوهة إلى الأرض، وظلت اليد المبتورة بمخروطها التالف بين أصابعها. تمتمت: "أنا آسفة،" غير أكيدة لمن توجه اعتذارها، للدمية، لآغنس، لصانعة الدُمى. التلف الذي أصاب يد آغنس المُصغَّرة يبدو متعذر الإصلاح، وهو بطريقة ما ذنبها بالكامل.

كانت ستعزو السبب في هذه البويغات المتنمية إلى الطقس السيئ، لكن بيت الدمى في الطابق الأول، حيث الرطوبة ليست شديدة. ربما هو وسخ من المدخنة، لكن محتويات بيت الدمى بعيدة عنها كل البعد. كل هذه الاحتمالات المنطقية، لا أحد منها يبدو مناسباً. هل كانت هذه اللطخة السوداء، مثل وسم ريزيكي، موجودة منذ البداية، لكنها أصغر من أن تلاحظها العين؟ أم أنها ظهرت من المجهول، فتشبَّت استجابة لذعرها بسبب آغنس؟ لا، فكرت نيلا - "لا تكوني سخيفة إلى هذه الدرجة". كان تحذير آخر أغفلته. نظرت إلى بيت الدمى، إلى تشكيلة المخبوزات، والمهد، واللوحات، وأدوات المائدة، والكتب، وهي تتمنى لو أنها انتبهت أكثر عندما وصلت الدمى، والكلبتان في البداية. هل هناك يا تُرى قنابل صغيرة أخرى لا تستطيع رؤيتها، مُستعدة للانفجار؟

إن مارين تكره هذه الدمى لوثنيتها، لكن هذا المخروط المسوَّد، هذا الوسم الأحمر على رأس ريزيكي، هذه المنحوتات الاستثنائية، هي أكثر من مجرد أوثان. إنها تدخلات ما تزال نيلا عاجزة عن تعريفها. توجد قصة هنا وتبدو قصة نيلا، لكنها لا تملك روايتها. فكرت أنها تنسج خيوط حياتي. ولا أستطيع

رؤية العواقب.

أعادت نيلا فتح دليل سميت. سقطت رسائل صانعة الدُمى، المدسوسة بين الصفحات، من ظهر الكتاب المفتوح مثل نثار مُبعثر. وجدت إعلان صانعة الدُمى. تدربتُ على يد ساعاتي بروس العظيم، لوكاس ڤنديريك. كل شيء، ولا شيء. فكرت نيلا، في كل مرة أذهب إلى منزلها، في كل مرة أطرق بحماقة بابها الموصد، أبتغي كل شيء ولا أحقق أبداً أي شيء. لا بد من اتباع أسلوب مختلف، وبينما تحدق في الإعلان، تساءلت نيلا لماذا لم تفكر في هذا من قبل. لا رسائل طويلة بعد الآن، لا ردود حاذقة وشبه فلسفية، لا توليب ولفت، ولا خروج في البرد لتجني الإحراج في الكالفرسترات.

تهرع إلى منضدة كتابتها، وهي تتذكر كيف انتظرت على عتبة منزل يوهانس في أول يوم لها، المارة في الهيرغراخت، والصبي الأعمى والرنكة، وضحك المرأتين. هل كانت صانعة الدُمى تعرفني حتى في ذلك الوقت؟ هل كانت تعرف كم تطلعتُ إلى غرفة، ومنضدة كتابة وصفحات لأمْلِئ استقبالي التعيس؟

وإذ تسحب ورقة، تغمس نيلا القلم وتبدأ خطابها:

عزيزي سنيور ڤنديريك،

أكتب إليك لأستعلم عن مُتدربة كانت لديك.

كل ما أعرفه عنها هو أنها امرأة لها قامة طويلة وشعر أشقر، وعينان تحدقان وكأنهما ستريان داخل روحي. لقد تسللتْ إلى حياتي، يا سنيور، والدُمى التي ترسلها تصبح أكثر إثارة للقلق. كيف يُعقل أنها لا تجيبني مباشرة، ومع ذلك تختارني محوراً لمشغولاتها؟

أخبرني كيف جاءت إليك ولماذا رحلت. أي قوى تحركها لتصنع من حياتي صورة مُصغرة - غير مطلوبة، بديعة، غامضة في رسائلها؟ سمّيتها معلمي لكني الآن، والعياذ بالله، أدعوها نبيّة - ولكن لو حدث وكانت شيطانًا متجسدًا توجّب عليك طرده، فعليك مُكاتبتي.

أنتظر بترقب مؤلم،

بترونيلا -

سمعت طرقاً على بابها، فدسّت الخطاب تحت كتّاب، وأسدلت الستائر على بيت الدمى ولملمت رسائل صانعة الدُمى.

- أدخل.

وأمام دهشتها التامة، دخل يوهانس بخطى متثاقلة. فسألته، وهي تجذب عباءة البيت حول جسدها وتضع الرسائل في جيبها: "هل وجدته؟" تجد نفسها عاجزة عن الجهر باسم جاك، لكنها لا تشك في أنه الشخص الذي قضى معه يوهانس هاتين الليلتين، وإن لم يجرؤ أحد على قول ذلك.

- إنك مثل طفل، يا يوهانس، يدّعي أنه لم يسرق بكل أسف، لا. أجاب، وهو يمد يديه مثل لص أخرق، وكأن جاك قد أفلت من بين أصابعه.

- كمكة.

رفع حاجبيه، ومع أن نيلا نفسها فوجئت بصراحتها، إلا أنها صارت تجد صعوبة متزايدة في إخفاء مشاعرها مع يوهانس. هو لا ينكر الاتهام، لكنه يحاول التخفيف من حدتها. قال:

- بترونيلا. أعرف أنكِ لستِ طفلة.

كاد لطفه يؤلم أكثر من قسوته. جلست على غطاء فراشها، ونظرت إلى بيت الدمى المغلق، وقالت:

- هناك الكثير مما يُعجزني فهمه. أحياناً في هذا المنزل، أرى فرجة ضوء، وكأنني وُهبتُ شيئاً. ثم تأتي أيام أخرى، أشعر وكأني في كفن من الجهل.

قال يوهانس:

- هكذا نكون جميعنا أطفالاً فعلاً. إنني لم أقصد ما قلته في الصالون. مارين تدفعني...

- كل ما تريده مارين هو أمانك، يا يوهانس. وكذلك أنا.

- أنا بأمان.

وأمام هذا، أغمضت نيلا عينيها، وهي تشعر باضطراب عميق. لا بد أنه كان شاقاً جداً على مارين طوال هذه الأعوام، أن تُعنى بشخص يظن قوة إرادته كافية لمحاربة مشكلات الوجود! إنه مواطن أمستردامي، إنه يعرف بلا شك أنه لا يستطيع العيش هنا بمفرده؟

- ليست هذه بالزيجة التي تخيلتها لنفسك.

حدّقت فيه. مشاهد من حفلات، شعور بالأمان، أطفال سمينون يصرخون بالضحك، تتساقط بينهما وتتلاشى إلى سواد. كل ما يخص نيلا أخرى، تلك التي لن توجد أبداً.

- ربما كنتُ حمقاء أن تخيلتُ أشياء.

قال:

- كلا. لقد وُلدنا لنتخيل. ظل يتلكأ، عازفاً عن المغادرة. عادت نيلا إلى ذكرى الطرد الأخير الذي تسلمته من صانعة

الدُمى، الفطائر والكعكات المُرتَّبة في سلة صغيرة، مُتوارية خلف الستائر ذات اللون الخردلي.

- يوهانس، هل تمكنت من بيع أي شيء من سكر آغنس في فينيسيا؟"

تهاوى على طرف فراشها. وهمس:

- إنه جبل، يا نيلا. حرفيًا. ومجازيًا. العثور على مشترين، في هذا الوقت من العام، سيستغرق بعض الوقت.

- ولكن هل عثرت على أي منهم؟

- زوجين، نعم. كاردينال وجارية من جواري البابا. يبدو أن الناس لا يملكون كثيراً ينفقونه هذه الأيام. وابتسم بحزن.

- سيكون عليك التفكير في شيء لبقية المخزون. لن تتركك مارين وشأنك إن علمت أنك لم تجد سوى مشتريين اثنين. يجب أن تعدَّ نفسك محظوظاً أني وحدي من أعرف.

يبتسم يوهانس:

- لم أكن أتوقع المرأة التي صرتِ إليها.

إن هاجس نيلا الأول هو امرأة نرويجية مُحيِّرة تقولب حياتها عبر الدمى، والثاني هو حماية ثروة يوهانس من التعفن قرب البحر. لم تكن هذه هي الصورة التي رسمتها والدتها في أسِدلفت.

- إنك لا تعرف عني إلا القدر الهزيل.

قال يوهانس:

- كنتُ أمدحكِ. أنتِ استثنائية. سكت، وقد بدا عليه

الإحراج: سأعاود الذهاب عندما يأتي كانون الثاني، وسوف أصنع لهما أرباحهما. إن سهمي لا يخسر أبداً. ويفتح ذراعيه واسعاً، وكأن علو منزله وزخرفته فيهما الدليل الكافي.

- ولكن هل تعدني، يا يوهانس؟

- أعدك.

قالت نيلا:

- لقد صدقتُ وعدك مرة. وأدعو الربَّ أن تصدُق وعدك هذه المرة." في الخلفية، أشارت ساعة البندول إلى وقتها المخملي. "هاك،" تقولها، وهي تنهض عن السرير وتحدث فرجة بسيطة في ستائر بيت الدمى. "أريدك أن تأخذ هذه."

و ضعت دمية ريزيكي في يده، وخفض يوهانس عينيه، وهو يرمش في تعب، غير أكيد في البداية مما يراه. ثم قال: "ريزيكي؟

- حافظ عليها.

لوهلة سكت يوهانس، وظلت عيناه مسمرتين على النموذج الضئيل في يده. ثم رفعه، ولمس الفراء الرمادي الناعم، والعينين الذكيتين الصغيرتين، والساقين النحيلتين:

- لم يسبق لي أن رأيتُ شيئاً كهذا من قبل. في جميع رحلاتي.

لاحظت نيلا أنه لم يعلّق على الوسم الأحمر. وتمنت ألا يراه، فهذا أفضل. همست:

- هدية زفافك. أعرف أن ريزيكي لم تُصنع على هيئة البشر، ولكن أرجو ألا تخبر رؤساء البلديةّ.

نظر يوهانس إليها، وقد أعجزه التأثر عن قول شيء، وتشبث بالهدية مثل عزاء سري. أغلقت نيلا الباب خلفه، وهي تصغي إلى خطواته الهادئة نحو غرفته، وتشعر بسلام غريب.

ولكن في فجر اليوم التالي، أيقظتها كورنليا بعنف، كانت السماء تشقها خطوط برتقالية وزرقاء داكنة، لا يمكن أن تكون الساعة قد تجاوزت الخامسة. انتفضت نيلا من أحلامها حول ملابس غارقة في الدم وغرف منكمشة، وشعرت بهواء الصباح البارد.

- ما الأمر؟

- استيقظي، يا مدام، استيقظي.

- استيقظت. ما الخطب؟ سألتها. ولكنها، حينما نظرت إلى وجه كورنليا الواضح والمُتهدِّل، نما الخوف في داخلها:

- ماذا حدث ليوهانس؟

سقطت يدا كورنليا من على جسد نيلا مثل ورقتين ميتتين.

- ليس السينيور. إنه أوتو. لقد رحل أوتو.

أرواح ومَحافِظ

كانت كورنيليا تدور حول يوهانس في حركات تكاد تشبه الرقص، إذ عليها أن تنجز عمل خادمين. تلبسه حذاءه، وتضع في جيبيه فطائر صغيرة، وتفاحة، فقد غلب إطعامه على مخاوفها. أدخل يوهانس ذراعيه في كُمّي سترته. وسأل:

- أين سترتي الديباج؟

تمتمت مارين، وقد بات لونها رمادياً من الإرهاق:

- لا أستغرب أن تسأل هذا الآن.

قالت كورنيليا:

- لم أستطع العثور عليها، يا سينور.

- سأفتقد المراق. لماذا هرب هكذا؟"

نادت نيلا، وهي تلحق به إلى الخارج:

- تفقّد السكر أيضاً.

نظر إليها يوهانس في استنكار، وقال:

- توت يأتي أولاً. لا يسعنا أن نخسره.

لكن نيلا لم تستطع مغالبة التفكير في المخروط الصغير المسوَّد في يد آغنس في الأعلى. إنها علامة، صانعة الدُمى تحاول تحذيرهم، كما حذرتهم بشأن ريزيكي. لا بد أن هناك ما يمكن عمله قبل أن يخسروا السكر أيضاً؟ لكن يوهانس كان قد ذهب فعلاً، ولا يمكن لأي زوج أن تظهر في مستودع زوجها من

دون سابق معرفة.

لا توجد علامات مقاومة على فراش أوتو، ولا أثاث مكسور، ولا اقتحام للباب. كانت صرة ثيابه قد اختفت.

قالت كورنليا:

- لقد أخذ سترة السنيور، أنا متأكدة من ذلك.

قالت نهلا:

- ربما سيبيعها.

- بل سيحتفظ بها على الأرجح. لماذا كان عليه أن يرحل؟

أدركت نهلا أنها لم تسأل كورنليا ماذا كانت تفعل في غرفة نوم أوتو في الساعة الخامسة صباحاً. لكن كورنليا بدت مُستنفدة حرفياً، واستجوابها الآن قد يضر أكثر مما ينفع.

نادت مارين من أعلى السلم:

- كورنليا، تعالي إلى هنا.

كانت مارين في الصالون، مُرتدية ثلاث سترات، وشالاً، وزوجين من الجوارب الصوفية، وتحاول بحركات خرقاء إشعال نار في الخث. حينما اعتدلت، بدت ضخمة جداً، وأطول بكثير من نهلا وكورنليا:

- لا يمكنني إشعال الخث.

- إشعال النار وظيفة توت، يا مدام.

ليست رائحة الخث الثقيلة هي ما تسبب اختناق كورنليا، وتدفق الدموع من عينيها. "لستُ ماهرة في هذا الأمر"، ركعت الخادم أمام موقد المدفأة، وجسدها انعكاس مهزوم لروحها.

تختم: "لقد سألتُ بامتداد القناة. لم يُؤخذ أي أفارقة إلى الرَّسبهاوس أو سجن الستدهاوس."

- كورنيليا... قالت مارين، وهي تهوي بجسدها على المقعد نفسه الذي تهاوى فيه يوهانس عقب نبأ ريزيكي. وبعينين حمراوين ويدين تعبثان بطبقات ثيابها، عجزت مارين عن الجلوس ساكنة. أخذت قضمة من فطيرة تفاح عمرها أسبوع أحضرتها لها كورنيليا، ثم وضعتها جانباً. ترسل نيلا صلاة لصانعة الدُّمى، أينما كانت في هذه اللحظة - مدام، امنحي زوجي جناحين. طيري به سريعًا إلى السفن المغادرة. اجعلي أوتو الحبيب لا يترك هذه الأرض.

- سوف يهرب. قالت مارين، وهي تفرك صدغيها وكأنما تحاول تثبيت شيء مُتململ يتحرك في جمجمتها: سيذهب إلى لندن. عند نهر التايمز، سيجد هناك مجالاً للتخفي بين الجموع.

قالت نيلا:

- تتكلمين بثقة كبيرة.

قالت كورنيليا:

- أخبرته أن شيئاً لن يحدث. لماذا لم يستمع إليّ؟

- لأنه كان خائفاً. قالت مارين، وأنفاسها تصبح أثقل. وهي تتناول فطيرة التفاح مرة أخرى وتأكل منها بلا شهية، وتقول كمن تتحدث مع نفسها: لقد أحسن عملاً برحيله. بإبعاد نفسه حَانا. وماذا كان سيحدث لرجل مثل أوتو إن اعتقله رؤساء البلديّة؟"

تقولها نيلا:

- مارين؟ هل كنتِ تعلمين أنه سيرحل؟

أفلتت من مارين ومضة ارتباك أمام السؤال. تجيب، وهي تشيح بعينيها وتمسِّد تنورتها:

- إنه رجل ذو بصيرة.

ألحّت نهلا وقد أغاظتها الإجابات الملتوية التي تواري مارين خلفها:

- وهل أنتِ من أخبرته أن يذهب؟

- كان ذلك أهون الشرّين. ربما اقترحته، لكنني لم أجبر أحداً.

- أعرف كيف تعمل اقتراحاتك."

حدّقت كورنليا برعب ذليل:

- أبعدته، يا مدام؟ قلتِ إن جاك لن يبلغ عنه.

- إن قدرة جاك على المفاجأة لا تنتهي. إنه انتهازي. لنفترض أنه جازف وهاجمنا، لن يحظى أوتو بمحاكمة، لن تكون أمامه فرصة للنجاة."

- يا لغرامكِ بتحريكنا، يا مارين! إن أوتو قد يموت هناك، بمحاكمة أم من دونها"

نهضت كورنليا، قائلة:

- إنه خادم السينيور.

- أليس خادمي أنا أيضاً؟ قذفت مارين بالفطيرة إلى الحائط، مُخطئة كورنليا، تجفل الخادم عندما ترتطم الفطيرة بجدارية زيتية للريف، ويتناثر زبيبها مثل طلقات داكنة فوق الغنمة

المرسومة، هتفت مارين:

- - ألا تهمني مصلحته؟ يوهانس لا يبالي.

- إنه في الخارج يبحث عنه الآن!

قالت بصوت أقرب إلى الفحيح:

- إن يوهانس لا يحب إلا نفسه. ولهذا نحن هنا. انزلق الزبيب عن الجدارية، واستقر على الأرض، وانصرفت مارين من الغرفة بحركة بطيئة وكأنما تثقلها ملابسها.

***

كأثر باهت من الوعد الذي قطعته ذات يوم، مرّت أعياد الميلاد بتثاقل من دون أن يظهر أثر لأوتو. أرسلت تبرعات الطعام إلى دور الأيتام، ودفن يوهانس ريزيكي في حديقة مسيِّجة.

- لم أر السنيور على هذه الحال من قبل. قالت كورنيليا لنيلا، وجهها أبيض من القلق: حتى أنه قرأ مقطعاً من الكتاب المقدس. وكأنه لم يكن هناك."

ضعيفاً ومنطوياً، يخرج يوهانس يومياً، زاعمًا أنه يبحث عن خادمه المفقود ويعمل على بيع سكر آل ميرمانز. خطر لنيلا أحياناً أن عليها إخبار مارين أن السكر ما يزال كله في المستودع، وأن فرانس غاضب، لكنها لا تجد فائدة تُرجى من الأمرين، فمزاج مارين لا يمكن توقعه.

البريغات على المخروط المنمنم تتلاعب بعقل نيلا، فتتفقدها كل يوم، متيقنة من انتشارها. إلا أن المخروط يظل على حاله مع مضي الوقت، وتتعلق نيلا بذلك، وقد صارت الآن مؤمنة

إيماناً كلياً بالقوة النبوية لصانعة الدُمى. سأحارب لأظهر، هكذا فكر، لكن المشكلة أن نيلا لا تعرف أين ستظهر. طريق مسدود، كما تفترض، مثل قاع كيس، كأنْ أبكم وهش.

لم يكن أوتو موجوداً في أي مكان محصوره فيه، وبات غيابه سؤالاً لا أحد منهم يستطيع الإجابة عنه. دميته لا تكشف عن شيء حتى الآن، لذا تعتمد نيلا على تخمينات الأسرة حول مكانه. فتمسَّك مارين بأنه في لندن، ويوهانس يُخمّن القسطنطينية. أما كورنليا فمقتنعة أنه لم يغادر البلاد. تقبُّل رحيل أوتو طوعاً هو أمر يفوق احتمالها.

قالت نيلا:

- إن مدينة ساحلية هي أفضل له. في أسِدلفت، الناس سيغلقون أبوابهم في وجهه.

قالت كورنليا:

- ماذا، في هذا البرد؟

ردت مارين:

- لا أستبعد ذلك.

- لا أصدق أنه وافق على الرحيل، قالت نيلا، وهي تحدق فيها، لكن مارين أشاحت بوجهها. "ليس هذا عهده."

انفعلت مارين:

- أنتِ هنا منذ اثني عشر أسبوعاً، يا بترونيلا. إن عمراً كاملاً لا يكفي للتنبؤ بما قد يفعله شخص ما.

بدأت كورنليا في التقاعس عن التنظيف بالخل وعصير الليمون، والكنس والتلميع، والغسيل، والتنظيف، وأرسلت

نيلا خطابها إلى لوكاس فنديريك في بروج، و أخذت تنتظر جواباً. فكرت، ربما يؤخِّر الطقس الشتوي ساعي البريد، لكنه يبدو ملجأها الوحيد.

قررت أن تسأل مارين إن كان يوهانس قد تحدث إليها عن مخزون السكر الذي لم يخرج من المستودع. وجدتها في الدهليز، إذ صار من عادتها أن تذرعه، محدِّقة في فراغ الصالون الذي وقع فيه الشجار مع شقيقها. كان ملبَّس الجوز قد خرج من غرفتها، وتكدَّس في زبديَّة على منضدة جانبية، وأنصاف قشوره تلمع كالخنافس. تنظر نيلا إليهم في دهشة، فليس من طبع مارين، أن تأكل تسالي محُلَّاة علانية. فكرت، أفترض أنني لو خضت شجاراً مثل هذا مع كاريل، لأكلتُ مثل وزني مرزبانية.

تقول: "مارين، يجب أن أسألكِ شيئاً."

جفلت مارين، وهي تضم شالها حولها.

- ما الخطب؟ الجوز. أكلت منه أكثر من اللازم." ثم استدارت إلى الطابق العلوي نحو غرفتها وذهبت الفرصة للحديث.

كانت كورنيليا ونيلا تمضيان ساعاتهما في المطبخ حيث الجو أدفأ. وفي ساعة متأخرة من عصر أحد الأيام، حينما كانت مارين نائمة، ويوهانس في الخارج، سمعتا طرقاً صارماً وثقيلاً على الباب الأمامي.

همست كورنيليا:

- ماذا لو أن الميليشيا تطلب توت؟ رحماك يا رب.

- حسناً، إنهم لن يجدوه هنا، أليس كذلك؟ لم تكن نيلا

لتعترف لمارين أبداً بإحساس الراحة الذي انتابها، لكنها مسرورة باختفاء أوتو. تخيلت جاك في منتصف مجموعة، يشير إليه بإصبع الاتهام.

لم يتوقف. قالت نيلا: "سأفتح أنا" مُحاولةً الاحتفاظ بوهم السيطرة على الأقل. فكرت، هذا المنزل المقلوب. إذ سيدة المنزل هي أول من يرحب بالضيوف.

ولكن من زجاج النافذة، لا تلوح سوى قبعة عريضة الحواف تعلو وجهاً ممتلئاً طويلاً. فتحت نيلا الباب، وهي تشعر بارتياح لأنها ليست الميليشيا، نزع فرانس ميرمانز قبعته ودخل مباشرة. يندفع معه برد كانون الأول وانحنى عابثاً بحافة قبعته.

قال:

- مدام براندت، جئتُ لمقابلة زوجك.

قالت مارين:

- ستجده في البورصة.

جفلت نيلا، واستدارت لترى مارين تنتظر على الدَّرج. كانت كأن تعلم بقدومه. بدا الجو مشحوناً، انتظرت نيلا ما سيفشيانه من دلائل العاطفة بينهما. لكن، لا شيء يأتي. قالت نيلا لنفسها، طبعاً. إن مارين متمرسة في الحفاظ على مظهر عادي.

يقول ميرمانز:

- لقد ذهبتُ فعلاً إلى البورصة. والفوك. وعدد من الحانات. وفوجئتُ أنه ليس هناك.

قالت مارين:

- لستُ وليّة أمر أخي، يا سينور.

وأمام هذا، رفع ميرمانز حاجبيه:

- لسوء الحظ.

- هل ترغب في شيء من النبيذ بينما تنتظر؟ سألته نيلا، لأن مارين ترفض الخروج من الظل.

التفت إليها:

- لقد أخبرتِ زوجتي في الكنيسة القديمة أن زوجكِ يبيع سكّرنا في ڤينيسيا.

تشعر نيلا بعيني مارين تحرقان ظهرها.

- أجل، يا سنيور. لقد عاد الآن...

- أعلم أنه فعل، يا مدام. إن رجلاً مثله لا يخفي شيئاً من تحركاته. عاد براندت سالماً معافى من عند الكاثوليك الڤينيسيين، انتهت أعياد الميلاد ونحن على أعتاب العام الجديد. لذا أجدني أسأل نفسي، أين أرباحي؟

- أنا واثقة أنها في الطريق...

- إنه لم يكتب لي. لذا ذهبت ليلة أمس إلى المستودع لأرى كيف سارت رحلته إلى ڤينيسيا، وهذه المرة، اصطحبت آغنس. وليتني لم أفعل! دار حول نفسه في اتجاه مارين، قد جحظت عيناه من الغضب: لم تتزحزح حبة واحدة من مكانها، يا مدام. ولا حبة واحدة لعينة. أنتم أكثر من عديمي منفعة، كل ثروتنا، كل مستقبلنا، يتعفن في الظلام. لقد لمسته، تحول بعضه إلى معجون."

ظهرت الصدمة على مارين بوضوح، وعجزت عن استيعاب

الموقف وتطويعه. سرى الشعور بالذنب عبر نهلا ومارين التي تلوح يدها، عزلاء أمام غضبه.

قالت مارين مُتلعثمة:

- فرانس. هذا مستحيل...

- سيكون هذا سبباً كافياً لتدمير يوهانس براندت، ويعلم الرب، أني لم أعدم الأسباب فعلاً، لكننا عندما خرجنا من المستودع، رأينا ما هو أسوأ. أسوأ بكثير.

تتقدم مارين قليلاً، و تقول بصوت خافت:

- إنه يعمل على بيعه فعلاً، يا فرانس. كن مُطمئناً...

- هل تعرفين ماذا رأينا، يا مدام، خلف الجدار؟

هرولت كورنيليا من سلّم المطبخ. وشعرت نهلا بقلبها يخرج من صدرها. رغبت في إمساك يدي كورنيليا، لكنّ، هذا الرجل يحاصرها. "كان يجدر بي إخبار مارين، همست لنفسها، كان الهواء يتذبذب من حولها مع تزايد غضب ميرمانز. كانت لدى مارين شكوك فعلاً، ولكن، لو أني أكّدتُ لها أن السكر مازال على حاله، وأن فرانس قد سبق له رؤيته، فربما أمكنها وضع حد لكل هذا. إنها الوحيدة التي تقيم شيئاً من النظام في هذا المنزل.

انكمشت مارين على الدرج، مع تقدم ميرمانز، في صورة مناقضة للرومانسية أو أي حب رقيق. وبينما يحدق في عينيها، ومضت في عقل نهلا صورتان لقصتهما القديمة، هدية الخنزير الصغير المملح ورسالة فرانس الجميلة، المخبأة بداخل كتاب. وتصلّي، اجمل فرانس طيّباً معها.

- لقد رأيناه، قال ميرمانز، بصوت خفيض: رأينا شيْطنته.

قالت مارين:

- ما الذي تتحدث عنه؟ أي شيْطنة؟

- أتوقع أنكِ تعرفين منذ البداية. كيف يقضي وقته قرب جدران المستودع. وشيء كهذا لا يمكنكِ ألا تريه.

- لا.

- بلى، قال ميرمانز، مُعتدلاً ومُلتفتاً إلى نيلا: يجب أن يعرف العالم، يا مدام، كيف يُرضي زوجك المقرف شهواته مع صبي.

أغمضت نيلا عينيها وكأنها ستمنع كلمات ميرمانز من أن تدخلها. لكن الأوان فات. وعندما فتحتهما مرة أخرى، بدا ميرمانز سعيداً بصورة مبالغة. آه، لستَ أول من يجلب لي هذه الأنباء، هكذا تفكر، عاجزة عن مقابلة عينيه. منحني زوجي هذا الشيء على الأقل.

لم تعد النساء الثلاث قادرات على الكلام، وقد أثار صمتهن غيظ ميرمانز، فتابع القول: إن يوهانس براندت فاسق. قالها وكأنما ليستفز ذهولهم المُرتبَك: دودة في فاكهة هذه المدينة. وسوف أقوم بواجبي كمواطن تَقِي.

همست مارين:

- لا بد أن هناك خطأً ما.

- لا خطأ هناك. والأدهى أن الصبي يزعم أن يوهانس قد اعتدى عليه.

قالت نيلا:

- ماذا؟

- إنك صديقه... خرج صوت مارين متقطعاً، ويدها تنزلق عن سور السلم: لا تسعى إلى هذا العقاب وأنت تعرف نهايته."

- لقد ماتت صداقتي مع ذلك الرجل منذ أعوام.

- لماذا إذن طلبت منه بيع سكّرك؟ لماذا اخترت أخي من بين التجار جميعهم؟

قال، مُقحماً قبعته بعنف في رأسه:

- آغنس هي من أصرّت.

- لكنك وافقت، يا فرانس. لماذا قد توافق لو أنك لا تحمل في قلبك بقية مودة؟

رفع ميرمانز يده ليكفّها عن الكلام:

- إن سكّرنا منبوذ كروحه. وعندما رأيتُ الكُفر الذي كان يرتكبه، بدا وكأن بعل زبوب نفسه قد هبط من السماء.

- إن بعل زبوب سيهبط علينا جميعاً، يا فرانس، إن واصلت ما تفعله! تقول إنك تفعل هذا من باب واجبك نحو الرب لكني أظنك تفعله من أجل نقودك. المال، الثروة - لم يكن هذا عهدي بك.

فكرت نيلا، لا بد أنه جاك، لصق جدار المستودع. تكاد تتمنى لو أنه هو - شيء من الثبوت على الأقل، حب ربما، في الظلال المتقلّبة لهذه الكارثة. تتساءل هل مازال يوهانس يا تُرى هناك في المستودع، غافلاً عن افتضاح أمره. تفكر، يجب أن يعرف، عليه أن يهرب.

سألت:

- هل تحدثت إلى زوجي؟

التفت ميرمانز إليها بتعبير هازئ، وقال:

- قطعاً لا. كانت آغنس - بل كلانا وجب أن يغادر المشهد، إنها لم تفق من صدمتها بعد.

توسلت إليه مارين:

- لا تسعَ إلى هذا الانتصار، يا فرانس. ستدمرنا جميعاً. يمكننا الوصول إلى ترتيب...

- ترتيب؟ إياكِ والتحدث معي عن ترتيبات، يا مدام. لقد رتّب يوهانس ما يكفي من حياتي.

- فرانس، سوف نبيع سكّركم، وليكن هذا نهاية...

- لا، يا مارين. يقولها وهو يفتح الباب بقوة: إنني رجل مختلف الآن، ولن أقف في وجه المد.

هروب

عندما خرج فرانس ميرماتز عاصفاً إلى النهار القارس، انهارت ساڤا مارين. كان مشهداً ثقيلاً على النفس، مثل انهيار شجرة باهرة الجمال. هرعت إليها كورنيليا، تحاول أن تسندها. قالت مارين محدِّقة في نيلا:

- لا أصدق ذلك، هل هو صحيح؟ هل يمكنه فعلاً أن يكون بهذه الحماقة؟

قالت كورنيليا:

- إلى الفراش، يا مدام، وحاولت رفع مارين في جهد عقيم، فانحنت تحت ثقلها، أبعدتها سيدتها، وهي تجلس على سلم البهو.

قالت مارين:

- سوف يذهب فرانس إلى رؤساء البلديَّة. زعزعت الكلمات الجو الهش الذي خلَّفه ميرماتز. كان منظرها تقشعر له الأبدان، عينان ميتتان، جسد مريح، وصوت خالٍ من أي روح:

- - لم يأتِ إلى هنا من البداية ليعرض التسامح. لقد جاء للتباهي فحسب.

قالت نيلا:

- علينا إذاً استغلال غروره. لا يعرف يوهانس أن أحداً شاهده. أمامه بضع ساعات فحسب ليهرب خلالها.

قالت كورنيليا:

- السنيور أيضاً؟ ولكن لا يمكن لثلاثتنا أن نعيش بمفردنا

هنا.

سألتها نهلا:

- هل لديكِ فكرة أفضل؟

غرق الدهليز في صمت عميق. كانت نهلا تداعب أذني دانه الناعمتين بين أصابعها، وهي تفكر في مخروط آلغنس المُسوَدّ في الأعلى، وتتساءل أين تُراه يوهانس. لقد غضب ميرمانز بسبب السكر، ربما أكثر من رؤية يوهانس يستمتع بالفاكهة المحرمة. إن بضعة آلاف من الجلدرات لربما تبطل هذا الغضب نحو آل براندت.

قالت:

- لا أعرف كيف، ولكن علينا أن نبيع السكر. إن ميرمانز ينشد النقود.

رفعت مارين عينيها إليه:

- قال إن بعضه صار عجيناً.

- تماماً، بعضه. إنه يبالغ على الأرجح. يحب الكذب. وربما يُسكته أن نبيع مخزونه.

- لا شيء سيسكت هذا الرجل، صدقيني. وماذا تعتزمين؟ هل تعرفين جميع وكلاء الشراء في أوروبا وخارجها، يا بترونيلا، طهاة لندن، وحلوانيي ميلانو، الدوقات والماركيزات والسلاطين؟ هل يمكنكِ التحدث بخمس لغات؟

- إنني أبحث عن الضوء، يا مارين. وسط كل هذا الضباب.

***

بعد ساعة، وقفت نيلا أمام بيت دماها، مُحدِّقة في الغرف بحثاً عن دليل ما، عن إشارة تخبرها ماذا تفعل. ساعة البندول الذهبية تذكير مُنتظم ورهيب أن زوجها لم يعد إلى المنزل بعد، وأن الدقائق تمر. كم هو غريب، أن بعض الساعات تمر وكأنها أياما والأخرى تطير بسرعة البرق! خارج النافذة، كان الجو قارس البرودة، وتشعر بإحساس الخدر في أصابع قدميها، فتتخيل لحمها ميتاً، مثل الرجل الذي عُثر عليه مُقطّعاً تحت الجليد. إن أنفاسها تصنع بخاراً، إذاً، ما زلتُ حيّة.

تسلل ضوء القمر قوياً من فتحة في الستار، مُظهراً كل تفصيل في التصميم الدوّار على غلاف البيوتر، ومُحيلاً إياه إلى حفر زئبقي في الخشب. دخل الضوء إلى الغرف التسع كلها، ووجوه الأشخاص في داخلها تكاد تتوهج. كأس العروسين يشبه قمع خياطة باهت، وسديل المهد كبيت عنكبوت مُتلألئ. استقرت يد آغنس المبتورة على كرسي كحلية فضية، ومخروط السكر أبيض ناصع باستثناء رأسه. تحاول نيلا أن ترى إن كان قد أصبح أغمق. لكنها ليست متأكدة. ما تزال البويضات السوداء مرئية بصورة كئيبة، واستقرت في كفها مثل شيء عليل.

فكرت، لستُ حتى بنّاءة حظي، فما بالك بمهندسه. العبارات الموجزة لصانعة الدمى ومنحوتاتها الجميلة ما تزال حبيسة عالمها الخاص، ملموسة جداً إلا أنها ما تزال بعيدة المنال. إنها الليلة، وكأنها تسخر منها. كلما تعسّر على نيلا أن تفهم لماذا تفعل صانعة الدمى كل هذا، صارت صانعة الدمى في عينيها أكثر قوة. تصلي نيلا أن يكون لوكاس فنديريك قد تسلّم خطابها، أن تحصل على شيء من الوضوح لتجد المفتاح.

حاولت نهلا تمثال زوجها من بيت الدمى، ووزنته في كفها. هل كانت صانعة الدمى تعرف أن هذا أيضاً سيحدث، يوهانس بكشفه عدوه على المرفأ؟ ما يزال ظهره مائلاً إلى جانب، مثقلاً بصرة نقوده. لا يبدو أنها خفت، حاولت نهلا أن تستمد الشجاعة من هذا، لكنها لا تثق في نفسها ثقة كاملة لتخمين معناه الحقيقي.

سمعت باب المنزل الأمامي، تعقبه التكة المألوفة لباب مكتب يوهانس إذ يدخله. أعادت نهلا دميته إلى الخزانة، ثم نزلت الدرج راكضة، ودخلت الحجرة من دون طرق.

- يوهانس، أين كنت؟ داست بقدميها الصوف الناعم لبساطه، الذي تشرب نسيجه بالرائحة القديمة لريزيكي.

- نهلا؟

بدا، عجوزاً منهكاً، وهذا ما جعلها تشعر أنها أيضاً كبرت. فكرت، إنه لا يعرف أن هناك من شاهده. في وسعها أن ترى أنه لا يملك أية فكرة. اندفعت نحوه وأمسكته من ذراعيه، قائلة:

- يجب أن تغادر، يا يوهانس. يجب أن تهرب.

- ماذا؟

- ولكن يجب أن تعرف شيئاً. أنا متأكدة أنك بذلت كل ما في وسعك من أجلي، بيت الدمى، ووليمة النقابة، وباقة الأزهار والفساتين. نقاشات لم أشارك في مثلها من قبل. أريدك أن تعرف هذا، قبل أن تذهب.

- اجلسي، هدئي من روعك. لا تبدين على ما يرام أبداً.

- يوهانس، لا. توقف نهلا، وهي تجيل عينيها في الخرائط،

والأوراق، والدواة الذهبية، أي شيء سوى النظرة الموزونة لعينيه الرماديتين: آغنس وفرانس، لقد رأيناك، يا يوهانس، في المستودع، مع شاب.

اتكأ على كرسيه العالي، وبدا كأن تعطلت التروس في داخله، فتباطأت حركته تمهيداً للتوقف.

- سوف يقتلك رؤساء البلديّة... ألحّت نيلا في وجه صمته، مُنصتة إلى كلماتها المتهورة تختبط معاً في غمغمة: هل كان جاك؟ كيف أمكنك؟ بعد أن خانك بفعلته مع ريزيكي...

- ليس جاك فيليبس هو من خانني، قال يوهانس، بصوت أقسى من أي مرة سمعته فيها: إنها هذه المدينة. إنها السنوات التي نقضيها جميعاً في قفص وهمي.

- لكنه...

- إن سلوك أي شخص سيتشوه من أثر هذه المراقبة المستمرة، هذا التدين المتشدد – جيران يراقبون جيرانهم، حبال تلتف لتكبّلنا جميعاً.

- لكنك قلت لي ذات مرة: إن هذه المدينة ليست سجناً، إن سلكتُ الدرب الصحيح.

فتح ذراعيه، وقال:

- حسناً، إنها سجن. وقضبانه مصنوعة من رياء قاتل. سوف أرحل الليلة قبل أن يصبح الهروب مستحيلاً.

إنه غلط، يتألم، ويتكلم بغير طبيعته. عظام نيلا تتساقط عبر جسدها، وكأنها سوف تذوب فوق بساط زوجها ولا تعود إلى الوقوف أبداً:

- إلى أين ستذهب؟

- أنا آسف، أيتها الفتاة الحلوة، تكاد لا تحمَّل هذا الحنان: من الأفضل ألا أخبرك. سوف يسألونكِ ماذا تعرفين، وهم يملكون طرقاً للحصول على إجاباتهم. بحث بين أغراضه فوق طاولة المكتب وناولها ورقة: كنتُ أجهز قائمة بالأسماء التي قد تهتم بشراء السكر. أعطها لمارين. إنها ضليعة في دفتر الحسابات، لذا لن تواجهكِ أية مشكلات هناك. سأمنحكِ اسم وكيل أثق به في الفوك.

- شريك آخر في العمولة، يا يوهانس؟ إن أي ربح سيتقلص كثيراً.

- كنتِ مُنتبهة. ابتسم بصعوبة، وهو يرفع غطاء صندوقه ليأخذ رزمة من الجلدرات، ولاحظت نهلا كيف أن داخله فارغ: لكنني لا أرى طريقة أخرى لبيعه من دون وكيل.

- هل ستعود إلينا؟

تنهد يوهانس:

- إن هذه المدينة لا تشبه أي مدينة أخرى في العالم، يا نهلا. إنها باهرة لكنها مغرورة، ولم أشعر قط أنها وطني.

- فأين الوطن إذن، يا يوهانس؟

نظر إلى الخرائط على حائطه، وقال: لا أعرف. إنه حيث يجد المرء راحة نفسه. وهذا ما يصعب العثور عليه.

في تلك الليلة، كانت نهلا هي الوحيدة التي ودعت يوهانس، وهو يرتدي عباءة سفره، ويبدو محدودباً في وجه البرد: وداعاً.

- سوف ... أشتاق إليك.

أومأ لها، ولمحت ترقرق الدمع في عينيه:

- لن تكوني وحدكِ، لديكِ كورنيليا.

ثم سكت، مُسويّاً رباط حقيبته، وبدا هشًا للغاية، عجوزاً مرغماً على مغامرة مفروضة:

- لديَّ أصدقاء في بلدان كثيرة. سأكون على ما يرام. أنفاسه مثل دخان حار في الهواء المتجمد، سأتذكركِ. اعتني بمارين. احرسيها. إنها في حاجة إلى ذلك أكثر مما تظنين. ولا تدعيها تطعمكِ الرنكة أبداً.

تنغرز المزحة في داخلها مثل سهم، ألم عظيم لم تتوقعه. إنها تعجز عن التعامل مع هذه الألفة المتأخرة، وحلاوة هذا التفاهم تتسلل في غير وقتها. همست:

- يوهانس، عدني أنك ستعود.

لكن زوجها لا يجيب، لأنه كان قد مضى بصمت في ممشى القناة، مُتمرساً في الاختفاء، وحقيبة النقود تتأرجح على خصره. فكرت، لن أراه مرة أخرى.

ازداد الليل ظلمة، وباتت النجوم أعداء، والبرد سكيناً على عنقها، لكن نيلا تنتظر، حتى يصبح من الصعب أن تميز بين يوهانس والظلام الذي يحمله بعيداً.

نصف دائرة

أيقظها صوت قعقعة بالخارج. كانت نيلا قد نامت ليلتها في مكتب يوهانس، وترك بساط زوجها أثراً على وجهها. في البداية، ظنت أن الصوت قادم من ناحية الخادمات على طول شارع الهيرغراخت، حيث يغطِّسن مماسحهن في الدلاء، ويغسلن العتبات، ويزلن أنقاض اليوم الأخير من عام ١٦٨٦م. لوهلة، نسيت كل شيء، مُحدِّقة في خرائط يوهانس الجميلة. ثم تدافع غضب ميرماتز وهروب يوهانس إلى عقلها، مُغلقين أي سبيل لتفكير هادئ. نظرت إلى السقف، حيث آثار الشموع سوداء مثل اللطخة على مخروط آغنس المنمنم.

ثمة من يناديها، إنها كورنيليا، صوتها حاد وهستيري:

- مدام نيلا! مدام نيلا! فركت نيلا عينيها. وكانت القعقعة قد توقفت. دائخة، تعتلي صندوق الجلدرات وتنظر من النافذة. شرائط حمراء فوق صدور بارزة، وميض معدن مصقول، سيوف وطبنجات. ميليشيا سانت جورج. ثم بدأ القرع على الباب الأمامي. اقتحمت كورنيليا الحجرة. وهمست مذعورة:

- إنهم الميليشيا، لقد جاؤوا.

أغمضت نيلا عينيها، وتلت شكراً سريعاً لأن يوهانس لا بد أنه على متن سفينة الآن، بعيداً عن هنا. كانت مارين في الدهليز بينما الطرق يستمر، فعقدت النساء الثلاث اجتماعاً عاجلاً، وبينهن دانه تتواثب على أقدامها.

سألتها مارين:

- هل ذهب؟ أومأت نيلا، رأت ألماً عابراً في وجه مارين، أخفته بسرعة: لا أثق بنفسي معهم. قالت، وهي تصعد السلم فيما نيلا تحاول السيطرة على الكآبة.

- مارين، لا...

- لن أتمكن من السيطرة على أعصابي، خاصة لو أن فرانس ميرمانز بينهم.

- ماذا؟ لا يمكنكِ أن تتركيني معهم...

- إني أثق بكِ، يا بترونيلا...

اختفت مارين. وفتحت كورنيليا الباب الأمامي وفوق أعلى سلمة وقف ستة ضباط من ميليشيا سانت جورج، في زي محاربين فاخر، يعرضون دروعهم من الفضة والبيوتر، وبنادقهم تتأرجح عند أوراكهم. لم تقل نيلا شيئاً، يداها متشابكان، وأحشاؤها تبدأ في الاضطراب. لاحظت بارتياح أن فرانس ميرمانز ليس بينهم.

صرخ أقرب ضابط إلى الباب:

- جئنا من أجل يوهانس براندت. كانت له لكنة مدينة لاهاي، ألفاظه مفككة، لا تشبه الأمستردامية كثيراً.

أجابت نيلا، وهي تشعر بثقل فكها:

- إنه ليس هنا، يا سنيور. فكرت، لن أسأله لماذا جاء. لا أغلال، لا اقتحام للمنزل، لن أمنحه فرصة الإمعان في إذلالنا.

نظر الضابط المدني في عينيها مباشرة. إنه طويل القامة، في مثل عمر يوهانس تقريباً، أصلع باستثناء لحية مشذبة أكثر من الآخرين. خطها الشيب وحددت في نهايات مدببة قديمة

الطراز، يسأل:

- أين هو إذن؟

أجابت نهلا: "مُسافر" الكذبة سريعة كالأنفاس، مع أنها تشعر بلسانها متورماً وثقيلاً وجدت صعوبة في أن تبدو مقنعة. حاولت تقليد مارين في تسلّطها، لكنها تشعر بمقتهم الجماعية وهم ينظرون بازدراء إليها، أوسمتهم الموحّدة اللامعة، أشرطتهم الحمراء المفرودة، صف متجهم من إخوان متحدين، تبرز الصدور نحوها، والبطون، مُتخمة بأفخم الأطعمة.

قال آخر:

- نحن نعلم أنه هنا. لا أظنكِ ترغبين في إثارة ضجة أمام بيتكم.

قالت ماضية في إغلاق الباب:

- طاب نهاركم، لكن ضابط الميليشيا مدّ قدمه وأوقفها، وعلى أصوات ضحك مكتومة من الخمسة الآخرين، دفع الخشب، وللحظة علقت الشابة والجندي الأشيب في حرب قوى صغيرة، ينتصر بسهولة، ويدخل الرجال الستة معاً، أقدامهم الثقيلة تدق البلاط الرخامي، يخلعون خوذاتهم، وهم يجيلون أعينهم في الجداريات واللوحات، والسلالم المصقولة في فخامة، وحاملات الشمع الجدارية والنوافذ اللامعة، يبدون كمحققين يفحصون جثة، أكثر منهم ضباط عسكرية.

صاح الضابط الأول، حينما وقعت عينه على كورنليا:

- يا فتاة، اذهبي وأحضري سيدك. وعندما لم تتحرك، وضع يده على مقبض سيفه، وقال: أحضريه، أو نعتقلكِ أيضاً.

قال آخر مع ضحكة:

- لنَلتقِ بها في السينهاوس في طريقنا لتنال جرعة من التأديب.

تساءلت نيلا: هل شهد هؤلاء الستة يا ترى يوماً واحداً من معركة حقيقية؟ يبدو عليهم الولع بالزي الذي يرتدونه. اهرب، يا يوهانس، هكذا فكرت، محاولة إخماد ذعرها المتزايد. اهرب، اهرب، بعيداً جداً.

قالت:

- سبق لي أن أخبرتكم فعلاً أنه ليس هنا. والآن، يا سادة، طاب نهاركم.

سأل الضابط الأول، متقدِّما من نيلا:

- هل تعرفين لماذا نريده؟ وانتشر الخمسة الآخرون، مُشكلين نصف دائرة فضفاضة حولها وكورنيليا: نحن هنا بأمر من سخاوت سلابارت وكبير رؤساء البلديّة في الستدهاوس، يا مدام براندت. وضباط السجن في الستدهاوس يتطلعون إلى زيارته.

قالت نيلا:

- أغلقي الباب، وهرولت كورنيليا لتنفذ الأمر، فأظلم المكان عندما أغلقت الخادم الباب في وجه الحياة في الخارج: يمكنك التحدث إلى زوجي عندما تجده.

سأل ضابط آخر:

- لماذا؟ هل فقدتم أثره؟

- أراهن أنني أعرف أين هو! هكذا يجيب آخر مع نوبة من ضحك مكشوف هذه المرة، فتمنت نيلا أن يموتوا جميعهم.

يقول الضابط الأول:

-لقد بلَّغ إنجليزي عن تعرضه لاعتداء على الجزر الشرقية، يا مدام، وممثل إنجلترا مُستنفر نيابة عن مَلِكه - وهناك شاهد إثبات.

فكرت نهلا: " لا بد أن آل ميرمانز وجاك قد تعاونوا - الفتى يتلقى أجراً، من دون شك، مقابل أدائه واحداً آخر من أدواره. إن آغنس وفرانس أبعد ما يكون عن التحالف مع جاك فيليبس، ولكن ما أهمية ذلك في مواجهة انتقام جماعي لذيذ؟ تتخيل نهلا اقتلاع رؤوس منمنماتهم وهم للانتهم مقطعون ومجردون من قوتهم.

إنها تفقد السيطرة على الوضع. تُجيل عينيها بيأس في الوجوه، بحثاً عن قطرة لطف، أو حتى استكراه. إن أي موطن ضعف سيغري بالفرض، وسوف تستغله. هناك ضابط واحد يبدو أكبر سناً من يوهانس، لكنه يملك الوجه المسفوع والصريح نفسه، عندما تلتقي أعينهما، يدير وجهه، وتمسك نهلا بما تأمل أنه لمحة خزي عالقة.

سألته:

- ما اسمك، يا سينور؟

- آلبيرس، يا مدام.

- ماذا تفعل هنا، يا سنيور آلبيرس؟ إن مقامك أكبر من هذا. اذهب واقبض على القتلة، اذهب واقبض على اللصوص. لم يجد ذلك نفعاً، وفي وسعها أن تسمع اليأس والخوف في صوتها:

- لقد شارك زوجي في رفعة هذه البلاد، ألم يفعل؟

- سأحرص على أن يُعامَل زوجكِ جيّداً.

- سوف تعود إلى زوجتك، و ستنسى.

قال الضابط الأول، مُتجوّلا في أبهة الدهليز في منزل يوهانس:

- إن زوجكِ في ورطة، يا مدام براندت، ولن ينقذه أيٌّ من هذا.

لسعها الغضب، هياج لا يبالي بشيء. تصرخ، وهي تتقدم نحوهم:

- كيف تجرؤون؟" فيتفرقون مثل سرب من الأسماك المُتفاجئة: أيها الرجال الناقصون، الذين تكسوهم الأمجاد المستعارة!

تتوسل كورنيليا:

- مدام!

- اخرجوا،" تقولها بصوت مُهدِّد. جميعكم. تخاطبونني في منزلي كالمسجين...

هتف الضابط الأول عبر البلاط:

- مدام، إن المسجيَّة الحقيقية هي لوطيَّة زوجك.

تبقى الكلمة معلّقة في الهواء. تنقطع لها أنفاس نيلا، متجمدة بين صمت الرجال. إنها كلمة تضع ديناميتاً تحت بيوت أمستردام، أسفل كنائسها وعبر أراضيها، مُمزّقة حياتها الثمينة. إنها أسوأ كلمة في قاموس المدينة بعد كلمتي جشع وطوفان - إنها تعني الموت والضباط يعرفون ذلك. وإذ تُسكتهم خطبة قائدهم المُتبجحة، يعجزون عن النظر في عيني نيلا.

من الطابق العلوي وصلهم صوت يكاد لا يسمع لباب يُغلق. ثم يخترق المحطة المغلقة الفرية صوت أقدام تركض في الخارج. يستديرون جميعاً، ويبرز من الباب الأمامي رأس صبي صغير لا يزيد عمره عن تسعة أعوام، كما تفترض نيلا، وجهه مفعم بالفرح، وفمه يتدلى فاغراً فيما يلتقط أنفاسه. يصيح:

- لقد وجدناه.

سأل آلبيرس:

- ميتاً؟

ابتسم الصبي مُظهراً أسنانه:

- حياً. على بعد ستين ميلاً شمالاً. لقد أمسكنا به."

شعرت نيلا بمعدتها تنهار، وركبتيها تنزلقان إلى الأرض الصلبة الباردة. أمسك بها شخص ما قبل أن تسقط، إنه آلبيرس، الذي يوقفها بلطف على قدميها. ترنحت، فالخبر الذي جلبه الصبي فرض نفسه عليها، وجعلها تتنفس بصعوبة. شعرت بوحدة شديدة مع كل هؤلاء الرجال، الذين لا يهمهم أتلقى زوجها محاكمة عادلة أم لا.

سأل الضابط الأول:

- أين كان، يا كريستوفو؟"

- على متن سفينة، يا سيدي، عند جزيرة تيكسل. تقدم كريستوفو إلى داخل البهو، وعيناه تحدّقان في البهاء من حوله. "أمسكت به مجموعة المُقدِّمة. انقض مثل هريرة. وأخذ يقلد صوت بكائه. يتمتم آلبيرس:

- حبّاً في المسيح.

وهمست نيلا:

- كلا، أنت تكذب.

ضحك الصبي باستهزاء، وقال:

- لقد مزح قائلاً، إنه لم يذهب إلى الستدهاوس من قبل. حسناً، إنه لن يمزح بعد الآن.

صفع آلبيرس الفتى على قفاه، وصرخ، فيما الطفل يصرخ ألماً:

- أظهر بعض الاحترام.

لكن الضابط الأول تجهّمه. قائلاً:

- لقد قدم كريستوفو لتوّه خدمة عظيمة للبلاد.

أجابت نيلا بحدّة:

- وكذلك فعل زوجي، لعشرين عاماً.

التفت إليها:

-لن نأخذ من وقتكِ أكثر من هذا.

تحركوا نحو الباب، فقالت نيلا:

- مهلاً، ماذا – ستفعلون به؟

- لستُ أنا من أقرر هذا، يا مدام. سوف يبحث السخاوت في الأدلة. ستقام جلسة استماع تليها محاكمة، والتي أتوقع أن تكون قصيرة، إن اتضح صدق ما سمعناه.

شقوا طريقهم أسفل سلم المدخل، يتوسطهم كريستوفو كتميمة ظافرة، ومضوا في شارع القناة نحو المدينة. نظر آلبيرس وراءه مرة واحدة، وهو يمنح نيلا إيماءة محرجة أخيرة. سارت الميليشيا بإيقاع عشوائي، وكأن الإثارة التي خلفها نجاحهم قد

تفوقت على النظام، ثم لم تلبث خطواتهم أن صارت تجوالاً عابثاً، ومداعبات متبادلة، وضحك كريستوفو يعلو إلى أن اختفى أثرهم.

ارتجفت نهلا في الهواء الأزرق لليوم الشتوي. على امتداد شارع الهيرغراخت، تراجعت بضعة ظلال في النوافذ من أمام عينيها. أعين عديدة تراقبها، كما يبدو، لكن لا أحد يهب للمساعدة.

- سيقتلونه... قالت كورنيليا، مُنكفئة على نفسها فوق سلم الدهليز.

قرفصت نهلا، ووضعت يديها على ركبتي كورنيليا، قائلة:

- اهدئي، اهدئي. علينا أن نلحق به إلى الستدهاوس.

- لا يمكنكِ. قالت مارين التي ظهرت، متلفعة شالها، وارتسم ظلها طويلاً في ضوء الشموع.

- ماذا؟

- لن نجني بهذا سوى لفت الأنظار.

- مارين، نحتاج إلى معرفة ما سيفعلون به!

- سيقتلونه، كررت كورنيليا، وهي ترتجف:

- سوف يُغرقونه.

- كورنيليا، بربِّك.

أغلقت مارين عينيها، وفركت صدغيها. شعرت نهلا بالحنق من جمودها، وإحجامها عن الإمساك بتلابيب الموقف ورجه حتى يخضع.

- أين قلبكِ، يا مارين؟ لم أكن لأترك أخي أبداً لمصيره.

- هذا مافعلته، يا بترونيلا. لقد تركته في أسِدلفت وفررتِ بنفسك.

- لم أكن أسمي هذا فراراً.

- ماذا تعرفين عن رؤساء البلديّة؟ أنتِ، يا من قضيتِ حياتك تكدحين في الحقول، وشربتِ اللبن من أبقار مزرعتك؟

"ليس هذا عدلاً. ما خطبك؟

بدأت مارين في النزول نحو نيلا في نهاية السلم، درجة درجة بدقة بطيئة وغريبة: هل تعرفين ما كان يوهانس يقوله لي دائماً؟ سألتها، والغلّ في صوتها يشق هواء الشتاء ويجعل الشعيرات على ذراعي نيلا تنتصب: "الحرية شيء مجيد. حرري نفسكِ، يا مارين. قضبان قفصك هي من صنعك." حسناً، إن تحرير المرء لنفسه أمر معقول، لكن هناك دائماً من عليه أن يدفع الثمن.

- رثاؤكِ لذاتكِ هو ما يمنعنا من فعل شيء. لقد حصلتِ على فرصتك...

هجمت مارين على نيلا، وثبتتها من معصميها إلى الحائط، فصرخت نيلا: ابتعدي عني!

وسقطت متهالكة أمام عظمة غضب مارين، وترنحت كورنيليا إلى الخلف في رعب.

قالت مارين:

- لستُ أنا من تخليت عن أخي. بل هو من تخلى عني. لقد حفظتُ أسرارنا، كما لم يسمه قط، وسددتُ ديونه بمقدار ما سددتُ ديوني، وأعرف أنكِ تحسبين الآن أنكِ تفهميننا،

لكنكِ لا تفعلين.

- بل أفعل.

أغلقتها مارين، قائلة:

- لا، يا بترونيلا. إن العقدة أوثق من قدرتكِ على حلها.

أجساد مخفيّة

وقفت نيلا على عتبة منزل يوهانس، في ليلة رأس السنة التي تمر من دون احتفال. تريد أن يمزقها البرد، ويبدل الضوء هيئتها. شارع القناة خالٍ، والثلج شريط من الحرير الأبيض بين منازل الهيرنغراخت. القمر في الأعالي أكبر من أي مرة أخرى رأته فيها، أكبر حتى من الليلة الماضية، دائرة شاحبة مدهشة تشع قوة. يبدو وكأن في وسعها أن تمد يدها وتلمسه. إن الرب قد دفعه من السماوات لأسفل حتى تمسك به يدها البشرية.

تمنت أن يستطيع يوهانس رؤية هذا القمر من بين قضبان زنزانته، في مكان ما من أعماق الستدهاوس. لقد أظهرته محاولة الهرب بمظهر المُذنب. أين أوتو الآن؟ أين صانعة الدُّمى، التي تظل مُخفية عن الأنظار؟ فكرت نيلا، لولا كورنيليا، لهربتُ أيضاً. أهل المنزل يتناقصون الواحد تلو الآخر، في حين يزداد بيت الدمى ازدحاماً، وحيوية أكثر من أي وقت مضى.

من الباب المفتوح خلفها، بدأت رائحة غريبة في الانبعاث، فعادت نيلا إلى داخل المنزل. إنها لا تأتي من المطابخ. وتناهى إلى أذنيها من الطابق العلوي صوت شهيق عال. صعدت السلم تتبع أثر الرائحة والصوت الغريبين، وتقطع الممر المظلم، إلى حيث خيط رفيع من ضوء الشموع يحيط بباب مارين. لا روائح حلوة من خزامى أو خشب صندل هذه المرة؛ هذه رائحة كريهة لخضار متعفن توشك معها نيلا على التقيؤ.

فكرت، إنه بخور بشع تشعله مارين، قطعة عطر مغشوشة. لكن صوت الشهيق يصبح نحيباً. أصغت نيلا، و هي تخفي

لتنظر من ثقب المفتاح، لتجد أنه مسدود.

تهمس: "مارين؟"

لم ترد، فدفعت نيلا الباب الموارب. الغرفة رائحتها نتنة، رائحة لاذعة لأعشاب مُلبَّدة وجذور وأوراق شجر مُرَّة منقوعة لإطلاق خصائصها السرية. تكون مارين على فراشها، حاملة قدحاً يحوي مزيجاً أخضر بلون مياه القناة، وكأنَّ خلاصة طمي الهيرِغراخت قد سُكبت فيه. كانت مجموعتها من جماجم الحيوانات قد أُلقيت على الأرض، وتحول بعضها إلى شظايا عشوائية الشكل من عظام صفراء. وكانت خريطة على الحائط قد مُزِّقت إلى اثنين.

- مارين؟ ماذا بحق الملائكة...

على صوت نيلا، رفعت مارين عينيها، بينما وجهها تخطُّه الدموع، وجفناها ينسدلان في ارتياح. ارتخت يدها، وتركت نيلا تأخذ منها الكأس. وضعت نيلا يدها على جانب وجه مارين، على عنقها، على صدرها، مُحاولةً تهدئة جسدها المرتجف، ودموعها المُسترسلة. وسألتها:

- ما الأمر؟ سوف ننقذه، أعدك.

- ليس هو. أنا لست...

عجزت مارين عن تكوين جملة. ليونة جسدها الغريبة ما تزال تحت أصابعها، شمت نيلا المزيج الكريه، وشعرت بالغثيان. تذكرت مرض مارين، وصداعها، والاشتهاء الجديد للسكر، لفطائر التفاح وملبَّس الجوز. الإجهاد، وتقلبات المزاج، خلية النحل التي يجب ألا تركلها حتى لا تُلدغ. سماكة ثيابها، طريقتها البطيئة في الحركة. فساتين مارين السوداء المبطنة

بالفراء، رسالة الحب السرية، التي مُزِّقت إلى هباء. أحبك. أحبك. شِبْرًا شِبْرًا منكِ، أحبك. صرخة مارين في الفراغ، مستلقية في حوض الماء المُعطر بالخزامى: "ماذا فعلت؟"

لم تصد مارين يدي نيلا اللتين تجسَّان جسدها، وهكذا تمضي نيلا، أبطأ، فوق ثديي مارين الممتلئين والصلبين، إلى بداية بطنها، المخبأة تحت طبقات عميقة من التنانير عالية الخصر.

عندما نزلت أكثر، أطلقت نيلا صرخة.

توقف الزمن. لا كلمات تُقال. فقط يد على رحم، ودهشة وصمت. بطن مارين المخبَّأة صلبة وضخمة، مكوَّرة كالقمر. مارين؟ تهمس نيلا باسمها، غير أكيدة هل تلفظت به أم لا.

أطلقت زفرة عندما تحرك الطفل داخل بيته الصغير، وعندما ترسل قدم صغيرة ركلة تتهاوى نيلا على ركبتيها. ظلت مارين صامتة، رأسها منتصب، عيناها مُنتفختان بالتعب، شاخصتان نحو أفق خفي أمامها، والمجهود الذي بذلته لإخفاء السر ينهال على وجهها.

ليس هذا جنيناً حديثاً. بل هو طفل يوشك أن يولد.

- ما كنتُ لأشربه. هذا كل ماقالته مارين.

***

أصبحت جدران الغرفة مجرد ديكور لمشهد مسرحي ينهار، ومن ورائه يظهر مشهد آخر جديدٌ كل الجدَّة. ديكور بلا ألوان يمتد في جميع الاتجاهات، بلا إشارات أو معالم، مجرد فضاء لا نهاية له. مارين تجلس في سكون تام.

تذكرت نيلا المهد الصغير في بيت الدمى، وسرت في جسدها

رجفة. كيف عرفت صانعة الدُمى بهذا؟ كانت عينا مارين على الشمعة، شمع نحل، لا شحم يحترق، بل رائحة العسل اللطيفة فقط. يتراقص اللهب كعفريت، إله ضوء صغير يسخر من شلل تفكيرهما. كيف البداية، ماذا يُقال؟

همست مارين أخيراً:

- لا تخبري أحداً.

- مارين، لا مزيد من الأسرار في هذا المنزل. يجب أن تعرف كورنيليا.

تنهدت مارين:

- ربما هي تعرف فعلاً. كنتُ ألطخ خرق حيضي بدم خنزير حتى لا ينتابها الشك. تطرف في وجه نيلا. كما أنكِ تعرفين جيِّداً ثقوب الأبواب في هذا المنزل.

- هذا إذن ما كنتِ تفعلينه في القبو. ظننتكِ تنظفينها.

- لقد رأيتِ ما أردتِ رؤيته.

تغمض نيلا عينيها، وتستحضر صورة مارين في القبو وقد رفعت يديها الملطختين بالأحمر. يا لتماديها باسم سرها، إذ زيَّفت طمثها، وبدَّلت في مظهرها حتى يظل جسدها على شكله. إن تكوُّر مارين الشامل يثير الذهول. لقد صنعت نسخة من نفسها - قلبان، رأسان، أربعة أذرع، أربعة أرجل - مثل وحش ستضمِّنه في سجل سفينة، مذيَّلة على واحدة من خرائط يوهانس المسروقة. لقد أجادت إخفاءه.

كم مرة حدث ذلك، الفرص المُقتنصة بعيداً عن مرأى آغنس، ويوهانس، والمدينة بأكلها؟ إنها صدمة، وكونها من

فعل مارين هي صدمة أكبر. زنا، جسد على جسد، مُلقيين بالكتاب المقدس عرض الحائط. لكن هذا هو الحب، هي نيلا تفكر. هذا هو ما يجعل المرء يُقدِم.

خفضت مارين رأسها بين يديها. وقالت: "فرانس،" ويكفي اسمه لنقل كل ما أخفته، الحقيقة التي يمكن أن تدمر حياتها.

- كان غاضباً بسبب السكر فقط، يا مارين. إنه يحبك. رفعت مارين عينيها، وتعبير دهشة يتفتّق من وجهها المنهك: أخبريه عن الطفل. حالما يعرف، لن يؤذي يوهانس لأن فعلاً كهذا سيعرضكِ للخطر.

قالت مارين:

- لا، يا بترونيلا. ليست هذه واحدة من قصص كورنيليا.

جلستا صامتتين برهة قصيرة، وتذكرت نيلا عدائية ميرماتز القبيحة، نظرة الانتصار على وجهه عندما أعلن عما شاهداه هو وآغنس.

- لا داعي أن يعرف الناس هذا، يا مارين. نحن بارعون في الإخفاء.

فركت مارين عينيها:

- لستُ واثقة كثيراً من هذا. أخذت نفساً عميقاً، وقالت:

- -لو نجا هذا الطفل، فسوف يوصم.

- يوصم؟

- بخطيئة أمه، بخطيئة أبيه...

- إنه طفل، يا مارين، وليس شيطاناً. في وسعنا أن نبتعد عن

هنا، قالت نهلا برقة أكبر: نأخذكِ إلى الريف."

- لا شيء نفعله في الريف.

عضت نهلا لسانها، وابتلعت الإهانة، حسناً، تماماً، لا أعين متطفلة.

- هل تعرفين ماذا تعني حُبْلَى بالفرنسية، يا نهلا؟ أونسانت.

اغتاظت نهلا، لا تختلف مارين عن شقيقها، تغيِّر مسار الحديث بمفردات أجنبية، وتشوِّش عليك بنغمات ثانوية مُحْنكة.

- هل تعرفين المعاني الأخرى لكلمة أونسانت؟ ألحّت مارين، وسمعت نهلا الآن نبرة فزع خفيفة في صوتها. محيط. سور. بئر.

تركع نهلا أمامها، تقول:

- في أيِّ شهر أنتِ؟

زفرت مارين، وهي تضع ذراعيها فوق بطنها البارزة:

- سبعة أشهر أو نحوها.

- سبعة أشهر؟ لم أكن سأعرف قط. لقد حبلت أمي أربع مرات منذ أن وعيتُ، لكني لم أر ذلك عليكِ.

- إنكِ لم تركّزي، يا نهلا. لقد وسَّعتُ تنانيري وربطتُ ثديي.

لم تستطع نهلا كبح ابتسامتها، حتى في هذا الموقف الاستثنائي، تُظهر مارين نظراً بمحو معالم جسدها، واختفاء حقيقتها عن كل نظراتهم: لكني في هذه الأيام أجد صعوبة في المشي. وكأني أسير حاملة كرة أرضية.

- لن يلبث حملكِ أن يظهر. مهما ارتديتِ من تنانير وشالات.

- إنني طويلة القامة على الأقل. سوف أبدو أكولة فحسب،

تجسيداً لخطيئتي.

ألقت نيلا نظرة على الكأس. كان من الممكن أن تقتلها هذه التركيبة بسهولة. تركيبة - مُفردة توحي ببداية الشيء، بينما هي في الحقيقة نهايته. لقد ماتت فتاة في أسِدلفت إثر شرب تركيبة من الحريق والنعناع البري. كان أصدقاء شقيقها قد فرضوا أنفسهم عليها وأحدهم "شبك طفله بداخلها" بحسب تعبيرهم. صنع والدها التركيبة، وحدث خطأ ما، لأنهم دفنوها صباح اليوم التالي.

أكثر أهل الريف يستطيعون تمييز فطر سام، أو شجيرة قاتلة. إن سبعة أشهر هو آخر الحمل، وكان من الممكن أن تقضي مارين أيضاً نحبها، بعد كل ما خاضته من إخفاء حذر. هل تعرف مارين هذا يا تُرى أم لا؟ كلا الإجابتين تسبب الاضطراب.

- من أين حصلتِ على السم؟

قالت مارين:

- من كتاب. حصلتُ على المكونات من ثلاث صيدليات متفرِّقة. يظن يوهانس أنني سرقت كل بذوري وأعشابي منه، لكن نصفهم في الواقع يأتي من دجالين في أمستردام.

- ولكن لماذا الليلة؟ ألم تتساءلي قبل الآن كيف ستتصرَّفين؟
أشاحت مارين بوجهها، رافضة الإجابة، فألحت نيلا:

- - مارين، هذه التركيبات تصبح في غاية الخطورة إذا لم تشربيها في وقت مبكر بما يكفي. لكن مارين ظلت صامتة.

- مارين، هل أردتِ أن يعيش هذا الطفل؟

لمست مارين بطنها، وظلت على صمتها، مُحدِّقة في سرمديةٍ لا تراها نيلا. تذهب عينيا نيلا إلى كومة الكتب، ويلفت نظرها الآن عنوان واحد، أمراض الأطفال لستيفانوس بلانكارت، ولا تصدِّق أنها لم تمعّن في وجوده في آخر مرة كانت هنا.

عينا مارين أيضاً على الكتاب، وبدت خائفة وصغيرة في السن بصورة غريبة. تناولت نيلا يدها، ومر نبض صغير من كف لكف، قالت نيلا: أتذكر عندما مددتِ يدكِ إلى أصابعي في أول يوم وصلت.

- كلا. لم يحدث.

- مارين، إنني أتذكره بوضوح تام.

- أنتِ من مدَّت يدها وكأنما هي هدية. كنتِ... واثقة من نفسك.

- لم أكن قط. وأنتِ قدَّمتِ يدكِ وكأنما تشيرين إلي بالعودة إلى الخارج. قلتِ إنني أملك عظاماً قوية مقارنة بفتاة في السابعة عشر."

- يا له من شيء سخيف يقوله المرء. في صوت مارين حيرة.

- خاصة وأني في الثامنة عشر.

رقّ جلد مارين الآن، وشعرت نيلا بالترحيب أخيراً. واتكأ جسدها على نيلا، وسكن في هدنة. عجزت نيلا عن تصديق ما جلبه المساء في هذه الغرفة الصغيرة العامرة بالخرائط. إنها حقيقة أكبر بكثير من قدرتها على الاستيعاب، وعقلها يطنّ على أطرافها، محاولاً الدخول. ترغب في طرح العديد من الأسئلة، لكنها لا تعرف كيف تبدأ.

استكانت كلتاهما في هذ الوضع الفريد، وخطرت لها فكرة. يمكن لهذا الطفل أن يصبح الدليل على أن يوهانس هو الزوج الذي يفترض أن يكونه، مؤسس أسرة هولندية صالحة. ولكن بنظرة إلى وجه مارين الشاحب، كبحت نيلا لسانها." أعطني طفلكِ، يا مارين، وأنقذي مصير أخيكِ". ليس عرضاً يسهل تقديمه، وهو على الأرجح أشقّ في استقباله. ظلت مارين تقدم التضحيات طوال حياتها، ومثل هذا الاقتراح لا بد من طرحه بتروٍّ. تقول بلطف:

- سيكون علينا البحث عن قابلة.

أتى رد مارين:

- سيكون عليكِ الذهاب إلى المستودع وتفقُّد السكر. وبدأ جسدها في التصلُّب.

- ولكن، يا مارين! ماذا سنفعل بشأنك؟

ذهلت نيلا أمام قدرة مارين على فصل نفسها بهذه الطريقة، طاوية حقيقة طفلها مثل جوهرة في جيبها. نهضت مارين من السرير مُترنِّحة وهي تشق طريقها بين الجماجم المُبعثرة. من دون تنانيرها الخارجية، تستطيع نيلا رؤية تكورها كاملاً، وانتفاخ ثدييها المرتفعين. خلف جدران جسد مارين الثقيل، يتقلَّب طفل، مملوكاً ومالكاً، أمه التي لم يقابلها بعد هي إلهه. الطفل قادم – ورغم أمل نيلا في الصراحة، إلا أنها تعلم أن هذا سيكون أكبر سر عليهم كتمانه.

يُذكرها الحديث عن السكر بأمر ما:

- لقد منحني يوهانس قائمة بأسماء لشراء السكر، قالت كارهةً، لعدم رغبتها في ترك مارين تحيد عن مسألة طفلها المُقبل.

- طيِّب، هذا جيد.

ولكن قبل أن يأتي لنيلا أن تكمل حديثها، سمعتا خطى خفيفة تبتعد في الممر. قالت مارين:

- كورنيليا، التنصت من الأبواب في دمها!

- سأتحدث إليها.

تنهدت مارين، وقالت:

- عليكِ أن تفعلي، قبل أن تختلق حكاية أسطورية أخرى.

- لن تكون في حاجة إلى ذلك. قالت نيلا وهي متوجهة نحو الباب: لا شيء هنا أسطوريّ أكثر من الحقيقة.

في غرفة نيلا، كانت كورنليا صامتة وعنيدة في البداية، لكنها انهارت، وسقطت على السرير وكأن عظامها رماد. قالت:

- كنتُ أعرف. لكن وجهها المُتحيِّر يخون حديثها المجوي. هرعت نيلا إلى الخادم وضمتها إليها. فكرت،" مسكينة، يا كورنليا. لقد خُدعتِ. لكن هذه اللعبة السحرية الهائلة قد مُورست أمام أعينهم جميعاً. إن هذه أعظم خدعة لعبتها مارين قط، إلا أنها خدعة حقيقية.

قالت كورنليا:

- كنتُ أعرف أن هناك خطباً ما. لكنني لم أرغب في التسليم بذلك. حُبلى!

- لطخت خرق طمثها بدم حيوانات لتخدعنا.

تجيب كورنليا، وعبوسها يتبدل إلى إعجاب مُتمض:

- فكرة ذكية.

- أذكى بالتأكيد من عدم الزواج والإنجاب.

- مدامًا بدت كورنليا مُستاءة، وأدركت نيلا أنها لن تخبر هذه اليتيمة عن تركيبة مارين. لكنها تفكر بدفعة من حب، وإن كنتُ أراهن أن ملكة التنصت هذه قد سمعت كل شيء.

هناك طفل في الطريق. كُشف سر مارين، وصارت نيلا تراه الآن في انتفاخ الستائر، في استدارة وسائد غرفتها. ترسل عينيها خلف كورنليا، إلى فراشها. إن مارين تملك الشيء.

الوحيد الذي لن أحظى به أبداً. تقتحم صورة ميرمانز ومارين معاً عقل نيلا من دون دعوة. جسداهما، فكرت، هذا ليس عدلاً. كان الأمر يتجاوز ذلك على الأرجح - فأمامها رجل يرى أن لمسة مارين تدوم لألف ساعة، أنها ضوء الشمس الذي يقف عنده، مُستدفئاً. كيف من الممكن ألا تفيض مشاعرها، أمام مثل هذا الشعر؟

تسألها كورنليا:

- ماذا سنفعل بالطفل؟

- أفترض أن مارين قد تأخذه إلى دار أيتام خاصة.

قفزت كورنليا على قدميها:

- كلا! يجب أن نحتفظ به، يا مدام.

قالت نيلا:

- كورنليا، إنه ليس قرارك. ثم تضيف وهي تفكر في يوهانس بزنزانته: ولا قراري أيضاً."

تعقد الخادم ذراعيها:

- كنت سأعنى بذلك الطفل كالأسد.

- ربما كنتِ ستفعلين، يا كورنليا. ولكن لا تحلمي بأشياء لا يمكنكِ الحصول عليها.

عرفت نيلا، وإرهاقها يحتدم، أنها كانت كلمات قاسية جداً. ذكرتها بما تقوله مارين. تركتها كورنليا إلى بيت الدمى. كان القمر قد توارى الآن خلف غيمة، والشموع تلقي بضوء مُتموّج عبر الغلاف المبرقش.

سحبت كورنليا الستائر الصفراء القطيفة ونظرت إلى الداخل. ونيلا التي يشتد خجلها من قسوتها السابقة، لا تفعل شيئاً لمنعها. تتناول الخادم المهد، فتأرجحه في كفها. وتهمس:

- جميل جداً.

تفكر نيلا، كان يجدر بي أن أنتبه، أن أول شيء أرادت مارين حمله من بين كل القطع، كان هو المهد. ماذا أيضاً فشلتُ في ملاحظته؟ الكثير، وأنا ماضية في الفشل.

كانت كورنليا قد سحبت دمية مارين، وقالت:

- إنها هي،" حدّقت بدهشة في سيدتها: وكأني أحملها في كفي!

حدقت مارين المصغرة في كلتا المرأتين، فمها مطبق، وعيناها الرماديتان لا تتحركان. مررت كورنليا يدها على درز تنورة سيدتها، صوفها الأسود الناعم يحمل متعة وفيرة في لمسه. رفعتها إلى ضوء الشموع. وهمست مُحيطة الدمية بكلتا يديها:

- حماكِ الله، يا مدام. وعندما التقت شفتا كورنليا بالبطن المنمنمة لتقبيلها، أجفلت، وابتعدت.

- ما الخطب؟ كورنليا، ما الأمر؟

- أشعر بشيء ما.

انتزعت نيلا الدمية منها، ورفعت حواشي ثوبها ثم التنورة الداخلية، حتى وصلت إلى جسد مارين المصنوع من الكتان المحشو. وحينما لمست أصابعها ما اكتشفته كورنليا، اضطربت، لقد هزمتهم صانعة الدُمى مرة أخرى.

كان جسد مارين المُصغَّر، متكور البطن، يحمل مولوداً

في مثل حجم بذرة، تبدو الدمية مثقلة مثل المرأة في الغرفة المجاورة، بطنها يكبر بمرور الوقت.

بدت كورنيليا مصدومة.

- أمرتِ بدمية حُبلى لمدام مارين؟ وإذ تنظر إليها الخادم وفي عينيها الزرقاوين لمعة اتهام، تشعر نيلا بجسدها يتخشب: كيف أمكنكِ أن تخونينا هكذا؟!

توسلت إليها نيلا:

- لا، لا. لقد بدأ السقوط، الطوب المفكك، الفجوة في السد.

- تعرفين كيف تنتشر الشائعات...

- أنا- أنا- لم أطلبها، يا كورنيليا.

- من فعل إذن!

- لقد أُرسلت إلي، لم أطلب إلا عوداً، و...

- من يتجسس علينا إذن؟ دارت الخادم حول نفسها في الغرفة، ملوِّحة بالدمية كدرع.

- إن صانعة الدُّمى ليست جاسوسة، يا كورنيليا، إنها أكثر من ذلك...

- إنها؟ كنتُ أظنُّ أن كل تلك الرسائل مُوجهة إلى حرفي؟

- إنها نبيَّة - انظري إلى بطن مارين! إنها ترى حيواتنا - إنها تحاول تقديم المساعدة، تحاول تحذيرنا—"

أمسكت كورنيليا دمية إثر دمية، تتحسس أجسادهن بحثاً عن مزيد من الأدلة، ثم رمتها واحدة تلو الأخرى على

الأرض، وقالت بغضب:

- تحذيرنا؟ من تكون هذه المرأة، هذه الشخص ما؟ ماذا تكون صانعة الدمى هذه؟ ثم قبضت على دميتها، محدِّقة فيها برعب: يا يسوع الحبيب، لقد عشتُ حياتي بحرص، يا مدام، كنتُ مطيعة. ولكن منذ أن وصل بيت الدمى هذا، فُتحت أبواب كثيرة لطالما نجحتُ في إغلاقها.

- ولكن، هل هذا شيء سيئ؟

نظرت إليها كورنيليا وكأنها مجنونة:

- السنيور في السجن، وأوتو رحل، ومدام مارين تحمل عاراً سريًّا مع رجل هو عدو هذه الأسرة! لقد انهار عالمنا، وهذه، التي تصنع الدمى، تراقبنا طوال هذا الوقت! كيف حذَّرتنا، ما المساعدة التي قدَّمتها؟

- أنا آسفة، يا كورنيليا، آسفة جداً. لا تخبري مارين أرجوكِ. إن صانعة الدمى تملك الأجوبة.

- إنها ليست سوى متلصصة، لا أحد يحركني سوى الرب في الأعالي.

- ولكن لو أننا لم نعرف بأمر مارين، فكيف عرفت هي، يا كورنيليا؟

- كنا سنعرفه. بل قد عرفناه فعلاً. لم نكن في حاجة إليها لتخبرنا.

- وانظري إلى هذا." تريها نيلا مخروط آغنس المسوَّد. "كان أبيض في بداية مجيئه.

- إنه سخام من المدفأة.

- إنه لا يذهب بالفرك. وكانت ريزبكي تحمل علامة على رأسها، حين قتلها جاك.

تراجع كورنيليا عن بيت الدمى:

- من هذه الساحرة؟

- ليست ساحرة، يا كورنيليا. إنها امرأة من النرويج.

- ساحرة نرويجية تحولت إلى جاسوسة أمستردامية! كيف تجرؤ على إرسال هذه التمائم إليك...

- ليسوا تمائم.

أشعلت مرارة كورنيليا حريقاً في قلب نيلا. شعرت كأنه يتم تشريحها وكذا صانعة دماها، الشيء الوحيد الذي تمتلكه قد شق وتناثرت أحشاؤها.

- لم يكن لي شيء في هذه المدينة، يا كورنيليا. لا شيء، وقد اهتمت. لا أفهم لماذا اختارتني، لا أفهم الرسائل التي ترسلها دائماً، لكنني أحاول...

- ماذا تعرف أيضاً؟ ما الذي ستفعله؟

- لا أعرف. صدقيني أرجوكِ، لقد طلبتُ إليها التوقف، لكنها لم تفعل. كانت كمن فهمت تعاستي، واستمرت.

قطبت كورنيليا جبينها، وقالت:

- لكني حاولتُ إدخال السعادة إلى حياتك. كنتُ هنا...

- أعلم أنك كنتِ. وكل ما عرفته عنها أنها تدرَّبت على يدي ساعاتيّ في بروج. لقد كاتبته، لكنه لا يختلف عنها في الصمت. تسمع نيلا صوتها وهو يلح في النحيب، والدموع

الحارة تهدد بالتدفق من عينيها. - ولكن ماذا قال بلوكورني في عظته؟ لَيْسَ خَفِيٌ لاَ يُظْهَرُ."

انفجرت كورنليا:

- لا يسمح للنساء بالتدرب في الحرف. لا رجل سيهتم بتدريب امرأة. لا نقابة ستضمها إليها باستثناء الخياطات أو مُوزِّعات الخث برائحته المنتنة؟ وما الفائدة من الأساس؟ الرجال هم صنّاع هذا العالم.

- لقد صنعت الدقائق والثواني، يا كورنليا. لقد صنعت الزمن.

- لولا أني أقلي سمك الحفش في صحنك، وأتبل فطائرك، وأنظف نوافذك، لأمكنني أنا أيضاً أن أصنع الوقت. لأمكنني أن أصنع دمى شيطانية وأتلصص على الناس...

- إنكِ تتلصصين على الناس فعلاً. ومن هذا المنطلق، فأنتِ مثلها تماماً.

بانفعال وأنفاس لاهثة، زمّت كورنليا شفتيها ودفعت دميتها داخل البيت، قائلة:

- لستُ مثلها في شيء.

لمست نيلا تشكيلة الدمى، وقالت بصوت ضامر:

- ما كان يجدر بي أن أفقد أعصابي، يا كورنليا."

خيم صمت قصير:

- ولا أنا، يا مدام. لكن عالمي تحول بسرعة كبيرة في الأيام الماضية. لقد تفكك.

- أعلم، يا كورنليا، أعلم.

أغلقت نيلا الستائر على بيت الدمى كطريقة لجلب شيء من السلام المؤقت. وفي رد صامت، أغلقت كورنليا ستائر النافذة، ووقفت الفتاتان في الظلام.

- يجب أن أعنى بمدام مارين، قالت كورنليا، وهي تدير ظهرها بتصميم إلى بيت الدمى.

وحينما أضحت وحيدة، تخيلت نيلا صانعة الدُّمى، وهي أصغر سناً. ربما كانت كورنليا مُحقة، ربما لا أحد كان سيشتري ساعاتها، مفضِّلاً تلك التي صنعها رجل؟ لم تكن لتتمكن قط من صقل مهاراتها، لذا توقفت عن محاولة تطويع الإيقاعات الاصطناعية للرجل، وتوجهت إلى الداخل. في أي مرحلة يا ترى اختارت هذه النقلة الحميمية والشاذة إلى حياة المنازل الداخلية ولماذا اختارتني؟ أراحت نيلا رأسها على جدار بيت الدمى. كان ملمس الخشب البارد على بشرتها مثل بلسم. فكرت، إن صانعة الدُّمى، بعرضها لقصة حياتي، قد أصبحت هي نفسها مؤلفتها. كم أتمنى لو أستطيع استعادتها من جديد.

الجزء الرابع

كانون الثاني، ١٦٨٧ م

وَهُوَذَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ
فِي الْكَثْرَةِ... كَيْفَ أَحْمِلُ وَحْدِي ثِقْلَكُمْ وَحِمْلَكُمْ
وَخُصُومَتَكُمْ؟

سفر التثنية ١: ١٠-١٢

يتخذ الأمستردامبون من أول يوم في العام الجديد موعداً لفتح النوافذ في شعيرة جريئة يدخلون بها الهواء البارد إلى منازلهم، ويزيلون بيوت العنكبوت والذكريات التعيسة. ارتدت نيلا ثياب الخدم، وساعدت كورنيليا سيدتها على ارتداء حذائها وتعليق مفتاح مستودع يوهانس حول عنقها مثل وسام.

إنه ليس عيد الغطاس بعد، يوم تبادل الأدوار، لكنهم لا يملكون وقتاً يضيعونه. بدت الخادم كمن تتوقع مجيء إبليس بنفسه مع عفاريته، لكنها كانت قد تعهدت ألا تخبر مارين بالسر المخفي تحت تنانير دميتها، ولا بالرأس المُسوَّد لمخروط آغنس. قال نيلا:

- إنها في حاجة إلى الهدوء. فكري في الطفل.

أغلقت نيلا معطف الخادم الخشن حول عنقها. حاولت أن تقف بثبات، لكنها شعرت بنفسها تهوي، إلى أعماق أبعد مما تصوّرت أنها ممكنة، في وحل المدينة ومستنقعها، إلى زمن الطين والبحر.

قال كورنيليا:

- لا يجدر بك أن تذهبي إلى الجزر الشرقية بمفردك.

- لا نملك خياراً. عليكِ البقاء هنا مع مارين. لن أهرب.

- خذي دانه. ستكون حارستك.

تركت نيلا المنزل، ومضت في شارع الهيرِهراخت، ودانه

تخبُ إلى جوارها، والمفتاح يستقر ثقيلاً على صدرها. أرادت رؤية يوهانس في الستدهاوس أولاً، لكن الهيمنة تكون للمال في أمستردام وعليها أن تكون منطقية. تساءلت: "ماذا تُراها تجد في الجزر الشرقية". "من غيري سيفعل هذا، يا مارين؟" قالتها متوسلة في وقت سابق من هذا الصباح: "إن يوهانس في زنزانة. لو أن آغنس وفرانس قررا ألا تأخذهما رحمة، فربما يكون في وسعنا رشوة جاك لتغيير قصته على الأقل."

فأومأت مارين بموافقتها، ويداها على بطنها. الآن وقد عُرف حملها، يبدو جسدها وكأنه ازداد حجماً. إنني رغيف عملاق، قالتها والدة نيلا عندما كانت حبلى في أرابيلا. والآن تبدو مارين أيضاً كمن تترقب إثبات جدارتها، التأكد من أن بدانتها كافية. مارين وعقدتها الأوثق من أن تُحل، أيّا كان ما عنته؟

أضافت نيلا:

- بعد ذلك سأزور يوهانس، إن أدخلوني. هل تريدين مني حمل رسالة إليه؟

بدا وجه مارين صورة جامدة للحزن. ثم ابتعدت، وهي تُخفض يديها إلى جانبيها، وتحدّق جهة الصالون:

- ليس في يدي أن أقول شيئاً.

- مارين...

- الأمل خطير، يا بترونيلا.

- إنه أفضل من لا شيء.

كان البرد قارساً، سكاكين حادة صغيرة على وجه نيلا. فكرت، فلتسرع يا فصل الربيع، ثم تتساءل هل تُراه حكيماً أن

تمنى انقضاء هذا الوقت على مارين، على يوهانس. لربما بحلول فصل الربيع، تكون جمهوريتهم الصغيرة قد صارت حطاماً تحت أقدامهم. وحتى تنفُض عنها الغمّ، تمشي بوتيرة سريعة، لعشر دقائق أو نحوه شرق المدينة. وجدت نفسها تفكر في رحيل صانعة الدُمى من الكالفرسترات. لم تكن نيلا قد تخلت عن الأمل، ما زالت تتوق في الشوارع إلى لمحة من شعر أشقر، إلى طرق على الباب وطرد جديد. لكنها لا تجد سوى الصمت منذ أيام عديدة. كانت نيلا قد أخبرت كورنليا أن صانعة الدُمى تعبر لها الطريق، ومع ذلك تشعر بأنها وحيدة، تتخبط في الظلام. تحتاج إلى المزيد من الرسائل، المزيد من الدُمى، لتفهم ما سيأتي وما مضى. عودي، هكذا تفكر، وهي تعبر واحداً من الجسور العديدة إلى الجزر الشرقية. لا أستطيع فعل هذا من دونك.

حيثما نظرت وجدت ماء، بحيرات جامدة كالزجاج، مرقّطة بالسواد كمرآة صدئة عندما تتوارى الشمس الضعيفة خلف السحاب. في حانة قريبة، تُقدَّم بطاطس يوهانس المفضلة التي لبُّها هش. لا تستغرب لماذا كان يفضل هذه المنطقة، فهي أقرب إلى البحر، قليلة الناس. و هناك أماكن كثيرة تصلح للاختباء.

ظهر أول أثر من المستودعات، أبنية من الطوب شاهقة الارتفاع، يفوق عرضها المنازل التي تقوم في دائرة المدينة. تبدو لها الجزر خاوية هذا الصباح. ربما، مازال معظم الناس في الفراش على الأرجح، يزيلون بالنوم أثر شرب نخب العام الجديد. لم يكن والدها يظهر حتى المساء التالي من توديع العام القديم، ثم كان يستيقظ ليقول إن شيئاً لم يتغير. تفكر نيلا، ليس الأمر كذلك هنا. لم يعد شيء على حاله. يجعلها الهدوء

تسمع وقع قدميها، ولهاث دانه الخفيف وهي تسرع إلى جانبها.

على الرغم من السكون الذي يخيم على هذه الأراضي المنفصلة، إلا أنه سكون مغلف بالتركيز، فكل الأشياء هنا تملك هدفاً واحداً، الجزء الخام من التجارة، تخزين المُؤن، صيانة السفن، إطعام البحارة والقباطنة سواء بسواء. مُسترشدة بوصف مارين، وصلت أخيراً إلى مستودع يوهانس، بارتفاع ستة طوابق، وباب أمامي أسود صغير.

فتحت الباب بيسر. وأعادت هندمة تنورة كورنيليا ومئزرها الواسعين. كنَّ قد حاولن تحديد أيهما الأسوأ -ضبط خادمة في مخزن سيدها، أم زوجه؟ وراهن أن الخادم أخف وقعاً. إن سمعة يوهانس براندت في غنى عن إضافة خبر مدام بترونيلا وهي تلصص على الجزر. تخيلت فرانس وآغنس عندما جاءا يتسللان من خلف المبنى.

أمرت دانه: "اجلسي هنا، يا فتاة،" وحاولت التركيز على المهمة المكلفة بها. تربت على رأس الكلبة. "وانبحي إن اقترب أحدهم." تفكر، علينا وضع كلب حراسة بصورة دائمة. الآن وقد اختفى جاك.

داخل المستودع تباطأت أنفاس نيلا. شعرت بضآلتها، وهي تقف عند نهاية سلم حائط طويل ونحيل يصل إلى ما بعد خمسة طوابق مشغولة بمخزون يوهانس. إنه الرجل الذي يمتلك كل شيء، لكنه لم يشعر سوى بالحرمان.

تشعر نيلا في اعتلاء السلم بحثاً عن السكر، وكأنها تتسلق حياة زوجها. تصعد أعلى فأعلى داخل القاعة الضخمة، وتنانيرها تعلق بدرجات السلم، في تهديد بالسقوط. وفي طريقها ترى أثواباً من حرير كوروماندل والبنغال، قرنفل، جوزة طيب

وقشرة جوزة الطيب في صناديق مكتوب عليها جزر الملوك، فلفل مُصنف من مالابار، أعواد قرفة سيلانية، أوراق شاي في صناديق معلّق عليها عبر باتافيا، ألواح خشب غالية المظهر، أنابيب نحاس، شرائط قصدير، أكوام من صوف هارلم. ترى أطباقاً دلفتيةً، براميل نبيذ تحمل علامة إسبانيا وخيريز، صناديق من صباغ الزُنجُفر والقِرمِز، زئبق للمرايا والزهري، حلي فارسية مطلية بالذهب والفضة. وإذ تتشبث بالدرجات، تفهم افتتان مارين بعمل أخيها. فكرت، منقطعة الأنفاس وداعة، هنا الحياة الحقيقية. هنا مهبط المغامرات الحقيقية.

اضطرت نيلا إلى الصعود إلى الأفاريز لتجد مخاريط السكر. كان يوهانس قد وضعها في المنتصف، وغطّاها بملاءات، في منأى عن الرطوبة. أعجبها هذا الاهتمام، وكادت من فرط تأثرها تبكي. لقد أوحى إليها ميرماتز أنه ألقى بمخاريط آغنس في الطابق الأرضي جنباً إلى جنب مع الأشرعة الاحتياطية والحبال الخام. لكن هذا لم يكن صحيحاً. لقد اهتم يوهانس. هناك الكثير من المخاريط، حتى أنها تلمس الروافد.

وقبل أن تغادر نيلا السلم، اقتربت من غطاء الكتان، ورفعت طرفه بحذر شديد. وجدت مخاريط السكر مصفوفة فوق بعضها كالمدافع. كان ينقصها مخروط واحد، هو ولا شك المخروط الذي أحضرته آغنس في العشاء - حلاوة ذات حدّين إن وُجد شيء كهذا. فكرت نيلا، سوف أتحطم لو أن هذا الشيء انهار.

يوجد هنا أكثر من ألف مخروط. ركعت نيلا إلى جوار المخاريط التي تبدو أقرب للحديقة. إنها ما تزال مرتّبة وناصعة، وموسومة من دون شك بصلبان أمستردام الثلاثة. بعض من

النصف الآخر المكرر في سوريام، رطب الملمس، وتعود أصابع نيلا ملطخة قليلاً بمعجون أبيض. في الجزء الخلفي من جبل السكر، كانت بويغات سوداء صغيرة قد انتشرت فعلاً على ربع من سكر سوريام. لا شيء يمكن أن ينقذ البلورات الثمينة التي أصابتها اللفحة بالفعل. ومع ذلك، هي تفكر - لقد بالغ ميرمانز، ورأى ما أراد أن يراه. ربما يمكننا تجفيفها - لا بد أنه في مقدورنا إنقاذ ولو جزء من كل مخروط.

أخذت تلحس ما خرج من سكر في أصابعها. وتفكر، ماذا لو متُّ من لعق سكر فاسد، من شهوة البطن. ألم يكن القس بيليكورني ليحبّ ذلك.

أخرجت قائمة يوهانس من جيبها، مرصوصة بأسماء مُزركشة وفيرة. إنها تضم عوائل نبلاء إنكليز وكرادلة، أميرة إسبانية، بارون، أناس يحلمون رغبة في تحلية ساعات رفاهتهم في لندن، وميلانو، وروما، وهامبورغ، وحتى منافي القوك. دهشت، كيف نجح يوهانس في التجارة مع الإسبان، والإنجليز، على الرغم من الحرب التي خاضوها مع بلادهم. يذكرها هذا بشيء قاله يوهانس لميرمانز في نقابة الصاغة. إنهم يروننا في الخارج غير أهل بالثقة. لا أحب أن أوصف بهذا.

إن السكر أكثر مما توقعت. شعرت أنها تحمل على كاهلها واقع العجز الحالي ليوهانس ومارين. عندما أشارت إلى يوهانس أن توظيف وكيل ينوب عنهم في الإبحار إلى الخارج سيستقطع نصيباً كبيراً من عوائدهم الثمينة، لم ينكر ذلك. لكنهم في حاجة إلى شخص أقرب إلى متناولهم، شخص يفهمهم، شخص يرغب في السكر. نهضت نيلا، ووضعت يديها على ردفيها، وشطت عقلها، مُحدِّقة في مصدر رزق فرانس وآغنس. ثم إذ هي تفكر، تعليقاً

في أول شهر لها في أمستردام، وهي تجلس مذهولة وفي حجرها تستقر كمكة في غلافها المفتوح. وقائله شخص أعجب نيلا فوراً، امرأة تتمتع برقيٍّ وخبرة. "توفي إسفنجي هذا الصباح ومرزبانية في العصر".

كوّرت نيلا قائمة زوجها. أجل، وهتفت سرّاً في وجه الجدران والروافد، في السقف الخشبي. أعرف ما علينا أن نفعله.

تبعت نيلا حارساً عبر أول ممر تحت الأرض في سجن الستدهاوس، ثم إلى جناح طويل من المبنى. تناهى إلى أذنيها سعال المساجين الجاف وتذمرهم. المكان أكبر مما ظنَّت. يُخيَّل إليها أنه يتمدد بصورة سحرية كلما تعمَّقت فيه، مُفلتاً من إحساسها بالأبعاد. زنزانة تلو زنزانة، طوبة تلو طوبة، لتجد نفسها عاجزة عن استيعابه.

سمعت صرخات وأنيناً، وجلجلة قضبان ونحيباً. رفعت رأسها خشية أن يشمروا رائحة خوفها المتصاعد، وحاولت صمَّ أذنيها عن صرخات الرجال المتنافرة.

سارت مع الحارس حول فناء مكشوف، في منتصفه آلات غريبة مصنوعة من ألواح خشبية مثبتة بمسامير قابلة للتحريك، وآلة أخرى فيها صف من نتوءات حادة. إن السجناء يوضعون هنا لتقويمهم بالمعنى الحرفي للكلمة. حوِّل نيلا نظرها، عازمة ألا يخيفها شيء، وهي تتحسس مفتاح المستودع المُخبأ على صدرها، وفكرتها الطازجة ما تزال مضيئة في عقلها. لا تدعي الأسلحة الحلوة تضيع.

قال الحارس وهو يفتح باب زنزانة يوهانس: - ها هو ذا." تلكأ أطول من اللازم، ثم أوصد الباب خلفها.

قالت نيلا وهي تعطيه جلدراً من بين القضبان:

- لا تعد سريعاً. همست لنفسها:" يا للأشياء التي علمتني إياها هذه المدينة" وضع الحارس الجلدر في جيبه، وابتعدت خطواته

سريعاً. تناهت إلى سمعها أصوات نوارس تحلق عالياً في السماء، وقعقعة بعيدة لعربات تسير فوق الحصى.

في الظل، اتكأ يوهانس على طاولة صغيرة. لم يكن لديه كرسي أو مقعد، لذا وقفت أمام الباب. تحيط بها رطوبة، وطحالب تكسو الجدران، هي خريطة من جزر خضراء ليس فيها خطوط طول وعرض. بدا يوهانس مُستغرقاً في التفكير، لكن حيويته حاضرة. حتى هنا، وهو مُجرَّد من حقوقه، ما يزال قادراً على إثارة الإعجاب. سألها:

- رشوة موظفين؟

- نحتاج إليهم أصدقاء. خرج صوتها مكتوماً بسبب الجدار المعدني السميك.

قال بابتسامة:

- تتكلمين مثل مارين.

لقد لكموه في كلتا عينيه، وصار الجلد المحيط بهما بلون التوليب الجاف. شعره أشعث كأعشاب بحر مُبيّضة، وملابسه تبدو عليها القذارة. ترتعش ذراعاه وهو ينهض مُستنداً إلى الطاولة، ويقول:

- يرفضون منحي الكتاب المقدس، أو أي كتاب، في الحقيقة.

أخرجت نيلا، من الجيب الذي لا يحوي قائمة السكر المكرمشة، ثلاث شرائح من لحم مدخن ملفوفة في ورق، ونصف رغيف مغطى بقطن وقطعتين صغيرتين من الأولي-كوكي. تعبر الزنزانة، يديها مبسوطتين ويقبل يوهانس الهدية، قد بدا عليه التأثر:

- كنتِ ستقعين في ورطة لو أنهم وجدوها.

- أجل، قالت، وهي تبتعد مرة أخرى، فتكنس زاوية الزنزانة بقدمها.

- كنتُ قريباً من الهروب.

نظرت نهلا إلى ركن الزنزانة، حيث عائلة من فئران وليدة تحدث حفيفاً على القش، يتسلق أحدها الآخر في ألفة عمياء. جلست بتثاقل على فرشة القش، وينتشر في داخلها حزن عميق، أحبط رغبتها في القتال:

- ماذا قالوا لك؟

أشار يوهانس إلى كدمات عينيه:

- إنهم رجال قليلو الكلام."

قالت، في محاولة يائسة للتغلب على حزنها:

- في بداية لقائي بك، لم تكن تكترث للكتاب المقدس، للرب، للذنب والخطيئة والندم.

- كيف تعرفين أني لم أفعل؟

"لم تكن تذهب إلى الكنيسة، وتستفزك صلوات مارين المنزلية. تشتري أغراضاً ثمينة، وتأكل أطعمة فاخرة، وتقتنص كل ما تقع عليه يداك من متع. كنت رب نفسك، مهندس حظك.

ابتسم مُشيراً إلى الجدران من حوله.

- وانظري ماذا بنيت.

- لكنك كنت حرّاً، أليس كذلك؟ فكر في كل الأماكن

التي ذهبت إليها. ابتلعت نهلا لعابها، مُحافظة بالكاد على استرسال كلماتها.

- كانت شقيقتي تقول دائماً، إنني مزيج مريع من الطيش والعزيمة.

- ألهذا عدتَ إلى جاك؟

يُغمض يوهانس عينيه وكأن الاسم يغمره.

- لقد خانك، يا يوهانس. دُفعت أموال وأُخذت أموال...

يقول يوهانس:

- لم أعطه فلساً واحداً منذ اليوم الذي غرز خنجره في كلبي، كلماته وكأنها تسقط خلاله مثل الحجارة. "لقد عيَّنته حارساً على السكر، لكن مارين كانت من القلق بسببه حتى قررتُ فصله. كنتُ متفهماً وجهة نظرها طبعاً. عاد إلى العمل ساعياً، وعندها بدأت الأمور تسوء. لقد قابلتُ جاك بالفعل بعد قتله ريزيكي." تلين أساريره في الضوء الخافت. "لم أر قط ندماً كالذي أبداه على ما فعله.

عضّت نهلا على لسانها. إن جاك على الأرجح لم يجد بدًّا من إظهار ندمه، ولم يجد يوهانس في المقابل بدًّا من تصديقه.

- لا بد أن له أهمية كبيرة في داخلك، حتى تغفر له شيئاً كهذا. ظل صامتاً، فأردفت: يوهانس، هل كان ذلك - حبًّا؟

فكر في سؤالها، وأذهلها من جديد كيف أنه يأخذها دائماً على محمل الجد:

- مع جاك، بدا الأمر وكأن... شيئاً عصيّاً على الفهم... لم يلبث أن أصبح حقيقياً جداً. يا لسرعته، يا نهلا. لقد جعلني

جاك بأكاذيبه أرى الحقيقة، بالطريقة نفسها التي يمكن للوحة أن تُظهر شيئاً ما بصورة أفضل مما هو في الواقع. أصبحتُ تقريباً لا أميزه عن الحب، تنهد يوهانس: لكنه لم يكن سوى حب مرسوم. هل تفهمين؟ كانت صورة الحب أفضل من الفوضى التي خلفها وراءه».

قدم لها يوهانس صراحته مثل هدية مفاجئة أخرى. في وسعها أن ترى القناة الجارية بينهما نقية جداً وصافية، ولكن عندما أغلقت نيلا عينيها لا ترى سوى تيار ماء راكد.

سألها:

- هل أنتِ على ما يرام؟

- تؤمن مارين أن الحب في السعي إليه أفضل منه عند امتلاكه.

- لا يدهشني هذا. إنه ليس أفضل. لكنه أسهل. خيال المرء أكثر عطاء دائماً. ومع ذلك، فالسعي يرهقه في النهاية.

تساءلت نيلا، وإلامَ نسعى جميعاً؟ أن نعيش طبعاً. أن نتحرر من القيود الوهمية التي تحدث عنها يوهانس في مكتب منزله. أو أن نكون قانعين في قيودنا على الأقل:

- إلى أين كنت تنوي الذهاب، عندما أمسكوا بك في تيكسل؟

- لندن. كنت آمل في العثور على أوتو. كانت مارين في غاية الاقتناع بوجوده هناك. كيف هي أختي؟

- أنت ذو نفوذ، يا يوهانس، شعرت نيلا بضرورة أن تتجاوز سؤاله، إذ تعلم أنها إن لم تفعل، فسوف يفضح وجهها الحقيقة

حول مارين: لقد رأيتك في وليمة النقابة. قلتها بنفسك - لا يمكن لرؤساء البلديّة أن يقربوك.

نزل بجسده إلى فرشة القش إلى جوارها:

- إنها الكريمين نيفاندوم(١)، يا نيلا. رجلان معاً. في مواجهة هذا الاتهام لا نفوذ لأحد، إلا الرب. إن عدم اتخاذ إجراء معناه قبول الأمر، والناس يجب أن يروا رؤساء البلديّة يتحركون.

- علينا إذن، أن نجعل ميرمانز يغير رأيه!

مرر يوهانس يده على قمة رأسه، وكأنما ليجد جواباً هناك. ثم قال:

- مضى على هذا سنوات الآن، لكنني فعلت شيئاً أغضب فرانس كثيراً. وبعدها ارتكبت جريمة أكبر عندما صرتُ ناجحاً. وها هي الجريمة ترتد وتعود الآن لمطاردتي.

تخيل نيلا يوهانس أصغر سناً، وهو يرد فرانس خائباً من منزله، وأخته تراقب مُتخفية عند النافذة، الإذلال القبيح الذي خيّم الآن عليهم جميعاً.

قال يوهانس:

- ظننتُ أن قبول التوسط لبيع السكر لربما يجلب وفاقاً. لكن فرانس كان قد... تغيَّر. انتظر طويلاً ليثأر لنفسه من عائلة براندت. أنا كل ما يكرهه، ويريد أن يكونه. وآغنس، حسناً. آغنس ستسلك دائماً الطريق المفروش بفتات سمومه."

- أعتقد أن آغنس تكن لك الإعجاب.

- حسناً، إن هذا لن يزيد الأمر إلا سوءاً. تعلقاً عينا يوهانس

مثل خرزتين رماديتين في الضوء الضعيف. قال، وهو يتناول يدها:

- - إني سعيد جداً بقدومك. لا أستحق ذلك.

ظنت نيلا أنه لا بأس بالتقدير على الأقل، مادام الحب غير ممكن. متى يتوقف بحثها عن بدائل للأصل؟ ومع ذلك، فهي تفضل البقاء إلى جواره عن أي مكان آخر.

يقول يوهانس:

- إن لم أعترف، فسوف تُعقد محاكمة. خلال بضعة أسابيع. وفي كلتا الحالتين، لا أتوقع الخروج من هنا حياً.

- لا تتحدث بهذه الطريقة.

- سوف أجري الترتيبات اللازمة. أنتِ، مارين، كورنيليا. وأوتو، إن قُدّر أن يعود. يصبح صوت يوهانس فظاً جافاً، كاتب عدل يقسّم تركة شخص آخر. "سيحضر جلسة الاستماع بضعة رجال من شخيبينبانك أمستردام، وإن كان سخاوت بيتر سلابارت سيشرف عليها."

- لماذا ليس السخاوت فقط؟

- لأن التهمة جسيمة. لأنه أنا. لأنه كلما كانت القضية فاضحة، ازداد اهتمام مواطنينا المعتبرين.يسكتُ قليلاً: لكني أتخيل أنها ستكون سريعة.

- يوهانس...

- تنتهي التهم الكبيرة عادة بالموت، وبدأ صوته في التهدُّج: والسخاوت يحب اللوم الجماعي. كلما ازداد العدد في طقس ما، أضفى ذلك عليه تبريراً.

قالت نيلا:

- سأبحث عن جاك، سأدفع له مبلغاً أكبر ليغير قصته." تتذكر صورة صندوق نقود يوهانس الفارغ، والسكر المُسوَد في أكوام في الطابق السادس من مستودعه: كأ أني فكرت في خطة...

قال يوهانس:

- هناك حارس، يطلقون عليه الكاهن الدموي، يشد أكثر على يدها: كاهن في المهنة، ووحش في الطبيعة.

تعلق الكلمة الأخيرة في الهواء الرطب، جبّارة، لا تُقهر، تلمس نيلا وجهها، كانت الرطوبة في الهواء قد جعلته بارداً جداً، كيف تحمّل يوهانس هنا يوماً كاملاً؟

قال يوهانس:

- رأيتُ ضحاياه يُحملون من أمام زنزانتي، عظامهم قد برزت من تجاويفها بلا عودة، سيقان لم تعد سيقاناً، أطراف كالقطن المبلل، أحشاء كاللحم المفروم، سيعتصرونني لأقول أموراً، وسوف أقولها، يا نيلا، وينتهي الأمر.

دفن يوهانس وجهه في أعمق ما يمكنه في كتفها، تشعر نيلا بأرنبة أنفه تنغرز في جسدها، وتضع ذراعيها حوله، ترغب أن تحمّمه من رأسه حتى أخمص قدميه، أن تعيد إليه انتعاشه، أن تجعله يفوح برائحة التوابل، والمال العالق في أظفارها، تهمس: يوهانس، يوهانس، إنك تملك زوجةً، أنا زوجتك، أليس هذا دليلاً كافياً؟

"لم يكن ليكفي قط."

ماذا عن طفل إذن؟ تريد أن تسأله، ماذا عن طفل؟ سر

مارين على طرف لسانها، تفكّر، مهلة أطول - كل ما أريده هو مهلة أطول، من يدري أي قصة قد نرويها في مهلة شهرين؟

تقول:

- يوهانس، ليتني كنت كفاية.

تراجع يوهانس، وأمسك بجانبي وجهها.

- كنتِ معجزة.

انسحب الضوء من الزنزانة، وقريباً يعود الحارس. كانت هذه أول مرة تمضي نيلا كل هذا الوقت مع زوجها بمفردهما طوال الأشهر الأربعة التي هي عمر زواجهما. تتذكر عندما أخبرت يوهانس في حجرة مكتبه كم أنه يسحرها. وإذ تنظر إليه الآن، ترى صدق تلك الكلمات. حديثه وعلومه، تكيُّفه الساحر مع نفاق العالم، رغبته في أن يكون نفسه. يرفع يده إلى ضوء الشمعة، فتبدو حواف أصابعه القوية والصلبة جميلة. كم ترغب في أن يعيش.

هذا الحديث عن تبدل الأحوال، كيف أن الأشياء تتغير، عن الغرف التي تمتلئ وتخلو، عن جسدي الشقيقين اللذين تفتقا عن سرّين كبيرين، كل هذا يجعلها ترغب في إخباره عن صانعة الدمى. وكأن عمراً مضى منذ أن نزلت السلالم ورأت بيت الدمى قابعاً على البلاط الرخامي. كم شعرت حينها بالإهانة، كم كانت مارين غاضبة.

- هل أخبرك جاك من قبل عن موظفه في الكالفرستراات؟

- كان له موظفون كثيرون.

- امرأة من برجن؟ شقراء؟ تدربت على يد ساعاتي.

قضم يوهانس قطعة صغيرة من إحدى الكمكتين المُغلّفتين بالسكر، وأضاء شمعة على طاولته. شعرت نيلا بنظرته الحادثة على قمة رأسها، وقال:

- لا، كنتُ لأتذكر ذلك.

- إنها صانعة الدُّمى، التي استأجرتُها لتأثيث بيت الخزانة. هي من صنعت دمية ريزيكي.

وإذ ذاك أشرقت عيناه المتعبتان. "امرأة؟"

- أجل، أعتقد ذلك.

- يا لها من مهارة وقوة ملاحظة استثنائيتين. كنتُ لأصبح مُموِّلها، لو أتيحت لي نصف فرصة. مدّ يده في جيبه، ورفع الكلبة الصغيرة بحنان وملامحه مفتونة: إنني آخذها معي أينما ذهبت. إنها أعظم مُعين.

همست: "حقاً؟" سلّمها يوهانس المنمنمة، وبعوقير، تتناولها نيلا بأنامل مرتجفة تمررها على نعومة رأس ريزيكي المصنوع من جلد فأر. على جمجمة الكلبة، لا تجد أدنى أثر من اللون الأحمر. تعيد نيلا التحقق، ولكن لا شيء تبقى من العلامة الصدئة التي كانت متأكدة منها من قبل.

تهمس:

- إنني لا أفهم.

- ولا أنا، لم أر شيئاً مثلها من قبل.

ألقت نيلا نظرة أخيرة على الجمجمة الصغيرة للحيوان. لا شيء. سألت نفسها، هل رأيتها من الأساس؟ تمرد الشك الآن على اليقين، ما رأته، و ما لم تره في الأشهر القليلة الماضية يلف في

دوامة داخل رأسها.

قال يوهانس:

- أحياناً أشكُّ أنني أجلس ساكاً هنا، أنني أيضاً قد مت بالفعل.

- أنت حي، يا يوهانس. أنت حي.

- عالم غريب. بشر يدورون ليطمئنوا أحدهم الآخر بأنهم لم يموتوا. نحن نعلم أن هذه ليست ريزيكي، لكننا بطريقة ما نشعر أنها هي. وهكذا يخلق شيء صلب ذكرى هلاميةً. ليته كان العكس، أن تستطيع عقولنا تجسيد أي شيء نريده،" يتنهد، وهو يمسح وجهه بكفيه: عندما غادر أوتو، أدركتُ ضآلة نفسي، حتى لكأني ميت.

سكت، وأعاد ريزيكي إلى جيبه: ستكون هذه الزنزانة الآن هي نطاق حياتي اليقظة، يقولها، مادًا ذراعيه كطاحونة عوجاء: هناك آفاق عبر الجدران، يا نيلا. انتظري وسترين".

غادرت نيلا، وقد ضاقت بتلك الغرفة الصغيرة، بالطحالب والفئران، بأصوات رجال يزعقون كالطيور، ويوهانس سجيناً في قفص، يومتها الكبيرة محاطة بالغربان. خرجت نيلا مترنحة إلى شمس الشتاء، وعندها فقط تبكي بدموع عنيفة صامتة، مُتكِئة إلى سور المدينة.

فوكيرشجيل



عندما تفتح نيلا الباب الأمامي، خمدت في حلقها الرغبة في إخبار مارين عن حالة السكر ووضع يوهانس.

ففي منتصف الدهليز، كان مهدٌ بالحجم الطبيعي، مُتأرجحاً على حامليه المصنوعين من الصفيح. زُيّن خشبه البلوط بتطعيمات خشبية من ورود وأقوان وعسلة ووردة الذرة، وله غطاء، مُبطّن بالقطيفة وموشّى بالدانتيل. إنه، بجماله ومفاجأته، نسخة طبق الأصل من المهد في بيت الدمى في الأعلى.

أغلقت نيلا الباب، وهي ما تزال مضطربة من زيارة يوهانس. ما تخيّلته استهزاءً في البداية، إرسال مهدٍ إلى امرأة زواجها هزلي، قد أصبح حقيقة واقعة. أقبلت كورنيليا مُهرولة على سلم المطبخ.

قالت ل نيلا:

- ما هذا؟ هل تُراه أتى من...

قالت كورنيليا بحدة:

- كلا. لقد طلبته مدام مارين. وصل في صندوق من لايدن.

لمست نيلا خشب المهد. شعرت به يغرّد تحت أصابعها، والتطعيمات الخشبية ألحان موزونة.

- إنه الذي أرسلته لي نفسه.

- أعرف. الشخص...

ظهرت مارين من الصالون. بدا محيطها الآن من مسافة قريبة

بجذع شجرة بلوط. قالت:

- دقة الصنع لا مثيل لها. إنه كما تخيلته تماماً.

- كم كلّف هذا لصنعه، لشحنه إلى هنا؟

تخيل نيلا سحابة أموال يوهانس المتقلصة تتبخر أخيراً في الهواء:

- مارين، لو أن أحداً من الجيران رأى هذا، فيم سيفكرون؟"

- فيما تفكرين به نفسه.

- ماذا؟

- لا تظني أني لم ألحظ طنين عقلك. توجهت مارين نحوها بحركات ثقيلة: تريدين أن تأخذي طفلي لنفسك."

كيف تقرأ مارين عقول الناس أسرع من أي شخص آخر؟ تفكر نيلا، في وسعي أن أراوغ، ولكن ما الفائدة؟ كنتُ أنا من طالب بنهاية الأسرار بيننا.

- مارين، أنا لا أريد أن آخذ طفلك...

- لكنكِ تفترضين أنه سيكون مفيداً... أصرت مارين، وهي تغطي بطنها بيديها وكأن نيلا ستنتزعه في التو واللحظة: للتضحية الأخيرة؟ التخلي عن طفلي من أجل شقيقي، من أجلك.

- إن يوهانس في سجن الستدهاوس، يا مارين. هل سيكون من الفظاعة الشديدة لو تظاهرنا مؤقتاً أن الطفل لي؟ سيكون في وسعنا إثبات أن يوهانس يمتلك الرغبات نفسها كبقية الرجال. ألا تريدينه أن يعيش؟

- إنكِ حقاً لا ترين.

- أرى ماذا؟! إنني أرى أكثر مما ترين.

- بترونيلا، إن هذا الطفل لن يكون مفيداً على الإطلاق. ثقي في ذلك.

- أعرف ذلك، يا مارين، أعرف. وبينما أنا أحاول إنقاذنا، تنفقين أنت أموالاً لا تملكها.

تأتي الصفعة فجأة، مُحدثة وخزاً على وجه نيلا.

- أتعجب كيف له أن يحبكِ. اندفعت الكلمات، حارة وقاسية من فم نيلا قبل أن تتمكن من منعها.

قالت مارين:

- لقد أحبَّني. ومازال.

قالت نيلا بهدوء:

- سيكون علينا استئجار قابلة. لا يمكنني تحمل عبء هذه الولادة بمفردي.

أطلقت مارين صوت ازدراء:

- لن تتحملي أي عبء أبداً.

قالت كورنيليا، بنبرة فيها توسل:

- كفى، كفى.

- مارين، إنه القانون...

- كلا. ولا في أي حال." دفعت مارين طرف المهد، فتأرجح مُثيراً بفراغه عداء غريباً: هل تعرفين علام ينص القانون أيضاً، يا بترونيلا؟" كانت وجنتاها حمراوين، وشعرها قد انحل من قلنسوته: على القابلة تدوين اسم الأب. وإذا لم تخبرها، فسوف تبلغ عن صمتنا أيضاً. أوقفت المهد، وهي تتنفس بثقل: لذا كا

فعلتُ دائماً، سأتعامل مع هذا بمفردي.

وضعت مارين يدها على بطنها، لكنها هذه المرة جفلت، كمن لمست لحماً يحترق.

***

في العصاري، تتجول نيلا ببطء في الأروقة. وتُشعرها الغرف الهادئة كأن لا أحد في المنزل سواها. ما يزال مفتاح المستودع مُعلقاً حول عنقها، مُستمداً الدفء من جسدها، أغلى عندها من أي قلادة فضية قد يبتاعها لها يوهانس.

تحمل كورنيليا المهد مُستعينة بحبل إلى زنزانة مارين الصغيرة، حيث ينتظر بترقب، شاغلاً معظم المساحة الفارغة وسط الجماجم والخرائط والريش. كان موقف الخادم من سر مارين انسلاخاً سريعاً، صار الطفل الآن أعجوبة، بوتقة تحترق فيها كل مشكلاتهم تتنفس كورنيليا وجوده الغيبي، فتستنشقه كهواء نقي كلما استطاعت. كانت قد عادت إلى التنظيف، ففتحت النوافذ رغم مقتها للبرد، ولمّعت بشمع العسل أعمدة السرائر، وألواح الأرضية والخزائن وعتبات النوافذ، وضعت مباخر برائحة الخزامى، وخلّاً على الزجاج، ونثرت عصير ليمون على الملاءات النظيفة. لكن هذا أفضل من كآبتها، كما تفترض نيلا.

في الحجرة الخلفية في الطابق الأرضي، في منأى عن أعين المتطفلين في شارع القناة، يتناهى إلى أذني نيلا، مارين وكورنيليا وهما تجهزان طاولة الفيركرشبيل. تتذكر قطع اللعب التي هي بدور كزبرة صغيرة في الطابق العلوي، وصندوق صانعة الدمى الخشبي المُتقن في صنعته، يظهر كمعجزة. كانت قد يئست تقريباً من وصول أخبار عن لوكاس فنديريك في

بروج، التي تبعد مائة وخمسين ميلاً، من الطرق المُتجمِّدة. لقد ضاع خطابي على الأرجح، هكذا فكرت، وهي تتسلل إلى الباب للتصنت على مارين وكورنليا.

قالت مارين بحسرة:

- جسدي الحوتي.

- في داخله يونس الصغير" ابتسمت الخادم. ما تزال نيلا متأثرة من صدامهما الصباحي. وتفكر، إن مارين لا تتعامل مع كل شيء وحدها. من التي ذهبت إلى المستودع، إلى الستدهاوس؟ لكنهما لم تملكا الوقت لحسم ذلك بالجدال. صار الوقت آخر ما نقص من مخزن رفاهيتهم.

ماذا تُراها تقول آغنس إن رأت مارين الآن؟ لا شك أن فرانس ميرمانز سبق له أن فكر في هذا الاحتمال. كل تلك الأوقات التي قضاها مع مارين، في خفية عن عيني زوجته الثاقبتين. ألم يخشَ أي منهما من الطريقة التي قد تأخذ بها الطبيعة مجراها؟

- إنه يركلني! قالت مارين لكورنليا، خافضة عينيها إلى بطنها: عندما أقف أمام المرآة أحياناً أرى عليَّ بصمة قدم صغيرة. لم أرَ في حياتي مثل هذا الشيء."

أما نيلا فرأت، عندما كان أشقاؤها، قبل أن يولدوا، يلكمون جدار رحم أمها. لكنها لن تقول هذا، لأن مارين في تعجبها هي رائعة إلى حد ما.

لكنها عوضاً عن ذلك تقول وهي تدخل الغرفة:

- سأحب أن أرى ذلك.

قالت مارين:

- سأعلمكِ إن فعلها مرة أخرى، أحياناً، تكون يده، وتبدو مثل كفّ هريرة."

تسألها نيلا:

- هل هو ولد في رأيك؟

- أعتقد ذلك، هكذا تجيب مارين، مانحة البروز في جسدها خيطة حاسمة. تتردد أصابعها، وكأنما تريد التربيت عليه. تقول: إنني أقرأ من فترة، مشيرة إلى كتاب أمراض الأطفال لبلانكارت على الطاولة.

ثنت كورنيليا ركبتيها في تحية، وسمحت لنفسها بالانصراف، قالت نيلا:

- لا بد أن الأوان قد اقترب.

تجيب مارين:

- سوف نحتاج إلى ماء ساخن، وملابس، وعصا أعض عليها.

لم تشعر نيلا سوى بالشفقة. وتتذكر ما قالته كورنيليا عن والدة مارين. لقد نجت بصعوبة بعد ولادة مدام مارين. هل تعرف مارين أي شيء عما ستلقاه من دم، وتمرد جسد، وأصوات وخوف محتدم؟ تبدو مارين عازمة على فرض إرادتها الجبّارة على هذا الطفل، وكأنها، مثل المخلوق المنعزل في داخلها، لا تتأثر بضجيج العالم الخارجية، وكأنها محصنة ضد المعاناة.

"فكرتُ أن نلعب دوراً، قالت مارين، وهي تصفُ قطع الفيركشبيل مثل قطع نقدية.

- ابدئي أولاً.

عدّت نيلا هذا عرض سلام، وحركت أول قطعها على لوح الفيزكرشبيل. تقوّم مارين حركتها، متأملة القرص الوحيد، وهي ترجّ حجر الزهر كسنّين في جوف قبضتها. عضت على قطعتها السوداء، مترددة أين تضعها.

قالت نيلا:

- مارين، لم تسألي عن المستودع!

لم ترفع مارين عينيها عن اللوح. وشعرت نيلا، على الرغم منها، أن صبرها ينفد: ولم تسأليني عن يوهانس.

ترفع مارين عينيها:

- ماذا؟!

- سوف ... يخضعونه ... للتعذيب...

- كفى.

- إذا لم...

- لماذا عليكِ تعذيبي؟ تعرفين أنه لا يمكنني الذهاب لرؤيته!

- لكنني أحتاج إلى مساعدتك. أحتاج إلى شاهدين معتبرين، يا مارين. فرانس وآغنس. فكري فيما يعنيه ذلك.

خيم على مارين سكون تام:

- عرفتُ ما يعنيه ذلك في اللحظة التي جاء فرانس إلى منزلنا.

- تحدثي إذن إلى فرانس، يا مارين. أخبريه عن طفله.

وضعت مارين حجر الزهر بتأنٍّ شديد على لوح الفيزكرشبيل. بدت مجهدة الأنفاس، وهي تقطب حاجبيها، وتزم فمها.

وتقول:

- تجعلين من مثل هذه الحادثة أمراً هيّناً. إنكِ لا تعرفين شيئاً عما تقولين.

- أعرف أكثر مما تظنين، كبحت نهلا نفسها، مُحاولةً السيطرة على مزاجها السيئ وإزاحته إلى وقت حاجة. وأضافت بلطف أكبر: إن ميرمانز رجل. يستطيع أن يفعل شيئاً.

- لقي بي، إن ما يستطيعه شيء لا يُذكر.

- إنه لا يملك وريثاً، يا مارين...

- ماذا؟ هل تقترحين أن أقايض طفلي الآن؟ كيف برأيكِ ستستقبل آغنس خبراً كهذا؟ وقفت مارين فجأة، وراحت تذرع الغرفة الصغيرة: سيمنحها هذا سبباً أكبر لدفننا. دائماً ما تتدخلين...

- إنه ليس تدخلاً. إنه مقاومة من أجل الحياة."

- إنكِ لا تعرفين شيئاً عن المقاومة من أجل الحياة.

قالت نهلا، باندفاع:

- إنني أعرف ما حدث، يا مارين. كورنليا أخبرتني.

- ماذا حدث؟"

- أعرف أنكِ وفرانس كنتما عاشقين، ومنع يوهانس زواجكما.

وضعت مارين يدها على الحائط لتثبت نفسها وتطوي ذراعها الأخرى تحت جنينها، وقالت بفحيح وحشي عجيب:

- ماذا؟!

- أعرف أن فرانس تزوج من آغنس نكاية فيكِ. إن آغنس أيضاً تعرف هذا. لقد رأيتُ كيف ينظر فرانس إليكِ - أعرف بشأن الخنزير الصغير المملح، ورسالة الحب في كتابك. تخبرينني باستمرار أنني لا أرى، لكنني أفعل.

ردّت مارين:

- الخنزير الصغير المملحا ثم سكتت قليلاً، كأنما تنظر إلى ذكرى مطمورة منذ زمن وهي تعود للظهور داخل عقلها:

- وقد جرؤت كورنيليا على إخبارك بهذا؟

اختلست نيلا نظرة إلى الباب:

- لا تغضبي منها، أنا من أجبرتها، أردتُ أن أعرف. كان ذلك مهماً.

صمتت مارين لبرهة قصيرة، ومن ثَمَّ أرسلت زفرة ثقيلة، ونزلت بجسدها إلى كرسيها. ثم قالت:

- إن فرانس يحب زوجه، وحينما همّت نيلا بالاعتراض، رفعت يدها: إنكِ لا تعرفين شكل الحب، يا بترونيلا. لا ينبغي الاستهانة بعشرة اثني عشر عاما.

- ولكن...

- والباقي قصة جيدة، مُلفّقة الأجزاء من التنصت على الأبواب. إنها أكثر إتقاناً مما لو كنتُ اختلقتها بنفسي. كان يجدر بي تكليف كورنيليا بأعمال منزلية أكثر.

- إنها ليست قصة...

- خرجتُ منها بصورة حسنة، أليس كذلك؟ أما أخي فكان نصيبه من ذلك أقل. لكن الحقيقة مختلفة بعض الشيء.

لاحظت نيلا كيف ترتجف يدا مارين: لقد رفض يوهانس فعلاً عرض زواج فرانس ميرمانز، قالت مارين، بصوت كئيب الآن.

- كنت أعرف ذلك...

- لأن هذا ما أردتُه.

حدقت نيلا في قطع اللعب على لوح الفيركرشبيل، واهتزت أشكالهم أمام بصرها. ما تسمعه الآن ليس منطقياً. فقد صدمها بوح مارين، وأصبح يقينها مزعزعاً.

- حقاً أحببتُ فرانس عندما كنتُ في الثالثة عشر، لكني لم أرغب قط في الزواج منه.

وعلى الرغم من أنها بدت حزينة حزناً يفوق الوصف، إلا أن عاطفة أخرى ترتفع مثل شمس باهتة على وجه مارين. إنها تستشعر، الارتياح الحلو والمر النابع من الاعتراف.

ومع ذلك، ظلت نيلا عاجزة عن الفهم. إنه المشهد والممثلون أنفسهم، ولكن ليس في أدوارهم المُفترضة. لقد فعلتُ شيئاً أغضب فرانس كثيراً، هكذا قال يوهانس في زنزانته بالستدهاوس. لماذا لم يقل حينها شيئاً لنيلا ؟ لماذا لم يبرئ نفسه قط؟ أي رباط ولاء هذا الذي يربطه ومارين معاً، حبل زلق جداً حتى أن نيلا لا ترجو أملاً في الإمساك به؟

تقول مارين بهدوء:

- عندما بلغتُ السادسة، لم أرغب في التخلي عمن كنتُ وماذا حُزت. كنتُ أملك بيتاً أنا ربّه فعلاً. عندما سافر يوهانس، كنتُ الرئيسة.

حضرت دموعها الآن، واغرورقت في عينيها الرماديتين. فتحت ذراعيها كجناحين، في إشارة مفهومة إلى الغرفة التي تجلسان فيها:

- لا توجد امرأة حازت هذا، إلا لو كانت أرملة. ثم جاءت كورنليا وأوتو. كان يوهانس يقول: "قضبان سجننا هي من صنع أيدينا» لقد وعدني بالحرية. ولزمن طويل صدّقته. ظننتُ أني حقاً كذلك. تنتقل يداها إلى بطنها.

- مارين، إنكِ تحملين طفل ميرمانز...

- ومهما تكن نقائصه، فقد تركني أخي دائماً على حريتي. من المؤسف أنه لا يستطيع قول الشيء نفسه عني.»

ضغطت مارين أصابعها تحت عينيها، كأنها بذلك ستوقف الدموع. لم يجدِ ذلك نفعاً، لأن الدموع واصلت انهمارها، حتى أنها تحولت إلى نحيب: لقد أخذتُ من يوهانس أشياء لم يكن لي الحق في أن آخذها.

- مارين، ماذا تقصدين؟

كانت مارين تلاقي صعوبة أمام الكلمات. مسحت وجهها بيديها النحيفتين، وهي تأخذ نفساً طويلاً: عندما طلب فرانس يدي للزواج، كنتُ حائرة كيف أرفض. لم يكن موقفاً أعددتُ له. فكرتُ أن الأفضل بالنسبة إليه أن يسمع أني محظورة، عن أن يكتشف هذا... العزوف الذي شعرت به. لذا طلبتُ من أخي أن يتحمل اللوم. في عينيها حزن جامح: وقد فعل. كذب يوهانس، من أجلي. كنتُ صغيرة، جميعنا كانا لم أتصور قط أنه سينقلب... وضعت مارين يدها على فمها، عاجزة عن كبح دموعها. قالت: "راحت الصداقة. راح التفاهم.

لأني لم أتحمل فكرة الزواج.

المخروط الواعد

أمام مستودع زوجها، انتظرت نيلا قدوم هانا وأرنود ماكفريد، ومفتاح يوهانس حول عنقها. رن عقلها بهذه الحقيقة الجديدة عن مارين ويوهانس، تفاهمهما الواضح بمقدار ما هو غامض. الحب شعاع شمس قد يعشي القلب أحياناً. يبدو أن مارين رأت في الزواج تنازلاً عن شيء ما، بينما نساء كثر، بما فيهن أمي يعدنه الصورة الوحيدة الممكنة للنفوذ الذي يمكن للمرأة أن تحظى به. يُفترض بالزواج أن يستخدم الحب، أن يزيد من سلطة المرأة، هي نيلا تخمّن. ولكن هل هو يفعل ذلك حقاً؟ لقد آمنت مارين أنها أقوى سلطة من دونه. نُبل الحب من دون استخدام، وحقاً حدثت أمور عجيبة. طفل، وزنزانة سجن، أجل، ولكن أيضاً حرية اختيار وتشكيل مصير.

عقب بوحها عن ماضيها، أرادت مارين شيئاً يصرف انتباهها، شيئاً يشغلها، بل طالبت حرفياً بذلك، وانتهزت نيلا الفرصة. قالت لنفسها، وهي تتكئ على جدار المستودع، لم تكوني متحجرة القلب، كان ذلك ضرورة محتّمة. وعليه، بينما جلست نيلا عند الطاولة الصغيرة في الحجرة الخلفية، بعيداً عن أعين المتطفلين في شارع القناة، كتبت مارين خطاباً إلى أرنود ماكفريد بخط يوهانس. كانت قد وافقت نيلا على فكرتها الجديدة، ودعت ماكفريد إلى تذوق السكر مع عرض ببيعه حصراً في الجمهورية، بيع أسرع لجمهور جاهز. تفكر نيلا بتهكم، منحني زواجي بعض النفوذ على الأقل.

تردد صوت مارين داخل رأس نيلا. "نحن من نضع حاجز

الربع. يوجد ألف وخمسمائة مخروط، والتي في تقديري، إن أحسنا صنعاً، ستجني ثلاثين ألف جِلدر. ابدئي برقم أعلى مما سيباع به. تذكري أنهم حال رغبتهم في الشراء، فسوف يقسِّم الربح على ثلاثة أطراف، ويظل القسم الأكبر من المال حقاً لفرانس.

- ولكن ماذا لو أن أرنود سمع عن يوهانس، ماذا لو رفض أن يشتري؟

- إنه الجلدر في مواجهة التديُّن. كل ما نملكه هو الابتهال لله أن يكون أرنود ماكفريد أمستردامياً قبل أن يكون ملاكاً.

- ربما يعرف أننا نريد بيع المخزون بسرعة. ربما يرى العفن.

- كوني جريئة، يا نيلا. ارفعي السعر، وتظاهري بأنكِ تقدمين خصماً بسبب البويغات.

لم يسع نيلا إلا الإعجاب بالطريقة التي رفعت بها مارين جسر حزنها عندما استدعى الأمر ذلك، كيف أمكنها إزاحة نفسها إلى مكان يعجز الآخرون عن الوصول إليه. لقد راودها الشك في كونها هي نفسها ضئيلة جداً على هذه الفكرة الكبيرة، إنها قد تغرقها، مغمورة بطموحها. إلا أن مارين منحتها كل الكلمات التي أرادت سماعها. "بترونيلا،" قالتها بهدوء:

- لستِ وحدكِ في هذا الأمر. أنا موجودة.

عبر لوح الفيركشبيل المهجور، مدت مارين يدها إلى يد نيلا وضغطتها، وخُيِّل لنيلا وسط دهشتها، أن قلبها ربما ينفجر.

رأت نيلا اقتراب الزوجين الحلوانيَّين في الضوء البارد. تساءل هل أخبرهم أحد يا ترى بما حدث في الستدهاوس، ولكن لا يبدو أن فضيحة القبض على تاجر ثري قد اخترقت

شوارع المدينة بعد. لم تسمع كورنيليا شيئاً على امتداد شارع القناة - ربما عمل آلبيرس مدفوعاً بلباقته، على إلزام حرس سجن الستدهاوس بالصمت؟ لكنها مسألة وقت لحسب قبل أن يعرف الجميع ما حدث ليوهانس براندت. إن طفلاً مُتبجّماً بعمر تسع سنين مثل كريستوفيل لن يسهل لجمه مثل حارس سجن يعول أسرة. إن سطح أمستردام يتغذى على هذه المراقبة المتبادلة، هذا القمع لروح المرء باسم الجيرة.

تحت ظل المستودع في الخارج، بدا أرنود أقل انفعالاً وقد حلّت بدلة وقبعة سوداوين أنيقين مكان مئزره. بدا شخصاً مختلفاً عن ذاك الذي يضرب صواني التوفي الإسفنجي. إنه كمن قلّصه الهواء.

- سنيور، مدام، قالت نيلا، وهي تدير المفتاح في القفل: تهانيّ بقدوم العام الجديد. شكراً على قدومكما.

- لم يذكر زوجكِ في خطابه أننا سنقابلك،يقولها أرنود، عاجزاً عن إخفاء دهشته لرؤية نيلا هنا وحدها.

- فعلاً، يا سينور، أجابت نيلا، شاعرة بعيني هاتا الذكيتين عليها: إن زوجي مسافر.

- ومارين براندت؟

- في زيارة عائلية، يا سنيور.

- فهمت. تجلى الاستياء على أرنود أمام صغر سن نيلا وجنسها، وكأنها خدعة، تمثيلية، ولكن اصبر فقط، هكذا تفكر نيلا، وهي تشدّ قبضتيها في كُمّي معطفها.

"تفضّلا من هنا، سنيور، مدام. وانتبها لأقدامكما على درجات السلم."

وإذ تقدّم أرنود وهانا على السلم الحائطي، تتذكر نيلا يد دمية آغنس في المنزل. ربما لم يزدد المخروط اسوداداً في بيت الدمى، لكن يوماً كاملاً كان قد مرّ خارج ذلك العالم المُصغّر، ليلة أخرى من عوامل الجو، ليلة أخرى من الرطوبة. من الصعب أن تخمّن نيلا ماذا ستجد. لا شيء يبقى على حاله. بدأ قلبها يخفق بقوة إذ تسمع أرنود يصعد الدرجات بأنفاس مصفِّرة، ووقع قدمي هانا الأنيقتين على السلم خلفه.

- ها هي، قالت، مشيرة إلى المخاريط عندما وصلوا إلى السطح.

قال أرنود:

- لم أتوقع أن تكون الكمية كبيرة.

- تخيلها وقد صارت جلدوات. رفع حاجبيه وجفلت نيلا سرًا أمام لهجتها التجارية الفظة. قالت لنفسها، فكري في مارين. وكوني في دمالة يوهانس.

اقتربت هانا من ناحية سوريبام وهي تشم الهواء بحدة. وتسأل:

- عفن؟

- يوجد في عدد قليل فقط. لم يكن الموسم لطيفاً.

ركع أرنود بتبجيل، مثل كاهن أمام مذبح. وسأل:

- هل تسمحين لي؟

- تفضّل.

رفع أرنود مخروطاً من ناحية سوريبام، وآخر يحمل علامة الصلبان الثلاثة لأمستردام. ومن جيبه يُخرج سكينًا صغيرًا

حاداً، وبحركة سريعة خبيرة، كشط جزءاً جامداً من كل مخروط. يقسمهما إلى اثنين، وقدم نصفاً إلى هانا. عندما يضعان عينة سوريتام فوق لسانيهما، تتقابل أعينهما.

ماذا يقول أحدهما للآخر من دون كلمات يا تُرى؟ إن حديثاً يجري بينهما بلا شك. يكرران الأمر مع عينة أمستردام، فيذيبانها في فميهما ويتناجيان في صمت. فكرت نيلا، إن الزواج، أياً كان غرضه الحقيقي، هو شيء عجيب. من كان ليجمع امرأة راقية مثل هانا برجل يشبه كعكة مدورة مثل أرنود ماكفريد؟ تمنت لو كان يوهانس موجوداً. كان رجل متعدد اللغات مثله، ليفهم صمت التجار. صورته في تلك الزنزانة تفوق احتمالها، فتدفنها نيلا، محاولةً التركيز على السكر.

قالت:

- يوجد هنا ألف وخمسمائة مخروط. سبعمائة وخمسون جرى تكريرهم في سوريتام، والباقي هنا في المدينة. نحن نعتزم بيع الكمية كلها.

- حسبتُ براندت يتاجر من الشرق؟

- هذا صحيح. لكن مزرعة في سوريتام أنتجت محصولاً فائضاً وأراد الملاك قصره على الجمهورية. سوف يأتي مُشترون آخرون لرؤيته لاحقاً من هذا اليوم، تكذب. "إنهم متلهفون جداً."

مسحت هانا بأناقة زاوية فمها:

- ما هو سعر سكر أمستردام؟"

تظاهرت نيلا بالتفكير، ثم قالت:

- ثلاثون ألفاً.

اتسعت عينا هانا في دهشة، وقال أرنود:

- مستحيل.

- أخشى أنه كذلك. قالت هانا: نحن ببساطة لا نملك هذا القدر من المال.

تمتم أرنود:

- حالنا مُزدهرة بما يكفي، لكننا لسنا مُغفَّلين.

- نحن صانعا كعك، ولسنا بائعي سكر، قالت هانا، مُقطبة في وجهه: ربما لا تمكننا نقابة، لكنّا مازلنا نخبازي معجنات، خاضعين لشطحات حكام المدينة وكراهتهم للأوثان الكاثوليكية المصنوعة من بسكوت الزنجبيل.

تقول نيلا:

- إنه سكر ممتاز، وأنا واثقة أن في وسعكما تمييز ذلك. جودته وحدها ستضمن بيعه. ليس هناك ما يشير إلى تراجع في اشتهاء الحلوى، المرزبانية، الكعك، الفطائر. وتراقب أرنود وهو يفكر، مُحدقاً في الأقماع التي تصل إلى السقف. تضيف: سوف تزداد شهرتكما قطعاً. لا يسعني سوى تخيل الأبواب الأخرى التي قد يفتحها مثل هذا السكر.

يُخيَّل لنيلا في غير يقين أن هانا تخفي ابتسامة. من المُستبعد أن يكون في حوزتهما ثلاثون ألف جلدر مُدَّخرة، وإن كان كل شيء جائزًا في هذه المدينة. إنه مبلغ ينافي المنطق، ولكن ماذا بيدها أن تفعل؟ نصحتها مارين أن تحدد سعراً مرتفعاً حتى يشعر أرنود بأنه يحرز تخفيضاً جيداً. إنهما يريدان حصتهما، وآغنس تريد حصتها، ويراود نيلا اليأس.

قال أرنود:

- سندفع لكم تسعة آلاف.

- لا يمكنني إعطاؤك كل هذا السكر مقابل تسعة آلاف.

- حسناً. سنأخذ مائة مخروط من سكر أمستردام مقابل تسعمائة جِلدر ونطلعكم على معدل البيع. إن حققنا ربحاً، نعود لشراء المزيد."

تحاول نيلا التفكير بسرعة، اقتداءً بأرنود. إنه يريد القمع الواحد بتسع جِلدرات، لكنها في حاجة إلى بيع الواحد بما يقارب العشرين جِلدر. فكرت، لقد جاء مستعداً. فقالت:

- قليل جداً، يا سنيور. ثلاثة آلاف وخمسمائة.

يضحك أرنود، ويجيب:

- ألف ومائة.

- ألفان.

لوى شفتيه:

- ألف وخمسمائة.

"اتفقنا، يا سنيور ماكفريد. لكن ثمة طرفين آخرين معنيين سيأتيان لرؤيته عصر اليوم. في وسعي إمهالك ثلاثة أيام لاتخاذ قرارك بشأن الباقي، ولكن إن هم عرضوا سعراً أعلى، فسوف تضيع فرصتك.

أجاب، عاقداً ذراعيه، ويبدو عليه الإعجاب: "اتفقنا." يظهر أنه سعيد، فهي المرة الأولى التي تراه يبتسم. "لمئة مخروط."

شعرت نيلا بدوار. إنها لم تنهِ الأمر كما كانت ترجو، لكن

بعضاً من مخزونهم سيجري تداوله على الأقل، وفي أمستردام، حيث الكلمات تسري كالماء، لن يتطلب الأمر أكثر من طبق كعك لذيذ. تضع مخروط سوريناميا في سلة حتى تجرب كورنليا تجفيفه.

تقد أرنود نيلا ألفاً وخمسمائة جلدر في عملات ورقية جديدة. وحينما لمستها شعرت بالانتعاش، إحساس بباب يُفتح، طوق نجاة مصنوع من الورق. ألف جِلدر يجب أن تذهب مباشرة إلى آغنس وميرماتز في شارع البرنسنغراخت، استمالة لمحاولة منعهما من تقديم شهادتهما ضد يوهانس. والخمسمائة الباقية يجب أن يُرشى بها جاك فيليبس. وسيكون عليهم التفكير في ادخار أي شيء لأنفسهم لاحقاً.

شرعت هانا في تعبئة المخاريط في سلة، وسألتها:

- كيف حال كورنليا؟

إنها خائفة، هكذا تريد نيلا أن تقول، إنها تلصق نفسها بمطبخها. كانت قد تركت الخادم في حالة هياج، وهي تنزع بعنف القلب المحكم لثمرة ملفوف سافوي، وتقطع بصلاً أخضر وكراث: إنها بخير، شكراً لكِ، يا مدام ماكفريد.

- بعضهم يتقلّص، وبعضهم يكبر، قال أرنود، وهو يهز رأسه أمام جبل الأقماع.

ضغطت هانا على يد نيلا. وقالت:

- سوف نبيع هذا السكر ونعود. سأحرص على ذلك.

***

هرعت نيلا إلى المنزل ما إن تبدأ تمطر، شاعرة بالجلدرات

الورقة في جيبها وكأنها رايات انتصار صغيرة. إنها بداية، ونهلا محق في هانا ماكفريد. ربما لا تكون زيارة آغنس وفرانس ميرمانز في البرنسغراخت أمراً ممتعاً، لكن ما يهم هو الأداء. سوف تُخفي نفسها الحقيقية كما تفعل مارين. ثمة أمل في أن مرأى شيء من المال قد يُليّن قلب فرانس ميرمانز الغريب في تحجّره، أو يوقظ روح آغنس الكريمة التي طال كونها. هل في وسعهما حقاً أن يرغبا في موت يوهانس؟ كم من بؤس لا بد اختزنته، حتى ترغب في نهاية إنسان آخر؟

وحينما دلفت إلى الدهليز، وتنفض قطرات المطر، تسمع نهلا صوت بكاء كورنيليا. نحيبها الخافت يرتجف من مطبخ الخدمة. رمت السلة التي تحوي المخروط السوريبامي المُسوَد وركضت إلى أسفل السلم، وهي تكاد تتعثر في تنانيرها.

هناك قشور خضروات على الأرض، فوضى من وجبة نسالات خضراء وبيضاء.

تسألها نهلا:

- ما الخطب؟

أشارت كورنيليا إلى الرسالة فوق الطاولة. "هل هي منها؟ تقولها نهلا، ومعنوياتها ترتفع. فكرت، أخيراً، عادت صانعة الدمى. تجري إلى الورقة. وإذ تقرأ الكلمات، يشقها نصل خوف حاد، وتتبخر جلدرات أرنود وفرحة السكر إلى عدم.

وتهتف:

- يا إلهي. اليوم؟

قالت الخادم:

- أجل، لم تنبأ مُلصصتكِ النرويجية بهذا.

الوحوش يروّضها الرجال

قاعة المحاكمة في الستدهاوس هي غرفة مربعة بنوافذ عالية وشرفات للمشاهدين تمتد بمحيطها العلوي، هي شيء بين مُصلّى وزنزانة غائرة. لا ذهب، ولا مخمل، ولا أي ترف، بل أربعة جدران بيضاء ناصعة، والأثاث داكن وبسيط. أما بقية الستدهاوس فضخم، تفغر له الأفواه. أقبية تعلو إلى طُنُف مذهبة، وخرائط جدارية منحوتة من الرخام تتلألأ في الضوء - أما في هذه الغرفة حيث يُطبق القانون، تكون الأجواء رزينة. تتخذ نيلا وكورنيليا مقعدهما في شرفة المُشاهدين وتنظران أسفل إلى القاعة.

ثم يدخل السخاوت، وهو رجل يُدعى بيتر سلابارت، وستة رجال آخرون في صف ويتخذون مقاعدهم تحضراً لجلسة استماع يوهانس. "لا بد أنهم أعضاء الشخيبنبانك،" هكذا تهمس نيلا إلى كورنيليا، التي تومئ برأسها، وهي لا تكاد تستطيع إيقاف ارتجافها. تتفاوت أعمار الرجال الستة، وبعضهم يبدو أيسر حالاً من الآخر، لكن لا أحد منهم يرتدي عباءة وأنطقة مثل السخاوت المُترئّس. إن التفرد هو نقطة سوداء في هذه المدينة، وتخشى نيلا أنهم سيتكاتفون أمام تهمة يوهانس، في جماعة ترى في نفسها الصلاح، ويوحّدها الكراهية.

وجدت نيلا صعوبة في النظر إلى السخاوت سلابارت. إن الرجل يحمل أكثر من شبه عابر بملجوم، فوجهه بصلي الشكل، بفم واسع وعينين جامدتين. ثم يبدأ المشاهدون من المدينة يملؤون الشرفة من حولها، كان بينهم نساء عديدات

وحتى حفنة من الأطفال. يُخَيَّل لنيلا أنها ميَّزت المُخبر الصغير كريستوفل الذي نقل خبر القبض على يوهانس.

تمتمت كورنليا: "ما كان يجدر بهم إحضار أطفال." وجود صغار بهذا العدد بسبب هذا التوتر، وكأنهم جاؤوا لمشاهدة حوت وقع في صنارة.

يسار الشرفة حيث تجلس هي وكورنليا، يقع نظر نيلا على هانا وأرنود ماكفريد. هما يعرفان إذن، فكرت نيلا، وهي تحييهما بإيماءة، وقلبها حزين. نقر أرنود أنفه في اتجاهها، حاولت أن تستمد الراحة من هذه اللفتة التواطئية. هل كان يعرف من البداية؟ تجد العزاء في احتمالية تفوق أمستردامية أرنود على تدينه، إلى أن تتساءل هل تُراه بناء على نتيجة هذه المحاكمة، سيعود ويطلب بقية السكر بسعر أكثر تخفيضاً.

وفي الصف الأمامي من الناحية الأخرى للشرفة، تجلس آغنس ميرمانز متلفِّعة في فرائها. همست كورنليا: "ما خطب وجهها؟" تظهر ملامح آغنس فعلاً أكثر بروزًا حتى من المرة التي رأتها نيلا في الكنيسة القديمة في شهر كانون الأول. تبدو مريضة، وقد برزت عظام وجنتيها وعينيها أكثر من اللازم وهي تنظر أسفل القاعة، وتعبث بشيء في حجرها. تتشبث آغنس فجأة بالحاجز الخشبي أمامها، أظفارها مقضومة كلها. غطاء رأسها الذي كان ذات يوم مثالياً كان مائلاً، وزال لمعان اللآلئ الصغيرة التي تحيطه، توحي ملابسها بأنها ارتدتها على عجل. تبدو مثل حيوان وقع في فخ، بعينين تجوبان الشرفة، تبحثان عن شيء ما.

قالت كورنليا:

- سأخبرك أنا ما خطبها، يا مدام. إنه الشعور بالذنب.

لكن نهلا تشك في ذلك. ما هو الشيء الذي عبث به آغنس كفتاة صغيرة، ما هو ذلك الشيء الصغير الذي تدسّه في طرف كمها؟

وخلف زوجه، جلس فرانس ميرماتز محتمراً قبعته العريضة. تتساءل نهلا لماذا لم يجلسا معاً. بدا وجهه العريض والوسيم رطباً بسبب المطر في الخارج، وهو يعيد هندمة سترته، فيجذب أطرافها كمن يشعر بالحر الشديد. تربت نهلا على جيبها الذي مازال يحوي جِلدرات أرنود. عليها إقناع ميرماتز بأن المال في الطريق، الكثير من المال. دعنا ندفن هذه الفوضى، يا سنيور - دعنا نقل إننا أخطأنا - لا شك أنك ترى آغنس في حالة لا تؤهلها للشهادة. وإذ تتدرب على هذه الردود، تحاول نهلا الالتقاء بعينيه، لكن ميرماتز لا ينظر صوبها، محدقاً عوضاً عن ذلك من فوق رأس زوجه صوب الحلبة في الأسفل.

ينطلق نفس جماعي حاد في أرجاء القاعة عندما يُدخلون يوهانس. وضعت نهلا يدها على فمها، لكن كورنليا لا تمالك صرختها، فتقول:

- سنيور، سنيوري!

تخلص يوهانس من أيدي الحرس الذين يسندونه، لكنه مشى بصعوبة. يراقبه أعضاء الشخيبنبانك، وجوههم متوترة. كان جلياً أن يوهانس قد وُضع على آلة تعذيب، أصابته بجروح جسيمة لكنها لا تكفي لتودي بحياته. انحنى على أحد جانبيه، وكاحلاه لا يكادان يقويان على الحركة، فيجر قدماً واحدة خلفه مثل خرقة متهدّلة. لقد قال يوهانس: إن في وسعه رؤية آفاق عبر جدرانه، ولكن كم تغير شكله في أيام قليلة. عباءته مهترئة، إلا أنه عندما يتخذ مقعده، يضعها خلفه وكأنها قماشة

نسيجها الذهب.

لكن وحشية المسامير والأربطة لم تفلح بطريقة أو أخرى. كان جلياً أن السجين الشَّعث قد تمسك بأسراره - ولو أنه لم يفعل، لما كان أي منهم هنا الآن في قاعة المحاكمة. ألم يخبرهم بأي شيء؟ سيكون الهدف من هذه الجلسة هو انتزاع مشهد مسرحي باستخدام إذلال لفظي هذه المرة، إذلال سيشهده المواطنون، نوع مختلف من الوحشية. ماذا قال يوهانس في زنزانته؟ كلما ازداد العدد في طقس ما، أضفى ذلك عليه تبريراً.

تسترجع نيلا صورته في وليمة نقابة الصاغة. السحر الذي تمتع به، الحنكة والذكاء الفريدين، الطريقة التي اجتذب بها كل الناس. أين هؤلاء الناس الآن، لماذا لم يأتِ سوى الأطفال والموظفون لرؤيته يقاوم؟

همست كورنيليا:

- يجدر به الاستعانة بعكاز للمشي.

- كلا، يا كورنيليا. إنه يريد منا أن ندرك وحشيتهم.

- واختبار تعاطفنا أيضاً. كانت هانا ماكفريد قد انتقلت للجلوس إلى جوارهما، وهي تتناول يد نيلا بين يديها. وإذ تشكل النسوة الثلاث سلسلة، شعرت نيلا بقلبها يكاد ينفطر. كانت تظن طوال هذا الوقت، أن يوهانس قد حرم مارين الحياة التي أرادتها، بينما هو كان يحاول منحها حريتها. إن قلب يوهانس عظيم مثله، ولكن انظروا إلى أين قاده.

ليت في وسع مارين أن ترد له الجميل الآن، وهو أشد ما يحتاج إليه. ربما فات الأوان لإقناع جاك بتغيير قصته أو

ترضية فرانس في غضبه، وها هي الحكومة قد صارت طرفاً، ما الذي يمكن أن يصمد أمام الآلة الغاضبة التي لمحت لوطياً محتملا في داخلها؟ إن ثروتي ليست ملموسة، قالها يوهانس ذات مرة، إنها في الهواء. لكن طفلاً سيكون من لحم ملموس. أعبريا الذي قريباً يكون طفلكِ، يا مارين، أعبريا على الأقل صورة مزيفة لزواج طبيعي.

تسترجع صورة المهد المنمنم، وبطن دمية مارين المنتفخة، ومخروط السكر في يد آغنس ودمية جاك السليمة، تلعن نيلا صانعة الدمى لأنها لم تنبهها إلى ما كان يجب فعله، إلى ما كان في مقدورها تجنبه. ما فائدة نبيّة لا تكشف المحتوم؟

مالت هانا عليها:

- لقد تعاقدنا فعلاً على نصف الكمية التي أخذناها هذا الصباح، يا مدام. يريد أرنود إرسال بعضها إلى لاهاي حيث له عائلة. أنا واثقة أنه لن يمضي وقت طويل حتى نأخذ كمية أخرى – تذكري ذلك رجاء عندما تقابلين أولئك... الأطراف المعنيين.

حاولت نيلا كتمان إحراجها. إنها لا تجد بأساً في المراوغة مع أرنود. بل وكأنه يرحب تقريباً بذلك، لكنه مع هانا يبدو شيئاً معيباً. تسألها:

- هل يعرف أي من زبائنه لمن هو السكر؟

وإذ ذاك، هانا هي من تحضرج. وتقول:

- إن أرنود يُغفل ذكر المصدر. لكنه سكر ممتاز، يا مدام. أظنه لو كان من بعل زبوب نفسه، فإن زوجي سيبيعه.

لا تنفك كلمات هانا تمنح نيلا الأمل، ولكن يبدو هنا، في

قاعة المحاكمة، وكأن مأزق يوهانس قد اكتسب زخماً خارج حدود سيطرتها. يتساقط المطر بغزارة أكبر الآن، هدير خافت فوق السطح.

- يا أناس أمستردام الطيبين، إننا لمحظوظون،" هكذا يستهل السخاوت سلابارت قوله. صوته عميق وسلس، ويصعد إلى حيث يجلس الأهالي العاديون على مقاعدهم الخشبية اليابسة. ها هو رجل في ريعان عمره، وذروة سلطته التشريعية، يسيطر على حياة المواطنين في قبضته. تفكر نيلا، إنه يأكل بشهية، وينام بعمق. أهوال غرف التعذيب تحت قدميه بعيدة عنه بُعد جزر الملوك.

"لقد نهضنا بمدينتنا،" يقولها سلابارت. وتموج الشرفة بتأييد فخور، ويومئ أعضاء الشخيبانك في موافقة. "لقد ذللنا أراضينا وبحارنا، ونحن الآن نستمتع بما تجود به من غلال. جميعكم أناس صالحون. لم تضيعوا أنفسكم في وفرة سعدكم.

ولكن..." يقطع سلابارت كلامه، رافعاً إصبعه ثم مُشيراً إلى يوهانس. "ها هو رجل تعاظم غروره. رجل ظنَّ أنه فوق عائلته، فوق المدينة، الكنيسة، الدولة. فوق الرب." يقطع سلابارت كلامه مرة أخرى، تاركاً الصمت يملأ خطابه بالعظمة. "يظن يوهانس براندت أن في إمكانه شراء أي شيء، كل شيء يملك ثمناً بالنسبة إليه. حتى ضمير شاب، اتخذه وسيلة لإمتاع جسده وحاول شراء صمته بالمال."

تنطلق موجة من الانفعال. غرور، متعة جسد - هذه الكلمات المحظورة تمنح الناس في القاعة شعوراً غامراً بالإثارة. لكن نيلا تشعر بخوف يتشعَّب، كواحد من نباتات مارين السامة.

- لا تملك توجيه اتهام كهذا، صوت يوهانس أجش وخشن. "لم يتخذ الشخيبنبانك قرارهم ولا يمكنك اتخاذه نيابة عنهم. أظهر لهم بعض الاحترام، يا سنيور. إنهم رجال حصيفون.

تنتفخ أوداج بضعة من أعضاء الشخيبنبانك خيلاءً. يرمق البقية يوهانس بمزيج من الانبهار والاشمئزاز.

قال سلابارت:

- إنهم مُستشارون أكفّاء، لكني من سيقول الكلمة الأخيرة. أنت تنكر تهمة الاعتداء اللوطي؟

ها هي الكلمات التي كان المشاهدون في انتظارها. كانت كن تتغلغل بين المتفرجين، في تحدٍّ أن تتحملها أعصابهم، أن تتذوق فيها الخطيئة النادرة.

- أجل. يقولها يوهانس، مادّاً ساقيه الكسيحتين: على الرغم من جهودكم القصوى.

- أجب على قدر السؤال فقط، من فضلك، يقولها سلابارت، وهو يبحث بين أوراقه. "في يوم الأحد، التاسع والعشرين من كانون الأول من العام الماضي، عند مستودعات الجزر الشرقية، يقول جاك فيليبس من بيرموندزي، لندن، إنك اعتديت عليه ومارست اللواط معه. لقد ضُرب ورُضّ حتى كاد لايستطيع أن يمشي، في يوم الرب."

انفجر المشاهدون، ويصرخ سلابارت: "هدوء. الزموا الصمت.

يقول يوهانس، رافعاً صوته فوق الضجيج: -

- لستُ الفاعل.

- سوف يقسم الشهود على الكتاب المقدس أنهم رأوك.

- ومن أين يعرفونني حتى يحددوا هويتي؟"

"إنك وجه معروف، يا سنيور براندت. ليس هذا بالوقت الذي تدعي فيه التواضع. أنت صاحب نفوذ، قطبٌ ثري يُقتدى به. متواجد كثيراً قرب المرافئ، المستودعات، المراسي. الفعل الذي ارتكبته...

- يُزعم أني ارتكبته...

"يتعارض مع كل ما هو خير، كل ما هو صواب. إن سلوكك نحو عائلتك، مدينتك، بلدك هو ذاك السلوك الذي يميز الشيطان.

يرفع يوهانس بصره إلى مربع السماء البيضاء الذي يظهر من النافذة العالية. يتململ أعضاء الشخيبنانك في كراسيهم الصغيرة. قال بهدوء:

- ضميري مرتاح. كل ما تتهمني به زائف كأسنانك.

يضحك الأطفال في الشرفة ضحكات مكبوتة.

- إهانة المحكمة بالإضافة إلى اللواط...

- ربما أكون قد أهنتُ المحكمة أيضاً، يا سنيور سلابارت. فماذا ستفعل؟ هل ستغرقني مرتين لأنني أشرتُ إلى زينتك؟

جحظت عينا سلابارت العلجوميتان، ويهبط خدّاه السمينان في غضب كتمه بصعوبة. فكرت نيلا:" احترس، يا يوهانس".

قال سلابارت:

- عندما أسألك، فعليك أن تجيبني بالاحترام الذي يفترض

بكل مواطن إظهاره لسيادة القانون.

- اسألني إذن سؤالاً يستحق هذا الاحترام.

يبدو الاستمتاع على أعضاء الشخيبنانك بهذه المُشادّة، ورؤوسهم تلتفت يميناً ويساراً بين الرجلين.

يسأل سلابارت:

- أنت متزوج؟

- أجل.

تراجع نيلا في مقعدها مُنكمشة. تنظر إليها آغنس عبر الفضاء بينهما، وتكشيرة تتحرك على شفتيها.

- وأي نوع من الأزواج أنت؟

- أنا زوج من قطعة واحدة، أليس صحيحاً؟

ضحك بعض الرجال في الشرفة، ونظر يوهانس إلى الأعلى، فميّز وجه كورنيليا بارزاً من الحاجز وأجبر نفسه على الابتسام.

- إن هذا لا يجيب عن سؤالي، أعاد سلابارت، وصوته يعلو بصورة طفيفة.

- هل أنت زوج صالح أم سيئ؟

نفض يوهانس منكبيه في لا مبالاة:

- أعتقد أنني زوج صالح. زوجتي راضية. لديها المال والأمان.

- ذاك جواب تاجر. المال لا يعني الرضا.

- آه، صحيح، نسيتُ آلامك الروحانية عندما يتعلق الأمر بالمال، يا سلابارت. فلتجرِّب أن تقول ذلك لحرفي ماهر،

رجل يحافظ على نهضة هذه الجمهورية إلا أنه لا يستطيع أن يوفي إيجار منزله. جرّب أن تخبره أن الأمان لا يعني السعادة بالضرورة.

سُمعت زمجرات التأييد في الشرفة ويدوّن أحد أعضاء الشخيينبانك شيئاً. سأله سلابارت:

- هل لديك أطفال؟

- ليس بعد.

- لماذا؟

- لم يمض على زواجنا سوى أربعة أشهر. تشدُّ كورنيليا على يد نيلا. دونما علم، كان يوهانس قد أتاح الفرصة لاستخدام طفل مارين وسيلة لإنقاذه.

- كم مرة تضاجعها؟

يسكت يوهانس قليلاً، لو أنه أراد استيعاب الشعور بوقاحة هذا السؤال، هذا الاجتياح الفظ لمخدعه، فهو لا ينجح. يميل أعضاء الشخيينبانك إلى الأمام، وكذلك يفعل فرانس ميرمانز. تتشبث آغنس بالحاجز، مُترقّبة مثل غراب الجيف.

يقول يوهانس:

- بمقدار ما يُتاح لي. أضطر للسفر كثيراً.

"تأخرت على الزواج، يا سينور."

رفع يوهانس عينيه إلى الشرفة:

- كانت زوجتي تستحق الانتظار.

تجلى الحنان في صوته، وشعرت نيلا بالحزن يضمر في داخلها،

وتنهدت امرأتان خلفها تنهيدة امتنان.

يقول سلابارت مُلاحظاً:

- قمت على مر السنين، بتعيين العديد من المُتدربين في مختلف النقابات.

- إنه واجبي كمواطن أمستردامي، وعضو قديم في الفوك. أنا سعيد لأني فعلتُ ذلك.

- قد يقول بعضهم، إنك كنتَ سعيداً أكثر من اللازم. على مر السنين، مجموعة كبيرة من الشباب...

- مع احترامي، أليس كل المتدربين شباباً.

- بعدد يتجاوز من وظفه غيرك من أعضاء النقابة القدماء أو ممثلي الفوك. لديَّ كل الأرقام هنا.

نفض يوهانس كتفيه في حركة مترنحة. وقال:

- إنني أغنى من معظمهم. والناس يحبون أن يتعلموا مني. قد يزعم المرء حتى أن هذا هو سبب وجودي هنا.

- وماذا تعني بهذا؟

- دائماً ما يطمع أفقر الصيادين في ذَكَر الأيل الأكبر. أتساءل، يا مخاوت سلابارت: من الذي سيستولي على أعمالي إن أنا غرقت؟ هل سيكون أنت، فتقسمها وتغلق عليها في خزائنك بالستدهاوس؟"

صرخ سلابارت:

- إنك تهين مدينة أمستردام! إنك تعير اشمئزازنا بلمبيحاتك. يجيل السخاوت أنظاره بين أعضاء الشخيبنبانك: تعدّ المدينة

لعبة، مفوِّضاً كل شيء نعمل من أجله.

- ليس هذا بيان حقيقة. إنما هو رأيك.

- وقُلت زلجياً أيضاً، أليس كذلك؟

- إنه من بورتو نوفو، في داهومي.

- احتفظتَ به قريباً منك، علّمته طريقة عيشنا. لقد روّضت الوحش.

- علام تحوم، يا سلابارت؟ إلام تهدف؟

- أردتُ فقط أن أقول إنك تميل إلى غير المألوف، يا سنيور براندت. كثير من زملائك سيؤكدون ذلك. نادوا على المدّعي. هكذا يزعق سلابارت وإذ ذاك، تجحظ عينا يوهانس في صدمة.

- المدّعي؟ تستدير نيلا إلى كورنيليا. "حسبتُ اليوم مُقتصراً على عرض التهمة؟

ولكن لا، إنهما تسمعان وقع قدميه، وتنظر الفتاتان إلى أسفل في رعب والحرس يُحضرون متّهم يوهانس عبر باب القاعة.

شبكت كورنليا يديها بيدي نيلا عند رؤية الإنجليزي مرة أخرى، دخل قاتل ريزيكي إلى القاعة هائماً. لقد فقد شعره الجامح لمعانه ويضع ضمادة ملطخة بالدماء على كتفه.

تمتمت نيلا:

- ليس هذا دمه. سيكون جرحه قد شُفي بمضي هذا الوقت.
رفع جاك ناظريه إلى الشرفة ولاحظت نيلا كيف أن آغنس هي من تتراجع في مقعدها منكمشة هذه المرة.

ولدى رؤية ذلك الشيطان الإنجليزي المُتجسِّد، استوى أعضاء الشخيبنبانك في مجلسهم. وسأل سلابارت:

- هل أنت جاك فيليبس، من بيرموندزي، إنجلترا؟

بدا جاك لوهلة متردداً أمام نظرات المتفرجين وهمساتهم. ونيلا، إذ تتذكر أداءه المثالي في الدهليز بعد أن طعن ريزيكي، وعجزت عن التمييز هل هو خائف أم هو فقط يتظاهر.

أجاب جاك:

- أنا هو. ألقى بالكلمتين كقفازين عند قدمي يوهانس، وهولنديته الغريبة يتردد صداها في القاعة. ضحك بضعة أناس في الشرفة من دون تكتم في سخرية من لكنة جاك.

- أعطه الكتاب المقدس،" يقولها سلابارت في وتيرة واحدة، ونهض كاتب المحكمة يرفع نسخة مُكتنزة صغيرة:

- - ضع يدك عليه واحلف أنك ستقول الحق.

يضع جاك أصابعه المرتعشة على الغلاف الأمامي، وقال:

- سأقول الحق.

وجه يوهانس قناع جامد، ويتجنب جاك مقابلة نظرته.

- هل تعرف هذا الرجل؟" ويشير سلابارت إلى يوهانس، لكن جاك لا يرفع رأسه المطأطئ. "قلت، هل تعرف هذا الرجل؟

لكن جاك ظل لا ينظر. هل هو شعور بالذنب، أم خوف مزيف، مجرد خدعة من الخدع التي تعلمها جاك في مسارح التايمز؟ قال سلابارت بصوت أعلى قليلاً:

- هل أنت أصم؟ أم أنك لا تفهم ما أقول؟

قال جاك:

- بل أفهم، وقفزت عيناه نحو يوهانس، لتتباطأ على ساقيه العرجاوين، وعباءته بادية التمزق.

سأل سلابارت:

- ما التهم التي توجهها إليه؟

- أوجه إليه تهمة الإجبار على اللواط، والاعتداء، والرشوة.

أثار الاضطراب حفيفاً بين أعضاء الشخيبنانك: دعني أقرأ شهادتك بصوت عالٍ أمام المجلس." ثم يتنحنح سلابارت. " «أنا، جاك فيليبس، من بيرموندزي، إنجلترا، المقيم في المنزل الذي يحمل لافتته رمز الأرنب على ضفة الكلوفينيرشبورخفال قرب شارع البيتانيسترات، كُتِفتُ على حين غرة وأجبرتُ على ممارسة اللواط في وقت متأخر من مساء يوم التاسع والعشرين من كانون الأول. كان مغتصبي هو يوهانس ماتيوس

براندت، تاجر أمستردامي ويفيندبير في الفوك. أخذتُ رغمًا عني، وطُعنت في كتفي جرّاء مقاومتي.» هل هناك ما أردتَ إضافته؟» هكذا سأله سلابارت، وهو يرمقه من فوق نظارته.

- كلا.

تلتفتُ كورنيليا إلى نهلا. "هل قال الآن أن السنيور طعنه؟ هل يعني هذا أن توت في أمان؟ نظرت كن لا يمكنها تصديق الأمر:

- معجزة واحدة صغيرة، يا مدام.

لكن نهلا لا يمكنها أن تشعر بالسعادة نفسها. إن الكذبة تخلي مسؤولية خادمه، لكنها تحكم أغلال يوهانس إلى خطر الموت.

- وكل شيء هنا هو صحيح؟ قال سلابارت مُلمحاً إلى الشهادة.

- نعم، يا سنيور. عدا أنه عندما طعنني، كان يقصد قلبي.

- فهمت. وأين كتفك، يا سيد فيليبس؟"

- في الجزر الشرقية. أعمل بين الحين والآخر عامل مخزن في مستودعات الفوك.

- وكيف بدا لك؟

- ماذا تقصد؟

- حسناً، كيف كان سلوك يوهانس براندت قبل أن، يكتفك؟

- كان مسعوراً.

استغربت نهلا، كيف يعرف جاك كلمة كهذه بالهولندية؟

- هل تبادلتما الحديث؟

اندمج جاك في تمثيله الآن. بصمت قصير لفنان محنّك، ينتظر، تاركاً القاعة لا تسمع شيئاً سوى التساؤلات والمطر المنهمر.

كرر سلابارت:

- هل تحدث إليك؟

- ناداني بابة الأخ الصغيرة وسألني أين أقيم.

- ناداك بابة الأخ الصغيرة! التفتَ سلابارت إلى الشخينبانك: إن هؤلاء الرجال شاذُّون على جميع مستويات الحياة. بل إنهم يسرقون مفردات الأسرة ويحولونها إلى مهزلة. هل قال شيئاً آخر، يا سيد فيليبس؟

قال جاك:

- قال إنه كان يراقبني. طلب مني أن أسمح له بالعودة ورؤية مسكني.

- وكيف أجبته؟

- دفعته، وقلت له أن يتركني وشأني.

- وبعد أن دفعته؟

- أمسك بي من ذراعي، وصحبني إلى مستودعه.

- وبعد ذلك؟ صمت جاك، فقال سلابارت: وبعد ذلك؟ اعتدى عليك؟

- أجل.

- أجبرك على ممارسة اللواط.

- أجل.

انفجر اثنان من أعضاء الشخينبانك في نوبة سعال، ويحدثُ

مقعداهما صريراً على الأرضية، والناس في الشرفة يجتمون، ومن بين أعمدة الحاجز حدّق طفل لا يتجاوز الثالثة، في ذهول مرعوب.

يميل السخاوت للأمام نحو جاك، ووميض خافت من الفرح في عينيه البرمائيتين:

- هل قال أي شيء في أثناء اعتدائه عليك؟

- قال إنه كان يجب أن يحصل عليّ. إنه يريد أن يريني كم يحب ابنة الأخ الصغيرة.

- وهل قلتَ شيئاً؟

أرجع جاك كتفيه إلى الخلف، مُظهراً ضمادته الملطخة بالدماء، ومُبرزاً صدره: قلتُ له إنه يحمل الشيطان في داخله. ثم أخبرته أنه الشيطان بذاته، لكنه لم يتوقف. قال إنه سيُري صعلوكاً مثلي كيف يكون الأمر عندما يعطيه رجل مثله. قال إنه يحصل دائماً على أي شيء يريده، وإنه سيضربني إذا لم أخضع.

- لدينا تقرير طبيب عن حالة المُدّعي الجسدية عندما جاء إلى الستدهاوس بدعواه، قالها سلابارت، وهو يسلم نسخاً من التقرير إلى أعضاء الشخيبانك:

- لقد طعنك، يا ولدي، قال بإنكليزية عامية: كان سيصيب قلبك لو أنه أدنى قليلاً.

ولد، إنجليزية عامية مُلطّفة، مسكين الولد جاك، وهو محاصر في الظلام يحاصره إبليس نفسه. في ضوء هذا الإعلان الواضح عن الجانب الذي يتعاطف معه سلابارت، يبدو يوهانس رازحاً تحت ثقل، وكأن عظامه مصنوعة من حجر.

قال جاك:

- لقد فعل. وحينها رفع يوهانس عينيه. واستدار جاك في عجالة إلى أعضاء الشخيناتك قائلاً: وضربني. لم أكن قادراً على المشي.

قاطعه يوهانس:

- كل هذه أكاذيب.

قال جاك:

- لا يمكنه مخاطبتي، يا سفاوت سلابارت. أخبره أنه لا يمكنه مخاطبتي.

- صمتاً، يا براندت. سوف تحظى بفرصتك. سيد فيليبس، هل أنت متيقن تمام التأكد أن الرجل الذي اعتدى عليك في تلك الليلة هو يوهانس براندت؟

قال جاك:

- متيقن تماماً. لكن ركبتيه بدأتا تخوران.

قال يوهانس وجاك يترنح نحو الأرض:

- إن الفتى يوشك على الإغماء.

قال سلابارت ملوحاً بيده نحو جاك:

- أخرجوه. فرفعه اثنان من الحرس، وقال: تؤجل الجلسة إلى صباح الغد في الساعة السابعة.

قال يوهانس:

- سفاوت سلابارت. كان اليوم لعرض التهم فقط كما يفترض، لكنك أحضرتَ المُدعي عليّ. أي حيلة تمارسها؟ متى

بأتي دوري لطرح الأسئلة؟ لقد سعيت لتشويه سمعتي وترويع الجمهور. لا بد أن يتاح لي الكلام.

- إنك تتحدث كثيراً فعلاً. ونحن حتى لم نحضر الشهود بعد.

قال يوهانس:

- ذُكِرَ في الكتاب أن هكذا يجب أن تجري الأمور. كل منا يجب أن يحظى بفرصته. ثم أشار إلى الكتاب المقدس. "(لاَ تَنْظُرُوا إِلَى الْوُجُوهِ فِي الْقَضَاءِ. لِلصَّغِيرِ كَالْكَبِيرِ تَسْمَعُونَ. لاَ تَهَابُوا وَجْهَ إِنْسَانٍ لأَنَّ الْقَضَاءَ للهِ. وَالأَمْرُ الَّذِي يَعْسُرُ عَلَيْكُمْ تُقَدِّمُونَهُ إِلَيَّ لأَسْمَعَهُ). سفر التثنية، في حال أردتَ التأكد."

أجاب سلابارت:

- سوف تحصل على دورك، يا براندت. لكننا الآن سنؤجل الجلسة. السابعة صباحاً في الغد."

يُقاد يوهانس وجاك من بابين مختلفين. يُبقي جاك رأسه محنياً، لكن يوهانس يلتفتُ لحظات إلى الشرفة، حيث كورنليا ونهلا قد نهضتا فعلاً. رفعت يدها وأومأ لها قبل أن يُؤخذ بعيداً.

أخذ الناس يتمطون، ويتبادلون تعابير الدهشة والارتياح. خرج مدمنو التنزه من جيوبهم أكياس المكسرات، ولفائف الجبن والخم. قطعت آغنس الممشى في عجالة. ودهشت نهلا من جديد أمام نحول قوامها، وحركات قدميها الشبيهة بالطيور. كان فرانس ميرمانز قد اختفى بالفعل.

لم تكن تملك فائضاً من الوقت، فقالت لكورنليا:

- لن أتأخر. عودي إلى مارين.

وفوراً، بدا على هانا الفضول. أرسلت نهلا نظرة تحذير إلى

كورنليا، حتى هانا لا يجب أن تعرف. وأجابت كورنليا بإيماءة تكاد لا تُرى.

دارت نيلا، ولحقت بآغنس من حيث خرجت، شاهدت أن شيئاً سقط من آغنس على الأرض حيث كانت تجلس. كانت قدمان صغيرتان تبرزان من تحت المقعد، يحيط بهما نعلان خشبيان. أعرف هاتين القدمين، هكذا فكرت وهي تجثو في التراب.

القدمان لدمية صغيرة ترتدي ثوباً ذهبياً. الوجه هو وجه نيلا، شعرها يُفلت في خصلات من غطاء رأس بلون الزعفران. تهمس: "بحق الملائكة." هذه النسخة منها بدت أقل ادهاشاً من الدمية التي في بيت دماها. نظرتها أكثر ثباتاً. غريزياً، تبحث في الجسد المنمنم، عن جروح، كما تقول لنفسها، للتسلّح ضد أي خطر قادم. لكنها في قرارتها، في تجويف مظلم من عقلها لا تزوره إلا نادراً، تعرف أنها تفعل ذلك بحثاً عن أي دلالة على وجود طفل. أو انتفاخ. أبعدت نيلا الحزن، وقالت لنفسها، "لا توجد جروح وكسور على الأقل. لم تحن ساعتكِ بعد".

الجلدر والدمية

هذه الدمية ربما هي مع آغنس منذ شهور. كانت غيورة من بيت دماي، فادَّعت امتلاكها واحداً، ثم فضحت نفسها على عتبة المنزل بعد حفلة السُكَّر، حينما قالت لفرانس: أريد بيت دماي أن يكون أجمل من بيتها. ولا يوجد بلا شك سوى مكان واحد قد تشتريه آغنس منه؟ هذه الدمية صادقة جداً ودقيقة جداً. يؤلمها كثيراً أن تسلِّم أنها صُنعت لشخص آخر.

وضعت نيلا دميتها اللامعة في جيبها مع جِلدرات آرنود، واندفعت أسفل السلم بحثاً عن ميرمانز. كان المطر قد هدأ قليلاً، والضوء أغبش. تسكع جمهور المحكمة في الشارع الضيق مُتجنبين البرك. لمحت نيلا الطوق الأبيض عتيق الطراز، والرداء الأسود الطويل للقس بيليكورني. وجهه النقي، تاجه من الشعر الأشيب، والعينان المليئتان بالوعظ الغاضب. كان الآخرون قد احتشدوا حوله، كالهبو على الصوف. مع نقرات المطر، يُعلن:

- هذه خطيئة. ريحها ظاهرة. لقد عاش يوهانس براندت حياة آثمة.

علقت المرأة التي إلى جوارها:

- إنها محبَّة الترف.

قال رجل:

- لكنه أربح المدينة أموالاً. لقد جعلنا أغنياء."

قال بيليكورني:

- جعل منا أغنياء؟ وانظر ماذا فعل الثراء بروحه. وهمس بكلمة وكأنه ينفث بزفرة أخيرة، رجس يوهانس براندت.

تنفست نيلا بصعوبة. كانت روائح طعام مُنتن تفوح مع تسلل الرائحة الكريهة المُدخنة والكثيفة للحوم الحانة على الجدران، وبليكورني يحرك عينيه فوقها.

سألتها إحدى النسوة اللاتي مع بليكورني:

- هل بكِ خطبٌ، يا فتاة؟ لكن نيلا لا تجيب.

- الزوجة... همس بها شخص ما، فالتفتت المزيد من الرؤوس.

فكرت نيلا، انظروا إليَّ إذن. انظروا إلى الزوجة. فصرخت نيلا:

- أجل. أنا زوجته.

قالت المرأة الأولى:

- إن الربَّ يرى عبر الأبواب، يا مدام. إنه يرى كل شيء.

سارت نيلا في الاتجاه المعاكس، مُعتصرة الدمية في جيبها، تحاول تصور المنزل من دون يوهانس. كلا، هكذا تُفكِّر، شاعرة بحياة زوجها تنسل من بين يديها. لا يمكنكِ أن تتركيه يموت.

- مدام براندت.

استدارت، فوجدت فرانس ميرمانز واقفاً أمامها. تماسكي، يا نيلا إليزابيث. قالت:

- سنيور. كنتُ أبحث عنك. أين زوجتك؟

دفع ميرمانز قبعته في رأسه:

- لقد ذهبت آغنس إلى المنزل، وسوف تعود غداً. إنها

مُنحرفة المزاج، منذ أن رأت ذاك الهول...

- عليك أن تنهي هذا، يا سنيور. هل يستحق المال أن تقتل صديقك؟ ترددت، وتابعت: "أو تُشعر مارين بكل هذه التعاسة؟"

يضع ميرمانز قدمه في بركة ماء:

- إن يوهانس براندت ليس صديقي، يا مدام. وآغنس شاهدة أمام الرب. أنا آسف من أجل مدام مارين، لكن ما فعله زوجكِ بذاك الصبي لا يمكن أن يمر من دون عقاب.

همست نيلا:

- إن الأمر لا يتعلق بما فعله يوهانس مع جاك، أليس كذلك؟ إنه ما حدث منذ اثني عشر عاماً. تظن أن زوجي حطَّم حياتك. ولكن ليس هو من فعل.

انتفخ صدر ميرمانز:

- مدام...

- أعرف ما حدث، يا سنيور، أنت ومارين. إنني أفهم غيرة آغنس، ولكن...

- صمتاً. يقولها بهسيس مُهدِّد. "احتفظي بخيالاتكِ الخبيثة لنفسك."

- منذ اثني عشر عامًا، اتخذ يوهانس قرارًا يخصُّك. لكنه لم يفعل...

- لن أتكلم في هذا الأمر، يا مدام. نقل ميرمانز عينيه في عجالة بين طرفي الشارع، جافلاً من المطر الذي يبلل حرف قبعته ومقدمة حذائه المربعة: "إن آغنس زوجتي."

- لكن الأمر لم ينته بعد، يا سنيور ميرماتز. وهناك شيء آخر عليك معرفته. تُخرج نيلا الألف جلدر، وتحتها الدمية الصغيرة التي تجسدها. تقول: إنه جزء من أموالكم. لقد باع يوهانس كمية مُعتبرة من سكّركم، يا سنيور، إلى آرنود ماكفريد.

- ألف جِلدر. مازلتم تعدونني غبياً؟ ثم تتغير ملامح ميرماتز، فتنقبض بالخوف: وما هذا؟

إنه ينظر مشدوهاً إلى الدمية. ذكرته في مسيرة ميليشيا سانت جورج بالكالفرسترات، قال، وهو يحدق في علامة الشمس:

- من أين حصلتِ عليها؟

- أنا... إنها أنا.

- أبعديها. الآن.

أخذت نيلا نفساً عميقاً. فكرت، إن إخباره عن مارين قد يكون الشيء الوحيد الذي يُنهي هذا الجنون. تقول:

- سنيور، إن مارين...

- إياكِ أن تُري هذا الشيء لأحد، هل تسمعين؟

نفض ميرماتز عن طرف قبعته ماء المطر، فانتشر على فستان نيلا.

تعيد نيلا الدمية إلى جيبها. وتسأله:

- لماذا؟ لكنه امتنع عن الإجابة: سنيور، هل طلبت آغنس بيت دمى على هيئة منزلكما؟

- إن قذيفة مدفع كانت لتلحق بزواجي ضرراً أقل من تلك الدمى الملعونة، هكذا يثور، وهو ينتزع منها النقود. سأعد هذه

الجلدرات ثم أودّعك.

- سيأتي منها المزيد. وربما حينها تعيد النظر في خطتك لمحاربة زوجي.

- لا أملك خطة، يا مدام. إنها إرادة الرب."

- ماذا أرسل لك صانع الدُمى؟

رفع ميرمانز الجلدرات التي أصابها رذاذ المطر، وقال: ألا يجدر بكِ الانشغال أكثر بطريقةٍ لجلب المزيد من هذه؟

بدأ المطر يسقط بوتيرة أكبر. فاندفع مشاهدو المحكمة من جوارها، عائدين إلى حي الشرفة. أمسكت نيلا بذراع ميرمانز لتمنعه من المغادرة.

- هل أرسل لك صانع الدُمى أشياء ستحدث، يا سنيور؟ أو أشياء قد حدثت فعلاً؟

- تلميحات شريرة وتقليد حقير – إن أي هولندي لا يجدر به تحمل ذلك." يتردد، ثم تستحوذ عليه الفرصة ليتحدث عن الأمر، الارتياح لوجود شخص واحد قد يصدقه. "لقد أخفيتُ الطرود والرسائل، لكن آغنس كانت تجدهم، أو هم يجدونها. ليست الغيرة هي ما أثارت اضطرابها، يا مدام. إنه بيت الدُمى ذاك. لو أنها لم تعرف بأمر بيت دُماكِ، ما حدث شيء من هذا.

- شيء من ماذا؟ هل آغنس بخير؟

- لا تنفك آغنس تقول، 'إنها الحقيقة. إنه يخبرني بالحقيقة.' لذا ذهبتُ إلى الكالفرسترات لاعتقال ذلك المُنمنِم.

- أنت...

- سيظل بيت دُماكِ ناقصاً، يا مدام، تماماً كما سُوّي بيت دُمى آغنس بالأرض. لقد أبدى رؤساء البلدية اهتماماً كبيراً عندما عرفوا بوجود شخص يعمل داخل المدينة من دون أن تحكمه نقابة. صانع دُمى، وأضاف هازئاً: إنها ليست وظيفة مُعترفاً بها.

فطر الخوف قلب نيلا لم تعد تشعر بجسدها، كل ما يسعها رؤيته هو وجه ميرماتز الكبير، عيناه الشبيهتان بأعين الخنازير، وامتداد فكه العريض:

- سنيور، ماذا فعلت بصانع الدُّمى؟"

- كان قد رحل، الجاسوس التافه الوضيع. لكني عملتُ جهدي ألا يعود. لقد أوقعوا غرامة ضخمة على ماركوس سميت لأنه ترك شخصاً من خارج أمستردام يعلن عن خدماته في دليله. وذلك المنزل في الكالفرسترات سيصبح مسكناً لشخص ينتمي حقاً إلى هذه المدينة، أمسك ميرماتز بالألف جلدر أمام عينيها:

- إنكِ لا تدركين حتى أي إهانة هذه، يا مدام، المئات والآلاف التي كان في وسعي أن أجنيها. لقد ضاع معاشي بسبب إهمال براندت.

يا لهوسه بجلدراته، وعدم اكتراثه بكل شيء آخر. يندفع الدم حاراً في عروقها، فتنبعث منها الأدخنة وينطلق عنانها. تقول: لقد رأيتُ مخاريط سُكَّر آغنس. بجدك المُستعار. لم تتعفن كلها، ولكن أنت من تعفَّن، وكذلك زوجتك. لقد نجت مارين عندما قرَّرت أن ترفضك.

عند هذا الحد، تراجع مُترنِّحاً.

- وأعتقد، يا سينور، بل إني أعرف أنه حتى لو كان يوهانس

قد باع كل واحد من تلك الخاريط بحلول هذا الوقت، لظللتَ مسروراً برؤيته بغرق.

- كيف تجرؤين. لستِ سوى حقيرة...

- احتفظ بهذه الجلدات، قالت وهي تستدير مُبتعدة، وتهتف في السماء: وعلّ صانع الدُمى يطارد النيكا إلى الجحيم.

من السندهاوس، انطلقت سريعاً صوب الكالفرسترات، لكن خطوات راكضة وهتاف كورنليا أوقفها في الطريق:

- مدام، مدام!

- كورنليا؟ لقد وجدتُ ميرمانز...

- هل أخبرته عن مدام مارين؟

بدا على كورنليا، كانت تنظر إلى أول الشارع وآخره، تبدو غضّة في ضوء المطر الخافت، ويداها مضمومتان وكأنها تمسك بغصن زهور وهمي.

- كلا. شعرت نيلا بالإرهاق فجأة: لقد قايضته. الجِلدرات مقابل الحياة.

انهار وجه كورنليا:

- ولكن، هل أقنعته بالتراجع عن الشهادة؟

- منحته ألف جِلدر مقدماً لبلورات سكّره الثمينة. لا يمكنني أن أعد بأنها ستغير أي شيء، يا كورنليا. لقد حاولت. لقد فعل شيئاً لصانعة الدمى، أرسل رؤساء البلدية إلى هناك. لا أعرف إن كانت...

- يجب أن تأتي إلى المنزل.

- ولكن...

- الآن. هناك شيء يحدث لقلب مدام مارين!

- ضمي يدكِ عليه. قالت مارين، وهي تخرج مُتمايلة من الظلمة، ما إن وصلت المرأتان وأغلقتا الباب الثقيل، تابعت، إن قلبي ينبض بسرعة كبيرة.

وضعت نيلا أصابعها على عنق مارين، وشعرت بالنبض يثب ويرسل دفقاته. صارت تلهث مارين، مادّة يدها إليها.

- ما الخطب؟

- الألم، إنه يمزّقني.

- ألم؟ قالت كورنيليا مذعورة: قلتِ إن لا ألم قد بدأ.

أطلقت مارين أنيناً. وبلل سائلٌ صوف تنورتها الداكن، مُنحدراً صوب الحافة في دائرة تتسع.

- لنصعد. قالت نيلا، مُحاولة إضفاء الهدوء على صوتها، لكن قلبها يدق بعنف:

- سنذهب إلى غرفتي. إنها أقرب إلى المطبخ لجلب الماء.

سألت مارين:

- هل حان مخاضي؟ صوتها عالٍ من الخوف.

- ربما. علينا استدعاء قابلة.

- لا.

- في وسعنا شراء سكوتها.

- بماذا يا بترونيلا؟ لستِ الوحيدة التي تبحث في صندوق يوهانس.

- أرجوكِ، يا مارين. لدينا ما يكفي لندفع لما احدثي.

- لا أريد أحداً هنا سواكما أنتِ وكورنيليا. أمسكت مارين

يد نيلا، وكأن التشبث بها سيجعل كل شيء على ما يرام: إن النساء تضطن هذا طوال الوقت، يا بترونيلا. لا أحد سواكِ يمكنه أن يرى.

قالت كورنيليا:

- سأحضر ماءً ساخناً" ونزلت مسرعة إلى مطبخ الخدمة. لاحظت نيلا أن كتاب بلانكارت مفتوح على كرسي.

- أتعرفين ما عليكِ عمله، يا بترونيلا؟

- سأحاول.

كانت نيلا في الرابعة عندما وُلد كاريل، والتاسعة عندما صُبت أرابيلا من والدتهم. تتذكر الصراخ، واللهاث، والخوار كبقرة سارحة في المنزل. الملاءات ملطَّخة باللون الأحمر، ومُكوَّمة لاحقًا في الحديقة، تمهيداً لحرقها. الضوء الضعيف على وجه أمها المُتعرِّق، نظرة التعجُّب على وجه والدها. وهناك الآخرون طبعاً، الأطفال الذين لم ينجوا. كانت أكبر سناً في ذلك الوقت. أغلقت نيلا عينيها، محاولةً تذكر ما كانت القابلات تفعله، محاولةً نسيان تلك الجثامين الصغيرة.

قالت مارين:

- جيد. لكنها تبدو شاحبة.

- عندما اشتد الألم، كانت أمي تمشي في المكان.

لمدة ساعتين، زرعت مارين الطابق العلوي، ومُأوه عندما ينطلق هزيم الرعد في داخلها. توجهت نيلا إلى النافذة، وفكرت في يوهانس على فرشته القش، في جاك يُمثِّل لينجو بنفسه، في ميرمانز بكبريائه وجِلدراته المبللين بقطرات المطر،

في آغنس تنتظر رسالة من الكالفرستِرات، أين صانعة الدُّمى الآن؟ في زاوية عين نيلا، ترى بيت الدمى نابضاً خلف ستائره الصفراء، عامراً بالدمى التي تمكنت من الحصول عليها. سيبقى بيت دُماكِ ناقصاً، يا مدام.

في الخارج، كان المطر قد اشتد وقعه. مطر كانون الثاني، بارد ومتواصل. هناك كلاب يتشاجرون، وخيال قط أصفر بني. ثم ملأت الغرفة فجأة رائحة كريهة، واستدارت نيلا من أمام النافذة لترى نظرة رعب خالص على وجه مارين، إذ تحدِّق في كومة من براز دامٍ ساخن عند قدميها.

- آه، رباه، قالت مارين، وهي تغطي وجهها بيديها. وتقودها نيلا إلى الفراش مرة أخرى: لم أعد أملك جسدي. أنا...

- لا تفكري أكثر في الأمر. إن هذه علامة جيدة.

- ولكن ماذا يجري؟ إنني أنهار. لن يتبقى شيء مني عندما يولد الطفل.

مسحت نيلا الفوضى، ووضعت المنشفة المتّسخة في دلو له غطاء. عندما تستدير تجد مارين مُتكومة على جانبها. قالت ووجهها مدفون في الوسائد:

- لم أتخيل الأمر سيكون هكذا.

قالت نيلا، وهي تمنحها منشفة مبللة نظيفة: -

- لا، إنه لا يكون أبداً."

مَعكت مارين أوراق خزامى في قبضتها، وتنفسها بعمق، قائلة:

- أنا متعبة جداً. أنا مُهترئة حتى النخاع.

قالت نيلا:

- ستكونين بخير، لكنها تعلم أنها مجرد كلمات. في الدهليز، تتنفس الهواء البارد، وقد أراحها أن هربت من جو الغرفة الثقيل، ونبض خوفها البطيء. صعدت كورنليا الدَّرج، وأخذت يد نهلا، منحتها ابتسامة، وقالت:

- لقد أنعم الرب علينا، يا مدام. أنعم علينا بمجيئك.

حلّ المساء، وظلت الأمطار متواصلة. كانت موجات الألم تنهال من دون توقف. بدت مارين وكأنها تُعتصر داخل جسدها. إنه كعذاب مُتعاقب عميق، كما تقول. تتمتم، أنا غيمة ممتلئة بالدم، كدمة عملاقة، جلدي يتفسّخ مرة تلو أخرى. وكانتا من أجل راحتها، قد خلعتا عنها تنانيرها الخارجية فصارت لا ترتدي سوى بلوزة قطنية وتنورة داخلية.

مارين هي وعاء ألم وهي الألم نفسه. لم يعد فيها شيء يشبهها. وإذ تمسح كورنليا ونهلا جبين مارين وتدلّكان صدغيها بالزيوت العطرية لتهدئتها، تتخيل نهلا مارين جبلاً، ضخماً وراسخاً، لا شيء يمكنه تحريكه. والطفل في داخلها هو حاجٌ يهبط قمته، نشطاً بينما مارين نفسها مشلولة. كل خطوة يتقدمها، كل نكزة من عصاه في جنبها، كل ركلة تمنحه مزيداً من السلطة.

صرخت مارين. قد التصق شعرها بجبينها، وصار وجهها الأملس في العادة، أحمر ومنتفخاً. تتكئ على طرف السرير، وتتقيأ فوق البساط.

همست نهلا:

- يجدر بنا طلب المساعدة. انظري إليها. لن تدري حتى بشيء..

عضت كورنليا على شفتها، وهي تمعّن في وجه مارين المتألم

والمُتفصِّد عرقاً. تجيب همساً، وعيناها تلمعان بالخوف:

- بل ستدري، لا يمكننا. تريد مدام مارين ألا يعرف أحد آخر. ثم ألقت بمنشفة فوق السائل الخفيف الذي لفظته مارين:

- وحتى لو، ممن سنطلبها؟"

قالت نيلا بهسيس:

- لا بد من وجود شخص في دليل سميث. نحن لا نعرف ماذا نفعل. هل من الطبيعي أن تتقيأ هكذا؟

تمتم مارين:

- أين هو؟" ومسحت فمها في إحدى الوسائد. قدمت إليها نيلا طرف منشفة مُرطّب ليمتص البلل.

ثم تمتمت عائدة إلى كورنيليا:

- سيكون علينا أن ننظر أسفل تنورتها الداخلية.

امتقع وجه كورنيليا، وقالت:

- كانت لتقطع رأسي إن فعلت ذلك. إنها لا تسمح لي حتى بالنظر إلى مؤخرتها عارية.

- علينا أن نفعل. لا أعرف إن كان هذا الألم طبيعياً.

قالت كورنيليا:

- عليكِ أنتِ أن تفعلي، يا مدام. أنا لا يمكنني.

رفّ جفنا مارين، وأطلقت صوتاً خشناً خفيضاً. تعلو حدّته، وينطلق منها كنداء بوق. وحينما أطلقت واحدة أخرى من تلك الزفرات الحادة، تحسم نيلا ترددها فتجثو على ركبتيها، وترفع طرف تنورة مارين الداخلية. إن النظر بين ساقي مارين

يكاد يكون مُستحيلاً، لا بل كفراً.

غاصت نيلا برأسها داخل الجو الفاسد الحار للتنورة الداخلية، وأمعنت النظر فيما يمكنها رؤيته. إنه أكثر شيء عجيب وقعت عليه عيناها. شيء لا يمكن تصنيفه، هو ليس إلهياً ولا بشرياً، والغريب أنه كلاهما في آن واحد. في تلك اللحظة، كان كشيء قادم من أرض أخرى. شيء صغير يتعملق، فم ضخم مسدود برأس طفل.

رأت نيلا هامة صغيرة، تحاول الخروج في حرارة الشراشف، فرفعت رأسها إلى الهواء. وقالت مبتهجة:

- إنني أراه.

تسألها مارين بوهن:

- تريه؟

قالت نيلا:

- عليكِ الآن أن تدفعي. عندما يظهر الجزء العلوي من رأس الطفل، فذاك يعني أن عليكِ أن تدفعي.

- أنا مُنهكة جداً. عليه أن يشق طريقه بنفسه."

غاصت نيلا مرة أخرى تحت طرف التنورة ومدت يدها لتتلّمس الطفل:

- إن أنفه لم يخرج، يا مارين. لن يمكنه التنفس.

- ادفعي، يا مدام، عليكِ أن تدفعي.

زجرت مارين، ووضعت نيلا غصناً بين أسنانها: والآن ادفعي مرة أخرى!

غرزت ضروسها في الخشب، وبدأت تدفع مغرغرة من خلف العصا، وتقول بأنفاس مقطوعة:

- إنه يمزقني، أشعر به يفعل.

رفعت نهلا التنورة، وغطت كورنليا عينيها. قالت نهلا: "إنكِ لا تمزقين،" لكنها ترى شقًا أحمر في كومة الشعر الأرجوانية، والمزيد من الدم. احتفظت بهذا لنفسها. وقالت:

- إنه قادم. واصلي الدفع، يا مارين، واصلي الدفع.

تقف كورنليا عند النافذة وتشرع في صلاة محمومة طويلة. أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَات - لكن مارين تطلق نواحاً، أنيناً لا ينقطع من العذاب، من التجلّي. إنه صوت من شأنه أن يسلخ جلداً - ولكن فجأة، ومن دون سابق إنذار، يخرج رأس الطفل كاملاً. وجهه لأسفل، وأنفه يواجه الملاءة، ورأسه كتلة شعر داكنة ومبللة.

- لقد خرج رأسه! ادفعي، يا مارين، ادفعي!

صرخت مارين صراخاً ثقب آذان المرأتين. تدفق المزيد من الدم الساخن مُبلِّلا الفراش. شعرت نهلا بغثيان، وهي تشك في أن نزول هذه الكمية من الدم أمر طبيعي. كادت مارين تخلع يد كورنليا في أثناء جهدها في لفظ الطفل. يدور رأسه ربع دائرة، وشاهدت نهلا في ذهول الشيء الصغير وهو يحاول بالتملص تخليص نفسه.

ثم ظهر كتف، وأطلقت مارين خواراً آخر، فعاد الطفل لتوجيه رأسه إلى الفراش.

- ادفعي، يا مدام، ادفعي.

دفعت مارين بقوة أكبر، وسلمت نفسها للعذاب، وكفّت عن المقاومة، وأخذت تشهق طلباً للهواء، قالت

- لم أعد أستطيع... قلبي.

وضعت كورنليا يداً مُترددة على صدر مارين، وقالت:

- إنه يقفز كعصفور، يا مدام. إنه يدق بقوة.

ساد الغرفة سكون مطبق، وجثت نهلا على ركبتيها، كانت كورنليا عند الوسادة، مارين مُتباعدة الأطراف مثل لجة وقد رفعت ركبتيها. انخفضت ألسنة اللهب، كان هذا آخر مخزونهم من الحطب. في الخارج، لا صوت إلا صوت المطر. ودانه تخمش الباب، في رغبة يائسة لإدخالها.

انتظرت المرأتان. وظهر الكتف الآخر، صغيراً مثل كتف دمية، عبر مستنقع مارين المُتوسِّع. تعود مارين لتدفع من جديد، وإذ تمد نهلا يديها إلى كتفي الطفل، رأسه في مثل حجم فنجان شاي، انزلق جسده فوق يديها المُتفاجئتين مع دفقة أخيرة من الدم. بأصابع مبللة، شعرت نهلا بوزنه القريب من وزن رغيف سميك، عيناه مغلقتان كفيلسوف، وأطرافه مبللة ومزرقّة، تكسوه رقع معجونة بيضاء، مُنطوياً على نفسه بإحكام فوق راحتيها المُرتجفتين. تتحقّق. إنه بنت، حاجُ الألم فوق جبل مارين.

قالت نهلا وهي ترفع الطفلة:

- آه، يا مارين. مارين، انظري!

بكت كورنليا فرحاً، وقالت:

- بنت! بنت صغيرة!

كان الحبل الطويل الذي يربطها لامع وعضلي، ويمتد ملتوياً إلى داخل مارين. قالت نهلا لكورنليا:

- أحضري سكيناً. علينا أن نقطع هذا.

هرعت كورنليا لتنفيذ الأمر. أنفاس مارين ثقيلة، وهي تحاول رفع نفسها على مرفقيها لترى، لكنها تنهار عائدة إلى رقادها، غير قادرة على الكلام. قالت وصوتها شبه مخبول وأجوف:

- ابنتي، هل هي حيّة؟

نظرت نهلا إلى الطفلة، تكسوها قشرة من سائل جاف وآثار يدي زوج خالها الملطختين بالدماء. شعرها غامق وملبّد، عيناها ما زالتا مغلقتين، وكأن الآن ليس الوقت المناسب للإعلان عن نفسها.

قالت مارين:

- إنها لا تُصدر صوتاً. لماذا لا تصدر صوتاً؟

تناولت نهلا خرقة مبللة دافئة من سطل الماء، وشرعت في التمسيد على ذراعي الطفلة الرخوين، وساقيها وصدرها. سألتها مارين:

- هل تعرفين ماذا تفعلين؟

أجابت نهلا: "نعم" لا تدعيها تفكر، استيقظي، يا طفلة. استيقظي.

ظهرت كورنليا تحمل سكين تقطيع اللحم. لم تصدر الطفلة صوتاً بعد، والغرفة أيضاً صامتة صمت القبور، وجميعهن ينتظرن، وهن يصلّين بكل جوارحهن من أجل صوت صغير

واحد يدل على الحياة.

ناولت نيلا الطفلة لكورنليا، وحاولت قطع الحبل، ولكن رغم مادته البشرية، إلا أنه بدا أقوى من خشب البلوط. عليها أن تنشره نشراً، ويتناثر الدم على الشراشف وعلى الأرضية. ودانه، التي كانت قد تسللت إلى الغرفة، تُقبل مهرولة وتبحث عن احتمالية وجبة.

ربما هو مجيء الكلبة، ربما هي المساعدة الخرقاء في تخليصها من حبلها، لكن الطفلة تبدأ في البكاء.

- حمداً للرب. وانفجرت كورنليا في البكاء.

سحبت مارين نفساً طويلاً مُرهقاً ينتهي بالنحيب.

والطفلة بين يدي نيلا الآن، عقدت كورنليا شريطاً كتانياً حول الطرف القصير للحبل عند بطنها. ارتخى الطرف فوق بطن الطفلة، وأصبحت البنت الصغيرة أخيراً ظافرة في المعركة.

أخذت نيلا تدلك جسد الطفلة بقوة أكبر، وتشاهد مبهورة الدم وهو يأخذ في التدفق عبر شبكة الأوردة المدفونة عميقاً. مالت إليها كورنليا، التي كانت تقف إلى جوارها، وهمست:

- ألا ترين؟

- أرى ماذا؟

قالت كورنليا مشيرة إلى الطفلة:

- انظري. انظري."

- تِيَا، قالت مارين، لطفلتنا. كان صوتها خشناً وغليظاً: اسمها تِيَا. وتململت في عدم ارتياح في فراشها. كان طرف الحبل السري الخاص بها مايزال متصلاً بأحشائها والدماء تتدفق منه.

حاولت رفع ذراعيها، لكنها أكثر إرهاقاً من أن تفعل.

رددت كورنيليا: "تيَا،" مُحدِّقة في الطفلة التي وضعتها نيلا على صدرها. تحركت الطفلة مع إيقاع تنفس أمها الخشن. فارتجفت أصابع مارين على ظهر تيَا، وهي تتلمس الردف الصغير، وانحناء الظهر الشبيهة بهريرة. اغرورقت عيناها بالدموع، وراحت تنتحب، بينما كورنيلا تهوِّن عنها، مُمَسِّدة على جبينها. تشبثت بطفلتها، التي دفنت رأسها في عنق أمها. ظهر على وجه مارين تعبير مذهول، هو مزيج من الانتصار والألم. قالت:

- نيلا؟

- نعم؟

- شكراً لكِ. شكرا لكليكما.

تبادلتا النظر، تجمع كورنيليا ملحمة المناشف. أنفاس مارين تتشرج قليلاً، صوت يصيب جلد المرء بالتقلص والوخز. استدارت مُبتعدة إلى النافذة لتنظر خارجها إلى الظلام المُخيِّم على القناة. كان المطر قد توقَّف أخيراً. فوق سطوح المنازل التي تفصل بينها مسافات ضيقة، دوّارات الرياح والجملونات، القمر عال في السماء المُرصّعة بالنجوم، نصف دائرة مُتمرِّج من الضوء الساطع.

عندما التفتت إلى الستائر المخملية المغلقة لبيت الدمى، يطرأ لنيلا أن يوهانس قد نسي شيئاً عندما أمر بمقاساته. أين غرفة مارين، أين حجيرتها العامرة بقرنات الحبوب والخرائط، وأصدافها وعيناتها؟ هناك المطبخان، وحجرة المكتب، والصالون، وغرف النوم، وحتى العليَّة. ربما كان يحميها، أو ربما لم يفكر من الأساس في طلب إنشائها. لم ترسل صانعة الدُّمى

أي تعليق على خلوة مارين الصغيرة. كانت غرفتها السرية قد أفلتت من التعريف.

حاولت نهلا وكورنليا الحصول على شيء من النوم، وهما تجلسان على كرسيين من خشب الورد قامتا بجرّهما من الصالون. تململان في عدم ارتياح بينما مارين تتنهد وتتأوه في الفراش.

عندما استيقظت نهلا، كانت الأجراس تدق مُعلنة تمام الثامنة. ما تزال في الغرفة رائحة مزعجة، أحشاء مكشوفة، وبراز، ودم، وجسد هش. نار المدفأة قد خبت. وحولها رؤوس خزامى هشة منثورة، والإبريق الفضي قد أُلقي على جنبه في خضمّ عذاب مارين. أدركت أنها تأخرت ساعة عن زوجها.

اضطربت، وجذبت الستائر. ففتحت كورنليا عينيها، وقفزت نحو الفراش، قالت نهلا:

- يجب أن أذهب إلى يوهانس. الآن.

توسلت إليها كورنليا:

- لا تتركيني. لا أعرف ما يجب فعله.

وسادة مارين مُبتلة تماماً بالعرق، وتيا نائمة على صدرها وقد دُثّرت في حِرام. وعلى صوتيهما ترمش الأم الجديدة. خلف لمعة العرق، ظل جلدها يفوح برائحة جوزة الطيب، ونهلا تستنشقها. عليها أن تذهب إلى الستدهاوس، لكنها تشعر بعدم ارتياح في ترك مارين هذه الحالة.

قالت مارين:

- نيلا، اذهبي وأخبريني ماذا سيفعلون به؟ كان صوتها أضعف حتى من الليلة السابقة. "اذهبي، كورنليا، ابقي معي."

تناولت كورنليا يد مارين، وقبلتها بالعاطفة الشديدة التي تميز طفلاً:

- طبعاً، يا مدام. طبعاً سأفعل.

دارت نيلا حول السرير. ما يزال الحبل السُري داخل جسد مارين، وطرفه مبروم على الفراش. تحاول سحبه، وكأن ذلك سيزيل السدادة عن شيء ما - هذا الإحساس بالرهبة، لكنه عالق، وتأوه مارين ألماً.

تقول كورنليا:

- إنها في حاجة إلى النوم. يجدر بنا أن نتركها."

همست مارين:

- أعرف أنكِ تريدين استدعاء مختص ما، يا نيلا. لكن لا أحد يجب أن يعرف.

كانت بطن مارين قد انكمشت قليلاً، الآن وقد نجحت تِيا في الخروج، إلا أن كتلة ما تزال بداخلها. عندما تضغط نيلا عليها، تنتفض مارين. تفكر نيلا، ليس هذا طبيعياً، لا شيء من هذا طبيعي. الكتلة صلبة، وعنيدة، ولوهلة شكت في وجود طفل ثانٍ في الداخل، توأم أكثر هدوءاً، يكره الخروج إلى الفوضى. تمنى لو أنها تعرف أكثر، تمنى لو كانت والدتها موجودة. لم تشعر من قبل بمثل هذا العجز.

اختنقت الأنفاس في حلق مارين. وتسرع كورنليا بانتزاع تِيا فيما تعتصر مارين ركبتيها. تقول كورنليا:

- مدام؟" لكن مارين تضرب الهواء بيدها، صدى مرئي لشقيقها.

وعلى إثر الأصوات العجيبة التي تطلقها والدتها، تبدأ تِيا في إطلاق المزيد من عندها. أصوات مُفجعة ومبهجة، زعقات قصيرة عائدة إلى صوت جديد تماماً. تحت غلاف الصرخات، أومأت نيلا إلى كورنليا لتنضم إليها في الزاوية. تهمس الخادم، وهي تنظر في تعاسة إلى تِيا.

- انظري، يا مدام، انظري. ماذا سنفعل؟

- ماذا تعنين؟

- لا يبدو هذا معقولاً. محال أن يكون حقيقة!

تجاهلتها نيلا، وقالت في هسيس:

- ابحثي عن دليل سميث، وأحضري مرضعة، قابلة، أي شخص قد يفهم ما يحدث لها.

نظرت كورنليا إلى الطفلة في رعب:

- لكن مارين ستقتلني.

- كورنليا، أطيعي وحسب. إن يوهانس يحتفظ بالنقود في الصندوق بحجرة مكتبه. امنحي المرأة كل ما يلزم لضمان صحتها. وإن لم تجدي ما يكفي، بيعي الفضة.

- ولكن، يا مدام...

خرجت نيلا من الغرفة، وهي أكثر يأساً من أن تتوقف.

***

ركضت إلى الستدهاوس، وصلت لاهثة ووجهها أحمر،

لتجد شرفة المُشاهدين وقد امتلأت والإجراءات وقد بدأت فعلاً، واضطرت إلى الجلوس في الخلف. مُنهكة ومُشوَّشة، رأسها يؤلمها، وعيناها متعبتان جداً وجافتان، وأظفارها بلون الصدأ من بقايا دم مارين. تريد نِلا أن تهتف ليوهانس بما أنجزته مارين، بالسحر الذي ينتظره في منزله، لكنها تعلم أنها لا تستطيع. تتساءل، أي عالم هذا الذي نعيش فيه، حيث يكون إعلان وجود تِيا فقط سبباً في أذاها؟

نظرت من فوق رؤوس جماهير الشرفة، إلى أسفل القاعة. حيث يُثبت يوهانس جسده المُحطَّم على كرسي، شامخ الرأس. كان سلابارت إلى طاولة مكتبه، وإلى جواره يصطف أعضاء الشخيبنبانك. كان جاك الآن وسط الجماهير في الأسفل، يشاهد فرانس ميرمانز جالساً على كرسي في منتصف الأرضية.

لماذا ليست آغنس معه هناك؟ ماذا فاتني؟ تقع عيناها على مؤخرة رأس الأب بيليكورني، جسده مائل للأمام، مُنفعل، مُترقِّب. تسأل جارتها:

- هل أدلت آغنس ميرمانز بشهادتها؟

- في السابعة، يا مدام. كانت ترتجف. خلتُ أنها لن تفلت الكتاب المقدس أبداً. هزت المرأة رأسها بينما يتناهى صوت سلابارت إلى نِلا. السخاوت بكامل طلاقته فعلاً.

قال:

- أخبرتنا زوجتك بصورة مبسطة ما رأته في ليلة التاسع والعشرين من كانون الثاني، يا سنيور ميرمانز. إنني لن أخدش أبداً حياء امرأة، ولكن، قد حان دورك الآن للتحدث، وأود أن أستجوبك بصورة أدق. أخبرنا بما شهدته، يا سنيور ميرمانز.

أومأ ميرمانز، شاحباً وضخماً في كرسيه:

- كما ندور خلف المستودع، وتعالت إلى أسماعنا أصوات. كان سنيور برادت قد دفع هذا الشاب إلى جدار المبنى. ألصق وجه الفتى على طوب الحائط. كلاهما كان سرواله حول كاحليه، وقبعته ملقاة.

وإذّاك تنطلق شهقات حادة، صورة تجمع بين الانغطاط والرغبة المفروضة: كان جاك فيليبس، الذي عرفتُ اسمه الآن، يتوسل إليه أن يتركه. رآنا واستنجد بنا. كانت زوجتي، كما تفهم، مصدومة جداً، إذ إنها سبق واستضافت هذا التاجر على مائدتها.

صوت ميرمانز المُرتجف يملأ الغرفة، ونشعر نهلا أن جدران الستدهاوس تُحكم خناقها.

قال سلابارت:

- تابع.

قال ميرمانز: "سمعنا الصوت المقزز لإفراغ براندت شهوته. تركتُ آغنس وعندما اقتربت، رأيتُ الشبق في عيني براندت. رفع سرواله عندما دنوتُ، وأخذ يضرب السيد فيليبس، بسرعة، بضراوة. وكان هناك خنجر. رأيته يطعن جاك في كتفه. كانت الطعنة قريبة من قلب الرجل - إنه لا يكذب. يجب ألا تضطر امرأة إلى رؤية ذلك. ولا رجل كذلك.

تُبهتُ القاعة برواية ميرمانز. كان يوهانس قد أحنى رأسه، مُحدِّباً جسده المضعضع في وضع المقاومة.

قال سلابارت:

- فرانس ميرمانز، لقد عرفت يوهانس براندت منذ أعوام عديدة. بصرف النظر عن هذا الموقف الذي شهدته، وبصرف النظر عن شهادة زوجتك الصالحة تحت القسم، فإن هذه الساعة هي فرصتك لإثبات أن هذا الرجل قد يحمل خيراً بين جنباته."

- أفهم.

- قال براندت إنكما تعرفان أحدكما الآخر جيداً.

- كنا نعمل معاً في شبابنا.

- وأي نوع من الرجال كان؟

بدا ميرمانز وكأنه في صراع. إنه يعجز حتى عن النظر إلى تقوّس ظهر يوهانس، مُفضِّلاً التحديق في رأس قبعته المخروطية السوداء. يقول:

- ذكي. نزّاع إلى فلسفاته الخاصة.

- كان يوهانس براندت مُكلَّفاً ببيع محصولك، هل هذا صحيح؟

شعرت نيلا بإحساس تدهور في داخلها، وكأن قلبها قد بدأ يُسرِّب آخر ما تبقَّى من قوته. سوف يُلقى باتهام آخر بعدُ عند قدمي يوهانس، التكاسل في التجارة، وهي ليست بالجريمة البسيطة في أمستردام.

قال ميرمانز:

- صحيح.

- وفيما يتعلق بتلك الصفقة، هل خُزِّن السكر جيداً؟ هل كان براندت يقوم بعمله؟

تردد ميرمان، ثم قال:

- نعم، كان يفعل.

اعتدلت نيلا في جلستها. لماذا قال ميرمانز شيئاً كهذا؟ وفقاً لهذه الرواية، فإن السكر في محله نقي. وإذ يدوِّن اثنان من الشخيبنبانك شيئاً ما، أدركت أن ميرمانز لا يملك رغبة في إعلان غضبه من يوهانس. إن ميرمانز عندما يكتم مشكلة السكر الذي لم يتم بيعه، يحرم يوهانس من فرصة كشف ذلك دافعاً لانتقامه. إنه يسدُّ قنوات الدفاع أمام يوهانس. أراد ميرمانز أن تبدو هذه قضية سلوك محرَّم خالصة في حق الرب والوطن، ولا شيء آخر. وهي تستبعد أن يعترف يوهانس بركود في البيع. إنه لو فعل ذلك فسوف يخط بيده خراب سمعته.

لم يُخيَّل لنيلا أن ميرمانز سيكون بهذا المكر. ثم وفي أثناء اختلاسها نظرة إلى آرنود ماكفريد، فكّرت، لكن ميرمانز بهذا التأكيد العلني على جودة المحصول كله، ربما يكون قد منح آل براندت هدية بيعه في المستقبل. وإذ تشعر بالذنب من لمحة السرور التي انتابتها، تحاول نيلا التركيز على اللحظة الراهنة.

سأله سلابارت:

- في وسعك إذن القول إنه كان تاجراً بارعاً؟ أخذ ميرمانز نفساً عميقاً، فيلحّ سلابارت:

- - لقد أقسمت على قول الحقيقة، حسناً؟

- تحت القسم، كنتُ لأتردد في وصفه بهذا.

- تراه تاجراً رديئاً؟"

- أعتقد أن سمعته على مر التاريخ، قد حجبت حباً للذات.

ليست كل نجاحاته مُستحقَّة.

- ومع ذلك عيَّنته لبيع محصولك؟

- زوجتي... يلعثم.

- ما علاقة زوجتك بهذا؟

أسقط ميرمانز قبعته على الأرض واستعادها. يرفع يوهانس رأسه، من دون أن يزيح عينيه أبداً عن صديقه القديم.

- لطالما سعى براندت خلف إرادته بإصرار جامح، قال ميرمانز مُتوجهاً صوب يوهانس:

- -لكنني لم أدرك مدى جموحك. الرشاوى التي قدمتها، والديون التي أربيتها - ليس لي فحسب ولكن لنقابات، وموظفين وأصدقاء...

قاطعه يوهانس:

- من هؤلاء الرجال؟ هل هذا اتهام رسمي؟ أرني إياهم. أرني دفاتر حساباتهم.

- لم آتِ اليوم إلا لشخصك...

- إنني لا أدين لك يا فرانس. ولا لأي رجل...

- لكن الرب كلمني، يا يوهانس.

- الرب؟

- لقد أخبرني أنه يكفيني صمت.

بدا صوت ميرمانز مدهوشاً حتى وهو يتحدث، كمن ضبط نفسه بالجرم المشهود، صريحاً لاندفاعه، للتلذذ المر الذي يمكن للجميع أن يشعروا به في أدائه.

- إنك لم تصمت قط، يا فرانس، عندما تعلّق الأمر بالحطّ من شأني.

- إن صديقي القديم يحتاج إلى الخلاص، يا عفاوت سلابارت، إنه محطّم، يعيش في ظل الشيطان. لم يكن في وسعي أن أرى ما رأيته ذلك المساء وألتزم الصمت. ولا في وسع أي مواطن من أمستردام أن يفعل.

انتهى حديثه، رفع ميرمانز رأسه كمن يتوقع الفرج، لكنه لم يجد شيئاً منه، بل وجد يوهانس فقط أمامه، وجهه مثال للاشمئزاز. ببطء، استقام ظهر يوهانس على الرغم من ألمه. حتى أن نيلا سمعت طرقعات عظامه، وهي في الأعلى.

قال يوهانس:

- نحن جميعاً ضعفاء، يا فرانس. لكن بعضنا أضعف من الآخر.

أحنى ميرمانز رأسه. فسقطت القبعة من يديه وهذه المرة يتركها حيث هي. مشهد كتفيه المُتنفضين يُبقي الحشد في حال من الترقب الصامت. يوهانس مرآة ميرمانز للنظر إلى نفسه، وقد رأى الرجل حفرة مظلمة مكان انعكاسه. لا أحد يلمس ميرمانز، لا أحد يتقدم لمواساته أو تهنئته على ما فعل.

قال يوهانس:

- فرانس. ألست من تمكن من اصطياد لوطيّ، نهّاب جشع للشهوات، ألستَ من أسهم في تطهير شوارع المدينة وقنواتها؟ لماذا لا يسعك إذن سوى البكاء؟

ضجت القاعة بالصيحات والتصفير. طالب سلابارت بالهدوء، حتى يتمكن وأعضاء الشخيبنانك من الوصول إلى حكم.

صاح يوهانس عالياً: "كلا!" وعيناه تتركان ميرماتز وتلتفتان صوب السخاوت. "هذا لا يصح."

حل صمت في القاعة، وتطاولت أعناق الجمهور في الشرفة لرؤية هذا الرجل بسحره وطبيعته الخطِرة، والذي كشف خبيثات مجتمعهم المُنمّق في دقة. ينهض يوهانس بصعوبة شديدة، متكئاً على الكرسي:

- جرى العرف أن يُسمح للمتهم بالتكلم.

تنحنح سلابارت، وهو ينظر إليه في مقتٍ لم يكتمه:

- تريد أن تتكلم؟

وكطائر مكسور الجناحين، رفع يوهانس ذراعيه أعلى ما يمكنه. فأفلتت من جاك صرخة وسقطت عباءة يوهانس الداكنة التي كانت تغطيه مُتكوِّمة على الأرض.

قال يوهانس:

- إنك تضع على جسدك هذا الزي في الصباح، يا بيتر سلابارت، وكذلك تفعل، يا فرانس ميرماتز – وكلاكما يخفي خطاياه وضعفه في صندوق تحت سريره، آملاً أننا سننسى كل شيء في غمرة الانبهار بالزي.

قال سلابارت:

- تحدث عن نفسك، يا يوهانس براندت، وليس عني"

نظر يوهانس إليه، وسأله:

- هل أنا الآثم الوحيد في هذه الغرفة؟ ويستدير، رافعاً عينيه إلى صفوف المشاهدين: هل أنا كذلك؟

لم يتلقَّ أي جواب. وخيّم سكون على الحشد. قال يوهانس:

- لقد عملتُ من أجل هذه المدينة. منذ اللحظة التي صرتُ فيها كبير السنّ بما يكفي. أبحرت إلى أراضٍ لم أحسب أنها موجودة، حتى في أحلامي. رأيتُ رجالًا يحاربون ويموتون ويعملون من أجل هذه البلاد، على الشواطئ الحارّة والبحار الهائجة، مخاطرين بحيواتهم من أجل مجد أكبر من الذي نالوه عند الولادة. يسمون، ويبنون، من دون أي اغترار بأنفسهم. تفاوت سلابارت يسخر من خادمي الإفريقي، رجل من داهومي. هل يعرف السنيور حتى أين تقع داهومي، وهو يشرب شايه المحلّى بالسكر، أو يأكل كعكاته الصغيرة؟ فرانس ميرمانز ينتقد حرياتي لكنه لا يجد غضاضة في استمراء حرياته. هاتوا خريطة، يا سادة، وتعلموا.

"لقد ضممنا فتاة يتيمة إلى منزلنا. تكفّلتُ بمتدربين، وعملتُ بلا كلل في مواجهة الموج العالي. ولسوف يُغرقنا ذلك الموج جميعاً، يا سادة. لقد رأيتُ دفاتر الحسابات، رأيتُ كيف تتداعى الفوك في الماء، لكني لم أستغل حاجة إنسان خلال ذلك، لم أقدم رشوة لشخص قط ليشهد زوراً. حاولتُ إسعاد زوجي، كما أسعدتني في الوقت الذي قضيناه معاً. لكن المشكلة، أيها السادة، والسيدات، هي أن أولئك الذين حُرموا الأفق يريدون هدم آفاقكم. إنهم لا يملكون شيئاً، سوى الطوب والأعمدة، لا يملكون ذرة من مسرّات الرب العظيمة." ينظر إلى جاك. "إنني أرثيهم، حقاً. إنهم لن يحافظوا على مجد البلاد الذي رأيته يوماً.

كرجل عجوز يسير يوهانس مُقترباً من ميرمانز. يرفع يده، فيجفل ميرمانز، متوقعاً ضربة. لكن يوهانس يلمس كتفه

المرتعشة.

قال:

- فرانس، إني أمنحك كل مغفرتي. بدا ميرمانز وكأنه يخور تحت تأثير لمسته. "وأنت، يا جاك فيليبس؟"

يرفع جاك عينيه فتلتقيان بعيني يوهانس.

- أنا!

- أنت حجر أُلقي في بحيرة. لكن التموجات التي تصنعها لن تمنحك الاستقرار أبداً.

يصيح سلابارت، مشيراً إلى يوهانس:

- أخرجوه!

حدّق رجال الشخيبنانك في السجين بنظرات مُتحيّرة، وكأنما هو، عملاق بين الرجال، بمجرد لمسة منه لها القدرة على التدمير. صارت القاعة إيقاعاً متنافراً من الهمهمات والاستهجان. بدا بيليكورني في قمة الانفعال. الموت يحوم في الجو، ملتهماً إليهم جميعاً، برعبه أو بالنعيم من بعده. لا يريدون ليوهانس أن يذهب، يريدون إبقاءه هنا. لقد حاول الأثرياء إسكاتهم من قبل، لكن لم يسبق لشخص واحد أن تقلّد نفوذه بهذه اللامبالاة، أو أشار إلى أسنان القاضي المزيفة وأثار الضحك في المكان.

لكنهم يأخذون يوهانس إلى الخارج، ويلتفُّ أعضاء الشخيبنانك حول سلابارت في نصف دائرة فيما يشق ميرمان طريقه بصعوبة إلى كرسي بعيد، شاحباً ومرتجفاً. إن سلطة الدولة على وشك أن تمارس نفسها وأجساد الناس متوترة.

نهلا مثلهم. تشعر بضغط بين ساقيها، وكأنها قد تبلل نفسها من الخوف.

تمر الدقائق. عشرٌ ثم عشرون، ثلاثون. إن مشاهدة هؤلاء الرجال وهم يقررون مصير يوهانس لهو أمر مروع. فكر نهلا، احتمال العفو موجود دائماً، لكن سلابارت، وهو جالس في مركز نصف الدائرة الذي يشكلونه، يواصل الهمهمة في آذان بقية الرجال.

تفرقوا أخيراً، وعادوا إلى كراسيهم. تقدَّم السخاوت بتثاقل إلى المربع الذي يتوسط القاعة وأمر باستدعاء يوهانس براندت مرة ثانية. فعاد السجين سائراً ببطء من دون مرافقين، جاراً قدميه المعطوبتين. توقف يوهانس قبالة السخاوت، ونظر مباشرة في عينيه. نهضت نهلا في الظل، ورفعت ذراعها. تهمس، أنا هنا، لكن يوهانس ثبت عينيه على وجه سلابارت، ولم تجد نهلا صوتاً أعلى يتغلب على رعبها.

قال سلابارت:

- لقد كُشف أمرك. إن جريمة اللواط غايتها تدمير قداسة مجتمعنا واستقامته. لقد أُتخمت بثقتك في نفسك وثروتك حتى نسيت ربك. شهواتك قد سُمعت وشوهدت، ولكن كذلك كان إثمك.

دار سلابارت حول المربع الذي يتوسط القاعة. وعقد يوهانس يديه خلف ظهره. تصاعد شيء ما داخل نهلا، إنها تختنق بمحاولة إبقائه في الداخل.

قال سلابارت:

- الموت هو مصيرنا جميعاً. إنه الحقيقة الوحيدة في هذه

الحياة.

فكرت نيلا" لا، لا، لا، لا."

- بخصوص الجريمة الفحشاء التي ارتكبتها، فليُعلن اليوم، التاسع من كانون الثاني من عام ١٦٨٧م، أنني أنا، بيتر سلابارت، عمدة أمستردام، وهؤلاء الأعضاء الستة من شفيبتانك هذه المدينة، نجدك، يوهانس ماتيوس براندت، مذنباً على خلفية الاعتداء باللواط على جاك فيليبس، مُذنباً بالتهجُّم وما تبعه من رشوة. وعليه، أعلن أن عقابك العادل هو أن يوضع الثقل في عنقك ويُلقى بك في البحر، هذا الأحد عند الغروب. فليكن التعميد الجديد ليوهانس براندت عبرة لكم جميعاً. وليرحم الرب روحه الآثمة.

مرّت لحظة، جزء من الثانية، تلاشت فيها القاعة من حول نيلا. مع انفصالها عن جسدها، عن عقلها، تتصارع مع الهواء، مُحاولةً منع عالمها من الانهيار. ثم عندما خرّ يوهانس إلى الأرض، فإن الألم الذي حاولت نيلا كتمانه يفيض منها، وتصبح الغرفة صاخبة بالأصوات، تكتسحها، تدهسها. تحاول المقاومة، فيتدافع الناس في الممشى، وهي لا تعرف سوى أن عليها الفرار من هذه الغرفة قبل أن تفقد الوعي. كانوا بالفعل يرفعون يوهانس، ويجرونه إلى الخارج، قدماه لا تلمسان الأرض.

نادت:

- يوهانس، سوف آتي من أجلك!

قال صوت: "لا." كانت نيلا واثقة من أنها سمعته، صوت امرأة، قادم من أعلى سلم الشرفة. التفت، وبحثت جزافاً

عن صاحبته، ثم رأيتها... الحركة الفجائية، الاختفاء والظهور
المميزين لرأس أشقر فاتح.

الابنة

ركضت نيلا من الستدهاوس، ودمها ينشد ألحاناً عالية جداً حتى لتظنها مستحيلة. ركضت أسرع من أي مرة ركضت فيها من قبل، أسرع من لما كانت طفلة تطارد كاريل أو أرابيلا عبر الغابات والحقول. يلتفتُ الناس لينظروا إليها، هذه الشابة المجنونة بفم فاغر، وعينين تفيضان بالدموع، بسبب الرياح، كما يفترضون. تفكر نيلا، أين هي، وأين كانت؟ لم يعتقلها رؤساء البلديّة بعد. لم يكن لها أثر عندما وصلت نيلا بمشقّة إلى نهاية سلم الشرفة، فمضت ركضاً في شارع الهيليغفيغ وهي الآن في الكالفرستراات. ثمة قوة تدفع نيلا، السريعة دائماً، نحو الطيران.

لكنها عندما وصلت إلى منزل صانعة الدُمى، توقفت فجأة.

ما يزال الباب موجوداً، لكن علامة الشمس اختفت. كانت أشعة الجرم السماوي قد اقتُطعت بفظاظة من طوب الجدار، وامّحى نصف الشعار، فما تبقى منه سوى كلمة يظنها لعبة. وتكوّم ركام من غبار الطوب على عتبة الباب وكان الباب نفسه قد تُرك موارباً.

وأخيراً تستطيع نيلا، من بين كل الأيام، أن تدخل. نظرت يمين الشارع ويساره. لا أثر لبائع الصوف المُقابل. تفكر، فليلقوا بي في السبينهاوس لدخول ملك ممنوع، فليغرقوني أنا أيضاً.

دفعت نيلا الباب، وانسلت إلى داخل غرفة صغيرة. يفاجئها أنها جرداء للغاية، خشب أرضيتها مخدوش ومترب، ورفوفها فارغة على جدرانها العارية. كم كانت كورنيليا ستحب الانقضاض على هذا المكان بخلّها وشمع نحلها. تبدو وكأنها لم

تُسكن قط.

في الخلف غرفة أخرى، لكنها تبدو بدورها مجردة من الحياة. صعدت نيلا بهدوء درجاً خشبياً، وهي تشعر بأضلاعها تكاد تعجز عن احتواء رئتيها المضطربتين.

عندما وصلت إلى القمة، تجمدّت أنفاسها في حلقها. كانت منضدة عمل عريضة قد نُصبت بمحيط الجدران الأربعة، غرفة مربعة أخرى، ألواح الأرضية مكسوة بالتراب، والنوافذ ملطخة بخطوط من أثر المطر. ولكن على منضدة العمل، يوجد عالم كامل.

تتناثر قطع أثاث صغيرة لم تكتمل عبر جزء من المنضدة. نصف منشورة ومنبوذة -بلوط، دردار، ماهوجني، زان- كراس وطاولات، وأسرّة ومهود، وكفن أيضاً، وخزائن، وإطارات صور. توجد هنا قطع تكفي لتأثيث عشر، بل عشرين بيت دمية، مخزون يكفي عمراً بأكمله. في حجرة متفحّمة، تنسكب قدور نحاسية غاية في الصغر وأطباق فناجين بيوترية معبأة كمثل عملات أجنبية، وتنتشر أذرع شمعدان مُصغّر كمثل محالق صغيرة.

ثم تأتي الدمى. صفوفاً، على هيئة عرائس -عجزة، شابات، قساوسة وجنود، بائعة رنكة، صبي على عينيه ضمادة، وهل هذا آرنود ماكفريد، بمئزره ووجهه الأحمر المستدير؟ بعضهم من دون رأس، وآخرون من دون ساقين، بعضهم من دون ملامح، وآخرون بشعر متقن التجعيد، وقبعات صغيرة بحجم رأس عثة.

بأصابع مرتجفة، تبحث نيلا في مدينة أمستردام عن يوهانس جديد، عن أمل أخير يائس في أنه سيعيش. يوم الأحد عند

الغروب – لفّت الكلمات الثلاث عقلها مثل لعنة أبدية. لمحت طفلاً، لا يتجاوز حجمه إبهامها، متكوراً على نفسه، عيناه مغلقتان مع ابتسامة صغيرة.

ثم أطلقت صرخة. حيث تقع أمامها دمية منزل، صغيرة بما يكفي لتستقر في راحة يدها. إنه منزلها – تسع غرف وخمسة تماثيل بشرية منحوتة في داخله، شغل الخشب مدروس ومعقد. كل غرفة تحوي صورة مصغرة من المُصغَّرات التي أرسلت إليها، الكرسيين الأخضرين، العود، المهد. بانبهار، تضم حياتها في قلب راحتها.

وضعته نيلا في جيب معطفها مع الطفل، وبعد شيء من التردد أخذ آرنود أيضاً. يصعب عليها أن تنفض عن ذهنها أثر حديث كورنليا الخزعبلي عن الأوثان، لكن نيلا تتشبث بهم، مُلتمسة بعض العزاء مع غياب أي منمنمة ليوهانس.

على يسار نيلا تستقر كومة من الخطابات، مصفوفة بأناقة ومشبوكة بملقط. بيدين مازالتا ترتعشان، تتناول الحزمة وتبدأ في تصفحها. أحدها يقول: أرجوك – لقد جئتُ طلباً للقائك مرات عدة، لكنك لا تجيب. وآخر: تسلَّمتُ المُنمنمة التي أرسلتها. هل تعني أنني لا يجدر بي الزواج به؟ وآخر: إن زوجي يهددني أن أضع حداً لهذا الأمر، لكني حينها لن أطيق العيش. وآخر: لقد أرسلتَ قطي الذي قضى معي اثني عشر عاماً، إني مضطرة أن أطالبك بالتوقف. وآخر: شكراً لك. لقد مات منذ عشرة أعوام وإني لأفتقده كل يوم. وآخر: كيف عرفت؟ أشعر بالجنون يزحف داخلي. بعضها طلبات فقط: جروان، أبيض وأسود، لكن أحدهما يجب أن يكون قزمًا. مرآة، تحمل وجهاً جميلاً.

فتشت نيلا عن خطاباتها، وها هي ذي، أولها الذي كُتب في تشرين الأول من العام الماضي في بداية وصولها، عندما أثارت مارين زوبعة ولم تكن كورنليا تعدّ صديقة بعد. كانت قد كتبت، لا يسعني سوى تخمين أنك ماهر في فن المُصغَّرات. كم يبدو ذلك بعيداً!

فكرت: "طوال هذا الوقت، كان هناك من يراقبني ويحرسني، يعلمني ويسخر مني". لكنها أول مرة تشعر بهذه الهشاشة. ها هي ذي مخبأة وسط العديد من نساء أمستردام، بمخاوفهن وآمالهن السرية. هي لا تختلف عنهن. هي آغنس ميرمانز. هي فتاة في الثانية عشر. هي المرأة التي ستفتقد زوجها كل يوم. نحن النساء، فيلق تسيطر عليه صانعة الدمى. ظننتُها تسرق حياتي، لكنها في الحقيقة فتحت جدرانها وسمحت لي بالنظر إلى داخلها.

أخذت تكفكف دمعها، ووجدت بقية رسائلها، بما فيها الرسالة الطويلة التي فقدتها يوم ظهر جاك في البهو، والتي كانت قد طلبت فيها لوح الفيركرشبيل. ما تزال ملصقة بإذن الصرف ذي الخمسمائة جلدر. ليكن الزيت الذي سيليّن مفاصل بابكِ العنيدة، هكذا كتبت، لكن صانعة الدمى لم تقم حتى بصرفه. لم تأخذ المال.

فكرت نيلا، لا بد أنها كانت تراقبني في الكنيسة القديمة ذلك اليوم، عندما ذهب أوتو ليصلي وأمسكتني آغنس من ذراعي. لا ريب أن الطريقة الوحيدة التي كانت ستعرف بها عن رغبتي في لوح فيركرشبيل هي أن تتسلل وتسرق حقيبتي؟ يقولون إن من يراقِب يُراقَب دائماً في أمستردام، حتى أولئك الذين لا يمكنهم الرؤية.

لكن، كل هذا أقرب إلى التلصص الذي قالت عنه كورنيليا، وأبعد عن النبوءة التي اعتقدتها نيلا. شمّت رائحة الورق، وكأنما تبحث عن رائحة صانعة الدمى، صنوبر نرويجي ربما، أو الرائحة المنعشة لنعناع إلى جوار بحيرة. لكنها لا تجد سوى ورق جاف، يفوح برائحة طفيفة تشبه رائحة غرفة نيلا. كان هذا الخطاب مخصصاً لصانعة الدمى، وبطريقة ما استلمته.

على جانب خطاباتها توجد حواشٍ. ببغاء، أخضر، زوج، أجل، يوهانس براندت. إنها تجارب لتظهر أبواب كثيرة من دون مفتاح، وأكثر من مستكشف واحد. الكلب. الشقيقة، الخادم. خرائط لا يمكنها أن تغطي عالمهم. باحث دائم، توليب مزروع في تربتي لن يحظى بمتّسع لينمو. لا تعودي وحدك. تحدثي إلى الفتى الإنكليزي. حاولي وادفعيه ليرى.

تكرر نيلا، توليب مزروع في تربتي.

يوجد شخص في الأسفل، يغلق الباب الأمامي، ويتجول بطيئاً بحذاء ثقيل. تبحث نيلا في يأس عن مكان تختبئ فيه، ثم تهرول إلى غرفة خلفية في الطابق نفسه. لا تجد فيها إلا سريراً ضيقاً غير مرتب. فتزحف تحت هيكله، وتنتظر.

نادى صوت: "هل أنتِ فوق؟" إنه صوت رجل، ناعم وفيه شيء من التبرم. وقعه غريب على أذني نيلا، ليس من هذه المدينة. يقول:

- لقد أتيت. وصلتني خطابات كثيرة. حذرتكِ مراراً وتكراراً ألا تفعلي هذا."

انتظرت نيلا. كان غبار الأرض يتسلل إلى أنفها، وقبل أن يسعها منع الأمر، تعطس. يصبح صوت الحذاء أعلى، بدأ

الرجل يصعد السلم الخشبي، وهو الآن يجر قدميه في أرجاء الورشة، فيرفع أشياء ويعيد وضعها مُستهجناً، وبينما يقلب في مشغولات صانعة الدمى، نسمعه نهلا يتمتم: "يا لها من موهبة، يا لها من خسارة!"

توقف، فتجمدت نهلا، وكتمت أنفاسها.

نادى من الغرفة الأخرى:

- بترونهلا، لماذا تختبئين تحت السرير؟" لا تتحرك نهلا، وقشعريرة تسري في جسدها، والدم يخفق في رأسها، يضيق حلقها، وتشعر بسخونة في عينيها. كيف يعرف اسمي؟

واصل:

- أستطيع رؤية قدميكِ. هيا، يا فتاة. لا وقت لدينا لهذا. ومع هذا التعليق الأخير يطلق ضحكة خافتة. تخال نهلا أنها قد تقيأ من الرعب.

"هيا، يا بترونهلا. دعينا نناقش أحداثك الغريبة."

صوته ليس جافاً. ومع أن نهلا كانت لتفضّل قضاء بقية هذا اليوم الفظيع مختبئة تحت فراش المُصغّرة المُهمل عوضاً عن مواجهة العالم، إلا أن دعوته، المعروضة بكل لطف وإغراء، جعلتها تزحف خارج مخبئها.

وإذ ترى أمامها رجلاً عجوزاً، تصرخ في دهشة. إنه صغير جداً، حتى لتشعر بنفسها ضعف حجمه. تسأله:

- من تكون؟

اتسعت عيناه المائعتان، وتراجع إلى الخلف. على قمة رأسه تستقر كومة وحيدة من شعر أبيض مثل إضافة متأخرة. قال

متحيراً:

- لكنكِ لستِ بترونيلا.

قالت نيلا، وذعرها يأخذ في التزايد:

- بل أنا هي." أنتِ هي بترونيلا، هي تقول لنفسها. طبعاً أنتِ هي. تسأله مرة أخرى: "من تكون؟" محاولة إضفاء التحدي على صوتها.

رمقها الرجل العجوز بارتياب:

- أنا لوكاس ڤنديريك. سقطت نيلا على السرير، وجال بعينيه في أركان الغرفة، وهو يقول بأسى: "لقد رحلَت. أعرف ذلك."

- صانعة الدُمى؟

- بترونيلا.

هزت نيلا رأسها، كأنما لتطرد اسمها من أذنيها:

- بترونيلا؟ سنيور – هل كانت المرأة التي تقيم هنا تُدعى بترونيلا؟

- هذا صحيح، يا مدام. هل هو اسم نادر إلى هذه الدرجة في لغتنا؟

افترضت نيلا أنه ليس كذلك – فوالدتها تشاركها اسمها، وكانت آغنس قد أشارت إلى الأمر نفسه في وليمة النقابة. تقول نيلا، محاولةً السيطرة على ارتباكها:

- لكنها من النرويج. إنها من بيرجن.

غيّم وجه لوكاس ڤنديريك:

- كانت والدتها من بيرجن، أما بترونيلا فقد عاشت معي في بروج.

- ولكن لماذا؟

ردد ڤندبريك:

- لماذا؟ وجال بعينيه بنظرة المهجور في الغرفة، لأن بترونيلا هي ابنتي.

تسمع نيلا الكلمة الأخيرة التي يلفظها، لكنها لا تستوعبها. يبدو مستحيلاً وصف صانعة الدمى ابنة - إن الكلمة تستحضر أسدلفت، أمّاً، أماناً غريباً، العزاء في النقص البشري. تقول:

- لا أصدقك، إنها صانعة الدُمى، إنها ليست...

قاطعها ڤندبريك:

- جميعنا يأتي من مكان ما، يا مدام. هل تظنين أنها جاءت من بيضة؟

يرنُّ السؤال في عقل نيلا. إنها واثقة أنها سمعته من قبل. يقول:

- لقد رفضت عائلة أمها أن تأخذها.

- لماذا؟

صمت ڤندبريك مُشيحاً ببصره.

شعرت نيلا بدوار، فعادت، وجلست على الفراش، وقالت:

- لقد كاتبتُك، يا سنيور.

- لو أنكِ فعلتِ، فقد كنتِ واحدة من ألوف.

قفزت عينا نيلا إلى كومة الخطابات، الظاهرة فوق منضدة

العمل عبر الغرفة الأخرى، وقالت:

- فعلتُ ذلك لأن ابنتك كانت قد بدأت تخيفني. لكنها لم تجب قط ولا أنت فعلت. أردتُ أن أعرف لماذا كانت ترسل لي تلك القطع.

- إنني بكل صدق، يا مدام، لم أرها منذ أعوام. تنحنح وهو يعبث بكُتلة شعره، مُربِّتا على جمجمته وكأنما ليكتم الحزن الذي يحاول مرتجفاً أن يطفو على السطح: ما انفكَّت الخطابات تصلني، ثم اكتشفتُ وضعها لذلك الشعار في دليل سميت، "كل شيء، ولا شيء".

- ولكن...

- عسير عليَّ أن أصدق أن بترونيلا كانت تحاول إخافتكِ.

تلا تذكر آغنس، أظفارها المقضومة، سلوكها المشتت والغريب: أتصوَّر أنها أخافت كثيرين منا، يا سنيور.

قطّب، إن ابنتي تحمل افتتاناً كبيراً بالعالم، يا مدام. لكنني أقر، أنها لا تكترث في الغالب بالشكل الذي تعرض به نفسها. كانت دائماً تقول إن هناك شيئاً لا تصل إليه يدها وسمَّته (الزيبق الأبدي)." يجلس على طرف الفراش، قدماه لا تلمسان الأرض. ويهتف فجأة: "ليتها قنعت بصنع الساعات! لكن بترونيلا رغبت طويلاً في أن تحيا خارج حدود الوقت المحسوب. دوماً مشاكسة، دوماً فضولية. لقد عرفت من طريقة تمسُّك الناس بساعاتهم، وضرورة أن يحلى كل شيء بالنظام. كان عملي مُقيّداً جداً بالنسبة إليها، ومع ذلك ما كانت المُبتكرات التي وضعتها في ورشتي تُباع إلا نادراً. أعترف أنها كانت قطعاً استثنائية، لكني كرهتُ وضع اسمي عليها والزعم

أنها من صنعي.

- لماذا؟

- لأنها لا تقرأ الوقت! بل هي تقيس أشياء أخرى - أشياء لم يرغب الناس في تذكرها، الموت، قلب كسير، الجهل والحماقة. كانت ترسم وجوه الزبائن بدل الأرقام، وتضع لهم رسائل تنبثق من الساعة عندما يصل العقرب إلى الثانية عشر. كان عليَّ أن أرجوها حتى تتوقف. قالت إنها فعلت ذلك لأنها كانت ترى داخل أنفسهم، ساعاتهم الداخلية، التي لم تول اهتماماً بالدقائق والثواني. كنتُ كمن يحاول ترويض قطة.

تسأله نيلا: "هل صدَّقتَ أنها كانت ترى داخل النفوس؟ بدت كمن يعرف كثيراً مما سيحدث لي."

حكَّ ڤندبريك ذقنه، قائلاً:

- حقاً؟" نظر صوب ورشة ابنته: تحدثين بعنت النساء اللاتي أرسلن لي ذاته، بولع شديد في التخلي عن سلطة النفس.

- لا! على العكس، يا سنيور، لقد ساعدتني على استرجاعها.

جعلتها الحقيقة في قولها تصمت، في احتجاجها. بسط ڤندبريك يديه:

- لقد أعادت لكِ شيئاً كان ملككِ، ابتسم، وقد تبدَّى عليه سرور خجِل: كل ما يسعني قوله هو الآتي، يا مدام. لقد آمنت ابنتي بيسر أنَّ لما تفعله هدفاً، لكني حاولتُ تعليمها أن هذه آخر حدودها مع موهبتها في قراءة الناس. سيكون على الآخرين أن يقرروا رؤية ما تراه، وإلا استنزفت نفسها هدراً. لم ترد على رسائلكِ، فربما لأنها شعرت أنكِ ستفهمين. رأيتِ ما كانت تحاول قوله.

شعرت نيلا بالدموع تتجمع في عينيها، قالت:

- لكني أظنكِ ضعلين.

تحدّق نيلا في الخطوط المرسومة على باطن كفيها، وتوجهها إلى أماكن لا يمكنها رؤيتها. ضمتها مغلقة هذه الخرائط التي تحددها، وقالت:

- ربما أفضل.

إن فندبريك يبلبلها بأسئلته التي تسبر الأغوار. تريد أن تركض إلى الهيرغراخت، لتكون مع مارين وكورنيليا وتيًا، لتجلس مع دانه وتمسِّد أذنيها. لكنهما ستسألان عن يوهانس وسيكون عليها أن تخبرهما. الأحد عند الغروب. تشك في أنها تملك القوة.

قال لوكاس فندبريك:

- لا أعرف ماذا كانت تفعل طوال هذه الأعوام، أي مهارات غريبة اكتسبت أو أي صحبة رافقت. إنها أذكى شخص عرفته في حياتي. ولكن إن رأيتِ ابنتي، يا مدام، فأخبريها رجاء أن تعود إلى البيت.

***

تركت نيلا فندبريك، يفتقد ابنته، ويعبئ ببطء أشغالها اليدوية الجميلة في مجموعة من الصناديق. يقول:

- ينبغي ألا تبقى هنا. لكنني لن أتخلص منها. ربما تأتي إلى بروج لاستعادتها.

تفكر نيلا في النساء عبر أمستردام، يترقّبن ما سترسله صانعة الدمى من طرود. بعضهن بتخوّف، وكثيرات منهن بأمل،

وأخريات بالنظرة الخالية التي تميز من لا يستطيعن العيش من دون شيء آخر يمنحهم القوة، من دون صانعة الدمى وصفتها المتملصة. سوف ينتظرن سعادتهن. وعندما لا تأتي السعادة، عندما تنقطع الطرود، كما انقطعت مع نيلا، ماذا سيفعلن حينها؟ هؤلاء النساء منحن رسائلهن إلى صانعة الدمى، التي قايضتها بعملة من أنفسهن. هن الآن يملكن أنفسهن، ليقايضن بها، أو يكتنزنها، أو ينفقنها.

خرجت نيلا من شارع الكالفرسترات، ذاهلة عن نداءات الباعة. الأحد عند الغروب. تسأل نفسها، كيف سأخبرها؟ كيف سأخبرها أن حبلاً سيوضع حول رقبة يوهانس قبل أن يُلقى به في البحر؟

بخدر، تواصل المشي في الشوارع، وفوق الجودين بوخت. كانت كورنيليا واقفة عند الباب، تنتظر، وبرؤية منظرها، يتلاشى في حلق نيلا كل شيء عن أنباء يوهانس وسر لوكاس فنديريك وصانعة الدمى. كانت الفتاة شاحبة وحزينة. تبدو أكبر كثيراً من عمرها.

كل ما تقوله كورنيليا:

- لقد أخطأنا في شيء ما. فعلناها بصورة خطأ.

باب يُغلق

أصبح الوقت هلامياً في هذه الحوادث. تنبش نيلا في آخر ذكرياتها، لقد تركت مارين يقظة، ركضت إلى الستدهاوس ثم إلى الكالفرسترات طلباً لخلاص لن يأتي أبداً. كل ذلك في اليوم ذاته لكن حُكْم سلابارت، وأسرار فندبريك، تبدو كحوادث من العام الماضي. لقد ابتلعت مارين الوقت، وعلى خريطة بشرتها الشاحبة، تعجز نيلا عن العثور على شيء يدل متى غرقت وكيف اختفت.

كان ذكاء مارين قد قاوم حتى النهاية، فكّنها أن ترحل في الخفاء. تسللت روحها من بين أصابعهم. أفلتت حتى في أنفاسها الأخيرة، مُحتفظة لنفسها بلحظة موتها.

- لا ... واختنق حلق نيلا بالكلمات.

- -لا، مارين، هل تسمعينني؟

لكن نيلا تعرف أنها ما عادت موجودة. وقفتا إلى جانب السرير، تلمسان وجه مارين. تلمع بشرتها بطبقة من الرطوبة، وكأنما كانت راقدة تحت المطر.

بذراعين ترتعشان، تُلِمّ كورنليا إرث مارين الوحيد من فوق ثديها الخامد. رفعت تِيا، و حملت الطفلة الصغيرة في يدها. كانت كورنليا قد قمّطتها بلفات عديدة من القطن، فلم يظهر منها سوى وجهها بلون قشرة البندق. ظلت نيلا وكورنليا عند السرير، مُذعنتين لمارين في صدمتهما.

قالت نيلا همساً:

- هذا غير ممكن.

- لم يكن في وسعي فعل شيء، قال صوت جاء عند الباب المفتوح، جفلت نيلا، واستدارت في فزع لترى امرأة ضخمة تسير نحوها، بكمين مُشمَّرين، وبنية تشبه قطيع أبقار من أسدلفت.

- من...

قاطعتها المرأة:

- ليزبيث تيمرز، وجدتني خادمك في دليل سميت. ينبغي إخراج هذه الطفلة من هنا على الفور.

تمتمت كورنليا لنيلا:

- كانت الأقرب، "أنتِ من أمرني أن أفعل، يا مدام.

حدّقت نيلا في هذه الليزبيث تيمرز، حاجبة جسد مارين المُمدد عن عيني الغريبة المُتفحصتين. تساءل في هذا الهدوء المُخيِّم الغريب، كيف أمكنها أن تُقدم على هذا التهور، آمرة كورنليا أن تفتح أبوابهم وتكشف أسرارهم. كثعلب في قنّ الدجاج، وقفت ليزبيث ويداها على ردفيها.

همست كورنليا:

- إنها مُرضعة. لكنها لم تنجح في اختبار القابلات.

أجابت ليزبيث برصانة وقد سمعت ما قيل:

- لقد أنجبتُ أربعة أطفال. وتقدمت نحوها بخطوات واسعة، فانتزعت تِيا من بين ذراعي كورنليا.

- لا!... هكذا هتفت كورنليا عندما حملت ليزبيث الطفلة

إلى المدخل، وهي تسحب كرسياً. تفحص المُرضعة الطفلة من الأمام والخلف، وكأن تِيَا ثمرة خضار مشبوهة في السوق. بعد تمرير أصابعها المحمرة على قبعة تِيَا الحُكة الصغيرة، تُدني مشدُّها وقيصها المفكوكين. رفعت تِيَا إلى حلمتها الوردية الداكنة وتركتها ترضع، وعلقت:

- لقد أسأتم عملاً.

قالت كورنيليا:

- ماذا تعنين؟ كان في صوتها ذعر لم تجد نيلا له سبباً.

رفعت ليزبيث عينيها:

- أعني قماطها.

مع إرهاقها، تستشيط نيلا غضباً، وقالت:

- إننا لا نمنحكِ أجراً لقاء اعتقاداتك، يا سيدة تيمز.

تقول ليزبيث من دون أن ترتبك:

- اسمعي. إن أجسادهم تكون كالشمع في هذا العمر. إذا قطتهم بطريقة خاطئة، فسوف تحصلين على عمود فقري منحرف وساقين معوجّتين عندما يصبح عمرها عاماً.

تُبعد تِيَا عن صدرها وتشرع في حل قماطها وكأنها طرد. وفي ثانية، كانت قد أزالت غطاء الطفلة.

تقدمت كورنيليا خطوة إلى الأمام، متوترة، مُستنفرة.

فسألتها نيلا:

- ما الأمر؟

لم تكن في غمرة اندفاعها إلى الستدهاوس، قد ألفت سوى

نظرة خاطفة على الطفلة في صباح اليوم التالي للولادة. لكنها الآن، وإذ تتذكر اضطراب كورنليا، لا يبدو هذا معقولًا. محال أن يكون حقيقة، ترى بعينيها ما كانت الخادم المذهولة تحاول إخبارها به.

إضافة إلى رأسها الذي يكسوه شعر داكن، أسود جداً مقارنة بأي طفل هولندي، كانت بشرة تِيَا التي غُسلت حديثاً بلون الجوز المغلف بالسكر. كانت الرضيعة قد فتحت عينيها، لتظهر قزحيتاها مثل بركتين صغيرتين من الليل. اقتربت نيلا، عاجزة عن إبعاد عينيها.

تهمس كورنليا:

- تِيَا، آه، يا توت.

وكأنما سمعت هذا، أدارت ابنة أوتو وجهها إلى الخادم. وأرسلت نظرة وليد، عالمٌ يتكون منها وحدها.

ترفع ليزبيث عينيها إلى نيلا، في انتظار أن تتكلم. ومع ازدياد وطأة الصمت في الغرفة، عادت كلمات مارين لتدور في سباق داخل رأس نيلا. إن هذا الطفل لن يكون مفيداً على الإطلاق. لو أن هذا الطفل نجا، فسوف يوصم. لا ريب أن ليزبيث تسمع دقات قلبها؟ وإلى جانبها، تبدو كورنليا مشلولة.

ثم تنجح نيلا في أن تقول: "ستكافَئين بسخاء، على كل ما تقدمين من مساعدة. جِلدراً واحداً في اليوم." تكشف رعشة في صوتها عن صدمتها مما تراه، وجه يكشف عن وجه، سر يتجلى. شِبرًا شِبرًا منكِ، أحبك.

تكوّر ليزبيث خديها في تفكّر، ويدها الخشنة تربت بلطف على شعر تِيَا الأسود. تتأمل المرضعة غير القانونية اللوحات، وساعة

البندول، والإبريق الفضي. تثبتُ عيناها على الخزانة الضخمة التي تحوي حيواتهم المصغرة، قائمة توحي بالترف والإسراف، إلى درجة تُشعر نيلا بالخجل.

وأخيراً تعلّق ليزبيث:

- حتماً سأفعل، يا مدام. سآخذ أربعة جِلدرات في اليوم.

ما تزال نيلا في ذهول يُعجزها عن قول الكثير، لكنها مكثت في أمستردام طويلاً بما يكفي لتعرف أن المرء يساوم مع أول أنفاسه. إنها تشعر بالارتياح في العموم لأن ليزبيث تبدو راغبة في أموالهم أكثر من أسرارهم، ولكن ربما تبالغ المرأة في انتهاز حظها المفاجئ. همست نيلا لنفسها، لن أسمح لأحد بالمنّ عليّ. يبدو أن المرضعة تعرف الفوضى التي تعج تحت السطح، لكنها أيضاً لسوء الحظ تعرف سعرها.

ربما كان يوهانس مُحقًّا - حتى الأشياء غير المادية مثل السكوت قابلة للمساومة مثلما قد يفعل المرء مع نخلة غزال، أو زوج من التُّدرج، أو قالب جبن كبير. تفكر في صندوق يوهانس الناضبة جِلدراته. تذكر نفسها، عليكِ الذهاب لمقابلة هانا. يجب بيع كل ذلك السكر. ولكن متى؟ إن الفيضان يحدث فعلاً، كما قال أوتو تماماً.

- جِلدران في اليوم، يا مدام.

جعّدت ليزبيث تجرز أنفها:

- نظراً إلى الظرف غير الطبيعي أنا واثقة أنكِ ستتفهمين. ثلاثة.

كنتُ على وشك إخبار فرانس ميرمانز أن مارين قد أنجبت طفلة منه، هكذا تفكر نيلا، مع رعشة داخلية مما كان سيحدث

لو أنه اكتشف ذلك السر أيضاً. قالت:

- فليكن، يا سيدة تيمرز. ثلاثة جِلدرات في اليوم. عن مُجمل خدماتك.

أومأت ليزبيث برضا:

- يمكنكِ الاتكال عليّ. لا يهمني رؤساء البلديّة."

- أنا واثقة أنني أعرف ماذا تقصدين، يا سيدة تيمرز.

ابتسمت ليزبيث بتكلف:

- تحبّين هذا، ها؟ حسناً، الأبُ أبٌ في عالمي. جميعهم سواء. وهي طفلة جميلة، لا تسيئي الفهم.

- لا أسيء الفهم! رددت نيلا، وهي تحاول السيطرة على ذهولها. وتتساءل، هل ياترى أوتو يعرف من الأساس؟ هل أخبرته مارين - ألهذا هرب؟ تبدو كورنيليا كمن سيفقد الوعي، وتتساءل نيلا هل اشتبهت الخادم يا تُرى في هذه الحقيقة الخارقة. كم كانت واثقة وهي تحكي قصة مارين وفرانس ميرمانز، كم كانت متفاخرة بمؤهلاتها كلكة لثقوب الأبواب! كان أوتو صديق كورنيليا، رفيقها في هذا المنزل. لقد خسرت تاجها.

تقول ليزبيث:

- إنهم يحبون ذلك، أتعرفان؟

انفعلت كورنيليا:

- ماذا تقصدين بحق السماء؟

تجاهلت ليزبيث مناوشة كورنيليا بطرف عينيها، وتُعلِق بنبرة

جافة:

- إحكام القماط حولهم. إنه يذكرهم بالرحم.

يفيض حزن وارتباك على وجه كورنيليا. وعندما تتذكر نيلا يوهانس في الستدهاوس والحكم عليه، تدرك استحالة أن تخبر كورنيليا بحقيقة أخرى.

في غرفة مارين، وسط البذور والريش، شرعت ليزبيث في عرض الطريقة السليمة لربط القماط. كان تِيا مطواعة وشبه نائمة. ثم تعود لإطعامها، وتستيقظ الطفلة، مُتشبثة بالحياة، بقوة العزم التي تُذكّر نيلا بمارين، عندما كانت تستغرق في قراءة دفتر الحسابات أو تحدّق في واحدة من خرائط يوهانس. وقفت مُتمعّنة في اللغز المُذهل، لمعة توفي الخوخ في بشرة تِيا. تسحب تِيا نفساً مسموعاً وتكوّر أصابعها في قبضة. كان نسق وجهها الوليد يعلن بوضوح عن أبيها، لكن الوقت مازال مبكراً على استنتاج أي جانب ستقع عليه العملة.

شرعت كورنيليا، بحركات وكأنما تحلم، بإشعال المباخر في أنحاء المنزل، مُبعدة رائحة الموت. أدارت جميع المرايا إلى الحائط، حرصاً على أن تجد روح سيدتها طريقها إلى السماء. لا يحبون أن تعلَق مارين في المداخن، يريدون لروحها أن تحلِق عبر السحاب فوق سطوح أمستردام.

سيتوجب عليهما نقل جثمان مارين قريباً جداً، كما تخبرهما ليزبيث، إذ إن الجو الفاسد سيضر بصحة تِيا:

- ضعي عليها ملاءة بسيطة، يا مدام.

قالت نيلا:

- ملاءة بسيطة؟ لا أظن ذلك. تستحق مارين أجود أقمشة

الدَّمَقس،

يأتي صوت كورنليا الضعيف ليقول:

- كانت لتفضل البسيطة على الأرجح.

حالما نامت الطفلة، فأخذت ليزبيث جلدراتها الثلاثة، ووضعتها في جيب مئزرها، وقالت:

- أرسلي لي عندما تستيقظ. أسكن قريباً من هنا.

وفي طريقها للخروج من باب المطبخ، كما أصرّت نيلا، لا يمكن لليزبيث تيمرز استخدام الباب الأمامي، مهما كان أجرها عالياً، تتوقف وتلتفتُ إلى ربّة عملها الجديدة. وتسألها:

- ما هذا الشيء الذي تملكينه في الأعلى؟ الخزانة الكبيرة في الزاوية. لم أرَ شيئاً مثلها من قبل.

- لا شيء. إنها لعبة.

- يا لها من لعبة.

- سيدة تيمرز...

- لا بد لكم من تعميد الطفلة. أسرعي، يا مدام. هذه الأيام الأولى حرجة.

تغرورق عينا نيلا بالدموع. تتذكر آخر كلمات سلابارت. فليكن التعميد الجديد ليوهانس براندت عبرة لكم جميعاً.

رمقتها ليزبيث بمزيج من الشفقة ونفاد الصبر، وهمست:

- لا تخلعي عنها قبعتها، يا مدام. أراه شعراً جميلاً، لكن على الطفلة المسكينة أن تعيش في هذه المدينة.

وإذ تقول هذا، تتساءل نيلا كيف سيكون ذلك ممكناً من

الأساس. لكن كورنليا لن تتخلى عن الطفلة أبداً.

تربض كورنليا عند المهد. وجهها شاحب، وخالٍ من التعبير. تبدو ذابلة، وتتذكر نيلا أول لقاء بينهما في الدهليز، غرورها، وثقتها في معاينة القادمة الجديدة. لا تصدق أن هذه هي الفتاة نفسها!

- لقد حاولتُ، يا مدام.

- فعلتِ كل ما في وسعك.

توقفت نيلا لحظة، مُنصتة إلى المنزل. في الحديقة، تحترق صُرّة ملاءات مُتيبّسة صار لونها بنيّاً، إلى ندف خفيفة، ألياف قطنية متفحمة تتطاير في السماء. ترى نيلا بين ألسنة اللهب، مربعاً مطرّزاً من وسادة، عش طائر زاه وسط زخارف من ورق الشجر. لقد طرّزت كورنليا كمية كبيرة. كل شيء يذكرها بصوت مارين.

همست كورنليا:

- سوف نحتفظ بِتِيَا، أليس كذلك يا مدام؟ إنها هنا آمن من أي مكان آخر.

قالت نيلا:

- نحن نقدم الرشاوي لأشخاص جدد فعلاً حتى نحفظ آخر أسرارنا. متى سيتوقف ذلك؟ فيجيب الصوت في رأسها، سيتوقف عندما ينفد المال. قالت كورنليا بنبرة حازمة:

- سوف أموت قبل أن أسمح لشيء أن يصيب هذه الطفلة.

- كورنليا، أعدكِ أننا لو انتهى بنا الأمر إلى نقلها إلى أسِدلفت، فلن نتخلى عنها.

إنها أسِدلفت الآن التي تبدو بعيدة بُعدَ بالافيا، لا أمستردام، كما قالت آغنس ذات مرة. سمعت نيلا صوت مارين من جديد، واضحاً كجرس، وعيناها الرماديتان تشتعلان بالازدراء. لا شيء نفعله في الريف.

أشارت كورنيليا قائلة:

- يمكن لِيَا أن ترتدي طاقية على شعرها في الخارج، وتطلقه في المنزل.

- كورنيليا...

- وسيكون علينا إخبار الأب بيليكورني عن مدام مارين. لا يمكننا مجرد دفنها في أي مكان. لا أريد وضعها في سانت أنطونيوس. إنها بعيدة جداً. أريدها هنا، داخل أسوار المدينة...

قاطعتها نيلا وقد أحسّت بالخادم تفقد صوابها:

- دعيني أعدّ لكِ شيئاً تأكلينه. بعضاً من الجبن والخبز؟

أجابت كورنيليا وهي تقف مرة واحدة:

- لستُ جائعة. ولكن علينا أن نعدّ بعضاً من الطعام ونأخذه إلى السنيور.

تجلس نيلا، مُسْتَنْفَدَة أمام المسّ الذي أصاب كورنيليا، حائرة في إيجاد كلمات تشرح ما حدث اليوم في الستدهاوس. إنها تتوق إلى رؤية يوهانس، ولكن عليهما أن تفعلا شيئاً من أجل مارين، قبل أي شيء صباح الغد، بعد الحصول على شيء من النوم. اليوم خميس. بحلول غروب يوم الأحد، ستبدأ هي وكورنيليا وتِيا رحلة سقوط حر، مع ليزبيث تيمرز متشبثة بتنانيرهما. في هذه المدينة يبدو قتل النفس بمثل سهولة رفع

قطعة لعب من على لوح الشيكرشپيل.

ربما لم توجد في كل أمستردام طفلة مثلها. هناك اليهود السفارديم طبعاً - صبيان وبنات لشبونة السُمر، وهناك المهجنون الذين جلبهم تجار برتغاليون، وينتظرون خارج المعبد اليهودي في الهاوتغراخت، ليحجزوا مقاعد لسيداتهم. هناك الأرمن الفارّون من الأتراك العثمانيين،ومن يدري ما الذي يحدث بعيداً في الهند الشرقية، لكن الناس في أمستردام يحافظون على عرقهم، لا يختلطون بأجناس أخرى. هذا ما انفك الناس يحدقون في أوتو. ومع ذلك، ها هنا خلطة نقية من جنسين متضاربين في الجمهورية، قد وُلدت، لا على بعد آلاف الأميال، ولكن في الثنايا العميقة في أرض الأجداد، في أرق منطقة بالجودين بوخت. إن تيا تفوق حتى والدها في مدى تفردها الفاضح بالنسبة إلى هذه الشوارع والقنوات.

شِبرًا شِبرًا منكِ، أحبك. أوتو وتوت، دائرة مُكتملة، الرسالة والطفلة اللذان خلفهما انعكاس لصورته. تتذكر نيلا الهمس في الليل، والأبواب التي تُغلق، ووجه كورنليا الذاهل عندما تسألها نيلا في الصباح إن كانت قد ظلت مُستيقظة لوقت متأخر. مارين، دامعة في الكنيسة القديمة. أوتو، حلِماً بعدها بأسابيع في المقعد نفسه. هل كان ذلك عندما أخبرته مارين؟

الشيء الوحيد الذي قد تفهمه نيلا عن أوتو ومارين هو تيا، التي بدورها ستكون سراً لا يعرفه سواها، فوالدتها ميتة ووالدها غائب. فكرت نيلا في أم أخرى، في بيرجن، وطفلة محبطة أخرى، تعيش في بروج مع أب مسن. لماذا أبعدت صانعة الدمى عن بيتها؟ لقد أصابتني قلة النوم بالجنون، هكذا قالت نيلا لنفسها، وهي تحاول العودة بذاكرتها، بحثاً عن دلائل ربما فاتتها

حول أوتو ومارين، أو بترونيلا الأخرى. وتشك في أن الأيام ستكشف لها أيًا مما ألغز عليها فهمه.

تمتمت كورنيليا في وجه تيا، وقالت في صوت خافت:

- أردته أن يكون السنيور ميرمانز. أردته أن يكون هو.

- لماذا؟

لكن كورنيليا لا تجيب، هذا هو أقصى اعترافها. لقد كانت شديدة الإصرار على هوية حبيب مارين السري، هدية الخنزير المملح وغيرة آغنس الزوجية. كان يجدر بي تكليف كورنيليا بأعمال المنزل أكثر، هكذا قالت مارين، متذمرة من نزعتها إلى نسج القصص. صحيح أن ميرمانز كان يطيل النظر إلى مارين، لكن مارين نفسها لم تقدِّم أي دليل. وماذا قالت عندما سُئلت عن عواطفها؟ إنكِ تحملين طفله، هكذا قالت لها نيلا، وكان ردها، لقد سلبتُ يوهانس أشياء ما كانت من حقي. مارين المُبهمة، كما هو شأنها دائماً، بعيشها في الظل بين الأكاذيب والحقيقة.

قالت كورنيليا:

- ليت الأمور تعود إلى ما كانت عليه.

تقول نيلا وهي تتناول يدها:

- كورنيليا، عليَّ إخبارك بخصوص يوهانس. تشعر بحزنها يتفتَّح، وردة متحجِّرة تَسقط بتلاتها بسرعة كبيرة. بتيقُّظ وهدوء، جلست الخادم على السرير.

قالت كورنيليا في انتباه لا يلين:

- أخبريني إذن.

خُيّل لنيلا أن الجدران ستتهدّم من قوة دموع كورنليا. تستيقظ تيَا طبعاً، وترفع نيلا الوليدة الباكية من وسط أغطيتها القطنية. الطفلة تفتن الألباب، عورتها مغطاة بلفافة بيضاء، وربما منفاخان صغيران يناديان مَن في الغرفة.

- لماذا عاقبنا الرب، يا مدام؟ هل خطط لهذا من البداية؟

- لا أعرف. ربما طرح السؤال، لكننا الجواب، يا كورنليا. علينا أن نتحمل. من أجل تيَا، علينا أن نخرج من هذا.

سألتها كورنليا، وهي تدفن وجهها في يديها: - ولكن كيف؟ كيف سنعيش؟

قالت نيلا:

- اذهبي لإحضار ليزبيث، تحتاج تيَا إلى أن ترضع."

أجبرتها الضرورة أن تهدأ، نخفضت صوتها أمام بكاء الطفلة. وبوجه ملطخ وإحساس متبلد، تركت نيلا على السرير، وتيَا تصرخ بين ذراعيها. وعندما استلقت نيلا على ظهرها مع الطفلة، شعرت بشيء يغز أول ظهرها، وحينما مدت يدها تحت الوسادة، وجدت أصابعها جسمًا صلبًا صغيرًا.

همست، أوتو، وهي تنظر إلى دميته في إحدى يديها، بينما تحمل يدها الأخرى ابنته التي من لحم ودم. لم تكن نيلا قد لاحظت أنه أُخذ من بيت الدمى. هل كانت مارين تنام هنا، ليلة بعد ليلة وهي تخفيه تحتها، تعزية فشلت في استحضاره إلى المنزل؟

- أين أنت؟ هكذا تسأل نيلا، وكأن كلماتها ستعيده إلى حيث فشلت دميته بصورة محزنة أن تفعل. تبكي تيَا طلباً للّبن، ملاكهم الصاخب لدنيا جديدة شجاعة. لقد حصلت هذه الطفلة

على بداية، تماماً كما حصل يوهانس وماريِن على نهاية.

وسط صراخ الطفلة، تتلو نيلا سرًّا صلاة معينة. زماناً في أسدلفت، كتب كاريل في غمرة حزنه على موت أبيه نداءً للرب. كان مُصمّماً وطفوليًا، بأفضل معاني الكلمات. تسترجعها نيلا الآن، الكلمات المنقوشة في قلبها، وتتمتم بها في أذن تِيَا الصغيرة. طلباً لمواساة، ورغبة في انبعاث أمل لا ينضب.

غرف خاوية

باتت ليزيث تمرز ليلتها في المطبخ. وفي صباح اليوم التالي، الجمعة، بدا وجهها مُغشًى بهواء الغرفة الرطب. وتقول:

- جثمان السيدة. ستحتاجان إلى مساعدة."

شعرت نيلا بامتنان يغمرها. وسمعت صوت يوهانس في رأسها، يسأل شقيقته. مارين، هل تظنين أن هذا المنزل يُدار بالسحر؟ تفكر نيلا، ليس بالسحر، ولكن بأشخاص مثل كورنيليا وليزيث تمرز.

كورنيليا، التي لم تلمس أصابعها مارين في حياتها سوى لمامًا، تصبح مُجبرة الآن على حمل سيدتها وإمساكها بإحكام. تقول الخادم:

- كانت تنفر من لمسها." وتتساءل نيلا أمام الواقع المُتمثل في تيَا، عن مدى صحة هذا الكلام.

- هذه مناسبة. رفعت كورنيليا تنورة سوداء طويلة. إنها تكثر من الكلام اليوم، وكأن صوتها سيُبعد الأرواح الشريرة التي تنادي من الستدهاوس، وقد صارت كلمات يوم الأحد عند الغروب تهدر داخل رأسها أيضاً. كانت الدعامات القماشية للشد الذي اخترنه مُبطَّنة بفرو السمور والسناجب، وشريط من القطيفة يمتد بطول العمود الفقري. تقول كورنيليا:

- سيليق تماماً بعدام مارين.

شعرت نيلا وكأنها تقف على رمل مُتحرك قد يبتلعها في أية لحظة. بلل العرق إبطيها، وأحسّت أن أمعاءها مُفككة. أجابت

بابتسامة واهنة:

- صدقتِ.

قطبت ليزبيث حاجبيها، وقالت:

- كل الملابس جميلة. ولكن علينا تجهيزها أولاً.

***

هذا هو الجزء الأصعب.

أجلسن مارين، واستخدمت ليزبيث سكيناً حاداً لتمزيق التنورة والقميص الداخليين. تُجفِّد نيلا نفسها عندما ينشق النسيج إلى اثنين، محاولةً وضع تركيزها على المهمة التي يقمن بها. إن النظر إلى الجراب المترهّل الفارغ الذي أقامت فيه تيا قرابة التسعة أشهر يسبب ألماً قاتلاً، ورؤية ثديي مارين المستديرين والممتلئين أمر لا مفر منه. بين ساقيها يبقى الحبل السُري، الشيء الذي لم يتمكنّ من إخراجه.

استنشقت كورنليا جرعات كبيرة من الهواء، لا تعرف نيلا إن كان ذلك حزناً أم تقززاً. المدخل الذي جاءت منه تِيا إلى العالم يبدو مغلقاً، لكن نيلا لا تجرؤ على الاقتراب، خشية أن تطلق المزيد من الدماء. في المقابل، يدلكن أجزاء أخرى من جسد مارين بما تبقى من زيت الخزامى، كالمّات رائحتها التي أخذت تحتد، حلوة بصورة غريبة.

ترنحت نيلا وليزبث وهما ترفعان مارين. كانت كورنليا تلبسها التنورة برفق، وتعقد وثاقها بأصابع مُرتعشة. عندما تُميلها نيلا إلى الأمام، يقع رأس مارين على صدرها. تُدخل كورنليا ذراعاً من المشد. "لم ألبسها ثيابها منذ سنوات،" قالت بصوت خفيف وعال، ينساب مع أنفاسها. "كانت تلبس ثيابها بنفسها

دائماً."

أدخلت كورنليا في قدمي مارين جوربين من الصوف، ونعلين من جلد الأرانب مطرزًا بالحرفين الأولين من اسمها، وتغسل نِهلا وجه مارين، وتمسحه في توقير بمناشف نظيفة، وفكت ليزبيث شعرها، وأعادت تضفيره، ثم دسّته تحت قلنسوة بيضاء أنيقة.

قالت نِهلا:

- مهلاً. ثم ركضت إلى غرفة مارين الصغيرة، حيث ترقد تِيَا نائمة في مهدها الخشبي. أنزلت نِهلا خريطة إفريقيا إلى أسفل، المُذيلة بعدُ بأسئلتها المفتوحة، طقس؟ أطعمة؟ دين؟

قالت كورنليا عندما رأت ما جلبته نِهلا:

- يجدر بنا إرفاقها بالمزيد من مجموعاتها. الريشات والتوابل – تلك الكتب."

قالت نِهلا:

- لا. سوف نحتفظ بهم.

- لماذا؟

- لأنهم يوماً ما سيصبحون ملك تِيَا.

أومأت كورنليا، بادية التأثر بالمنطق والشجن في هذه الفكرة. وتخيلت نِهلا كورنليا خلال أربعة أعوام من الآن، وهي تُري البنت الصغيرة ذاك العالم الواسع الذي جمعته والدتها ذات يوم باجتهاد، وبحبٍّ أيضاً من دون شك. وإذ تحمل عينا الخادم الزرقاوان نظرة شاردة، تتساءل نِهلا هل تراها كورنليا تفكر مثلها في ذلك المستقبل – تِيَا، تدلدل ساقيها الصغيرتين

من السرير، بينما الخادم التي أحبّت والدتها، تُفرّجها على هذا الميراث الغريب. تريد نيلا لكورنيليا أن تتشبث بالصورة، مُعيناً من المستقبل يُخرجها من رعب الحاضر.

قالت كورنيليا:

- تبدو مُسالمة.

لكن نيلا ترى التغضُّن المألوف على جبين مارين، وكأنها كانت تحل مسألة حسابية معتدلة الصعوبة، أو تفكر في شقيقها. لا تبدو مارين مُسالمة. إنها تبدو كمن لم تكن ترغب في الموت. كان ما يزال لديها الكثير لتقوم به.

بينما تذهب ليزبيث وكورنيليا إلى غرفة مارين للعناية بتيَا، هبطت نيلا السلالم إلى خزانة الأدوات الخاصة بأوتو، حيث رُصّت أدواته على رف مُرتَّب، جاهزةً على الدوام، مُليّنة ومشحوذة بعناية. وجدت بُغيتها. كان مزارعو أسيدلفت بسمونها المراوة، وكانت تراقبهم في صغرها، وأذرعهم القوية تلوّح بجسارة نحو الأشجار المحتضرة.

عادت إلى الطابق العلوي، كانت تمتمات المرأتين تتناهى إليها في الممر، أوصدت نيلا باب غرفتها لأول مرة، ورمقت بيت الدمى في الزاوية، هدية يوهانس الجميلة. في تشرين الأول الماضي، سمّاها إلهاء، لكن نيلا، على عتبة حياة جديدة، لم تعدّها أكثر من تهميش إضافي لها. لقد رفضت هذا العالم المهجور، ثم آمنت بالتدريج أنه يحمل الأجوبة في داخله، إنّ صانعة الدمى كانت الشخص الذي يمسك المصباح. لكن يوهانس كان محقًّا بطريقة ما، فكّرت نيلا:" كل شيء في هذه الخزانة كان يُلهيني فعلاً. كثيرة هي الأمور التي حدثت بينما كنتُ أنظر في الاتجاه الآخر. كنت واثقة بأني لا أتحرك،

ولكن انظري إلى المدى الذي وصلتُ إليه.

أصبحت نيلا متيقّنة الآن فقط مما يجب فعله. تقترب من الخزانة وترفع ذراعيها، مُقلِّدة الفلاحين الذين كانوا يقطعون بفؤوسهم الجذوع المتأوِهة. نفسٌ عميق، لحظة يتجمد فيها الزمن، ثم ينزل الفأس. يخترق الغلاف المُبرقش، يُبعِج الخشب المُتشظي. تلوّى عروق البيوتر كجذور نبات، وتهوي الستائر المخملية على الأرض. تُهيل نيلا الضربات، إلى أن يخر المنزل مُستسلِمًا. تنهار الأرضيات، ومداعي الأسقف، الصنعة والوقت، التفاصيل والنفوذ، كل ذلك يخرّ عند قدميها.

انفجر الدم في عروقها، رمت الفأس ومدّت يديها في داخل الأنقاض. تنزع ورق الحائط المصنوع من الجلد الإيطالي، المنسوجات الجدارية، الغراء الذي يلصق أجزاء الأرضية الرخامية. تُمسك بالكتب، فتُمزِّق صفحاتها المنمنمة. تُهشم بقبضتها كأس العروسين، فينصاع المعدن الرقيق تحت ضغط يدها، وتحطم الكرسيين المصنوعين من خشب الورد، وقفص العصافير، وبيبو، وصندوق المرزبانية، والعود، وتسحقهم تحت نعل حذائها، لتذهب كل معالمهم، بلا رجعة.

وبأصابع كالمخالب، شقّت نيلا جسد ميرمانز مُمزّقة قبعته ذات الحواف العريضة. تقتلع رأس جاك كوردة ميتة. وبقطعة من خشب الجدار، تهشم يد آغنس، المُتشبثة بعدُ بمخروط السكر المُسوَد. نيلا لا تستبقي كورنليا ولا نسختيها، الشاحبة والذهبية، الأولى التي أرسلتها صانعة الدمى، والثانية التي تركتها آغنس على أرضية الشرفة في الستدهاوس. تلقي بهم في الكومة مع صرة النقود التي كانت مرفقة بدمية يوهانس. وحدهما مارين ويوهانس تبقيهما سالمين، فتضعهما في جيبها مع أوتو

والطفلة الصغيرة. تستطيع نيًا أن تحظى بهم عندما تكبر، صوراً لأشخاص ذهب زمانهم.

تتحسس آرنود في جيبها وتتردد. إنها مجرد دمية، تقول لنفسها، وهي مشدوهة بعد من المزيج الغريب بين الصنعة والتجسس الذي تملكه صانعة الدمى. ليس مهماً. تزنه في راحة يدها. لم يَبع أكثر السكر بعد. أعادت الحلواني مرغمة إلى جيب تنورتها، آمنا وبعيدًا عن الأنظار.

خاوية، ومنهكة، لم تعود نيلا قادرة على تحطيم شيء، كانت هدية زفافها قد تحولت إلى كومة حطب. وببطء تنزل إلى جوارها، مُسندة رأسها على ركبتيها المثنيتين. بلا أحد يضمها، ضمت نفسها، وبدأت النحيب.

الآفة في البستان

كان جليًا في ذلك المساء، أنَّ كورنليا لن يُثنيها شيء عن الذهاب إلى سجن الستدهاوس. كانت في نشاط محموم، قد أعدَّت فطائر محشوَّة بدجاج ولحم عجل، ماء ورد ويقطين محلى، ملفوف ولحم بقر. تفوح منها رائحة البيت، مطبخ متين بأدوات جيدة، تقود دفَّته طباخة حكيمة.

قالت:

- أنا ذاهبة، يا مدام. كان التصميم قد أعاد بعض اللون إلى وجهها.

- لا تخبريه بما حدث هنا.

تجذب كورنليا صرَّة الطعام الدافئة إلى جسدها، وعيناها تغرورقان بالدموع. دست الفطائر في مئزرها، وقالت:

- إنني أفضِّل الموت على تحطيم قلبه، يا مدام.

- أعرف.

- ولكن لو أخبرناه عن تِيَا، البداية الجديدة مع الطفلة الرضيعة...

- سيضاعف ذلك من حسرته على الحياة التي يوشك على تركها. لا أظن في إمكانه تحمل ذلك.

امتعضت كورنليا من القرارات الفظيعة التي تُجبران على اتخاذها. وراقبت نيلا الهيئة البائسة للخادم وهي تمضي في شارع القناة.

كانت ليزبيث في مطبخ الخدمة، تطوي حفاضات جديدة لأجل تِيا. تسألها نيلا:

- هلا مكثتِ معها لبضع ساعات ريثما أعود؟

رفعت ليزبيث عينيها:

- بكل سرور، يا مدام.

شعرت نيلا بالراحة، لأن ليزبيث لا تسألها إلى أين تذهب، على النقيض تماماً من كورنيليا. تتساءل ماذا تراها ستقول ليزبيث عن المجزرة في غرفتها، الدمار الذي أوقعته عروس طفلة بلعبتها. قالت للمُرضعة:

- يوجد حطب في الطابق العلوي. يجدر بنا إبقاء تِيَا في جو دافئ."

***

سمح لنيلا بالدخول من باب غرفة الكيركيستر المُوالية لأرغن الكنيسة القديمة. كان الأب بيليكورني على طاولة مكتبه. إن نيلا هنا من أجل كورنيليا. أما هي فكانت تفضل دفن مارين في هدوء بكنيسة سانت أنطونيوس، بعيدًا عن أعين العامة. كانت قد سألت كورنيليا:

- أليس هذا ما كانت هي نفسها ستريده؟

- لا، يا مدام. كانت سترغب في أرفع تكريم مدني يمكن لهذه المدينة أن تُسبغه. هذه هي العادات والتقاليد، التي تتمسك بها كورنيليا حفاظاً على المظاهر. وهكذا يُخلَّد إرث مارين.

نظر بيليكورني إلى نيلا، محاولًا إخفاء لمحة النفور في عينيه. فكِّر وكراهيتها مبرعم، أنت تعرف من أكون. كنتُ واقفاً

خارج الستدهاوس، رافعاً صوتك ليسمع الجميع. كانت نيلا قد جاءت متسلّحة بثروتها، لكن اللآلئ والفستان الفضي بديا درعاً واهياً أمام ازدراء بيليكورني.

تقول بصوت واضح، وهي تنظر إليه مباشرة:

- جئتُ أبلغ عن وفاة.

دسّ بيليكورني ذقنه في ياقته الغزيرة.

- حسبتُ ذلك لن يكون قبل الأحد؟

وسحب سجل الدفن المكتنز نحوه، كتاب كبير غلافه من الجلد ينقل حركة الأجساد في هذه المدينة، وانتقالها إلى الجنة أو النار. يغمس قلمه في الحبر.

شدّت نيلا قامتها، وأخذت نفساً عميقاً:

- جئتُ أبلغ عن وفاة مارين براندت.

تردد قلم بيليكورني، ورمق نيلا، ووجهه المتصلّب يميل أماماً فوق الدفتر، مردداً:

- وفاة!

"البارحة عصراً."

وضع القلم، وتراجع بيليكورني في مقعده، ليقول أخيراً: "ليرحمها الرب." ثم ضيق عينيه.

- أخبريني، كيف رحلت أختنا مارين براندت عن العالم؟

استرجعت نيلا صورة جثمان مارين، والملاءات الملطخة بالدماء، والوليدة تيا، ثم تعود أكثر بالزمن، أوتو ومارين ملتحمان، وسرهما المدفون في أحشاء جسد مارين الحي.

- ماتت بالحمى، يا نيافة القس.

بدا عليه الذعر:

- أتظنينه داء التعرّق؟

- لا، يا سنيور. كانت مريضة منذ فترة.

- صحيح، لم أرها في الكنيسة في الأسابيع الماضية. ضمّ بيليكورني يديه، وأراح ذقنه على أنامله المدبّبة:

- - كنت أظن غيابها ربما يتعلق بشقيقها."

- لم تكن الصدمة لتزيد الأمر سوءاً، يا سنيور. كانت ضعيفة جداً فعلاً، قالت نيلا بخفوت، والكراهية تتغلغل في داخلها، وتكاد تمنعها من التنفس.

- حقاً ما قلتِ؟ ظلت نيلا صامتة، لا تريد أن تمنح هذا الرجل الوقود الذي يشتهيه. وسألها: "هل حضر الخيبورت لمساعدتكم؟"

تتذكر جنازة والدها في أيسدلفت، كيف جاء الجيران لمساعدة أمها المفجوعة، خلعوا الثياب عن جثمانه، وألبسوه ثوب نوم، ورفعوا جسده المتخشّب على صاجٍ مفروش بالقش تحسباً لأي تسرب. وبعدهم شابات القرية العزباوات، جئن لوضع السعف والزهور، وإكليل الغار. لا خيبورت كهذا كان موجوداً من أجل مارين، وحدها هي وكورنيليا، والأسى يتخلل ذعرهما، وليزبيث، امرأة لم يسبق لها قط أن رأت مارين حيّة. لقد أشعلت كورنيليا تلك المباخر على الأقل.

يؤلم نيلا ما تلاقيه مارين من نقص الوقار في الموت. كان ينبغي وجود خيبورت، لأن مارين كانت امرأة صالحة، كانت

قوية. كانت تستطيع أن تقود جيشاً في حياة أخرى. ولكن في النهاية، لم تبقِ مارين إلى جوارها أي أصدقاء، عدا واحد فقط، وهو غائب.

أجابت:

- نعم، يا نيافة القس. لقد جاء الجيران. ولكن علينا التعجيل بنقلها. علينا إحضارها إلى الكنيسة.

قال بيليكورني:

- لم تتزوج قط. خسارة.

فكرت نيلا، إن الخسارة بالنسبة إلى بعضنا هي في الزواج.

الظلام حالك في الخارج. في صحن الكنيسة، يتناهى إلى أذنيها صوت عازف الأرغن وهو يتدرب على أنابيبه، وتُضاء المشاعل لصلاة المساء. نهض القس مُمِدّاً رداءه الأسود كما لو أنه متزر. وقال:

- لو أنكِ جئتِ طمعاً في دفنها هنا، فهذا مستحيل.

خيّمت لحظة صمت. ثبتت خلالها نيلا قدميها على الأرض، وظهرها مستقيم.

- لماذا، يا نيافة القس؟

صوتها قوي ومتّزن، لأنها جعلته كذلك. لن تسمح له أن يرتعش أو يستسلم للعاطفة. أغلق بيليكورني سجل الدفن ونظر إليها، متفاجئاً، وكأنه لم يعتد مطالبته بمزيد من التفصيل:

- لا يمكننا استقبالها، إنها موصومة بالتبعية، يا مدام. مثلكِ. توقف لحظة، مُحلقاً فيها بعينيه المتحجّرتين: إنني أمنحكِ كل تعاطفي، يا مدام."

- ولكن لا شيء من رحمتك.

- إننا نعاني فائضاً في العدد، إنّ من يسمع عظاتي هم هياكل عظمية لا أجساد حيّة. ربّاه، الرائحة الكريهة، همس لنفسه: "إن كل عطور العرب لتعجز عن حجب ذلك التفسّخ في الأجساد الهولندية." التفت إلى نهلا واكتفى بالقول:

- آسف لوفاتها، ولكن لا يسعني استقبالها هنا.

- ستيور...

- اذهبي إلى الرجال في كنيسة سانت أنطونيس، سوف يساعدونك.

"لا، يا نيافة القس. ليس خارج أسوار المدينة. لقد تعبّدت هنا."

- إن الدفن داخل المدينة ليس خياراً متاحاً لمعظم الناس هذه الأيام، يا مدام.

- ينبغي أن يكون لمارين براندت."

- لم تعد هناك أمكنة. ألا تسمعينني؟

أخرجت نهلا من جيبها مائتي جلدر من أموال آرنود، ووضعتها على مجل بليكورني، وقالت: - إن نظّمت شاهد القبر والتابوت والرجال الذين سيحملونه ومكان الدفن في الكنيسة، فسوف أضاعف هذا المبلغ عند إتمام الأمر.

ينظر بليكورني إلى المال. إنه مال يأتي من زوج لوطي. إنه مال يأتي من امرأة. إنه الأصل العميق للشر، لكنه مال كثير. يقول:

- لا يمكنني قبول هذا."

أجابت نيلا، بتعبير حزين:

- الجشع هو الآفة التي علينا استئصالها.

- تماماً، وقد رأت سعادته باقتباس جملة الوعظية.

واصلت نيلا:

- ولا شك أنك، كرجل دين، أفضل من يقف على الوقاية من الآفة.

أجاب، وعيناه تترددان على الجدرات:

- حالما يتم استئصالها.

- طبعاً.

- يلزمنا صدقات كثيرة من أجل بؤساء مدينتنا.

- ولا بد من التحرك لمساعدتهم، وإلا أخذت الآفة في الانتشار.

جلسا في صمت.

قال بيليكوريني:

- توجد مساحة صغيرة في الزاوية الشرقية من الكنيسة. مساحة لقبر متواضع، لا أكثر من ذلك.

فكرت نيلا، يا له من أحمق. إنه مجرد رجل من الرجال، لا يزيد قربه من الرب على الرجل الذي يجاوره. تساءل كم تُراه سيقتطع من الأربعمائة جلدر قبل أن يُقسِّم المال على حاملي النعش والصدقات. هل ستحب مارين الزاوية؟ لقد أمضت حياتها في الزاوية، فربما كانت ستفضِّل صحن الكنيسة. ولكن

في صحن الكنيسة، سيطؤها الناس في رواحهم ومجيئهم. بعض المواطنين سيحبون على الأرجح مثل هذه الخاتمة، حتى لا يُنسون أبداً، فيبقون في الذاكرة ويُذكرون في الدعوات، لكن نيلا ترى أنه مُهين جداً لمارين. الزاوية أفضل.

قال القس بيليكورني:

- إنني أقول الصدق، يا مدام. الكنيسة مُتخمة. تلك الزاوية هي أفضل ما يمكنني تقديمه.

أجابت:

- إنها مناسبة. لكني أريد التابوت من أجود أنواع الدردار.

أخذ بيليكورني قلمه وفتح السجل مرة أخرى:

- سوف أهتم بالأمر. نستطيع إقامة الجنازة مساء الثلاثاء المقبل، بعد القداس اليومي؟

- حسناً.

- الليل أسهل. إذ إن الرائحة التي تنبعث عند فتح الأرض تنفر الناس من صلاتهم.

- فهمت.

- كم عدد الحضور؟

أجابت نيلا:

- ليسوا بالكثير. لقد عاشت حياة منعزلة بالكامل. قالت هذا بنبرة أقرب للتحدي، لترى إن كان سينكر كلامها، أو يقدم معلومات جانبية تخص حياة مارين الخفيَّة. ربما يذكر متاجر الكتب التي زارتها. الصحبة التي رافقتها. ذلك الزنجي الذي

سارت به في الشوارع.

لكن بيليكورني يكتفي بزمّ شفتيه. لا خير في الانعزال، عرفت نيلا ما يعنيه تعبير وجهه. التضامن المجتمعي، مراقبة الجار، الجميع يتفقدون الجميع، هكذا يستمر ترس هذه المدينة في الدوران. لا أن يحجب المرء نفسه عن أعين المتطفلين. يقول، وهو يضع الجلدرات داخل السجل:

- ستكون مراسم مختصرة.

- لا نُحبُّ الخيلاء.

- تماماً. وإلى جانب اسمها وتاريخي الميلاد والوفاة، ماذا تريدين أن ينقش على شاهد القبر؟

أغلقت نيلا عينيها، واستحضرت مارين في ثوبها الأسود الطويل، قلنسوتها وكأنها المثاليان يخفيان تحتهما بركاناً عظيماً. تمتنع عن السكّر أمام الملأ ثم تختلس الجوز المغلف بالسكّر، تخفي رسائل الحب التي أرسلها أوتو، تدون بلداناً لم تزرها على خرائط شقيقها المختلسة. مارين، التي تستهجن الدمى، ثم تنام ودمية أوتو تحت وسادتها. مارين، التي لم ترغب في أن تصبح زوجاً، لكنها أعدت لِيا اسمها قبل أن تولد.

شعرت نيلا بالثقل الذي تسببه خسارة مارين حياتها من دون جدوى، الأسئلة العديدة التي ظلت بلا إجابة. فرانس، يوهانس، أوتو – هؤلاء الرجال الثلاثة، هل يعرفون مارين أفضل منها؟

سألها بيليكورني بصبر نافد:

- حسناً؟

تضحك نهلا، وقالت:

- تي تشان فيكيرا.

- هل هذا كل شيء؟

قالت:

- نعم، تي تشان فيكيرا.

لا شيء يبقى على حاله.

درجات الشعور بالحياة

صباح السبت، تناولت نهلا فطيرة من غرفة الكرار، وهي تظنها مصنوعة من التوت. فقد كاد الجوع أن يقتلها، إذ لم تكن قد أكلت شيئاً تقريباً منذ صدور الحكم.

لقد خدعها الغلاف، كاشفاً عن فطيرة مصنوعة من السمك البارد، مفلطح باهت الطعم بينما كانت تأمل في فاكهة شتوية. شعرت نهلا في حالتها المتوترة، أن الطعام وكأنه يسخر منها. تساءلت في بؤس هل ستضيف كورنليا يا تُرى طعم السكر على أي شيء مرة ثانية، فنظر الجوز المغلّف بالسكّر قد يستحضر مارين وتناقضاتها اللذيذة.

توجهت نهلا، ومعدتها تقرقر، إلى متجر هانا وآرنود، الذي تعلوه علامة مخروط سكر.

قال أرنود عندما رآها:

- سوف نأخذ كبة أخرى. إنه يتفاعل جيداً مع التوفي الإسفنجي، ولا شك في أنكِ تتمنين التخلص منه.

- نود. قالت هانا، أعتذر، يا نهلا. إنهم لم يعلموه شيئاً من السلوك المهذب في لاهاي.

ابتسمت نهلا، وقالت:

- لا عواطف في العمل. "إنني لا أحتاج إلى الإعجاب بك، يا أرنود،" هكذا فكرت ،وإن كانت مولعة بهانا- دبلوماسية فصيحة في مئزر مُعفَّر. حالما يُباع هذا السكر، تقسم نهلا لنفسها أنها ستُقحم دمية آرنود في أي منحل بالمدينة، حتى يغطيه

النحل النهم.

قالت هانا:

- تعالي، وأشارت إليها لتجلس على المقعد المُلمَّع في مقدمة المتجر. وعاد آرنود بخطى ثقيلة إلى المؤخرة، قارعاً صوانيه.

قالت هانا بوجه مُشرق:

- تذوقي هذا المشروب الجديد من حبوب الكاكاو الذي أعمل عليه منذ فترة. وضعتُ بعضًا من سكَّرك، وقليلاً من بذور الفانيليا."

إنه لذيذ بحق. يُدفئ جسد نيلا مثل ذكرى سعيدة من الطفولة. تسألها هانا:

- هل عرفتِ؟

- ماذا؟

- لقد رفع رؤساء البلديَّة الحظر عن البسكويت المُشكَّل على صورة البشر. مع أن بسكويتنا على شكل كلب كان مشهوراً جداً، إلا أني سعيدة لأنه يمكننا العودة إلى نقش أشكال الأحبَّة من أجل أولئك الذين يحظون بالشباب والحب. إنها أخبار سعيدة لمخزونك.

طوقت نيلا بأصابعها الممتنة قدح الفخار الساخن. إنها أخبار سعيدة، ولكن ليس بما يكفي لإزاحة الكآبة الطاغية التي تشعر بها في داخلها: لا أستطيع البقاء طويلاً في الخارج. قالت وهي تفكر في أسرتها، حديثة التكوين،، لم تلتق بصفهم إلا مؤخراً.

تقول هانا وهي تنظر إليها بحذر:

- طبعاً.

تساءلت نيلا، هل تعرف يا ترى، أم إن كورنيليا أمسكت لسانها أخيراً؟ قالت:

- لكنني أشكركِ، على صداقتك وعلى التجارة معك.

قالت هانا:

- كنتُ لأفعل أي شيء من أجلها.

تخيلت نيلا هانا وكورنيليا في الميتم، أي عهود أقسمتا عليها؟ أي نذور بالدم حتى الممات؟ خفضت هانا صوتها، وتابعت: منذ زواجي، ألقت نظرة على آرنود، والمتجر يستحوذ على كل ساعة من يومي.

- لديكِ آرنود.

- تماماً، ابتسمت هانا، إنه ليس رجلاً قاسياً. ولا هو أناني. لقد طوَّعتُ فرشتي من العجين." ثم مالت إليها، وهمست: "سندفع لكِ المال الذي تحتاجين إليه. من البذور الصغيرة تنمو الزهور الكثيرة."

بحثت نيلا بعينيها داخل المطبخ:

- ولكن ماذا سيقول آرنود؟ لا يمكنني البيع بسعر منخفض.

هزت هانا كتفيها في لا مبالاة، وقالت:

- هناك سُبلٌ للإقناع. إنه مالي أيضاً. لقد جنيتُ وادَّخرت ما أمكنني قبل الزواج. كان شقيقي قد ضارب بأموالي في البورصة وما إن حققتُ ربحاً حتى طلبتُ منه التوقف. أطاعني، بعكس أحدهم." تنهد. "إن آرنود يقدِّر مواهبي، ولكن يبدو أنه نسي لمن يعود نصف رأسماله. إنه يحب دوره الجديد تاجراً في السكر. لقد منحه مكانة في نقابة الخبازين. ربما

يبصِّبونه كبيراً للعمال. يعتقدون أن جودة المنتج تعني أنه تاجر ماهر." تبتسم هانا. "وصفات جديدة، وخطط للتوسع. يريد أن يذهب لبيع الدفعة التالية من السكر في دلفت ولايدن، إضافة إلى لاهاي." تصمت هانا لحظة. "جميعها قرارات من تشجيعي.

- هل سترافقيه؟

- على أحدنا إبقاء العمل مستمراً هنا. سوف نأخذ ثلاثمائة مخروط أخرى. ونمنحكِ في المقابل ستة آلاف جلدر. ثمن مُنصف، أليس كذلك؟ إن بلورات السكر أنفع لي من الماس، يا مدام براندت.

ما الذي تشتريه هنا - سلام، أم لحظات للاستمتاع بثمرة جهدها؟ فرحت نيلا بالمبلغ الذي عرضته هانا.

تقول هانا:

- أعتقد أنه على المدى الطويل، سيعود بالنفع علينا جميعًا.

عادت نيلا من عند هانا وآرنود بخطى سريعة في اتجاه الستدهاوس. أدخلها الحارس من البوابات، وسلكت الممر ذاته، وجدت باب يوهانس مفتوحاً. وهذه المرة تدفع الحارس ثلاث جلدرات لمنحها وقتاً أطول من ربع الساعة المعتاد. الأيام المعدودة ليوهانس تزيد من ثمنه، لكن نيلا مستعدة لتقديم عشرة أضعاف ذلك إن وجب. فاحت من الحارس رائحة مميزة لماء ورد ويقطين، وبعد أن راجع النقود في يده، أشار مُغلقاً باب الزنزانة.

كان شخص ما، ربما كورنليا، قد حلق لحية يوهانس الخفيفة، الشيء الذي زاد من نحوله، وكأن جمجمته تريد البروز من رأسه. كان حريًا بي أن أحضر له قميصاً جديداً،

هكذا تفكر، وهي تتأمل زوجها في الضوء الخافت. كان القميص الذي يرتديه رثاً ومهلهلاً. ابتلعت نهلا لعابها، وهي تشد من أزرها أمام المشهد. كان يجلس على فرشة القش، مسنداً رأسه إلى الطوب الرطب، وساقاه الطويلتان ملويتان في غرابة خارج حدود ردفيه.

أدركت كم يشبه مارين، متغطرساً في استرخاء، شبه وسيم حتى في هذا الظرف. انقبض حلقها. كان في الركن براز، مغطى كيفما اتُفق بالقش. فأدارت وجهها.

تساءلت نهلا، لو أني أخبرته بكل شيء، فلن سيظنُّه يوهانس أكثر من خانه؟ تتذكر جاك وهو يصرخ في أوتو - إنه يعرف أنك فعلت شيئاً. كان يوهانس قد شكك ذات مرة في تدين مارين في أثناء تلك المشادّة في الصالون، ولاحقاً، قالت هي إنها سلبت من شقيقها شيئاً لم يكن من حقها. هل كان يوهانس يعرف، ويغض النظر؟ يبدو شيئاً لا يمكن تصديقه، ولكن ما أكثر ما لا يمكن تصديقه في شخص يوهانس. كثيراً ما كان هو ومارين يتشاجران على أوتو، وكل منهما يطالب به كالحق في الأرض، محتجاً بأنه يقدّره أو يحتاج إليه أكثر.

تستقر الفطيرتان المتبقيتان من طعام كورنليا من دون أن تُمسّا إلى جوار يوهانس. قالت:

- يجدر بك أن تأكلها وهي طازجة.

أجاب بصوت خافت:

- اجلسي معي.

كم يبدو هشّاً، وخلت عيناه من الضوء. تكاد نهلا تشعر بروحه تذوب في الهواء، إلى عدم. تريد أن تتشبث بها وتضمها في

قبضتيها، أن تمنعها من أن تفلت.

تقول وهي تجلس:

- لقد بدأتُ في بيع السكر. يساعدني حلواني.

أجاب بما يشبه الابتسامة:

- لا أعتقد أنكِ ستغيرين كل شيء بحلول الغد.

كبحت نيلا رغبتها في البكاء. يبدو أن كورنيليا قد صدقت وعدها في ألا تخبره شيئاً عن مارين، لكن كيف في وسعهما ألا تعترفان له بما حدث؟ شقيقته، أحبُ خصومه، قد ماتت. كيف من الممكن ألا يلاحظ الحزن في وجوه نسائه؟

قال يوهانس:

- مُحال أن يقبل ميرمانز رشوة الآن، على أية حال. يبدو في النهاية أن بعض الأشياء لا تُشترى. كانت مارين محقة، لا يمكن للمرء أن يساوم على المُجرَّدات. خاصة الخيانة.

تتذكر نيلا صورة ليزبيث تيمرز، وهي تُفاصل في ثمن صمتها:

- لكننا في أمستردام...

- حيث يتأرجح البندول بين الرب والجِلدر. يقول فرانس إنه يفعل هذا لإنقاذ روحي، لكن خلف ذلك شعور بالغضب لأنني لم أعجّل في بيع السكر. إنه يدافع عن سكَّره باتهامي باللواط.

- هل هذا هو السبب الوحيد، يا يوهانس، الانتقام؟

نظر إليها في العتمة، وانتظرت . فكرت، الآن سيخبرني بلا شك عن مارين ورفضها الزواج. لكن يوهانس مخلص حتى

النهاية، يقول:

- كان ذلك السكر يمثل له الكثير، وقد استهزأتُ به بعدم مبالاتي.

- لماذا فعلت ذلك؟ بسبب جاك؟

- لا، بل لأني وجدتُ مذاق جشع فرانس وآغنس في الهواء وشعرتُ بالاشمئزاز.

- لكنك تاجر، ولست فيلسوفاً.

- ليس الجشع من أساسيات التاجر الناجح، يا نيلا. إنني لا أشتهي لنفسي سوى أشياء بسيطة."

"البطاطس فقط؟

- البطاطس فقط. وأنتِ محقّة، لستُ فيلسوفاً. ما أنا إلا رجل اتُّفِقَ أنه أبحر إلى سورينام."

- قلتَ إن السكر كان لذيذاً.

أخذ يجول بعينيه بوجوم في الغرفة:

- وهكذا كوفئتُ بسخاء. السر في التجارة هو ألا تبالغي في الاهتمام، وتتأهبي دوماً للخسارة. يبدو أني اهتممتُ أقل من اللازم وأكثر من اللازم.

لاحت فكرة اقتراب أكبر خسارات يوهانس. قال:

- لقد أسأتُ تقدير الموقف. جروح قديمة. ثم يؤنبها: لم يعد مهماً. تعالي، ليس هناك ما نفعله. لقد أغرقتني كورنيليا بدموعها والآن تفعلين مثلها. كان في وسعكِ أن تحضري لي قميصًا جديدًا. يا لكِ من زوج مريعة. ضغط على يدها. "عليكِ

أن تخبري مارين أنها لا يجب أن تأتي إلى هنا."

فاض في داخلها الشعور بالخسارة. مدٌّ آسن.

قال:

- لا أرغب في أن تراني هكذا.

- يوهانس. لماذا خانك جاك؟

مرر يده عبر شعره الفضي، وقال:

- المال، حسبما أفترض، ودلالة المال. لا بد أنه كذلك، لأن أي سبب آخر سيجعلني عاجزاً عن الرد. ازدادت وطأة الصمت واستشعرت جهد يوهانس في كتمان خوفه. يقول:

- - كان عليكِ أن تسمعي شهادة آغنس. عهدتُها واهية العزم، لكني أظنها في تلك اللحظة، قد انهارت بحق.

أخذ يتحدث بوتيرة سريعة، مُنتزعاً نفسه من أكثر أفكاره ظلمة. "لقد أحبَّت آغنس فرانس دائماً، لكن مثل هذا الحب الزائد عن الحد قد يتحول إلى سم. هل كانت راضية عن تنفيذ أوامره هذه المرة، لن أعرف أبداً. إنها تؤمن بربها طبعاً، والنظام المقدس الذي يجب أن تسير به الأمور. لكن خطباً كان يحيط بها صباح الخميس. بدت مشوّشة بالكامل، وكأنما كانت تعرف تمام المعرفة أنها ترتكب خطأ، لكنها سترتكبه على أي حال. على الأرجح أنها لم تعرف نفسها قط مثلما عرفتها حينها، ولا فاجأت نفسها كما فعلت في تلك اللحظة."

ضحك، واحتوى نيلا الصوت في داخلها.

واصل:

- كانت مارين مُحقّة دائماً بشأن آغنس وفرانس. إنهما من

نوعية الأشخاص الذين يرون السكر المُسوَدّ في كل مكان."

يعلم الرب أن زوجها لم يكن دائماً أحصف من يحكم على الأشخاص، ولكن عندما يتعلق الأمر بمارين، فإن يوهانس كان يمنح شقيقته دائماً حق قدرها. إنه يملك مخزون سنوات من ذكائها ولحظات كانت فيها ألطف. ربما يكون قد شاهدها تتحول من فتاة مُشرقة إلى امرأة أقسى قد عجزت عن السير في الدرب الذي رسمه خيالها. إنه محق في حقها، ويُخيّل لنيلا وكأن كل شخصيات مارين ترافقه، مشعة في عتمة الزنزانة.

ليست نيلا كجاك. لن تكون من يُمزق الصورة التي رسمها يوهانس لشقيقته من إطارها. لن تستطيع أبداً أن تخبر يوهانس بما خسره، ولا كم كانت ضئيلةً في النهاية معرفتهم بمارين.

قالت:

- إنني أكرههم، يا يوهانس، بكل روحي.

- لا، يا نيلا، لا تهدري نفسك. أخبرتني كورنليا عن الشغل الذي أنجزته مع آرنود ماكفريد. لم أفاجأ، لكنه كان أمراً سرّني سماعه. أتصور السكر يباع هنا داخل البلاد!

- كانت مارين خير معين، قالت، وهي تتحسس مفتاح مستودعه تحت قميصها، لصق جلدها. وعندما يغلفهما الصمت، يشبكان أيديهما، وكأن لمسة الجسد ستؤخر مجيء الفجر.

حجر الطاحون

رأت نيلا مئات السفن راسية، هياكلها تمتد بطول الأرصفة الناتئة التي تملكها الفوك. فلوتة، وغاليوت، وهوكر، وذوات العارضة المربعة، مختلف الأشكال والوظائف، كلها لخدمة الجمهورية. معظم الصواري عارية، أشرعتها وحبالها مطويةً، لحمايتها من الطقس إلى أن يحين موعد طليها بالقار، ثم ربطها وشدّها عبر الخشب.

أما السفن التي تبسط أشرعتها فتبدو وكأنها زهور تتفتّح، متأهبة لتلقّف الرياح التجارية والسفر بتجارتها إلى أماكن بعيدة. تُحدث أبدان السفن صريراً، وقد تمدّدت من أثر الرطوبة المالحة الهوجاء التي تتلف حياة كل نوتي. رائحة المياه الآسنة حول حافة المرفأ، بقايا طعام لم تتمكن طيور النورس من إنهائه، أجساد أسماك نصف منقورة. تحت الضوء الآخذ في الانحسار، تُصرِّف المجاري من السفن في الماء.

إن مشهد السفن يكون مُبهراً في العادة، هياكلها الضخمة متمايلة فوق الموج، مركبات الإمبراطورية، كلاب الحرب الذين يتكفلون بالأعمال القذرة لجميع. ولكن في الأصيل المُنحسر من يوم الأحد، تنجذب أعين الجميع إلى الرجل الذي يحيط بعنقه حجر الطاحون.

إن المراسم التشريفية، سواء كانت في زفاف أم في جنازة، هي أمر مستهجن في أمستردام، فالطقوس قد تصبح فاضحة أكثر من اللازم، وكاثوليكية أكثر من اللازم، ولا بد من تجنبها. لكن الرجل الثري الذي ينتظر حكم الإعدام غرقاً

هو أمر مختلف، عصارة الفضيلة، الرمزية التي يمكن اجتثاثها من الكتاب المقدس. كان جمهور من الناس قد احتشد طبعاً، يصطفون بطول اللسان البحري، عدد كبير من موظفي الفوك، قباطنة بحر وكتبة. هناك القس بيليكورني، السخاوت سلابارت، وحتى آغنس ميرمانز، وحيدة وهي ترتدي طوقها الفرو في غير هندمة. زوجها ليس معها. وهناك عدد كبير من رجال النقابة، ونواب حكم من الستدهاوس، وزوجاتهم، وقساوسة آخرون، والرجال الثلاثة المُتجهمون الذين يشكِّلون حرس يوهانس.

وقفت نيلا خلف الحشد المُحاذي للرصيف. تمر عينا بيليكورني القاسيتين عليها، متظاهراً بأنه لا يراها. كان حاملو النعش قد جاءوا ليلة البارحة لوضع مارين في تابوت وحملها معهم، والآن تنتظر مارين في سرداب الكنيسة القديمة استعداداً لآخر قداس تحضره.

عاد بيليكورني إلى موضوع اليوم. تفكر نيلا، أي أمجاد داخلية لا بد أنه يشعر بها الآن. هنا تحقق الإرادة الدموية للقانون والكنيسة، ويبدو هو راضياً رضاً مُقززاً.

كانت نيلا قد وعدت يوهانس أنها ستكون هنا عصر اليوم، ويا له من وعد قوي لم يكن عليها أن تفي به أبداً. ليلة أمس، كانا قد جلسا في ظلام زنزانته لمدة ساعة، يداهما متشابكتان في صمت، والحارس لا يتدخل. تلك الساعة الهادئة كانت ذات طبيعة لن تشعر بها نيلا مرة أخرى. سوف تلقَّبها في المستقبل، بليلة زفافها، اتحاد حيث لا حاجة للكلمات. لقد تخلَّيا عن الجدال، عن السلطة المضللة، وفي مكانيهما حلَّت لغة أعمق وأثرى.

لحظة الرحيل، وقفت نيلا عند باب زنزانته، وابتسم فبدا في غاية الشباب، وشعرت هي بغاية العَجز، وكأن الصمت قد نقل لها بطريقة ما كل حزنه، سيتعين عليها حمله فيما يوهانس يحلق، خاليًا، وحرًّا.

في المنزل، كانت كورنيليا قد خُدِّرت بشَرْبة مُنوِّمة ثقيلة، أعدّتها بسهولة مرعبة ليزبيث تميرز، التي حضرت عند شروق الشمس لإرضاع تيًا وقررت البقاء، قالت:

- قد تكون الحاجة لي أكبر اليوم. تقابلت أعينهما. أومأت نيلا بصمت، كانت ليزبيث الآن في المنزل، تنتظر عودتها في المطبخ.

تشعر نيلا بالأرض تميد من تحتها فتقف مُباعدة بين قدميها أملاً في بعض الثبات. تهبّ الرياح العاصفة لكانون الثاني عبر معطفها، حادة كمخلب قطة. كانت ترتدي غطاء رأس، وتنورة بنية بسيطة تخص كورنيليا. جاءت مُتنكِّرة حتى تطيق هذه المحنة، وكأن التخفي في ملبس قد يحميها من الحقيقة.

كان يوهانس أيضاً يرتدي زياً. كانوا قد ألبسوه حلة من ساتان فضي على غير مقاسه، وريشة مُبهرجة في قبعته لم يكن يوهانس ليرتديها قط، إشارة مقصودة تقول إن المرء هو ما يرتديه. تلمح نيلا لقطات منه عبر أكتاف الحشود، قميص برّاق كدرع خلال ألوان من الأشهب والأسود. اتكأت فجأة على المرأة التي إلى جوارها، فجفلت المرأة من اللمسة واستدارت.

قالت وقد رأت الرعب على وجه نيلا:

- لا بأس، يا حبيبتي. لا تنظري إن كان الأمر يفوق احتمالك.

كاد لطفها يشطر نيلا. كيف لأناس طيبين أن يأتوا ويشاهدوا هذا؟!

وضع سلابارت يده على كتف يوهانس، ومنذ تلك اللحظة، كفت نيلا عن النظر. تستمع فقط، مغلقة عينيها، والرياح تصفع وجهها، والأشرعة تتلاطم مثل غسيل مبلول. سمعت وقع حجر الطاحون يجره الجلادان. كان يوهانس، متصلاً بنهايته، سيكون الآن موشكاً على السقوط من على حافة اللسان. أصدر الحجر الذي يزن نصف طن صريراً ممتداً يسري تحت جلد نيلا إلى نخاعها.

عندما شهق الحشد، شعرت بالتدفق الساخن للبول يجري على ساقيها المكسوتين بالجوارب، والصوف يتشربه مهيجاً جلدها. إنه يقول شيئاً. تخيلته يجيل عينيه بحثاً عنها، عن مارين، عن كورنيليا. تسرّ لنفسها، اجعله يراني. اجعله يفكر أنني أصلي من أجله.

لكن الرياح بددت كلمات يوهانس الأخيرة، ولم تسمع منها شيئاً. همست، يوهانس. تُصغي سمعها، ولكن من حولها تنتشر تمتمات بليدة، صلوات وجمل عقيمة. إنه أضعف من أن يجعل صوته يعلو، وفي الوقت الذي تخفت فيه التمتمات، يكون حجر الطاحون قد ألقي به من حافة اللسان. ومعه يوهانس. إنه يضرب سطح البحر الهائج ويغوص تحته.

فتحت عينيها، علت موجة غليظة، ثم ابتلعت ذروتها على هيئة دائرة بيضاء، واختفت في ثوان.

لا أحد يتحرك.

قال رجل أخيراً:

- كان واحداً من أفضل تجارنا. كم نحن حمقى.

انطلقت الزفرات من الحشود، وشعورهم تخفق فوق جباههم. قال أحدهم:

- لا جسد لدفنه. لن يعيدوا استخراج جثته.

انصرفت نيلا. هي حيَّة، وليست حيَّة. إنها في الماء في الأسفل مع يوهانس. وإذ تتكئ على الجدار، ورأسها إلى أسفل، يلذر جسدها بدفع جوفه إلى الخارج. كم من الوقت سيستغرقه البحر المليء رتتبه؟ فكرت، كن سريعاً. كن حراً.

ثم شعرت بشيء يحز مؤخرة عنقها، وركبتاها ترغبان في التزلج. ترفع نيلا رأسها، وتطوف بعينيها فوق الحشود بحثاً عن لمحة من شعر أشقر. تفكر نيلا، إنها ما تزال هنا في وسعي أن أشعر بذلك. نظرت عبر وجوه الناس، بحثاً عن تلك النظرة التقويميَّة الهادئة، لحظة تقول فيها صانعة الدُّمى وداعاً.

لكنها ليست صانعة الدُّمى من تقف في المسار الذي تنظر إليه.

لقد ازداد نحافة، ويرتدي الملابس نفسها التي رحل بها، مُتشحاً بالمعطف الديباج الفاخر. لثانية مجنونة، خيِّل لنيلا أن زوجها قد خرج من الماء، أن ملاكًا أعاده إلى الحياة. ولكن لا، إنه هو بلا شك. رفعت نيلا يدها، ويرفع أوتو، فاغراً فاه، راحة يده. خمسة أصابع مُرتجفة، نجمة ساطعة وسط الظلام.

الجزء الخامس

المساء نفسه، الأحد، ١٢ كانون الثاني، ١٦٨٧م

هَلُمَّ نَرْتَوِ وُدًّا إِلَى الصَّبَاحِ. نَتَلَذَّذُ بِالْحُبِّ.

لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ. ذَهَبَ فِي طَرِيقٍ بَعِيدَةٍ. أَخَذَ صُرَّةَ الْفِضَّةِ بِيَدِهِ. يَوْمَ الْهِلاَلِ يَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ.

سفر الأمثال ٧: ١٨-٢٠

أدركت أنه في صدمة مما شهده، لأنها اضطرت إلى سحبه من ذراعه، وأقدامهما تعثر على البلاطات.

قالت:

- تعال إلى المنزل، تعال إلى المنزل.

كان العذاب يطحن، وأنفاسها متقطع من شدة الألم. كان الضوء قد تضاءل الآن، والغسق يلفهما. حاولت تبديد صورة نافورة الماء، وصوت يوهانس والبحر يسحبه. تسرع الخطى خشية أن يشلها الحزن، أن تنهار متكوّمة في شارع القناة ولا تنهض أبداً.

استدار أوتو نحوها، مذهولاً، وهو يحكم حوله معطف يوهانس. يتوقف مشيراً إلى الخلف في اتجاه الميناء.

- مدام، ما الذي حدث هنا؟

- لا أستطيع. لا أعرف ماذا أقول، يا أوتو. لقد رحل.

هزّ رأسه، مذهولاً:

- لم أكن أعرف أنه اعتُقل. ظننتُ الذهاب إلى لندن سوف يحميكم جميعاً، يا مدام. لم أكن قط...

- تعال.

حينما بلغا الهيرِهراخت، غمر مشهدُ المنزل أوتو. أمسك بمطرقة الباب التي على شكل دلفين مثل دعامة تمنعه من الانهيار، ووجهه معركة بين العذاب والتمالك. وما يوشك على

اكتشافه خلف الباب يتفتّح مثل زهرة خبيثة في جسد نيلا، إذ يبدو مستحيلاً أن بشراً قد يصمد أمام هذا الألم المُضاعف. سارت مُتعثرة خلف أوتو في هذا الاستقبال الذي هو الأسوأ من نوعه، لكن الهدوء الداخلي للمكان لا يوحي بفقدان مارين.

- من هنا. بتقدمه نحو الصالون، حيث كانت ليزبيث تيمرز قد أشعلت ناراً في المدفأة، فشعرت بدفء لم يشعر به أحد منهم منذ أسابيع، وفي ألسنة اللهب الراقصة بهجة لا تناسب الجو. شعرت نيلا بدمها يشرق. خلف اللهب، تنثني شظايا البيوتر في الخناءة مهذبة، وتتفلق ألواح من الخشب المُبرقش وتطقطق.

وقفت ليزبث في منتصف الغرفة، ضامّة تيا بإحكام إلى صدرها، ورمقت أوتو الذي يحدق في الطفلة. وتسأل:

- من يكون؟

استدارت نيلا إليه، وهي تتساءل، هل تراه قادراً على تقديم نفسه؟ هل يدور في خلده السؤال نفسه عن ليزبيث تيمرز. وكن هو في حلم، مدّ أوتو يديه نحو الطفلة طالباً حملها. وانتبهت نيلا أنها رأته يقوم بهذه الإيماءة من قبل، عندما مدّ يديه في أول يوم لها هنا، مُقدِّماً لها زوج قباقيب لحماية من البرد.

تنكمش ليزبيث خوفاً.

قالت نيلا:

- ليزبيث، إن هذا أوتو. سلميه الطفلة من فضلك.

كانت حدود سلطتها ملموسة حتى أن ليزبيث أطاعت فوراً. وتمتمت المُرضعة: "رفقاً بها." يحتضن أوتو تيا إلى صدره وكأنها الحياة نفسها – وكأن قلبها النابض الصغير سيمد قلبه بالحياة. حتى ليزبيث تلتزم الصمت، وهي تراقب تعارفاً غريباً جداً

وسط كل هذه الخسارة، غريباً جداً، وطبيعياً جداً أيضاً.

تمتمت نيلا: ليزبيث، اذهبي وأيقظي كورنيليا.

***

وحالما ينفردان، تعلم نيلا أنها يجب أن تتحدث. تقول:

- اسمها تِيَا. أوتو. ثمة ما ينبغي أن أخبرك به.

لا يبدو أن أوتو يصغي، مفتونًا بوجه تِيَا، مُستغرقاً في انعكاسه الصغير.

- أوتو...

قاطعها:

- قالت مدام مارين إنه سيكون صبيًا.

تحار نيلا كيف تستجيب. يبدو التحدث مستحيلاً. في النهاية تقول:

- كنتَ تعلم إذن؟

يومئ، وبينما يتحرك وجهه أمام ضوء النار، رأت نيلا دموعه، كان يكافح بدوره بحثاً عن الكلمات، أي كلمات قد تعبر عن جزء من الحمل الذي يبدو أنه يُثقل كاهله. يشير فجأة إلى الأرضية غير المُلَمّعة، وكراسي خشب الورد التي يكسوها التراب، ويقول:

- إنها ليست هنا. وكأن هذه الجمادات هي دليل جامع على الفقد.

قالت نيلا:

- لا. إنها ليست هنا. ابتلعت لعابها، وهي تشعر بالدموع

تقترب، وتخشى أن يكون البكاء تعدّياً على حزنه: أنا آسفة، يا أوتو.

- مدام. قالها أوتو، بصوت أجشّ، حتى ليكسر الكلمة البسيطة إلى نصفين. رفعت عينيها واستقبل نظرتها المنكوبة، وتابع القول: لقد أنقذتِ الطفلة. كانت مُستعدة للتضحية بحياتها حتى تتمكن هذه المخلوقة الصغيرة من النجاة.

قالت نهلا:

- ولكن، لماذا كان عليها ذلك؟ دموعها تنهمر الآن، وتعجز عن كبحها، وعندما تحاول فإنها تنهمر أسرع، وأكثر غزارة، مُغشية بصرها: لقد تدهورت حالتها سريعاً. أنا ،نحن لم نتمكن من إعادتها إلى الحياة. لقد حاولنا، يا أوتو، لكننا لم نكن نعرف...

- فهمت، لكنها ترى الألم على وجهه، شعرت نهلا بساقيها تتهدّلان فاستعانت بكرسي. وظل هو واقفاً يحدق في قمة رأس تِيا. ويقول: "لم أرها قط بتصميم مثل تصميمها عندما أخبرتني أنها حُبلى. كنتُ واثقاً أنها نهاية العالم. سألتها: 'كيف ستكون حياة هذا الطفل؟'

- وبم أجابت؟

ضم أوتو تِيَا إليه أكثر. قالت، 'ستكون حياته كما يصنع منها،'
"

- آه، يا مارين.

- كنتُ أعرف أن رحيلي قد يجنبكم الكثير من المشكلات. ولكن كان لا بدَّ لي أن أعود. كان لا بدَّ لي أن أرى.

تحوم حقيقة وجود تِيا -الفعل الذي أدى إلى خلقها- تحوم في الهواء، الحياة والموت يداً بيد. تفكر، ربما هو سر سيبقيه أوتو دائماً طي الكتمان. ويعلم الرب أن كورنليا ستساعده، متظاهرة أنه لم يحدث قط، وكأن تِيا جاءت من حبل بلا دنس، أو نبتت من شجرة. ربما يخبرنا يوماً ما كيف بدأت حكايته مع مارين، ولماذا ؟وهل رأى كل منهما الحب قوة أم انغماساً؟ وهل منح كل منهما الآخر قلبه مطمئناً من دون قيد، أم مثقلاً بمرور الوقت؟

تِيا، خريطة نفسها - سوف ترى نصف معالم وجه أبيها مرسومة في وجهها وتتساءل، أين أمي؟ تفكر نيلا، سوف أعطيها الدمية. سأريها تينكَ العينين الرماديتين، ذينكَ المعصمين النحيفين، حتى الصدريةَ المبطنة بالفراء. لا مزيد من الأسرار، هكذا قلت. لذا سأريها ذلك التكوُّر المرئي، هدية صانعة الدمى وقد أعلنت. كنتِ هناك، يا تِيا. لقد رأت بترونيلا فتدبريك قدومكِ المرتقب، وعرفت أنه أمر جيد. حتى أنها أرسلت لكِ مهداً. كانت تروي قصتكِ قبل أن تولدي، لكنكِ الآن من يتعين عليها إكمالها.

***

كانت ليزبيث قد أحضرت كورنليا من فراشها، وقفت وهي ماتزال ثملة من أثر الناردين، في مدخل الصالون، وعلى وجهها علامة استفهام، وذهوله ينهل من الجواب المقابل لعينيها. وتهمس: "إنه أنت."

أجاب أوتو بتوتر:

- إنه أنا. كنتُ في لندن، يا كورنليا. نعتني الإنجليز بالأسود وطفل الحمل. كنتُ أقيم في إيمرلاد باروت. كنت سأكتب

لكِ وأخبركِ، أنا...

تعثرت الكلمات فوق الكلمات، وتصدى أوتو لموجة الحزن قبل أن تتكسر على رأس صديقته القديمة.

سارت كورنيليا مُترنِّحة نحوه، تلمس مرفقيه وكتفيه، ما تزال يداه تحملان تيًا. لمست وجهه، أي شيء يثبت أنه حقيقي، وصفعت مؤخرة رأسه في غضب محب، وهي تقول: "كفى، كفى،" وراحت تضمه وتتنفس وجوده.

تركتهما نيلا في الصالون وهي ما تزال في معطفها، وعبرت الأرضية الرخام إلى الباب الأمامي، الذي كان قد تُرك مُوارباً في غمرة الحدث. فتحته على مصراعيه ووقفت على العتبة، والهواء البارد يلفح خديها. كانت أجراس مساء الأحد قد انطلقت على سطوح أمستردام، وتصاعد صليل الكأس المتناغم. تخبُّ دانه لتحية سيدتها الصغيرة، مادّة رأسها لتربِّت عليه. فسألت نيلا الكلبة: "هل أطعموكِ، يا جميلتي؟" وهي تفرك الفراء الحرير في أذنيها الجميلتين.

وإذ تعلن الأجراس بداية الليل، ترى نيلا الهلال الأبيض الصغير، مثل ظفر امرأة مُتقوّسًا في السماء التي يخلفها الظلام. مرت كورنيليا عبر البهو، بمئزر مربوط، ورأسها صوب مطبخها، ونادت:

- الجو بارد، يا مدام، ادخلي.

لكن نيلا ظلت تحدق في امتداد القناة المتجمدة، بطول حافتيها، حيث يمتد الآن خط من الجليد الذائب، كانت خطوط من الماء الداكن تنسلُّ من الأطراف الشترية للهيرِنغراخت، ويبدو لعينيها مثل دانتيل ممزّق، مثل كسوة مهد

عملاق.

أسقطت كورنيليا مقلاة في المطبخ. ومن الصالون يأتي صوتٌ يحاول تهدئة تيَا التي انطلقت في البكاء، و حلق صوتا ليزبيث وأوتو فوق البلاط. مدت نيلا يدها في جيب معطفها لإخراج دمية المنزل التي أخذتها من الكالفرسترات، لكنه لم يعد هناك. هذا مستحيل، هكذا تفكر وهي تنبش القماش. الرضيعة موجودة - وكذلك دمية آرنود. هل سقط مني إذن، وأنا أركض في شوارع المدينة؟ هل نسيته في الورشة؟ تقول لنفسها، لقد رأيته. كان حقيقيًا.

حقيقيًا أم لا، فهو لم يعد في حوزة نيلا، لكن الأشخاص الخمسة الذين وضعتهم صانعة الدمى في داخله ما يزالون في هذا المنزل. الأرملة الشابة، المُرضعة، أوتو وتيَا، كورنيليا، هل سيأتي يوم ويعرفون الأسرار التي يخبئها كل منهم في حياته؟ جميعهم خيوط فالتة - ولكن، هكذا كان الحال دائمًا. نحن نكوِّن جدارية عامرة بالأمل، لا أحد سينسجها سوانا.

كان الغسق قد صار ليلاً، وهبّت رائحة جوزة طيب، جسد دانه الصغير يُدفئ ساقي نيلا. السماء بحر فسيح يتدفق بين السطوح، إنه أكبر من أن ترى العين المجردة كيف بدأ، أو أين نهايته. يأخذ عمقه، اللامتناهي بالنسبة إلى نيلا، في صبها بعيدًا عن المنزل.

نادتها كورنيليا:

- مدام؟

تستدير، مُستنشقة رائحة التوابل. وبعد أن تختلس نظرة أخيرة إلى الهواء في الأعالي، تدخل نيلا إلى المنزل.

معجم ألفاظ هولندية
خاصة بالقرن السابع عشر

بفيندبير Bewindhebber – مُساهم في شركة الهند الشرقية الهولندية. ويملك في الغالب حصة كبيرة من رأس المال.

بورس Bourse – شُيِّدت أول بورصة بضائع بين عامي ١٦٠٩م و١٦١١م، على ناحية من قناة روكين. وتألف البناء من فناء مستطيل تحيط به أروقة يُقام فيها التداول.

دوندربس Donderbus – ويعني حرفياً «أنبوب الرعد»، وهو طور مبكر من أطوار البندقية.

خيبورت Gebuurte – اتحاد سكَّاني، يتولى بصورة تعاونية أمور النظام والسلامة والهدوء العام، ومساعدة الجيران في المصائب، والوساطة في النزاعات المنزلية، ومد العون في حالات الموت و في أثناء الدفن.

جِلدر (Gulden) – Guilder عملة فضية سُكَّت لأول مرة في عام ١٦٨٠م، وقيمتها ٢٠ ستايفر أو ١٦٠ داوت. صدرت الفئات النقدية الأكبر في صورة عملة ورقية.

هيربرود Herenbrood – ويعني حرفياً «خبز السادة» ويأكله الأثرياء. مصنوع من دقيق القمح، المُنقَّى والمطحون، نقيضاً لخبز الشيلم الأرخص.

فارنار Warenar – الأحمق الحقيقي للشاعر هوفت – ملهاة تراجيدية كُتبت عام ١٦١٧م حول الوسطية والطمع والهوس. بطلها فارنار البخيل وله ابنة، اسمها كلارتشيا،

تحمل من دون زواج من خاطب لا يرضى عنه فارنار. كانت أمستردام قد صارت في القرن السابع عشر، مركزًا دولياً لتجارة الكتب، ولم تخضع الكتب للرقابة الحكومية. كانت الكتب التي تُحظر في بلدان أخرى تُنشر في أمستردام.

هوتسبوت Hutspot – يخنة قوامها اللحم والخضروات، تُطبخ في قدر واحد.

كانديل Kandeel – كودل في الإنجليزية، وهو شراب حرّيف من الخمر، يُضاف إليه أحياناً لوز مطحون ونشا قمح وفواكه مجففة، وعسل وسكر وصفار بيض.

أولي كوكي Olie-koecken – الدوناتس في طور مبكر. دقيق قمح مع زبيب ولوز وزنجبيل وقرفة وقرنفل وتفاح، يُقلى في الزيت ويغلف بالسكر.

باتنس Pattens – حذاء يشبه القبقاب ينتعله الناس داخل المنزل وخارجه لحماية الحذاء الرقيق من الأوساخ.

بوفرت Puffert – فطيرة محلاة مُتخمِّرة تُقلى في الزيت.

سخيبين Schepenen – لو أن السخاوت هو العمدة أو ضابط الأمن في المنطقة، فإن سخيبين هو مجلس محلي. وعند اضطلاعه بالقضايا، يُشار إليه باسم الشخيبينبانك. والذي كانت إحدى مهماته هي إصدار الأحكام على المجرمين، وبذلك يؤدي وظيفة هيئة المحلفين أو المجلس المحلي. وعليه، فإن سخيبين غالباً ما تُترجم في الإنجليزية إلى «عمدة» في هذا السياق التاريخي الهولندي.

سخاوت Schout – هي المُقابل الهولندي لكلمة عمدة أو مأمور. وهو من يشرف على الإجراءات القانونية للقضايا في

الستدهاوس، مثله مثل رئيس القضاة.

سبينهاوس Spinhuis – سجن النساء في أمستردام، وتأسس عام ١٥٩٧م. وتكلَّف فيه السجينات بأعمال الغزل والخياطة.

ستدهاوس Stadhuis – مجلس المدينة، وحالياً القصر الملكي في ساحة دام. كانت الشهادات والمداولات في القضايا تُجرى في السخاوت كامر، أما السجن وغرفة التعذيب فكانا في القبو. يُنطق الحكم بالإعدام في القبو، ويقوم بذلك السخاوت، أمام المتهم وفي حضور راعي الأبرشية. يمكن لأي نظارة أن يستمعوا إلى النطق بالحكم، واقفين في مساحة محدودة بالطابق الأرضي، مُطلّين على هذه الحجرة. كان قبو ستدهاوس يحوي أيضاً بنك صرافة أمستردام، الذي يحوي في خزائنه جميع أنواع القطع النقدية والذهب الخام وقوالب الفضة. كان البنك يقيد حسابات المودعين بما يساوي مقتنياتهم بالجِلدر. كما أجرى عمليات تحويل الأموال من حساب عميل إلى حساب آخر.

فيركيرشپيل Verkeerspel – نسخة هولندية قديمة من لعبة الطاولة، صُوِّرت كثيراً في اللوحات المرسومة لتذكير الناس بعدم الرضا عن ذواتهم. والكلمة تعني «لعبة التغيير».

مقارنات بين الرواتب في نهاية القرن السابع عشر بأمستردام

في الربع الأخير من القرن السابع عشر، كان ٠.٠١٪ من أثرياء أمستردام يمتلكون ٤٢٪ تقريباً من إجمالي ثروات المدينة.

كان الأمين العام على خزينة الجمهورية (وهو أعلى منصب في الحكومة) يحصل على راتب قدره ٦٠ ألف جِلدر سنوياً في عام ١٦٩٩م.

وكان تاجر ثري مثل يوهانس يجني ما متوسطه ٤٠ ألف جِلدر في السنة، إلى جانب أملاكه التي شكَّلت شريحة منفصلة وكبيرة من ثروته - وقد اشتُهر عن كبار التجار أنهم أورثوا تركات تصل إلى ٣٥٠ ألف جِلدر.

السخاوت أو المأمور في أمستردام (منصب رفيع في الحكومة) قد يجني ٩٠٠٠ جِلدر في السنة.

الجراح قد يجني حوالي ٨٥٠ جِلدراً في السنة.

الحرفي المتوسط أو الماهر (إسكافي، شمّاع، خباز) قد يجني ٦٥٠ جِلدراً في السنة. (كان دخل أرنود وهانا عاليا، لكنهما دمجا دخليهما وحالفهما الحظ في البورصة.)

العامل العادي قد يجني حوالي ٣٠٠ جِلدر في السنة، أو ٢٢ ستايفر في اليوم.

عينة من المصاريف المنزلية لثري أمستردامي في أواخر القرن السابع عشر

قميص رجالي - جلدر واحد

مديونية صيدلية - جلدران و١٠ ستايفر

تنورة نسائية بسيطة - جلدران

معاش أرملة من نقابة زوجها - ٣ جلدرات في الأسبوع

لوحة لمنظر صغير من الطبيعة أو الكتاب المقدس - ٤ جلدرات

ثوب منزلي - ١٠ جلدرات

مديونية طبيب جراح - ١٥ جلدراً

لوحة لمعركة بحرية في إطار مذهّب - ٢٠ جلدراً

دولاب مفارش مقبول - ٢٠ جلدراً

مديونية إسكافي - ٢٣ جلدراً

لوحة لمشهد صيد منسوب إلى إيطاليا على طراز لوحات كايب - ٣٥ جلدراً

معطف وصدرية - ٥٠ جلدراً

دولاب مفارش من خشب الجوز الفاخر - ٦٠ جلدراً

فستان من قماش الدِّمَقس - ٩٥ جلدراً

مديونية خياط - ١١٠ جلدر

حصان وزلاجة - ١٢٠ جلدراً

مائة رطل من الكركند - ١٢٠ جلدراً

الالتحاق بواحدة من النقابات المقصورة على فئات معينة (مثل صاغة الفضة والذهب والرسامين وتجار النبيذ) - ٤٠٠ جلدر

اثنا عشر صحنا من الفضة - ٨٠٠ جلدر

منزل لتاجر على نطاق صغير وعائلته - ٩٠٠ جلدر

منسوجات جدارية لغرفة في منزل على قناة الهيرغراخت - ٩٠٠ جلدر

قلادة من الماس - ٢٠٠٠ جلدر

منزل مصغر بحجم خزانة، مؤثث بسبعمائة قطعة على مدار سنوات - ٣٠٠٠٠ جلدر.

شكراً

إلى أوائل القراء: جيك أرنوت، ولورنا بيكيت، وماهاليا بيلو، وبيب كارتر، وآنا ديفيس، وإميلي دي باير، وبولي فيندلاي، وإد غريفيث، وأنطونيا هانويل، وسوزان كولكارني، وهيلي أوجدن، وصوفي سكوت، وتيسل سكوت وقارئات مجموعة بيج تورنرز. شكرا لأنكم لم تقولوا إنها كانت هراء وعلى ملاحظاتكم الطيبة والمفيدة والمبتكرة دائماً. إن حظي في الأصدقاء يشير إلى أني سأعود في الحياة القادمة في جسد بعوضة.

إلى الحسناوات الثلاث بأقلام وعلامات تعجب: محررتي في المملكة المتحدة، فرانشيسكا ماين، والتي مزجت التعليقات والملاحظات الخارقة باللطف والرهافة - ومحررتاي في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، لي بودرو وجنيفر لامبرت، واللتين ساعدت فطنتهما وحماستها على أن تخرجا هذا الكتاب في ألمع صورة ممكنة. أشكركن جزيل الشكر، للاممكن، لإيمانكن بكلينا أنا وصانعة الدُّمى.

وفي دار نشر بيكادور، شكر عظيم لساندرا تايلور، وجودي موليش، وسارا لويد على كل جهودكن وروحكن الطريفة، وبول باجالي على دعمه الرعوي، ونيكولاس بليك على نظرتك الشاملة. وأشكر أيضاً لاين لينمان آندرسن، ومارتن أندرسن، وكاتي توك، وفريق التصميم في بيكادور، وديف هوبكينز، الذين وضعوا تصميم غلاف رائع لنسخة المملكة المتحدة، يكمله منزل مصغر حقيقي. وشكر عميق أيضاً لجريج فيليبيك وريان ويلارد في هاربر إيكو.

إلى مارجا دي بور في دار لايتنج سايتهوف، لملاحظاتها الممتازة عن بنية أمستردام التحتية، وحياة بترونيلا أورتمان

الحقيقية وزوجها يوهانس، وللتفاصيل القانونية والمدنية في أواخر القرن السابع عشر في هولندا. أي خروج عن الدقة والحقائق يعود لي وحدي، وسيرة حياة نِلا هي كاملة من وحي الخيال.

وعلى الاستشارة الطبية: أشكر جيسيكا كاتلر، وبراسانا باراناه، وفيكتوريا سكوت. وأعيد أن أي تفاوتات هي ذنب خيالي المفرط النشاط وحده.

وإلى صاحب العينين الثاقبتين: جيل برادلي.

إلى إدوارد بيرنس وبيني فريمان، اللذين بلطفهما سمحا لي بعزل نفسي في منزليهما، حيث لا إنترنت - بل وقت وسلام وهدوء، ونبيذ.

لساشا راسكين، على تولّيها صانعة الدُّمى في الولايات المتحدة. وأيضاً:

إلى وكيلتي، جولييت موشنز: الناصحة، والنصيرة، والنجمة، والصديقة. لتحويل هذه التجربة إلى شيء ممتع وغاية في الروعة - أنتِ وكيلة استثنائية وإنسانة مذهلة.

إلى ليندا وإدوارد، والمعروفين أيضاً بماما وبابا. لأنهما قرآ لي في طفولتي، واصطحباني إلى المكتبة وابتاعا لي الكتب. لأنهما قالا لي: «لماذا لا تكتبين قصة؟» عندما شعرتُ بالملل وأنا في السادسة، وأنا في الثانية عشرة، وأنا في السابعة والعشرين. ولأنهما كانا دائماً، دائماً إلى جواري.

إلى مارجوت، لأنها لم تزد عن كونها كرة صغيرة من الفراء تدوس على لوحة مفاتيحي.

وإلى بيب. أحار كيف أبدأ. شكراً لك، على سبع سنوات من الحب والصداقة والتفكير والمرح والدهشة. أنت غير عادي، روحي الجالبة للحظ.

(١) في الأساطير الإغريقية الرومانية، هي وحوش مجنحة خبيثة نصفها امرأة والنصف الآخر طائر. وكانت الهاربيات سيئة السمعة بسبب شرهها ورائحتها البغيضة.وقد أرسلتها الآلهة عقاباً لمضايقة فينوس الأعمى، فتى وضعت وجبة أمامه، هبطوا من الجو وحملوها. (ويكيبيديا)

(٢) مفردة لاتينية تشير إلى كبيرة اللواط في ذلك الوقت.